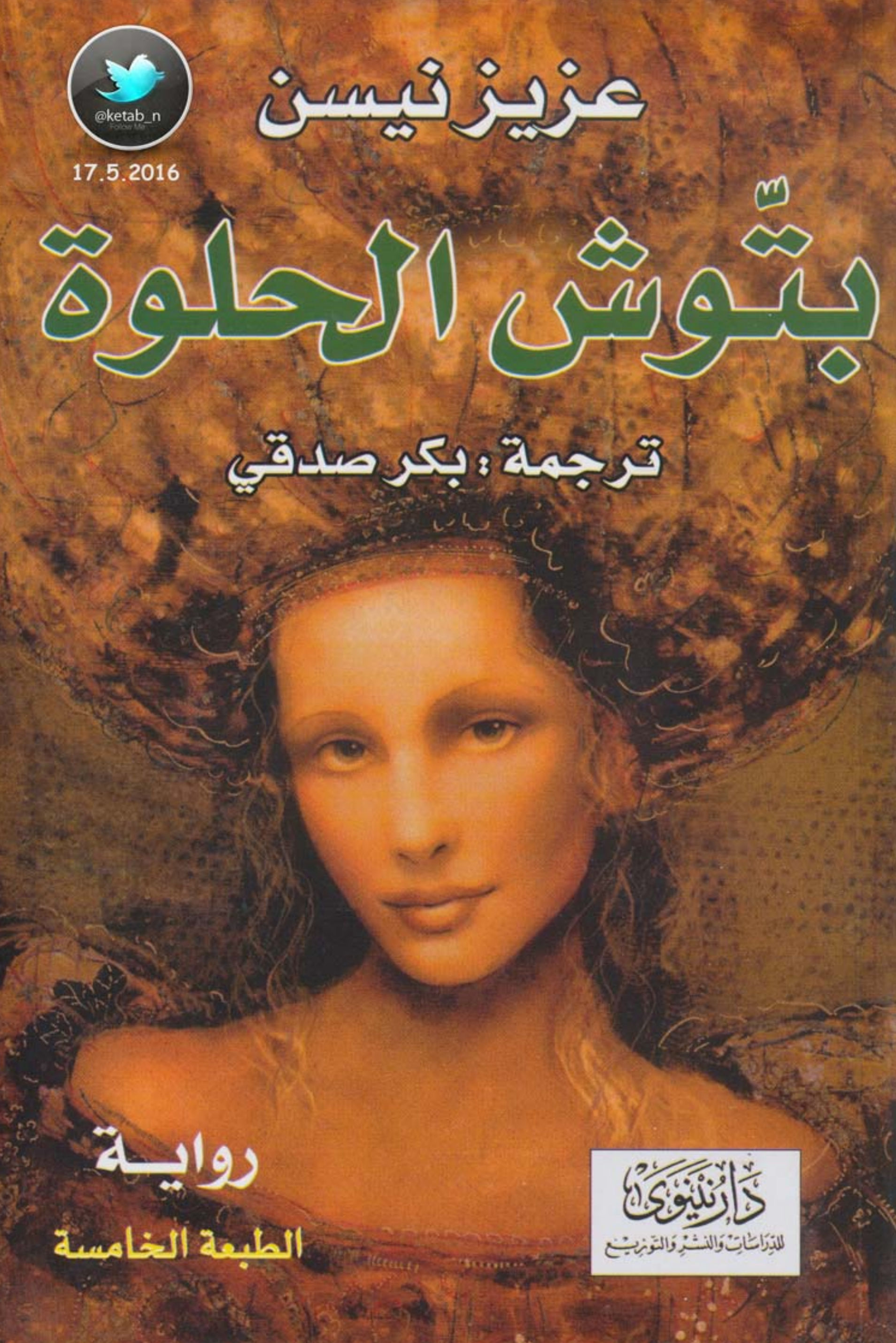

@ketab_n
17.5.2016

عزيز نيسن

بتّوش الحلوة

ترجمة : بكر صدقي

رواية

الطبعة الخامسة

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

عزيز نيسين

بُتوش الحلوة

رواية

ترجمة: بكر صدقي

Twitter: @ketab_n

اسم الكتاب: بتّوش الحلوة

اسم الكاتب: عزيز نيسن

اسم المترجم: بكر صدقي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى - 2001

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص.ب 7917 تلفاكس: 5136526

لا يجوز نقل، أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأيـة وسـيلة كانت، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

طبع هذا الكتاب بموافقة مديرية الرقابة بوزارة الإعلام

رقم الموافقة: تاريخ

الإشراف الفني وتصميم الغلاف: دار نينوى

Twitter: @ketab_n

إشارة:

- نُشِرَتْ هذه الرواية للمرة الأولى عام 1958 على حلقات في جريدة «الصحيفة الجديدة» تحت عنوان «مدام عملة صعبة».

- ثم نُشِرَت مرتين أخريين في مجلتَيْ (Tef) و (Akbaba) تحت عنوان: «البحث عن ريشة».

- أخيراً نشرتْ عام 1973، في صيغتها النهائية بعد إجراء تعديلات في كتاب على حدة، إثر الانتهاء من نشرها في مجلة (Baris) تحت العنوان الجديد والنهائي: بتوش الحلوة.

Twitter: @ketab_n

إعلان عن مفقودة

نبحث عن قريبة لنا اسمها (وردة) انقطعَتْ أخبارها منذ ما ينوف عن أربعين عاماً حين تبنتها أسرة موظف في المنطقة وهي في سن الخامسة أو السادسة. نرجو باسم الإنسانية ممن يعرفها أو يعرف عنها شيئاً، حيةً أم ميتة، أن يخبرنا في العنوان المذكور أدناه. وسوف نكافئ من يدلنا على مكان إقامتها أو يشهد على وفاتها إن كانت ميتة، مكافأة مالية مُجزية.

باسم أقرباء المفقودة في قرية (بالقاج) ـ منطقة (...) ـ ولاية إزمير.
عنهم: أحد أبناء أخوة المفقودة محمود يارلي.

السيدة عملة صعبة: من مصادر دخلنا القومي

من الذي دلك علي؟ فاروق بيك من نادي القمة؟ رئيس النادي؟ نعم... إذن أنت تبحث عن السيدة بتول... أعرفها، أعرفها، وكيف لا! لكن لم أرها منذ سنوات طويلة. منذ وقت طويل انقطعتُ عن ارتياد النادي ... ألم تسأل جماعة النادي؟ هكذا إذن... أين هي الآن يا ترى؟ أتقول أنها عمة أبيك؟ أخت جدك يعني؟ ولم ترَها في حياتك؟ ولا أبوك رآها... والله لا أعرف ماذا أقول لك؟ ... حسناً، سأحكي لك كل ما أعرفه عنها... نعم، كانوا يلقبونها بـ«الراحة» ... «بتول الراحة»... و«بتوش الحلوة». أما نحن جماعة الجمارك فقد لقبناها بـ «السيدة عملة صعبة».

ذكّرتني بالأيام الخوالي.. وأنا أيضاً سمعتُ بزواجها من رجل يدعى «مجدي بيك السرسق»، وسمعتُ أيضاً بقصة ذاك القصر. إلا أنني لا أعرف عن ذلك العهد شيئاً. تعرفتُ عليها بعد ذلك بكثير. أما عن لقبها «العملة

Twitter: @ketab_n

الصعبة» فلسنا نحن من خلعه عليها. بل الأميركيون والفرنسيون كانوا يطلقون عليها مس عملة صعبة، مدام عملة صعبة...

طبعاً.. لها شهرة دولية. إن كانت في تركيا سوف تعرف طريقها حتماً.

تعرفتُ إليها يا سيّدي عندما كنتُ رئيس التفتيش في جمارك إستانبول. كانت الصحافة تشن هجمة عنيفة على الجمارك آنذاك.. وكيف لي أن أنسى.

لنعد إلى موضوعنا.. إلى السيدة "عملة صعبة". ذات يوم جاءتنا وشاية عن وجود كميات كبيرة من البضائع المهرّبة على متن باخرة تركية قادمة من إحدى الدول الأوربية المطلة على البحر الأسود والمواطن الذي قام بالوشاية كان معنا ينتظر قبض مكافأته. ونحن رجال الجمارك، عندما لا نصل لإتفاق مع المهربين، كنا نضطر آسفين لمصادرة البضائع المهربة.

قبل وصول الباخرة إلى الميناء بدقائق وصلت سيارة رسمية ذات لوحة حمراء، وقفت أمام مبنى الجمارك. سبق أن اتصلوا بالمدير... لا أعرف من الذي اتصل، لأن ذلك سرٌ من أسرار الدولة العليا... طلبَنا المدير العام وقال لنا: «أخبروا السيدة بتول الموجودة بين ركاب الباخرة بأن السيارة الرسمية تنتظرها!» تلقينا التعليمات وبعد قليل وصلَتْ الباخرة. ممنوع نزول الركاب حتى ينتهي التفتيش. في ذلك الوقت تعرفت على السيدة بتول. قريبتك.. عمتك، أليس كذلك؟ يشهد الله، أن امرأة مثلها لا تأتي العالم مرةً كل أربعين سنة... أنزلنا السيدة بتول وأوصلناها إلى السيارة الرسمية التي كانت بانتظارها. إن ارتداء معطف من الفراء في عز الصيف يمنح المرأة تميّزاً خاصاً، ويُظهر بوضوح أنها عائدة من رحلة إلى أوربا.

عندما استقلت السيارة خلعت معطفَيْ الفراء اللذين ترتديهما أحدهما فوق الآخر للتهرت من الضرائب، وحشـرَتْ حقائبها داخل السيارة و في الباكاج. قالت لنا: "حافظوا لي على ما تبقى من أغراضي عندكم. وسأرسل من يأخذها فيما بعد.". بعد أن ودّعنا السيدة بتول وفقاً للأصول، صعدنا الباخرة وبدأنا التفتيش. نعم إنها العادة.. كل سفينة عائدة من رحلة

Twitter: @ketab_n

خارجية تكون محملة بالبضائع المهربة.. ومن صلب مهماتنا مصادرة بعض هذه البضائع إن اقتضى الأمر بين الحين والآخر. لكنني، طوال حياتي المهنية المديدة لم أصادف سفينة محملة بكل هذه الكمية من المهرّبات.. شيئ لا يُصَدّق! إن قبّعة الحاوي التي يخرج منها الحمام والأرانب تبدو تافهة بالمقارنة مع ما ضبطناه يومذاك، إن علبةً صغيرة كانت تحتوي من البضائع المهربة ما يمكن أن تملأ به محلاً لبيع التحف.. ما حاز على إعجابي وتقديري بصورة خاصة هو ترتيب البضائع وتصنيفها الدقيقين وفق الأنواع والماركات... إلى درجة أن أحد زملائي لم يتمالك نفسه عن القول: «حتى في مستودعات الجمارك عندنا لا يوجد هكذا ترتيب دقيق للبضائع المصادَرَة».. ومن المؤكد أن وراء هذا أصبع من الجمارك.. لأن وضع البضائع في المخابئ يطابق لوائح التخزين الجمركية حرفياً. فقط خطأ واحد تم إرتكابه: فوفقاً للوائح لا يجوز وضع المواد المتفجرة في أماكن حارة. والحال أنهم خبّؤوا الطلقات المهربة قرب موقد الباخرة.. وهذا خطأ لا يجوز الوقوع فيه إطلاقاً. فيما عدا ذلك كان كل شيء على ما يرام.. القداحات، الساعات، العطور والملابس الداخلية النسائية وُضِعَتْ جميعاً بشكل منفصل وفي الأمكنة الملائمة تماماً.

علَّقَ أحد الزملاء قائلاً: «إن لم نوظّف عندنا في المخازن مهرباً كهذا فسوف نضيع ذات يوم بسبب الفوضى التي تسود عنابرنا».

موظف آخر مد ذراعه داخل فتحة في إحدى القمرات وراح يُخرج أعداداً هائلة من النهود الإصطناعية والشعر المستعار وحمالات الصدر..

بقي على هذه الحال دون أن ينتهي من إخراج كل محتويات المخبأ.. امتلأت القَمَرة، امتلأ الصالون وحمالات الصدر ما زالت تخرج من المخبأ... واعجبي! أتوجد مادة السوتيان في هذه الفتحة أم أن فوق الباخرة مصنعاً للملابس الداخلية؟

بلغت الدهشة بالقبطان حداً عظيماً عندما رأى كل ما عثرنا عليه.

قال:

Twitter: @ketab_n

- مستحيل أن توجد كل هذه البضائع على هذه الباخرة. لأن باخرتنا مخصصة للركاب فقط. ولا يمكن حتى للسفن العملاقة أن تحمل كل هذا الوزن. من أين أخرجتم كل هذه الأشياء؟

- من مؤخرة السفينة، قلتُ له، العنبر الخلفي مليء بالمهربات..

وقال القبطان الثاني:

- لا تفتشوا أكثر من هذا. لأنكم ستخرجون بضائع مهربة كلما استمر تفتيشكم وهذه الباخرة لا تحتمل أكثر من هذا.. إذا استمر التفتيش فإن الباخرة ستغرق حيث هي.. ونحن لا نتحمل مسؤولية ذلك.

كيف أنسى وقد كتبت جرائد تلك الأيام عن الحادثة تقول: «بقدر ما التحري عن كيف ومن قبل من تم إخفاء كل تلك البضائع، صار موضوع بحث، فهو أيضاً موضوع فضول جارف».. إني أتذكر هذا جيداً.

من السهل العثور على البضائع المهرّبة، إلا أنه من المستحيل ضبط أصحابها. لا طاقم السفينة ولا ركابها يعترفون بملكية تلك البضائع.

لن أطيل عليك... عفواً، ما هو اسم جنابك؟ محمود؟... نعم يا بنيّ، يا سيد محمود.. في ذلك اليوم تعرَّفْتُ على السيدة بتول. فيما بعد، عرفنا أن القسم الأكبر من البضائع التي عثرنا عليها في تلك الباخرة والتي لم يعترف أحد بملكيتها، يعود إلى السيدة بتول. وبلا أي نقصان سلمناها أغراضها تلك.

بعد ذلك التقيت بها كثيراً وهي عائدة من رحلاتها الأوروبية. إلا أنها فيما بعد، ولسبب ما حُرِمَت الدعم السياسي الذي كانت تتمتع به. ولم تعد السيارة الرسمية تأتي لاستقبالها. ليس هذا فحسب، بل جاءتنا أوامر مشددة من فوق تطلب منا تفتيشها بلا أية مراعاة. ونحن عبيد مأمورون، ما الذي يمكننا فعله غير تنفيذ الأوامر؟ لا أدري إن كان سبب ذلك أن الإشاعات كثرت، أم أن الصحافة دخلت على الخط، أم أن من كان يدعمها فقد موقعه.. إن الأمور عندنا هي دائماً هكذا.. لا يتحقق الإستقرار

Twitter: @ketab_n

أبداً. مرة تأتي التعليمات تطالبنا بعدم تفتيش فلان من المسافرين، ثم تـأتي تعليمات معاكسة تطالبنا بالتشدد في تفتيش المسافر نفسه. إن هذا أمر ضار. البلد بحاجة إلى إستقرار. وينبغي أن يعرف موظفـو الجمـارك مـن يتوجـب عليهم تفتيشه، ومن لا يجوز تفتيشه. هكذا تقل الأخطاء.

وذات مرة، كانت السيدة بتول عائدة من رحلة جديدة إلى أوروبـا. وقـد جاءتنا أوامر مشددة بتفتيشها تفتيشـاً دقيقـاً. حـاولَتْ الإعـتراض، وعندمـا أدركت جدية الموقف أظهرت إستغرابها الشديد.

– أتغيّرت الحكومة يا ترى؟ ما الذي يحدث؟ لو تغيّرتْ الحكومة كنتُ سمعت..

– لم تتغير الحكومة، قلنا لها.

– هل تغيّر الوزير إذن؟

– لا يا سيدتي..

– ما الذي يجري إذن؟ هل تغيّر الوضع أم انقلب النظام؟

في الواقع كانت السيدة بتول على حق.

– فقط تغيّر الموقف.. سنفتش..، قلتُ لها.

وفتشـناها يـا سـيدي. في غرفـة خاصـة فتشَـتْها موظفـة وأخرجـت مـن حضنها ـ اعذرني يا سيدي، أخجل من ذكر مخابئها ـ مجوهرات وأدوات زينه نسائية تكفي لملء محل مجوهرات. كان من الواضح أن السـيدة بتـول تعرف بتغـيّر المواقـف، ممـا دفعهـا لإخفـاء مهرباتهـا في تلـك الأمـاكن. في المرات السابقة كانت تحمل أشياءها علناً. كلما أخرجت الموظفة من مخابئ جسدها مهربات جديدة كانت السيدة بتول تشهق تعجباً، وتقول:

– واعجبي! هذه الأشياء ليست لي... يا إلهي! أيُّ سافلٍ عديم الحيـاء حشر هذه الأغراض هنا وهناك من جسدي؟

طوال حيـاتي لم أصـادف إمـرأة بذكائهـا يـا بـنيّ محمـود. يقولـون إن الجميلات يتصفن بالغباء، وهذا صحيح لكن السـيدة بتـول كـانت اسـتثناء لهذه القاعدة.

Twitter: @ketab_n

ظلت فترة طويلة تقوم برحلاتها البحرية إلى أوروبا. ولَكَم أتذكر جيداً تلك المرة التي أمسكوا معها مهربات كثيرة جداً، فصرخت تقول:

– هذه الأغراض ليست لي. ربما تكون مساعدات إنسانية أرسلتها لنا أمريكا. وعندما رد عليها المفتش: ـ هل يمكن للمساعدات أن تأتي سراً؟ أجابته:

– إن المساعدات الحقيقية ينبغي أن تُمنَح سراً. ينبغي ألا يُعرف فاعل الخير. من الأرجح أن أحد أصدقائنا الأجانب، وقد رأى الضائقة الإقتصادية التي تمر بها بلادنا، دس هذه الأغراض بين حقائبنا، حتى لا يجرح كبرياء تركيا.

إن كنت ترغب بسماع رأيي يا بنيّ محمود، أقول لك أن السيدة بتول كانت مواطنة مفيدة جداً لوطنها، لكنهم لم يقدّروها حق قدرها للأسف الشديد. لو أن ثلاث نساء من طرازها يسافرن إلى أوروبا في كل رحلة خارجية، ويجلبن من البضائع بقدر ما تجلبه هي لكان البلد في نهوض جبار. ثلاثة مثلها لا أكثر. فكر فقط يا سيدي. هذه المرأة المسكينة تسافر إلى أوروبا وحدها دون أن تأخذ معها عشرة قروش. وفي عودتها تجلب بضائع بمئات الآلاف من الليرات. ما الذي نطلبه منها بعد؟ ألسنا نبذل ماء وجهنا منذ سنوات للحصول على قروض، هبات، مساعدات، أموال، أو أي شيء من الأمريكيين؟ إن بتول هذه، بمفردها، توازي كل المساعدات الأمريكية التي ننتظرها. لكننا بدلاً من أن نرجوها ونتوسل إليها كي تذهب إلى أمريكا وأوروبا، نقيم العراقيل في طريقها.. نحن لا نقدّر ثرواتنا حق قدرها.. مهما حكيتُ لك فلن أنتهي من كل المصاعب التي نصبناها في وجهها. ففي إحدى المرات ـ لا أنسى ذلك أبداً ـ قالت عن البضائع التي عثرنا عليها معها:

– ولا واحد من هذه الأشياء لي. على الأرجح أنها أشياء منسية على ظهر السفينة. تعرفون كم أصبح الناس ذاهلين في الآونة الأخيرة. إنهم ينسون أشياءهم في مكانٍ ما. ثمة أناس ينسون طقم أسنانهم الإصطناعية في

Twitter: @ketab_n

الأتوبيس. هذه السفينة الضخمة، تقل الركاب منذ سنوات.. وهذه أشياء نسيها الركاب على مدى هذه السنوات. لا أفهم ما الغريب في هذا!

قائد السفينة: ـ غير ممكن. لأن السفينة جديدة وهذه هي رحلتها الرابعة. وعلى كل حال، حتى لو قامت بأربعمئة رحلة بدلاً من أربعة، فمن المستحيل أن تجتمع كل هذه الأشياء من المنسية.

وقبل كل رحلة لبتول إلى أوروبا كنا نتثبت من الممتلكات التي تخرجها معها ذهاباً، كانت ترتدي ملابس في منتهى البساطة، ثم يتغيّر كل شيء وهي عائدة. وفي إحدى المرات، وهي عائدة، راجع المفتش سجل ممتلكاتها أثناء المغادرة وقال لها:

– إن كل هذه الأشياء لم تكن معك وأنت ذاهبة يا سيدتي. كان معكِ فقط خمس مئة ليرة. من أين اشتريت كل هذا؟

لأول مرة رأيتها غاضبة. بيديها الإثنتين فتحت ياقة معطفها ثم ياقة سترتها، أظهرَتْ صدرَها العاري وصرخت في وجه المفتش:

– لقد كسبتُ. عندك مانع؟... أليس المال مالي؟

دفعَتْ الرسوم الجمركية وأخذَتْ أغراضها.

ما أريد قوله يا ابني يا محمود، هو أن عمتك كانت إمرأة دوليّة. كانت مصدراً للعملة الصعبة في بلادنا. إلا أننا لم نعرف قدرها وقيمتها. زميل من جمارك دولة مجاورة قال لي عنها ذات مرة: «لو أن هذه المرأة مواطنة في بلدنا لحملناها فوق راحاتنا، ولأعطيناها راتباً بمقدار خمسين ألف ليرة مقابل الخدمات التي تؤديها عندكم».

ما هو أكبر مصادر العملة الصعبة عندنا اليوم؟ أليس عمالنا الذين يرحلون للعمل في أوروبا وأوستراليا وغيرها؟ رزق الله على أيام زمان.. بينما كان أجدادنا يطرقعون بحوافر خيولهم ويلوّحون بسيوفهم في القارات الثلاث، نرى أحفادهم اليوم يطرقعون بالمطارق ويلوّحون بمكانس الشوارع في نفس البلدان.. أكثر من مليونَيْ عامل يتشحشطون في الغربة ليؤمّنوا

Twitter: @ketab_n

العملة الصعبة للبلاد.. فقط مثتَيْ بتول قادرات على إدخال عملة صعبة أكثر من مليوني عامل..

أأقول لك شيئاً؟ قضيتُ سنوات طويلة في الجمارك وأنا غير مقتنع بضرورة وجودها.. يكفي أن تكون لديك بتول ـ بتولان ـ عشرة، ولترسلهن إلى أوروبا... إلى أمريكا... ورأسمالهن منهن وفيهنّ.

لن توظف فلساً واحداً. سوف يكسبن ويجلبن الاموال إلى الوطن. وفوق ذلك، كانت في منتهى الكرم كلما أمسكنا معها بضائع مهربة. إن عملنا لا يطعم خبزاً، يا سيدي، إن اعتمد المرء على الراتب وحده... وعندما توجد أمثال السيدة بتول، فلا حاجة بي حتى إلى الراتب... أليس كذلك يا سيدي؟ إن شهرةً دولية كهذه لا تتكون بسهولة.. وعندنا بطبيعة الحال نقص مريع في رجال الأعمال.

آهٍ يا سيدي، آه.. إنها عمتُكَ إذن؟ لا أعرف أين هي الآن. مضى وقت طويل لم ألتق بها خلاله. أتمنى لك التوفيق لقد أحسنتْ إلى كثيرين. حوّلَتْ كثيرين إلى أثرياء. أتذكر جيداً، ذات مرة فتحت محل مجوهرات لرجل أحبّتْهُ من البضائع التي جلبتها من أوروبا. وفتحَتْ لرجل آخر مخزنٍ معاطف فراء... وماذا! أيضاً وأيضاً... إلا أن أحداً لم يخلصٌ لها. عندما كانوا بحاجة إليها كانوا يغازلونها بكلماتهم المعسولة، وما إن أخذوا منها ما يريدون حتى أداروا لها ظهورهم... وليس من المعقول، على كل حال أن تجد موارد رزق مضمونة لكل الرجال العاطلين عن العمل في استانبول...

انتظر لحظة، ماذا كان اسمه؟ هه! تذكرت. نعم، نعم. إن آخر رجل ساعدته ففتحت له محل ألبسة كان يدعى «معمّر الكلاركجي». فقط مرتين ذهبت إلى أوروبا وعادت، فتحت له محلاً وصنعت منه رجلاً. نعم، هكذا كانت عمتك. ويا لرأسي الفارغ! لقد قالت لي ذات مرة ـ ولكن أرجوك ليبق الكلام بيننا ـ «لِمَ تفني عمرك في عنابر الجمارك؟ لِمَ لا تمارس مهنة حرة؟»

Twitter: @ketab_n

فأجبتُها: «ليس لدي رأس مال». ضحكت وقالت: «أنا موجودة. ومستعدة لمساعدتك!».. ولكن رأسي هذا رأس الحمار..

وماذا أيضاً؟ لا أعرف شيئاً آخر... هذا كل ما لدي.. يفضّل أن تبحث عن «معمّر الكلاركجي» ذاك.. من المحقق أنه يعرف مكانها.. لعلهما يقيمان سويةً حتى الآن.. وما أدراني.. قديماً كنت أتردد بين الحين والآخر على نادي القمّة فأراها هناك.. لكنني بعد إحالتي على التقاعد لم أذهب إلى النادي.. لقد تقدم بي العمر.. قه قه قه!.. أأنت ذاهب؟ العفو.. مع السلامه.. إن عثرتَ عليها بَلّغها تحياتي. فقد أحسنَتْ إليّ كثيراً. ذكرها بي.. يا لها من إمرأة! يا لها من إمرأة! مع السلامه يا ابني يا محمود..

خبَر في جريدة

«الورثة لا يستطعيون الحصول على الميراث بسبب إختفاء وريثة».

«الأسرة تبحث عن إمرأة من العائلة ورثت عشرين مليوناً».

أزمير- (وكالات): أكثر من خمسة عشر وريثاً هبطت عليهم ثروة مفاجئة قيمتها عشرين مليون، يبحثون في كل أنحاء تركيا عن قريبة لهم اسمها (وردة). في حوالي الخمسين من عمرها، حتى يُسمَح لهم بنيل حصصهم. منذ أربعين أو خمسة وأربعين عاماً تبنت الفتاة أسرة موظف في مركز المنطقة. ومن وقتها انقطعت أخبارها. خمسة عشر شخصاً من عائلة (وردة)، هم الباقون على قيد الحياة، ابتسم لهم القدر وورثوا ما ينوف عن عشرين مليون ليرة. إلا أنهم لن ينالوا هذه الثروة إلا إذا وجدوا (وردة) وحصلوا على توقيعها. وبهذا الهدف اجتمع الورثة وقرروا ضرورة العثور على قريبتهم لتنال حصتها وتتيح لأقربائها أن ينالوا حصصهم أيضاً ولذلك نشروا الإعلانات في مختلف الصحف. ولم يصلوا إلى أية نتيجة حتى اليوم.

توزع الورثة الخمسة عشر في كل أرجاء البلاد للبحث عنها. وقد صرّح أحد أقرباء (وردة) المدعو محمود يارلي ـ وهو طالب جامعي ـ بما يلي:

Twitter: @ketab_n

«صحيح أنهم يقولون أن الميراث يساوي عشرين مليوناً، إلا أنني أعتقد أنه يفوق هذا الرقم بكثير. وفي خبر وصلنا مؤخراً أن الثروة موضوع البحث تقدر لا بعشرين مليون ليرة تركية، بل بعشرين مليون دولار، أي ما يعادل ثلاث مئة مليون ليرة تركية. إلا أننا يجب أن نعثر على عمتي وردة، حتى نتمكن من الحصول على نصيبنا في هذا الميراث. والأرجح أن عمتي المسكينة تعيش حياة ملؤها البؤس وهي لا تعرف أنها وريثة العشرين مليون».

فتاح باشا وقصر مجدي بيك السرسق

فهمت. أنت تسأل عن السيدة بتول أرملة المرحوم مجدي بيك السرسق. والله يا بنيّ، لم أر السيدة بتول قط بعد بيع قصر الباشا. من الصعب أن تصل إليها وأنت تسأل عنها باسم «بتول». عليك أن تسأل عن «بَتُوش الحلوة». في تلك الأيام كانوا يسمّونها في المجتمع الراقي: «بتول الراحة» أو «بتوش الحلوة». والسبب أن أكثر من سيدة من سيدات المجتمع الراقي كانت باسم بتول. كانوا يميّزون زوجة مجدي بيك السرسق بهذه الألقاب. ولماذا «الراحة»؟ إن نوع النساء الذي يسمونه الآن قنبلة جنسية – sex bomb، ذلك النوع المثير، اللدن، الشهي ... هو النوع الذي كانت السيدة بتول تنتمي إليه.

أصدقاء مجدي بيك الأجانب، وخصوصاً الأمريكان كانوا يسمونها – Turkish delight – أي الراحة التركية ... ومن هنا جاء لقبها ذاك – ليَسْت لدي معلومات كثيرة عن هذا الموضوع ... إني أعرف السيدة بتول فقط من خلال زوجها المرحوم مجدي بيك. كان صديقي. لا أعرف أين يمكن لك أن تعثر عليها. هي قريبتك إذن؟ والله لا أدري كيف لي أن أساعدك. ولا أتذكر أحداً يعرف لها عنواناً. وأنا، منذ سنوات لم ألتق بها. أتريد عنها معلومات؟ أنا لا أعرف غير زواجها من مجدي والحال أن هذا الزواج بالكاد استمر ستة أشهر، حين مات مجدي المسكين... طيب سأحكي لك يا بني.. ولكن كيف أحكي وهي قريبتك؟ ... ليكن؟ إذن ليكن سأحكي لك...

Twitter: @ketab_n

كان عند سلطان من سلاطيننا، ولا أعرف بدقة أياً منهم، ولنقل السلطان فلان الثاني، كان لديه أمين سر يدعى فتاح باشا يقوم فعلياً بكل وظائف الدولة. هو الذي وثّق صلات السلطان بإيطاليا ومهد لقيام علاقات سياسية وتجارية قوية بين البلدين. وقد كتب الإيطاليون في صحفهم آنذاك، يقولون: «إن كنا بشراً حقاً، علينا مكافأة الباشا على أفضاله». وهكذا أرسل ملك إيطاليا لفتاح باشا أعلى وسام في المملكة. وخلال مراسم تقليد الوسام سأل السفير الإيطالي خفيةً، فتاح باشا، إن كان يرضى بقبول عمولة عشرة في المئة مقابل ما قدمه من خدمات من اجل تمتين الصلات بين البلدين. وفتاح باشا المعتز جداً بشرفه، أجاب السفير يقول: «يبدو أنكم خلطتم بيني وبين ناظر الخارجية» وأفهمه، خفية أنه لن يتنازل إطلاقاً للقبول بالعشرة في المئة. وفي يومٍ آخر، خلال حفلة في قصر الباشا، أراد السفير الدخول في مساومة، فأرسل فتاح باشا من يقول له خفيةً: «لا أريد أية مساومة. لقد دفع الألمان أربعين في المئة، ومع ذلك فضلتكم أنتم. أهذه هي مكافأتي؟ متأسف. إن كلماتٍ كهذه تجرح كرامتي ووطنيتي. لا أستطيع قبول هذه الإهانات الفظيعة!...».

هذه المرة صرخ فتاح باشا وهو يقول: «لا أستطيع هضم هذا!» وكانوا جالسين إلى مائدة الطعام. عندما سمع رئيس الخدم الكلمات الأخيرة، ظن أن الباشا يعاني من عسر في الهضم، فهرع من فوره، وجاءَهُ بزجاجة كربونات كما اعتاد دوماً أن يفعل في الظروف المشابهة. أفرغ فتاح باشا الكربونات في راحته ثم شربها مع كوب من الماء، وراح يتجشأ ويعتذر:

- اعذرني يا إكسلانس. هذا ما يحدث لي عندما أغضب. ما إن يُجرح شعوري القومي ويغلي دمي، حتى تغلي معدتي بدورها... أنتم الشباب لا تعرفون هذه الجوانب من تاريخنا، وا أسفاه يا سيد محمود. نعم كان لدينا في تلك الأزمان باشوات جليلون وجَلِدون. عاصرتُ أواخرهم. ما معنى أن يقال كلامٌ كهذا للسفير الإيطالي نفسه! في تلك السهرة، وفتاح باشا يُغرق السفير الإيطالي بالإهانات، كان بصحبة هذا الاخير خبيرٌ بشؤون الشرق.

Twitter: @ketab_n

أدرك الخبير فوراً ما يرمي إليه فتاح باشا، فانحنى على السفير وهمس في أذنه. ابتسم السفير وقال للمترجم: «اسأله على أيِّ أرض من عقاراته علينا أن نبني له قصراً، مع بقاء عمولة العشرة في المئة؟» دلّهم فتاح باشا على قطعة الأرض التي بني عليها قصر حفيده مجدي بيك قائلاً: «تلك الأرض تناسبني». فيما بعد قام الإيطاليون بتحرياتهم فاكتشفوا أن تلك الأرض ليست للباشا... بالطبع اضطروا لشراء الأرض ثم بنوا القصر فوقه... أترى يا بنيّ؟ أترى حذاقة سياسيّينا أيام زمان؟ هذا ما يستحق أن يسمى سياسة. هل الباشا أحمق حتى يدلهم على قطعةٍ من عقاراته؟ والأنكى من ذلك أن قطعة الأرض تلك كانت لزوجته الثانية. قصارى القول يا سيدي أن فتاح باشا يبيع أرض زوجته للطليان، ثم يستعيدها بلا مقابل وفوقها قصر. رجال أيام زمان كانوا غير شكل. آه لو أننا نملك بضعة رجال من أمثاله اليوم. صحيح أن هناك عدداً منهم حتى الآن، لكن الأقدمين كانوا غير شكل. رجال اليوم ليسوا جديرين حتى بسكب الماء على أيدي رجال الأمس.

أعرف أعرف.. أنت تريد معلومات عن السيدة بتول ترشدك إليها. ومن أجل ذلك تراني أروي لك قصة هذا القصر. لأنه لعب دوراً بارزاً في زواج المرحوم مجدي بيك السرسق وبتول الراحة، مثلما لعب دوراً في وفاة مجدي بيك أيضاً.

لنختصر يا سيدي. إذن فقد اشترى الإيطاليون الأرض من زوجة فتاح باشا، بنوا عليها القصر وسلموا مفاتيحه الذهبية للباشا.

هل رأيت ذاك القصر؟ إذن لم تره؟... عليك أن تراه من كل بد. وعلى كل حال ستضطر للذهاب إلى هناك لتبحث عما يمكن أن يرشدك إلى عمتك. القصر مبني فوق أرض فسيحة قرب الشاطئ، ولا يحاذيه تماماً. هو قصرٌ مهيب، جُلِبَتْ كل مواده من إيطاليا، حتى بلاطات مراحيضه ورخامه ومراياه. وبما أننا لم نكن ننتج وقتها الآجّر الإفرنجي، فقد جلبوا حتى آجر السقف من هناك. تغطي جدران القصر وسقفه دهانات زيتية

Twitter: @ketab_n

ورسوم ونقوش قام بها رسامون جاؤوا خصيصاً من إيطاليا لهذا الغَرَض. ولأن مجدي السرسق، تغمده الله برحمته الواسعة، صديق من أصدقاء طفولتي، فأنا أعرف القصر جيداً... يالها من أيام.. قضيت ردحاً من عمري في هذا القصر. نعم ... صحيح أن وجهاء هذه الأيام يبنون بنايات أشبه بالقصور ومحلات تجارية، إلا أنهم يدفعون أموالهم في مقابل ذلك. أما كبار تلك الأيام فلم يكونوا يدفعون قرشاً من جيوبهم ـ ولا من الاموال العامة ـ بلعبة سياسية صغيرة كانوا ينالون القصور من الأجانب .. فلينـاموا في قبور من نور... حتى بلاط مراحيض القصر من الرخام الإيطالي الخالص. الرخام الملون.. صدّقني يا بنيّ. كان المرء يتردد ليفعل ذلك في تلك المراحيض حتى أن فتاح باشا، بعد وقت طويل بعد أن فسدَتْ العلاقات بيننا وبين إيطاليا، صار يهرع إلى المرحاض كلما ركبه الغضب ويفشّ خلقه جيداً هناك وهو يصرخ «.... على هكذا صداقة وعلى هكذا إتفاقيات...». أنا لم أعاصره، لكنهم يذكرون عنه كل خير.. تغمّدَهُ الله برحمته...

نعم، إني أحكي لك.. اضطررت لهذا الإسترسال حتى أصل إلى السيدة بتول. لأن للقصر دوراً هاماً في القصة.. إن صاحبي مجدي السرسق هو حفيد فتاح باشا. ولأن والده كان شخصاً مسطحاً وبلا ملامح فلا أحد يذكره. بل ينسبون الحفيد إلى الجد مباشرةً. كان مجدي الوريث الوحيد لفتاح باشا، وهذا سبب تعاسة الحفيد في حياته. لأنه لم يجد وقتاً للعمل ولو ساعة واحدة لشدة إنشغاله بتبذير ثروة جده. كان يقول لي متشكياً: «إن ما يدمر حياتي هو ما فعله بي ذاك المدعو جدي.. الثروة التي تركها لي لا تنتهي أبداً كي أفرغ منها وأقوم بعمل ما أكسب به خبزي من عرق جبيني..» كان المسكين في غاية التعاسة. ظل طفلاً على الدوام لأنه لم يعمل بعشرة قروش طوال حياته. وكان أكثر ما ينغص عليه، خوفه الشديد من أن يموت قبل أن يتمكن من تبديد كل ثروة جده. وقد بذل كل الجهود للوصول إلى تلك الغاية. كان يأكل ويشرب ويُطعم ويسقي ويبذر أمواله يميناً وشمالاً، إلا أن الثروة لا تعرف النضوب. رأيتُ بعينيّ هاتين يا بنيّ. كان

Twitter: @ketab_n

ثمة كتاب ضخم سميك كتب عليه بأحرف الذهب: «المزارع المسجلة باسم مجدي بيك حفيد أمين سر السلطان، فتاح باشا».

ليست مزرعة، بل مزارع.. كان في هذا السجل تحديداً لمواقع وحدود أكثر من أربعين مزرعة.. كل واحدة من تلك المزارع قسمَتْ فيما بعد إلى أكثر من خمس عشرة مزرعة. هذا غير الخانات والبنايات والحمّامات والدكاكين... كان يملك جُزُر بنايات كلٌ منها يتألف من أكثر من عشر بنايات.. حتى لو باعها فإنها لن تنتهي.. حتى لو وقفت في مزادٍ علني ورحت تبيع ممتلكات مجدي بيك قطعةً قطعة، فإن عمرك لن يكفي لإنجاز ذلك.. ولَكَمْ عانى المسكين. كان يتشكّى لي قائلاً: «إن متُّ وتركتُ شيئاً من بعدي، فلن أرتاح في قبري».

ذات ليلة راح يرقص من الفرح وهو يصرخ: «أووه! أخيراً لم يبقَ لدي قرشٌ واحد. الحمد لله.!». إلا أن أحد محاميه يأتيه في صباح اليوم التالي ليقول: «أبشر يا مجدي بيك. لقد اكتشفتُ لك مزرعتين أخريين. يدفعون فيهما ستمئة ألف ليرة. هل نبيع؟». كنت شاهداً على أكثر من موقف مثل هذا. كان يصرخ في محاميه قائلاً: «أأنت محامٍ أم مكتشف مزارع؟ من أين تجد لي هذه المزارع والخانات والبنايات؟ يكفي يا!.. ما لك تقف جامداً هكذا.. بعهما فوراً وخلصني منهما...». إلا أن المسكين لم يكن يخلص. كلما اعتقد أنه لم يعُد يملك شيئاً، كان يأتيه أحد المحامين «مكتشفاً» خمسة بنايات أوستة، أو عدداً من المزارع. حتى لو رفض مجدي، فإن المحامين مضطرون دوماً لحصر ممتلكاته. ولأنهم، فضلاً عن ذلك يكسبون نسبة مئوية من كل صفقة بيع.

أتعرف كيف كان يأكل أمواله؟ لن تصدق إن حكيتُ لك. كان حوله دائماً فريق من المتملقين المحترقين، بالإضافة إلى الهواة الذين يظهرون ويختفون. كانوا يرافقونه في كل ليلة إلى مكان لهو جديد، يتنقلون من ملهى إلى ملهى ومن مرقص إلى فندق. رزق الله على تلك الأيام.. لو أن للكاباريهات ألسنةً فتحكي عن ليالينا.. ومجدي السرسق يبعزق المال.. وما

Twitter: @ketab_n

إن يشبع الجميع أكلاً وشرباً وينتصف الليل حتى نخرج ترافقنا الأوركسترا، نستقل ست ـ سبع سيارات.. وأحياناً يصل العدد إلى عشر سيارات.. والفرقة الموسيقية في مقدمة طابور السيارات تستمر في عزفها ونحن نجتاز شارع «بيُوغلو» ببطء.. في تلك الأيام لم تكن ثمة أزمة مرور وزحمة سيارات مثل أيامنا هذه.. كنا ننتقل بعد ذلك إلى فندق آخر. وعند مغادرتنا كانت الفرقة الموسيقية للفندق تخرج معنا أيضاً، فتصبح قافلة سياراتنا بين فرقتين موسيقيتين إحداهما في المقدمة والأخرى في المؤخرة. وفي إحدى المرات وصل الجنون بمجدي بيك أن حمّل البيانو مع عازفه فوق عربة كارّو، وراح العازف العجوز الشهير ألكسييف يعزف طوال الطريق كانت نزهتنا هذه تستمر حتى نصل إلى الضواحي.. ومع انبلاج الفجر كان مجدي بيك يراقص الغجريات في «سولوكوله» وهو يصرخ: «لتنعم روحك في الجنة يا جدي العزيز فتاح باشا!» ثم نذهب إلى حمام سوق فنأخذه على حسابنا، أعني على حساب مجدي بيك.. حيث نغفو فوق البلاطات العتيقة الرطبة..

يا ولدي.. ما الذي يحدث للمرء، إذا بذّر نقوده هكذا ولم يتمكن من إنهائها؟ من المؤكد أنه يجن... نعم يجن..

الكلام يجر بعضه. كان للمرحوم كلبٌ يحبه حباً جماً. وذات يوم مات الكلب. من شدة حزنه على الكلب فقد أعلن الحداد ليلةً على روحه ودفع لكل كاباريهات وملاهي «بيوغلو» وحتى لبيوت الدعارة أرباح ليلة واحدة وطلب منهم أن يغلقوا حداداً على كلبه. ولأن مجدي بيك زبون يكسبون الذهب من ورائه فقد اضطروا لتنفيذ طلبه. أتذكر جيداً، أحد أصحاب الملاهي علّقَ لوحةً على باب محله كتب عليها: «بمناسبة وفاة أحد كبار أسرتنا، فإننا نبلغ زبائننا الكرام بإغلاق الملهى ليلةً واحدة حداداً على روحه». لقد فعل الرجل هذا حتى يتجنب الإحراج مع زبائنه المداومين، حتى لا يفكر أحدٌ منهم بأنه يغلق حداداً على كلب مجدي بيك. إلا أن مجدي سُرَّ كثيراً عندما قرأ اللافتة فكافأ صاحب الملهى بأن دفع له ما

Twitter: @ketab_n

يعادل أرباح شهر كامل. كان المرحوم يملك قلباً ملؤه الطيبة. ما كان يتأخر عن أعمال الخير أو يتردد في مساعدة الفقراء. كنتُ شاهداً عليه أكثر من مرة وهو يدعو العاطلين عن العمل، القادمين من قراهم بحثاً عن عمل في استانبول، يدعوهم إلى سيارته ويقول لهم: «أنتم ضيوفي الليلة» ثم يوصلهم إلى بيوت الدعارة في شارع الأبنوس، حيث يدفع عنهم للقوادات سلفاً. ما أريد قوله هو أن المرحوم كان طيّب القلب ويعرف كيف يبهج قلوب البؤساء رحمة الله عليه.

لو بقي الأمر متوقفاً عليه وعلى محاميه لما استطاع القضاء على تلك الثروة. فليحمد ربه لأنه حظي ببتول الراحة... لولا بتوش الحلوة لما استطاع أحد أن ينهي تلك الثروة. حلال عليها! ويالها من امرأة! إنها قريبتك، أليس كذلك؟ ألم ترها قط؟ هكذا إذن .. إنها امرأة جديرة بالمشاهدة... من يدري أين تكون الآن؟ الحق أنها ساعدت مجدي السرسق على إنهاء ثروته مساعدةً لا تعوض. لربما من غير المناسب أن أحكي لك هذا.. فهي رغم كل شيء قريبتك... ولكنك تصر على معرفة كل شيء. وسأحكي لك. كيف تزوجا؟ اسمعني إذن لأحكي لك.

مجدي السرسق هذا ابتلى ذات يوم بداء الرغبة في الزواج. وهو داء صعب - أبعده الله عنا أجمعين! من يصاب بهذا الداء يرغب على الدوام في الزواج من المرأة نفسها. وقد التقط مجدي مرضه هذا من بتول الراحة، لقد تعرف على السيدة بتول في تلك الفترة. كانت امرأة استثنائية وتصغر مجدي بيك بثمان وثلاثين عاماً. ماركتها مسجلة: الراحة ... عندما رأيتها رغبت أن أقول لصاحبي: «خلال ستة أشهر ستلتهمك هذه المرأة وتنهيك عن آخرك». لكني لم أجرؤ. داورت وقلت له:

- يا أخي مجدي بيك. لقد خلق الله الجمال لا ليحتكره أحدٌ من عباده، بل ليستمتع به الجميع، وأنا أرى أن زواجك من امرأة رائعة الجمال مثل السيدة بتول هو احتكار لجمال استثنائي. وهذا أمر لا يقبل به الله ولا عباده. حرام ما تفعله. بزواجك منها ستكسر

Twitter: @ketab_n

بخاطر العديد من الرجال وتحرمهم الاستمتاع بجمالها. النساء الجميلات والسخيات أشبه ما يكن بالشمس أو القمر يغدقن نورهن على كل البشر. اعدل عن هذا الزواج يا مجدي بيك. استمتع ودع غيرك يستمتع.

-تأخرت كثيراً في إسداء النصح يا صاحبي.. مستحيل أن أعدل عن قراري..

-أنا رأيي أن السبب الحقيقي لرغبته في الزواج منها هو شهرتها الواسعة عن تبذيرها لأموال العديد من الأثرياء أصحاب الملايين وجعلهم يفلسون. لقد رأى مجدي بيك أن امرأة مثلها فقط قادرة على إفلاسه تماماً..

تزوجا. وبالفعل قبل مرور ستة أشهر كان الرجل يلفظ أنفاسه. رحمة الله عليه. لقد عاش أيامه الأخيرة في سعادة بالغة، لأنه بفضل بتول الراحة أفلس تماماً وصار مديناً حتى للطير الطائر، ويركض وراء قطعة خبزٍ بائت أو ملعقة حساء..

تم الزواج بمنتهى البساطة، وكان غرض بتول منه جعل مجدي السرسق يستشهد على دروب الحب لترث هي ثروته.. ولِمَ يلقبونه بالسرسق *؟ لأنه سرسق... طوال حياته، كلما أراد القيام بعمل ما، فإن العكس هو ما يحدث... كان منحوساً، رحمه الله.. حتى قصر فتاح باشا المهيب استولت عليه بتول الراحة بسبب سرسقة مجدي.. لأحكي لك، يا سيدي، عن ذلك.

كان لبتول الراحة عشيقٌ يُدعى (بكير الفحل)، يرافقها في حلها وترحالها, كلما تزوجت بتول رجلاً كانت تأخذ بكير الفحل معها إلى بيت الزوجية. وعندما يسألونه: «ما هي وظيفتك؟» أو «ما هي صفتك؟» كان يجيب قائلاً: «أنا صديق بتول الراحة». عندما تزوّجت من مجدي السرسق رافقها الفحل منذ الليلة الأولى في دخولها القصر. ولطبعها المرح وحبها

* السرسق: هو الشخص الذي يشكو من رعشة.

Twitter: @ketab_n

النكته قدمت الرجل لزوجها قائلة: «لاتقل لي أنك تزوجتني بلا دوطة. هـا هو دوطتي». عاش الثلاثة في الشهرين الأولين مثل السمن على العسل. لكن الفحل بعد مرور الشهرين يطلـب من السرسـق أن يطلّق بتـول. لأنَ بتـول وعشيقها قد قضيا علـى ثـروة الرجـل التي لم يسـتطع هـو إنهاءها طـوال حياته. وعاند مجدي قـائلاً: «أموت ولا أفـارق محبوبـتي بتـول!». أكـان السبب انغماسه الكلي في غرامها، أم خوفه مـن الوحـدة في ذاك العمر، أم لمجرد العناد؟ لا أحد يعرف. ويصرخ الفحل في وجهه: «ألا تخجــل علـى شيبتك أن تستغل هذه الفتاة المسـكينة وتعدهـا بـالثروة التي سـترثها بعـد موتك وأنت لا تملك شيئاً؟ ألا تخاف الله؟ لِمَ خدعتَ المسكينة وتزوجتَهـا في عمـرك المـرذول هـذا وأنـت علـى الحديـدة؟ وما لرجـل يتبـوّل تحتـه والزواج!». ذات ليلـة اتفـق العشـيقان علىقتلـه وهاجمـاه، فـاضطر تحـت تهديد الخوف إلى اختلاق كذبة: «ومن الذي ادّعـى أنـني قـد أفلسـت؟ إن ثروتـي الحقيقيـة محفوظـة في صندوقـي الخـاص في البنـك. وبعـد موتــي، لتهنئي يا حبيتي ولتأكلي ما في الصندوق. إنه يكفيكما كليكما. هنيئـاً لكمـا ومريئاً». ويتعانق الثلاثة بعـد هـذا الكـلام في فـرحٍ عـارم. المطلـوب الآن أن يموت مجدي بأسرع وقت. إن إحدى قدميه في القبر، يكفي أن تعثّر القـدم الأخرى. لكن مجدي السرسق يعاند متشبثاً بالحياة! يزداد حيويةً كل يوم. وتذهب كل جهود بتوش أدراج الريـاح.. بـل كلمـا جهـدت بتـوش يـزداد الشيخ تفتحاً وحيوية واندفاعاً عارماً. حتى أنه صار يقـول: «حتـى وأنـا في سن الثلاثين لم أشعر بفحولـة كهـذه!». علـى أثـر ذلـك راح بكير الفحـل يعاتب عشيقته قائلاً: «اخس يا بتوش، لم تقدري على عجوز منته كهـذا! سأضطر أنا إلى إرساله إلى القـبر». لكـن بتـول لم توافـق: «لا لاَ يجـوز. أنـا أخاف الله. اتركه لي. سوف أقتله بين ذراعـيّ مـن اللـذة». هـذه المحادثـة سمعها خدم وطباخو القصر. وأيُّ سر يبقى سـراً في هـذا العـالم؟.. ومجـدي يـزداد تفتحـاً وفحولـة. حتـى أنـه لَم يعـد يكتفـي ببتـوش، صـار يلاحـق الخادمات، يحاصر الطباخة ويمد يده إلى الغسالة.. جن جنون بكير الفحل

Twitter: @ketab_n

وصرخ يقول: «لقد هيَّجتِ العجوز يا فاجرة.. هل أسممه أم أخنقه؟» فترد عليه بتوش وتهدّئه قائلة: «لا تلوّث يديك بدم هذا العجوز القذر. إنه لا يستأهل. خبرتي تقول لي أن هؤلاء العجائز يهيجون وينتصبون هكذا عندما يقترب أجلهم.. فلتصبر قليلاً يا حبيبي..».

أخيراً حدث ما توقعته بتول الراحة. ذات ليلة، عارياً بين أحضانها، أسلمَ الروح بعد لهاثٍ وأنين طويلين. وكان بكير الفحل في هذه الأثناء كامناً وراء الباب يسألها: «هل مشي الحال؟ تمام؟ أتريدين مساعدتي؟ هل انتهى؟ هل مات؟»..

غير أن الوجه الحقيقي للوضع، كان مختلفاً يا بنيّ. نحن المقرّبون من مجدي كنا نعرف حقيقة الأمر، وهو أن مجدي لم يكن يملك فلساً واحداً. والصندوق الخاص في البنك الذي زعم أنه مليء بالمال كان فارغاً. لم يبق له في هذا العالم سوى القصر الذي يقطنه. لقد اضطر للكذب حتى لا تتركه بتول وترحل، وهو يريد أن يعيش أيامه الأخيرة في سعادة وهناء. صحيح أنه يعشق بتوش حتى الجنون، لكنه أيضاً يحقد عليها بسبب أعمالها.. كان يقول: «سوف أطعم هذه المرأة كُماً يجعلها لا تنساني أبداً بعد مماتي. إن لم أفعل هذا لا أكون حفيداً لفتاح باشا!». لم يشأ أن ترث بتوش القصر الذي هو آخر ما يملك. طلب كاتب العدل في صباح اليوم التالي لكذبته على بتول وعشيقها، وأملاه وصيته. ووفقاً لهذه الوصية فقد أوصى بالصندوق المرصّع باللؤلؤ الأسود الموجود داخل خزنته في البنك لبتول، أما القصر فقد أوصى به لإحدى الجمعيات الخيرية. الكل يعتقد أن صندوق خزنة البنك مليء بالمجوهرات والذهب وملايين الليرات النقدية. والحقيقة أن مجدي حشا الصندوق بالقطن، ووضع داخل القطن خرطوم نارجيلة عتيق مهترئ من كثرة الإستعمال. وقال لكاتب العدل: «لم يبق لي في هذه الدنيا سوى شيئان: أحدهما هذا القصر، والآخر الصندوق الذي يحتوي على آخر ما تبقى من ثروة العائلة داخل خزنتي الخاصة في البنك». ويتظاهر مجدي بأنه يوصي القصر لمؤسسة خيرية لأنه أقل قيمةً مما

Twitter: @ketab_n

يحتويه صندوق الخزنة، بينما يوصي بكل» محتويات هذا الصندوق لزوجته، وهكذا يكون قد انتقم منها على أفعالها. أي أنه يريد أن يبلغها رسالة فحواها: «أترين خرطوم النارجيلة العتيق هذا؟ لقد حَوَّلْتِني إلى وضعٍ مشابه لوضعه. وأنا أهبك هذا الخرطوم حتى تنظري إليه وتتذكريني باستمرار..».

كان هذا سبب سعادة مجدي بيك وفتوّته في أيامه الأخيرة. كان يفكر بما سيحدث بعد وفاته، فيضحك ويضحك. ما إن يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى يركض بكير الفحل وعشيقته لملاقاة كاتب العدل. وفي المحكمة، بعد أن تثبت بتول أنها وريثته الوحيدة، سيقرأ القاضي الوصية، ثم يفتحون الصندوق المرصع باللؤلؤ الأسود، وبدلاً من الملايين سيُخرج القاضي خرطوم النار جيلة العتيق ويمده إلى بتوش: «تفضلي يا سيدتي. هذا مابقي لك من المرحوم!» سيثور بكير الفحل غاضباً ويصرخ في وجه عشيقته: «قال مجدي السرسق إن ما تركه في الصندوق سوف يكفيك. خذيه إذن واستخدميه هنيئاً مريئاً!». ثم يتركها ويرحل.

كان التفكير بهذا يضحِك مجدي حتى وهو على فراش الموت. كان المسكين يفرح وهو يتصور مشهد العشيقين والخرطوم بين أيديهما. غير أن الأمور لم تحدث وفقاً لما خطط لها مجدي. فهذا السرسق الذي انقلبت عليه كل أفعاله طوال العمر، قد وقع في آخر سرسقة له وهو يملي وصيته على كاتب العدل. ربما تشوّش ذهنه أو خانه التعبير، فقد أملى الوصية بشكل معكوس دون أن يدرك ذلك «القصر لزوجتي ومحتويات الصندوق للجمعية الخيرية الفلانية..» وهكذا فقد ورثت بتوش الحلوة القصر، بينما نالت الجمعية الخيرية خرطوم النارجيلة العتيق.

بعد ذلك يا سيدي، دفع بكير الفحل عشيقته لبيع ذاك القصر البديع بمراحيضه المبلطة بالرخام الإيطالي الأصلي. وبلع الفحل ثمن القصر واختفى عن الأنظار، تاركاً بتوش لا تملك شروى نقير. بعد ذلك لم أرها ولم أسمع عنها شيئاً.

Twitter: @ketab_n

أما القصر، ذاك القصر التاريخي الجليل فقد تعاقب عليه أكثر من مالك، ثم تحول إلى «نادي القمة» بإقتراح من أحد وجهائنا. شاركتُ في عددٍ من الحفلات الراقصة التي نظمت في النادي. لكنني انقطعت عنه بعد أن قطعتُ صلاتي مع المجتمع الراقي. إنها الشيخوخة يابنيّ. أنت تعرف.. عليك الذهاب إلى نادي القمة والسؤال عن بتول خانم هناك. وحتماً ستجد من يدلك عليها..

ألم تقل لي أنها قريبتك؟ لِمَ تبحث عنها؟ أتقول أنها عاطفة القربى؟ ولم تقابلها أبداً؟ إذن هي عمتك؟ طيب يا بنيّ.. مع السلامة .. مع لاسلامة..

معمّر الكلاركجي وخيبتهُ

هكذا إذن.. السيدة بتول قريبتك؟ ماذا تقربها؟ ابن أخيها؟ حسناً.. لقد تعرفت عليها عن طريق معمّر الكلاركجي. هل سمعتَ عنه؟ طبعاً لا.. لأنك لستَ من استنبول.. يالها من أيام.. حتى الآن أتذكر معمّر وهو يعمل "كلارك" للسيدة بتول.. أتذكّر وأضحك.. يالها من أيام! لقد سخَرتْ منه أمام الجميع.. أنت لم تعاصر تلك الأيام.. لم يكن في البلد كلها من يعمل كلارك أفضل من معمّر. كان كلاركجياً ماهراً. حتى قيل أنه لا يوجد في أوروبا ولا في أمريكا ثمة من يضاهيه في كلاركاته.. تسألني عن مهنته؟ إنه يشتغل الكلارك. لذلك لقبوه بالكلاركجي. لقد عاش عيشةً رغيدة طوال سنوات من وراء عمله الكلاركات لأجمل نساء المجتمع الراقي. عاش كالأمراء. إني أحكي في غيابه، وليس ما يدعوني لامتداحه جزافاً. كان ملك الكلارك بلا منازع.. لا يوجد اليوم من يضاهيه بين الشبان.. لا أريد أن أمدح نفسي، لكنني والحق يقال كنتُ أعمل كلاركات ناجحة أيضاً. لكن معمر كان «غير شكل».. أتسألني ما معنى كلارك، وكيف يُعَمل؟ أحقاً لا تعرف؟ واعجبي! ألم تسمع هذه الكلمة من قبل؟ إذن لأشرح لك.. كان في زماننا نجم سينمائي أمريكي اسمه «كلارك غيبل». هل عرفته؟ حتماً سمعتَ باسمه. إن محاكاة هذا النجم تسمى «عمل الكلارك». غير أن للعبة أصولاً، وتتطلب مهارة فائقة. لنقل أنك حــدَّدْتَ امرأةً معينة أعجبَتْكَ. ستتحيّن

Twitter: @ketab_n

فرصةً لتقترب منها، تقف أمامها مباشرةً، ثم ترفع أحد حاجبيك أعلى ما تستطيع، وتجعّد جبينك كما ينبغي. وكلما رفعتَ حاجبك أعلى كان ذلك أكثر قبولاً من النساء.. وبيدك اليسرى سيكارة. ستحدّق داخل عينَيْ المرأة بنظراتٍ حادة قاسية. ومن حين لآخر سترق نظراتك وتصبح حالمة وأنت ترفع السيكارة ببطء إلى فمك، تسحب منها نفساً عميقاً، ثم تدوّر شفتيك وتنفث الدخان بحيث يداعب خَدَّيْ المرأة الواقفة أمامك.. وأفضل شيء أن تصنع دوائر دخانية في الهواء.. بعد ذلك يا سيدي، ودون أن ترفع عينيك عن عينيها، تسحب من الدخان نفساً ثانياً، عميقاً إلى درجة تعتقد معها المرأة أنك تبلعها هي الأخرى مع الدخان... وهنا المهارة.. وبعد نفسين أو ثلاثة بهذه الطريقة تكون المرأة نضجت. تصبح كالمنوّمة مغناطيسياً.. تقترب منك برأسها كلما سحبتَ نفساً. وكلما نفثتَ الدخان في وجهها تَفَتَّحَتْ أكثر. تقترب، تتفتّح، تقترب، تتفتح... ثم تتأرجح كالنائمة.. اتركها هكذا.. لقد نضجتْ كبفتيك محّمص في طبق مسطح... تبدأ بالإرتعاش.. كلُها عندئذٍ هنيئاً مريئاً.. هذا ما يسمونه عمل الكلارك. أتظنه أمراً سهلاً؟ من بعيد، ودون تجربة يبدو لك الأمر سهلاً ربما. لكن ليس كل رجل قادر على القيام به. ثم هناك مخاطرة بأن تصبح أضحوكة أمام الجميع إن فشلتَ. إن قام رجلٌ وعمل الكلارك وفشل فإنه يصبح مسخرة.. يدقون له على الرفّ.. أنا أعرف عدداً من الرجال فشلوا في كلارك أمام امرأة، فاعتزلوا حياة المجتمع الراقي إلى الأبد، إنه عارٌ ما بعده عار..

فقط معمّر الذي أحكي لك عنه كان معلماً في هذا الفن. وعلى كل حال فقد انكشف هو الآخر في نهاية المطاف وانفضحَتْ لعبته.. لكنه في الفترة التي أذكرها لك لم يكن أحد يعرف شيئاً عن لعبته. كانوا يعتقدون بأنه يعمل الكلارك فعلاً. وسآتيك بالحديث..

تصوّر يا سيدي أن الرجل كان يكسب قوته من وراء هذه اللعبة.. ما إن يقوم بها حتى تنفتح أمامه قلوب سيدات المجتمع.. إن الدخان الذي ينفثه في وجوههن كان يطوّق أعناقهن كالسلاسل، هذا ما أَسَرَ به عدداً من النساء

Twitter: @ketab_n

اللواتي مررن بالتجربة معه. ما إن «تـأكل» إمـرأة كلاركـاً مـن معمـر حتـى تتبعه كالعبدة أينما ذهب، ولا تستطيع الخـلاص مـن سـحره بعـد ذلـك.. تصوّر أيُّ كلاركٍ عند هذا الرجـل! كنـتُ شـاهداً علـى عـددٍ مـن حـوادث الكلارك التي قام بها معمـر هـذا.. رأيتُـهُ يثبّـت نظراتـه السـامة في عيـني المرأة، ينفث الدخان في وجهها، ثم يقّـرب رأسـه مـن رأسـها ثـم يبعـده.. يقرّب ويبعد.. حتى تبدأ المرأة بمحاكاته بحركات لا إرادية، كالمسـحورة.. يتحرك رأساهما في حركة متناغمة.. يتأرجحان.. هكذا تصبح المـرأة تحـت تأثيره المطلق.. عندها يتركها معمّر حيث هي، يديـر لهـا ظهـرَهُ وينصـرف وكأن شيئاً لم يكن.. وحـاول أن تمسك المـرأة إن كنـتَ شـاطراً. حتـى لـو قيّدتها بالسلاسل، فسوف تحطمها وتلحق بمعمّر. أينما ذهب معمر تجدهـا خلفه... إن المرأة التي «تأكل» كلارك معمّر عليها السلام..

وأكثر ما أتذكره ما فعله «ببرفين» ... يا سِلام.. وياله من كلارك! دعني أحكي لك أولاً عن برفين هذه. إنها أبخـل إمـرأة في العـالم. حسـب روايـة زوجها، فهي لا تسـمح لـه بتقبيـل شـفتيها حتـى لا «يهترئـا».. حتـى لا يتآكلا.. تصور، يا سيدي، بخلها. وكانوا يلقبونها ببرفين الصدئـة لأنهـم أشاعوا أنها تخبئ قطعاً ذهبية تكاد تصدأ بسبب انعدام الإستعمال. وكانت عندها ابنة صبية تتفجر أنوثةً.. من النوع الذي يؤكل، اعذرني على التعبير يا بنيّ. ها قد سال لعابي وأنا أتذكر تلك الأيام. ويالها مـن أيـام!.. التقـى معمّر في إحدى السهرات بابنة بيرفين الصدئة هـذه. وقـد أعجـب بهـا ولم يتردد لحظة: «سلخها» كلاركاً من إياهم.. روى الشهود فيما بعد، أن الصبية التاثت ما إن أكلَتْ الكلارك.. أدار معمر ظهره وانصرف.. وما الـذي يمكـن أن تفعله الصبية المسكينة غير أن تلحق به كالمنومة.. لاحقته أينما ذهب..

انتشرت الشائعات بسرعة. ثار غضـب بـيرفين الصدئـة وراحـت توبّـخ ابنتها: «اخس على تربيتي لك. ألم تخجلي من اللحاق بالرجل أمام أنظـار الناس لتفعلي معه ذلك؟ لقد ضربتِ بشرف العائلة عرض الحائط، مرغتيـه في الوحل. تفوو عليك...».

Twitter: @ketab_n

والفتاة تبكي وتبكي وهي تستسمح أمها: «وما ذنبي يا أماه؟ أفعلتُ ذلك بمشيئتي؟ لقد رأى الجميع ما حدث. اسأليهم إن كنت لا تصدقينني. لقد سلخني السافل كلاركاً، والعياذ بالله.. لقد أفقدني رشدي.. لم يعد لي عقل أو إرادة.. ولا أعرف ما فعلت بعد ذلك.. ما إن أكلتُهُ حتى غبتُ عن الوعي.. كل الناس تعرف أن المرأة التي تتعرّض لكلاركه لا تستطيع التخلص منه.. نعم أكلتُ الكلارك.. ولا أتذكر ما حدث لي بعد ذلك..» ردت عليها الأم: «هذا الكلام لا يمشي عليّ... إن أمك قد أكلَتْ كلاركات أدهى وأمرّ، لكنها لم تصبح على ألسنة الناس...».

ظلت الأم تصرخ وتوبخ ابنتها. ومنعتها من الخروج من البيت كي لا تلحق بمعمر. وفي إحدى الحفلات الراقصة راحت بيرفين تشنّع على معمر على رؤوس الأشهاد: «من السفالة استغلال سذاجة الصبايا بلعبة الكلارك. أيجوز عمل الكلارك مع فتاة صغيرة.. إن كان رجلاً فليجرّب كلاركاته معي أنا لأرى أيّ رجلٍ هو...».

وشاءت الصدف يا سيدي أن يكون معمر بين الحاضرين في تلك الحفلة، وقد سمع كلام بيرفين واستاء جداً من تحديها لرجولته. نسيت أن أقول لك أن معمر هذا لم يكن يرضى بكلركة أية إمرأة.. فقط عندما يشتهي امرأة، عندما يمتلك دافعاً من القلب فإنه يقوم بكلاركه. ويشترط في المرأة أن تكون شديدة الجمال وصغيرة السن، حتى يختارها معمر.. وقد كان ثمة نساء يحاولن إغاظة معمر واستجراره إلى اللعبة باستفزازه بكلمات من مثل: «هه.. وما كلارك معمر؟ لَكَم أكلتُ كلاركات ولم أقل أف! طز في كلاركات معمر!». ولأن معمر يعرف غرضهن، كان يضحك بلا مبالاة ولا ينجرّ إلى الإستفزاز. ما كان معمر يبذّر كلاركاته سدى على نساء لا يستأهلنها. وكلارك معمر في المجتمع الراقي ذو قيمة.. لا تحظى به إلا أشد النساء فتنةً وصبا.. إلا أنه في تلك المرة لم يستطع تجاهل استفزاز بيرفين الصدئة. فار دمه وراح يقول لنفسه: «سوف أعمل لها كلاركاً يدخل كتب التاريخ..» أما بيرفين فقد صرخت وولولت مطولاً، أجلسوها فوق مقعد وراحوا

Twitter: @ketab_n

يُهَدِّئونها ويدلكون عنقها وذراعيها بماء الكولونيا. شق معمر طريقه بين الحضور واقترب من بيرفين.. عمل لها كلاركاً ولا أقوى.. يا سلام.. في ثوان قضي عليها! للأسف لم أكن هناك. حسب روايات الشهود فإن كلارك غيبل نفسه ليعجز عما فعله معمر في تلك الليلة ببيرفين... افترضني ناقلاً للكذب يا سيدي! قال الشهود أن بيرفين فقدت صوابها ما إن رفع معمر أحد حاجبَيْهِ، وراحت تتمتم: «أواه يا أصحاب.. أمسكوني.. حدث لي شيء... أواه.. انتهيت.. وا خجلي! إن ابنتي على حق إذن..» وراحت ترتعش كأن بها حمى. أما معمر فقد نفث دخان سيكارته على حلمتي أذنيها، ثم قرّب رأسه منها مرتين أو ثلاث، ثم أدار ظهره وانصرف بعد أن قال لها: «يكفيك هذا القدر!» وبالطبع لحقت به بيرفين الصدئة، مادةً ذراعيها إلى الأمام كالسائرين في نومهم وهي تقول للحاضرين: «كلكم شهود. رأيتم ما حدث. لا ذنب لي إطلاقاً.. إن كان لكم وجدان يجب أن تشهدوا أمام زوجي أنني بريئة لا ذنب لي.. آهٍ يا زوجي المسكين. اغفر لي!».

ظلت الألسنة تلوك هذه الحادثة أياماً.. وكما يحدث دائماً فقد وصل الكلام إلى زوجها. فكر الرجل أن يطلّق زوجته بعد سنين طويلة من الحياة المشتركة. قالت له بيرفين: «حرام عليك. الجميع رأى ما حدث. وإن كنتَ لا تصدقني اسألهم. لا أحد يتحمل كلارك هذا الشاب...». اقتنع الرجل ببراءة زوجته، غير أنه مع ذلك لا يستطيع ابتلاع ما حدث. والحق أن بعض الشائعات كانت تدور عنه أيضاً.. كانوا يقولون أن للرجل ميولاً... كيف أقول لك... يعني كان من ذاك النوع.. أتفهمني؟ ولكن حتى لو كان كذلك فهو زوج ويغار على زوجته.. وألسنة السوء لا تتركهم بحالهم... اضطر الرجل للتهديد. صار يقول لكل من يصادفه. «يجب على ذاك السرسري المدعو معمر ألا يظهر أمامي. سوف أقتل هذا الكلب..» وصار يحمل مسدساً وسكيناً. إلا أن الرجل شريف ولا يريد تلويث يديه بجريمة قتل. لذلك صار يتجنب أماكن تواجد معمر. وفي الوقت نفسه يرسل له التهديد تلو التهديد بأنه سيقتله إن التقاه.

Twitter: @ketab_n

ولأن معظم رجال المجتمع الراقي متحاملين على معمر بسبب ما يفعله بزوجاتهم وبناتهم، صاروا يحرّضون زوج بيرفين الصدئة ضده وكلهم أمل بأن يقتله فعلاً ليتخلصوا من معمر وكلاركاته اللعينة.. أقليل ما فعله بزوجاتهم وبناتهم وأخواتهم.. ما إن يكلرك إحداهن حتى تصبح كالممسوسة بنار القداسة وتصبح خاتماً في إصبعه.. أنا رأيي أن فعل الكلارك هذا منافٍ لحقوق الإنسان... لأن المرأة بعد أكل الكلارك تفقد إرادتها بشكل كامل وتتصرّف دون رضاها.. هذا ناهيك عن أن المرأة كائن ضعيف الإرادة أصلاً. وهي تبحث عن الذرائع للإنجرار وراء الرجل والإنحلال.. فماذا يتبقّى من إرادتها بعد أن تأكل كلاركاً لا يبقي ولا يذر! أراد بعض الأزواج العقلاء في المجتمع أن يمنعوا معمر من دخول الوسط الراقي، لكنهم لم ينجحوا في مسعاهم، لأن أغلب النساء في صف معمر...

ذات يوم تصادف وجود معمر وزوج بيرفين في نادي القمة.. وكنتُ هناك في تلك الليلة المشهودة... ما العمل الآن وقد ظل زوج بيرفين شهوراً بطولها يهدد ويتوعد بقتل «ذاك القواد».. والحق أنه لم ينوي قط على تجاوز الكلام إلى الفعل ظاناً أنهما لن يلتقيا في مكان واحد أبداً. والآن وقد حدث المحظور، ماذا سيفعل المسكين؟ هل ينسحب بهدوء ويهرب من النادي؟ سيحوله ذلك إلى مسخرة ويجلله بالعار. أيستلّ مسدسه ويقتل معمر؟ كيف يقتله يا سيدي؟ وهل من السهل قتل رجل؟ ما هذه الورطة التي وضع نفسه داخلها؟ ما له وللتهديدات التي تفوّه بها في كل مكان؟... وكأن حيرته لا تكفيه كان الأزواج المحيطون به يلحون عليه ويحرضونه بلا شفقة: «هيا.. هيا.. لا تتردد.. إنه أنسب وقت.. اقتل هذا السافل!». أخرج المسكين مسدسه على مضض... إذن صحيحٌ ما يقال أنه يحمل مسدساً أينما ذهب... أطبق صمتٌ ثقيل على الصالة الواسعة المليئة بالناس. الجو متوتر كخيطٍ مشدود يوشك أن ينقطع.. تماماً كما في الأفلام... زوج بيرفين يمشي بخطواتٍ بطيئة باتجاه معمر ويده الحاملة المسدس ترتعش... آهٍ لو كنتَ هناك يا محمود لترى المشهد... أما معمر المسكين فقد جمد

Twitter: @ketab_n

هناك قرب الجدار وراح ينتظر موته، وفي يده سيكارة... لو يهرب.. دعك من البهدلة والعار، إن هروبه سيشجّع زوج بيرفين أكثر ليلاحقه ثم يطلق عليه النار... والحال أن زوج بيرفين كان يقول بينه وبين نفسه وهو يتقدم: «فليهرب يا ربي ويخلصني من هذه الورطة...» وكان سيره البطيء بهدف منح فرصة لمعمّر حتى يهرب. ومعمر لا يهرب حتى لا يشجّع الزوج المخدوع على الإستقواء والقتل... وفي موقفٍ كهذا لا ينبري أحدٌ من الموجودين ليحول دون وقوع الكارثة...

وصل زوج بيرفين إلى معمر، وقف أمامه وجهاً لوجه، وجّهَ المسدس إلى صدر الرجل واستعد للضغط على الزناد.. طوال حياتي لم أر مشهداً مثيراً كهذا! معمر الذي فقد أيَّ أملٍ بالنجاة قرر أن يضرب ضربة صولد، غير مكترث بكون الذي أمامه رجلاً.. ماذا فعل؟ سلخَهُ كلاركاً ولا أحلى! وأمام دهشة جميع الحاضرين فعل الكلارك فعله! ارتخت يد الزوج وسقط المسدس على الأرض.. لكن معمّر الظالم لم يكتف.. تابع كلاركه... قضى على الرجل... راح ينفث الدخان على وجهه ويقرب رأسه ويبعده. تناغم الرجل معه في حركات رأسه، راح يتأرجح في وقفته. بدأ الرجل يتوسل إلى معمر: «أرجوك أوقف الكلارك.. اغفر لي تهديداتي.. ارحمني.. لا تبهدلني أمام العالم.. لا تلوّث شرفي.. أرجوك..» عندئذٍ أدار معمر له ظهره وانصرف.. لحق به زوج بيرفين.. التَفَتَ معمر إليه وقال: «لا تلاحقني.. أنا لا أفعلها مع الرجال!».

لقد ذابَتْ إرادة الرجل تماماً. راح يبتسم: «أنتِ على حق يا بيرفين..» عندئذٍ خاطب معمر الحاضرين قائلا: «أنتم شهود. أنا لم أفعل أيّ كلارك لهذا الرجل.. هو بمحض إرادته يلاحقني..» راح الجميع يضحكون. أما بيرفين وابنتها فراحتا ترجوان معمر أن يفكّ الكلارك عن الرجل... بعد هذه الحادثة تضاعفت شهرة معمر ونفوذه في الوسط المخملي. وراحت النساء يتلذذن بالحديث عنه وعن أفعاله: «إن كلارك معمر غير شكل...» أو «ولن تقولين... فقد ذقتُ كلاركه الفتاك!» أما بعض النساء فيتظاهرن بعدم

Twitter: @ketab_n

التصديق: «إنه مجرد كلام.. أنا لا أصدق». فترد عليها أخرى: «لا تغلطي بالكلام. لا توجد امرأة قادرة على مقاومة كلاركه..».

لو أنك رأيت معمر في تلك الأيام... كان أنفه يعلو جبل قاف. لا يرضى بفعل الكلارك إلا للمرأة التي يشتهيها قلبه الملكي. إذا لم تعجبه المرأة يقول لها: «أرجوك يا سيدتي لا تحرجيني. إن أرادتك قوية جداً. أنت سليمة ما شاء الله! إن الكلارك لا يؤثر فيك». وبذلك يتخلص منها. لأنه يعرف أنها جاهزة للتسلط عليه منذ أول رفعة حاجب. وتلحّ النساء: «أرجوك يا سيدي جرب مرة واحدة كرمى لخاطري..» يرد معمر بلا شفقة: «الكلارك لا يؤثر فيك يا سيدتي...».

ماذا تقول؟ نعم. طبعاً.. سأحكي لك عن بتول.. أنت ابن أخيها أليس كذلك؟ يعني ابن ابن أخيها.. نعم لقد تعرفت على السيدة بتول عن طريق معمّر الكلاركجي. أرجوك لا يجرحنّك كلامي لأنها عمتك. هذه المرأة قَضَتْ على معمر، أنهتْهُ. إني أقول لك الحقائق.. فيما بعد أشفقَتْ عليه وساعدَتْهُ...

لا أذكر تماماً كيف بدأ الأمر.. في فترة ما اهتزّ الوضع المالي لمعمّر. سبق وقلتُ لك أنه كان يكسب رزقه من الكلركة. يبدو أنه في تلك الفترة لم يعثر على امرأة مناسبة يكلركها. في تلك الفترة إذن يصادف بيرفين في شارع «بَيُوغلو». ولأنه في ضائقة شديدة، يسلخها كلاركاً هناك في الشارع وعلى الواقف. وتحت مفعول الكلارك يأخذان جوازَيْ سفرهما ويطيران فوراً إلى باريس. بعد ستة أشهر تبعث بيرفين برسالة إلى زوجها تقول فيها: «يا زوجي الوحيد، كما يمكنك أن تتوقع، لا ذنب لي إطلاقاً فيما حدث.. إن السافل معمر صادفني في الشارع وصفقني كلاركاً موجعاً على الواقف، أفقدني إرادتي وجرجرني وراءه إلى باريس. حتى لو أَثِمَ جسدي الفاني فإن روحي الباقية بريئة ودوماً ملك يديك، حتى لو لم تغفر لجسدي الملوّث بالعار، اغفر لروحي الطاهرة.. وثق أنني لم أخنك روحياً قط. روحي لك وحدك على الدوام».

Twitter: @ketab_n

رد عليها زوجها في رسالة يستدعيها إلى استانبول: «إن ما يهمني منك يا حبيبتي الغالية هو روحك لا جسدك. الجسد فانٍ والروح باقية. تكفيني طهارة الروح. عودي بسرعة إلى بيتك يا روحي!» لكن بيرفين واصلت إجازتها الباريسية مع معمر فترة أخرى بعد هذه الرسالة لأنها لم تتخلص بعد من تأثير كلاركه النفّاذ. وعندما عادت إلى استانبول ظل جسدها لمعمّر وروحها لزوجها... وخلال هذه العلاقات المديدة مع معمر فقد نضب حتى الذهب الذي تملكه والذي قيل أنه صدئ. لنأتِ إذن إلى السيدة «عملة صعبة»... نعم سمعنا أنها عادت من أوروبا. الكل يتحدث عنها. سمعتُ عنها الكثير قبل أن أراها شخصياً. وفي حفلة كوكتيل تعرّفتُ عليها. وعرفتُ أن تسميتها بـ «بتوش الراحة» لم يكن سدى.. لا تؤاخذني هكذا كانوا يسمون عمتك...

ذات ليلة، في إحدى الحفلات العامة شرب زوج بيرفين الصدئة أكثر من اللازم، وفي ثمله راح يقول: «لا أستطيع الإكتفاء بروح زوجتي فقط. روحها لا تمنحني الإشباع. أريد جسدها أيضاً...» وراح ينتحب كالأطفال. وبتوش الحلوة تتمتع بقلبٍ من ذهب. أشفقت على الرجل وسألت عن مشكلته. فقالوا لها أن زوجته وقعت في حبال معمّر الكلاركجي. قصوا عليها تفصيلات الكلارك الشهير الذي أفقدها صوابها. كان رد بتوش موجزاً ومثقلاً بالمعاني: «هكذا إذن؟.» إن عبارتها تنطوي على تحد مكشوف لمعمّر.

طوال أشهر لاكت ألسنة الوسط المخملي هذه الـ «هكذا إذن؟..» سمع معمر بالتحدي فقال: «أسلخها كلاركاً لا تنساه طوال حياتها.. كلاركاً يزيد من حلاوة هذه الراحة الشهية..» وللتو وصل هذا الكلام إلى السيدة بتول. فردت تقول:

-«أيُّ كلاركٍ تتحدثون عنه؟ إنها حيلة خادعة لا أكثر... هؤلاء النساء يتذرعن بحجة الكلارك ويزعمن أنهن فقدن الإرادة لأنهن يتكالبن على الرجال. ويضحكن على أزواجهن بحجة معمر وكلاركاته.. هذا المعمر المسكين من أيْ متى نصّب نفسه كلاركجياً علينا؟..».

Twitter: @ketab_n

وبالطبع أوصل أولاد الحلال هذا الكلام ساخناً إلى معمر. واستمرت التصريحات المتحدية من الطرفين. شيئاً فشيئاً راحا يستعدان للإشتباك. معمر يتوعد بعمل أكبر وأعنف كلارك في حياته مع بتوش، وهذه تتحدّاه وتتوعّده بتنفيس وإفشال كلاركه مهما بلغ من قوة... ونحن جميعاً ننتظر اللقاء الحاسم وقد بلغت بنا الإثارة ذروتها. طوال أشهر استعد الوسط المخملي لهذه المباراة. ويالها من إثارة.. إن قارنت بها إثارة مباريات غلطة سراي ـ فنربخجة، فهي لا شيء... كان الجميع في صف معمر، ضد بتوش. ذلك أنه إذا انتصرت هذه وظهر زيف كلارك معمّر، فالأزواج سيصبحون في موقف صعب، وسيظهر تهافت نسائهم على معمر عارياً بلا حجج كلاركية.. والنساء اللواتي انتشينَ بكلاركات معمر، لا يرغبنْ بانكساره أمام بتوش. أما معمر نفسه، فلا تسلْ. إن هزمته بتوش، فهذه نهايته.. سيفقد مورد رزقه.. قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق يا بنيّ!

انتشرت شائعات معينة منذ أطلقت بتوش تحديها الشهير. وفقاً لهذه الشائعات فإن الكلارك ليس أكثر من كذبة يغطي بها معمر نشاطاً آخر يمارسه هو التنويم المغناطيسي الذي تعلمه وتدرب عليه طوال سنوات في الهند. وقيل أنه منوِّم ماهر جداً قادر على تنويم أية إمرأة يشتهيها بقليل من التحديق في عينيها.. ثم يجعلها تستجيب لكل رغباته ونزواته وهي تحت تأثير التنويم. إن بروقاً حادة تومض في عينيه. يهمس في أذن ضحيته محدداً لها موعد اللقاء.. عندها يكون هلاك المرأة المسكينة.. فهي تستيقظ في الوقت المحدد، في عز الليل، تغادر فراشها، وفي الموعد المحدد تماماً تكون عاريةً بين ذراعَيْ معمر.

ازداد خوف الناس مع انتشار الكلام عن التنويم المغناطيسي، لقد ارتضى الناس بالكلارك على مضض.. أما التنويم، فلا مجال للمزاح فيه! حتماً سوف ينوِّم بتوش. ولكن بتوش ازدادت تصميماً وتحدياً ولا مبالاة إزاء التقولات عن التنويم المغناطيسي. راحت تهزأ به في كل مكان وتقول: «هه!

Twitter: @ketab_n

تنويم مغناطسي إذن؟ بروق تلتمع في عينيه.. أيُّ عينين يا عزيزتي.. إنه نصف أعمى ويصطدم بالجدران بسبب ضعف بصره.. ليمسح العمش عن عينيه أولاً ثم ينظر في عينيّ!» إن أردتَ الحق يا بني، فقد ظننا أنها تستفزه عمداً لا ستجراره إلى كلارك تشتهيه..

خلاصة الكلام يا بنيّ.. جاءت ليلة المباراة أخيراً.. ثمة حفلة راقصة في نادي القمة، والإثنان مدعوان. وبسبب أهمية هذه المبارزة فقد تقاطر إلى النادي حتى أوساط المجتمع الراقي في أنقرة وأزمير. جاؤوا خصيصاً لمشاهدة هذه المبارزة.

آهٍ من بتوش«الراحة! كانت آفةً في تلك الليلة... كانت زينتها تُقدَّر بخمسة آلاف ليرة بنقود تلك الأيام... جميع الأنظار عليها... والجميع مغتاظ منها ويتمنون لها السقوط. يرددون في دخيلة أنفسهم: «آهٍ لتتلقى كلاركاً موجعاً من معمر وتلاحقه كظله. حتى تعرف إن الله حق. وعلى كل حال فنحن نعرف أنها تتظاهر بالتحدي لأنها مشتهية كلاركاً من معمر..».

قرابة منتصف الليل بدأ صبر الجميع ينفذ. بلغ التوتر أقصاه... تحايلوا وواجهوا أحدهما بالآخر. بدأ معمر يتخذ أشد وضعيّات الكلارك تأثيراً. راح يسحب دخان سيكارته وينفثه في وجهها. بتوش.. ولا اكترثت.. يرفع حاجبه الأيسر.. لا تأثير عليها! يرفع الحاجب الأيمن.. سدى.. سدى.. وفوق ذلك تهزأ منه:

– لقد سمعتُ أنك تسيطر على النساء بواسطة الكلارك.. هكذا إذن يا معمر؟ قه قه قه! إن ذلك يضحكني...

معمر يحدِّق في عينيها بنظرات حالمة.. وبتوش تضحك:

– لا تتبارد هكذا أمامي. كف عن حركاتك السخيفة هذه.

بدأ الرجال يضحكون بشماته. يجن جنون معمر. يبذل أقصى جهوده.

– أأنت مجنون يا رجل؟ ما هذه الحركات البائخة! كُفَّ عن هذه المهزلة وحلَّ عني..

Twitter: @ketab_n

لا يفعل الكلارك أي تأثير في بتوش. معمر يرزخ عرقاً، لكن بتوش لا تهتز لها شعرة وفوق ذلك تهزأ منه:

- كفى مسخرة! انقلع من هنا! إن ألا عيبك لا تجدي معي!

اقترب منها معمر وهمس في أذنها. فيما بعد عرفنا أنه قال لها: «لا تبهدليني أرجوك. أنت تقامرين بحياتي..».

نهضَتْ بتوش وهَمَّتْ بالإنصراف... وما الذي رأيناه! معمر هو الذي تبعها مثل كلب وراح يتذلل لها علناً... التفتت إليه تقول:

- أنا أريد أن أرى أمامي رجلاً. لا تتذلل فتثير إشمئزازي.

نعم يا سيدي.. هكذا انتهت أسطورة معمر. من يومها ما عاد يجرؤ على فعل الكلارك. ولأن حيلته انكشفت ما عادت النساء تتذرعن به.. غير أن عمتك امرأة طيبة. لم يهن عليها أن تقطع رزق الرجل وتتركه لبؤسه. أخذته معها في إحدى رحلاتها إلى أوروبا. وعندما عادا جلبا معهما كمية كبيرة من البضائع المهربة، فتحت له بواسطتها محلاً لأدوات الزينة النسائية غير أن معمر لم يخلق للعمل. لم يمض شهران حتى أفلس وأغلق المحل.

فيما بعد راح يلتقط رزقه من ألاعيب الكلارك والتنويم المغناطسي مع العجائز والأرامل القبيحات. وذات ليلة كان يقوم بالتنويم في أحد الأماكن العامة. دخل عددٌ من رجال الشرطة السرّية، وعندما رأوه انقضّوا عليه قائلين: «ما الذي أتى بك إلى هنا يا معمر؟». راح معمر يتذلل إليهم. لكنهم قبضوا عليه وأخذوه. وقد انكشف فيما بعد أن ما قيل عن وجوده في الهند كان في حقيقة الأمر أنه سُجِنَ لمدة ست سنوات بسبب تهمة نصب واحتيال.

أتسأل عن السيدة بتول؟ والله لا أعرف عن مصيرها ومكانها شيئاً.. منذ سنوات لم ألتقِ بها. ولا سمعتُ عنها شيئاً..

إذنك معك يا بنيّ.. ولِمَ العجلة؟ كنا نتسلى ... طيب.. كما تشاء.. مع السلامه.. إن سمعتَ شيئاً عن عمتك أخبرني أرجوك.. مع السلامة..

Twitter: @ketab_n

سيدة نبيلة كريمة المحتّد.

معقول؟ أأنت حقاً من أقرباء السيدة بتول؟ معقول؟ أمرٌ غريب! تقول ما وجه الغرابة؟ يا بني، واضحٌ من وجهك أنك من أبناء الأناضول. كان عليك أن تراها وحينها كنتَ ستستغرب أكثر مني من كونها قريبة لك. إذن هي عمتك؟ لا بد أن ثمة خطأ ما في هذا.. أتسألني؟ أنا نفسي من الأناضول، وأعرف أنه من المستحيل أن تكون امرأة مثلها من عندنا.. لقد اشتغلتُ عندها فترة، وأعرفها جيداً. إنها إمرأة أصيلة جداً وأصالتها من الطراز الأوروبي. لكن لحظة.. أتقول أن مظفر السائق هو من أرسلك إليّ؟ أعرف أنه يدير مقهى الآن.. إذن فقد أكد لك مظفر أفندي أنها هي من تبحث عنها.. هذا صحيح إذن مظفر أفندي يعرف السيدة بتول قبلي.

الآن؟ والله لا أعرف يا بنيّ أين يمكن لها أن تكون.. لا رأيتها ولا سمعت عنها شيئاً منذ سنوات. من حين لآخر أفكربيني وبين نفسي وأقول أنها لا يمكن أن تبقى في هذه البلاد. لا بد أنها رحلت مجدداً إلى «نيس»، والله أعلم أين تقع هذه النيس.. لأنه من المستحيل أن تعيش امرأة أصيلة مثلها في هذه البلاد.. كيف أوضح لك طباعها الأصيل؟ يكفي أن تلفح وجهها نسمةٌ قاسية بعض الشيئ حتى تمرض شهراً.. أتفهم؟

ما دمتَ تريد أن تعرف، سأحكي لك. عندما أنهيت خدمتي العسكرية وعدتُ إلى قريتي، جاءتني رسالة من ابن عمي شريف علي من استانبول يقول فيها: «تعال بلا إبطاء. وجدتُ لك عملاً».

عندما وصلتُ استانبول قال لي ابن عمي:

- سيأخذونك إلى سيدة مرموقة. إن أعجبَتْ بك شغلتك عندها.

أخذني أحدهم إلى بناية في منطقة «نيشان طاشي». هناك أدخلني أحدهم غرفةً حيث رأيت السيدة بتول للمرة الأولى. كانت متمددة على وسائد طرية، أشبه ما تكون بملاك متمدد فوق الغيوم التي لونتها أشعة المغيب.. وراحت تتفحصني.. تفحصت كل تضاريسي وهي تحرك العدسة يميناً وشمالاً، إلى الأعلى وإلى الأسفل. كانت هذه العدسة لا تفارقها أبداً.

Twitter: @ketab_n

بعد أن انتهت من تفحصي قالت للرجل الذي رافقني بضع كلماتٍ أجنبية. يبدو أنني أعجبتها. قال لي الرجل:

– قد صرتَ «فاله». افتح عينيك جيداً!

وما أدراني ما يكونه Vale.. إنه الجهل... عندما سمعته يقولها ظننته يقول لي: «صرتَ Vali». هي ذي هي ذي، لا هي هي لا. «ملايه امرأةٌ ثرية من نسائها رجلاً بواسطة عدسة، وإذا أعجبها الرجل عيّنته محافظاً. هذا ما قلته لنفسي. بعد ذلك عرفتُ أن «Vale» هي كلمة في لغة الكفار تعني خادم. ولأنها إمرأة عريقة جداً فقد كانت مزاجيّة جداً. اسمع على سبيل المثال: إن أثرياء استانبول يزحفون باتجاه «بوغازإيجي» أو «بيوك آضه» أو الأماكن المشابهة، ما إن يحل الصيف. أليس كذلك؟ أما السيدة بتول فهي على عكس الجميع، تقضي الصيف بطوله في شقتها في «نيشان طاشي» وما أن يحل الشتاء حتى تنتقل إلى شاليه تملكه في «بوغازإيجي» على الضفة الآسيوية. لم أر إمرأة أنيّقة مثلها..

ربما بعد أسبوع أو شهر ـ لا أذكر بدقة ـ من شغلي عندها، انتقلنا إلى الشاليه مع حلول الشتاء. ذاك الشاليه الضخم كانت تقطنه وحدها. حتى الخدم والطباخون والسائق لا يدخلونه. ثمة بيت صغير على مرتفع وراء الشاليه. في ذاك البيت كنا نقيم نحن الخدم والحشم.. ولسبب لا نعرفه كان يقال أن السيدة بتول تكره البشر. لذلك تعيش وحدها ومعها قطة... يبدو أنها كانت مريضة.. ثمة مرض لا يصيب إلا الأثرياء يدعى العشق. كان مرضها من هذا النوع... وسبب ذلك أنه كان لها زوج، أمير... عاشت معه في نيس. وكان الأمير مدمناً على لعب القمار. وذات ليلة خسر أموالاً بحجم أموال خزينة دولة، فانتحر، وعادت السيدة بتول إلى استانبول.

لم أر وجهها، بعد اللقاء الأول، حتى انتقلنا إلى الشاليه. عندما استقر بنا المقام في البيت الخلفي، قالوا لي:

---

* vale خادم بالفرنسية.

vali والي أو محافظ بالتركية.

Twitter: @ketab_n

- عليك أن تبقى دائماً في البيت ولا تغادره أبداً. ثمة جرس بين الشاليه والبيت. وما إن يرن عندك الجرس، فمعنى ذلك أن السيدة تطلبك وعليك الإسراع للمثول بين يديها وانتظار أوامرها.

جلستُ قرب الجرس. لم يرن طوال أربعةِ أيام. كان الشتاء قاسياً والثلج يغطي الأرض سميكاً، وما يزال ينهمر بلا توقف.

ذات ليلة، وأنا في عزّ نومي، رن الجرس بإلحاح. قفزتُ من فراشي والجرس لا يزال يرن بقوة والنعاس لازال يملأ جفنيّ. خطر لي أن مكروهاً حدث للسيدة. خرجتُ. وكان سطح الثلج قد تجلّد وأصبح زلقاً كالصابون ما إن مددتُ قدميّ في الخطوة الاولى حتى تدحرجت في الظلام، منحدراً إلى الأسفل. حاولتُ النهوض لكنني انزلقتُ مجدداً.. والجرس مازال يرن ويرن.. يا إلهي! ما العمل الآن؟ قلتُ لنفسي: «طوال الفترة السابقة وأنا جالسٌ بلا عمل آكل وأشرب وأنام.. والآن عندما دعت الحاجة لا أتمكن من الوصول إلى سيدتي..» الأرض جليد والمنحدر شديد ووعر. أنهض ثم أقع.. تجرّحتُ وتورمت قدماي لكنني لم أبالِ. رغبتي الوحيدة أن أصل إلى السيدة قبل فوات الأوان.. وإذ تيقنتُ من أنني لن أتمكن من الوصول سالماً، توكلتُ على الله وتركتُ جسدي يتدحرج إلى الأسفل نحو الشاليه.. أخيراً تكومتُ أمام الباب. كان المفتاح معي لحسن الحظ. فتحتُ ودخلت. المشكلة الآن أنني لا أعرف الشاليه من الداخل ولا أعرف إذن غرفة السيدة. وهو شاليه ضخم فيه ربما أربعون غرفة... كما في الحكايا... كيف لي أن أعرف غرفتها؟ أندفع إلى هذا الباب، أفتحه، وإذ هو المرحاض.. أفتح الآخر.. هو المطبخ.. الآخر حمّام.. هذا الباب.. صالون فارغ.. لم أعثر على غرفتها والأنكى من ذلك أن علبة الثقاب التي أحملها فرغت وأنا أشعل أعوادها... بقيتُ في العتمة ولم أعثر على مفتاح النور.. يشهد الله أنني درتُ في طوابق الشاليه الثلاث. أخيراً تعثّرتُ بشيء ما وتدحرجتُ فوق الدَرَج. الحمد لله، عندما تكوّمتُ عند أسفل السلّم رأيتُ بصيص ضوء يتسرب من فرجة أحد الأبواب. نهضتُ وقرعتُ الباب بيدي. جاءني صوتها من الداخل:

Twitter: @ketab_n

«كامين!» كانت السيدة، سامحها الله، تستخدم دوماً مثل هـذه الكلمات الأجنبية. فإما أن تقول «آنتريه» أو تقول «كامين». ولم تكن تقـول «ادخـل» بالتركي أبداً. ذلك أنها فائقة الأصالة.

دخلتُ، فرأيتها مضطجعة على فراش من الريش تحيـط بهـا الغـلالات الملونة، تماماً كحوريات الجنة... تنظر إلىّ السـقف. سـألتني دون أن تنظر نحوي:

- لِمَ تأخّرتَ؟

نهاراً لا يمكن أن يتأخر المرء في الوصول من البيت إلى الشاليه أكثر مـن خمس دقائق. كيف لي أن أسـرع في تلـك الظلمـة والثلـج يغطـي الأرض! لم أنطق بحرف. قالت:

- لقد طلبتك من أجل شيئ ما.. لكنني نسيت... .

بقيتُ صامتاً.

- ترى ما الذي طلبتُك من أجله؟.. كررت... ثم تذكّرتْ فجأةً:

- هه! لقد غفوتُ فجأة وأنا أقرأ، وسقط الكتاب من يدي على الأرض. ناولني هذا الكتاب!..

نعم، كان ثمة كتاب على الأرض، إلا أنـه لا يمكـن أن يكـون الكتـاب الذي تقصده. لأن يدها متدلية من حيـث هـي مضطجعـة ورؤوس أصابعهـا تلامـس الكتـاب. إن شـاءت تسـتطيع أن ترفـع الكتـاب دون أن تضطـر للإنحناء، أي دون أن تبذل أيَّ مجهود. لو كان هذا هو الكتاب المقصود لمـا طلبتني في عز الليل وجعلتني أقطع جبالاً ووديانا يغطيها الثلج حتى أحمل لها الكتاب..

- أيُّ كتابٍ يا سيدتي؟ سألتها بمنتهى الجدية.

- ألا ترى الكتاب الذي على الأرض؟

انحنيتُ ورفعتُ الكتاب

* come in أُدخل بالإنكليزية.

Twitter: @ketab_n

- تفضلي، قلتُ لها.

أخذت الكتاب. ثم نظرت إليّ عبر تلك النّظارة ذات المسك ثم صرخَتْ متعجبة:

- ما هذا؟

كان الأمر أنني من شدة استعجالي، بعد أن أيقظني صوت الجرس، سهوتُ فلم أزرر بنطالي. وكانت السيدة تسأل عن ذلك. لكنني لم أفهم حقيقة الأمر. ظننتُ أنها تسأل عن الجروح والتورمات التي لحقت بيديّ ووجهي من جراء وقوعي وتدحرجي على الطريق. فأجبتها من وحي ما فهمتُ من سؤالها:

- بسيطة يا سيدتي . ليس بشيء..

ظلت تحدّق بي عبر النظارة ذات المقبض، وقالت بصوتٍ ملؤه الدهشة:

- ياإلهي! كيف ليس بشيء؟

عندما مددتُ يدي إلى حيث تثبتت نظراتُها فهمتُ حقيقة الأمر وزررت البنطال. قالت لي، دون أن تلتفت:

- كريم شانتييه، كريم شانتييه...

لم أتحرك من مكاني، لأنني لم أفهم. ما أدراني بالكريم شانتييه في لغة امرأةٍ تقول "كامن" حيث يتوجب عليها أن تقول ادخل، و«آنتريه» حيث يتوجب عليها أن تقول تفضل.

- لِمَ تقف هكذا؟ قلتُ لك كريم شانتيه..

يا إلهي! ماذا تريد أن تقول؟ اشتغلتُ بضعة أيام في البناء قبل أن أستلم شغلي عند السيدة. هناك كانوا يسمون المكان الذي نكدس فيه الاسمنت والبحص والمسامير «شانتييه». هذه فهمناها. ولكن ما دخل الكريم؟

- كريم شانتييه، كررت مرة ثالثة.

- اعذريني. ما معنى ذلك؟ سألتها.

- قل للسائق. كريم شانتييه.

Twitter: @ketab_n

وللسيدة طبعٌ غريب، بسبب عراقة محتدها على ما يبدو. لا تلمس النقود بيدها قط. كان لديها محام يجلب لها رزماً ضخمة من النقود. كانت تومئ برأسها وتقول له:

- لو سمحت اتركها هناك..

يضع الرجل رزم النقود فوق بلاطة الموقد، ثم ينصرف. والسيدة لا تلمس النقود الورقية قط. القطع الذهبية.. ربما.. وعندما ترغب بشراء شيء فإنها تومئ لي إلى مكان النقود برأسها وتقول:

- خذ من هناك!

حتى لا تتنازل لتقول: «خذ النقود» إن مجرد ذكر اسمها يشعرها بالقرف.

- خذ من هناك!

أخذتُ قبضة من النقود.

عدت إلى المنزل الخلفي. أيقظتُ السائق:

- انهض يا صاحبي. السيدة تطلب كريم شانتييه..

- اللعنة! يكاد الصبح يطلع. ما حاجتها إلى الكريم شانتييه في مثل هذه الساعة. قال ذلك وأطلق شتيمة قذرة.

كنتُ وقتها ساذجاً. فكرت أن الأمر مادام يتعلق بكريم، فإنه نوع من الكريمات التي تطلى بها الوجوه. قلتُ للسائق:

- لنبحث عن صيدلية مناوبة ونشتريه لها.

- امشِ يا غبي. لا تتكلم كثيراً!

أخرج السائق السيارة من الكاراج. انطلقنا بها وتجولنا كل الضفة الآسيوية من استانبول، لم نجد دكاناً واحدة مفتوحة. بواسطة العبّارة التي تقل السيارات انتقلنا إلى الضفة الأخرى. صرنا ندقُّ على أبواب المطاعم ومحلات المهلبية: «افتح يا أخي.. أرجوك.. اطلب قدر ما تشاء من النقود... ولكن دبر لنا شيئاً من الكريم شانتييه..» طردنا البعض.. شتمنا آخرون.. وهددنا البعض الآخر باستدعاء الشرطة، ظاناً أننا من اللصوص.

Twitter: @ketab_n

لنختصر يا بنيّ.. أخيراً وجدنا محلاً رضي أن يبيعنا هذا الكريم شانتييه. عدنا أدراجنا بواسطة عبارة السيارات. عندما وصلنا الشاليه اقترب الفجر. أخذت الكريم شانتييه إلى السيدة. وجدتها كما تركتها قبل ساعات.. مضطجعة في سريرها تقرأ..

–ها قد جئتُكِ به يا سيدتي...

سبق وأخبرتك أنها كانت تعيش مع قطة. واسم القطة «خرزة».

– يا خرزة... يا خرزة...، راحت تنادي قطتها.

خرجت تلك القذرة من تحت الديوان. ويالدهشتي! وضعت الكريم شانتييه في طبق أمام القطة! واي واي واي! اقتربت منها القطة، شمت الكريم شانتييه مرةً أو مرتين، ثم أشاحت عنها. لم تأكلها! كدت أنفجر غيظاً. قلتُ لها:

– إنها لا تأكلها يا سيدتي...

– تصطفل. أنا فعلتُ ما يمليه عليّ ضميري.. إن شاءت فلتأكل..

إما هكذا أصالة وإما فلا! إما هكذا الضمير، أو لا!

كان للسيدة خانٌ في قلب «بَيُوغلو». وتحت الخان قبو فسيح لا يستخدم. عرفتُ هذا من رجل جاء مع محاميها ذات يوم. قال:

– أجّريني ذاك القبو بخمسِ مئة ليرة عن كل يوم. وسأدفع لك إيجار سنة مقدّماً.

وماذا كان جوابها؟ اسمع:

– هذا ما كان ينقصني! أنا أعمل؟ أتعرض عليّ عملاً؟

كانت تجعّد وجهها وهي تلفظ كلمة «عمل» كأنما وضعت في فمها شيئاً كريهاً. كلاً من الرجل والمحامي يحاولان إقناعها:

– لا يا سيّدتي. أنت لن تعملي. أستغفر الله... نحن الذين سنعمل.. أنتِ فقط ستقبضين إيجار المحل..

حسبتها في ذهني: شهرياً خمسة عشر ألفاً، سنوياً 180 ألف... وبنقود تلك الأيام... تصوّر..

Twitter: @ketab_n

– أرجوك لا تعرض عليّ أي عمل... لا أريد! ، أصرّت على موقفها وكادت تطردها، ستقول الآن أنها مجنونة. أنت غلطان يا بنيّ. لم تفعل ذلك لأنها مجنونة.. بل لأنها أصيلة.. إنها في ذرى الأصالة وكرم المحتدّ...

لا أذكر لأي سبب غادرت الشاليه بعد فترة وغابت عن الأنظار... سمعتُ بعد فترة من السائق أنها تزوجت رجلاً من طينتها. بقيتُ شهراً آخر في حراسة الشاليه. وذات يوم جاءني السائق ودفع كل مستحقاتي. من يومها لم أرَ السيدة. أتسألني ممن تزوّجَتْ؟ لا أعرف يا بنيّ، لكن اسمع... تذكّرت... إن لم أكن مخطئاً فإن اسم الرجل الذي تزوجته هو «حسن كوسه لك»... نعم، نعم حسن كوسه لك... بل أتذكر جيداً. كنتُ قد فتحتُ مطعماً صغيراً. جاءني السائق ذات يوم ليأكل عندي. سألته عن السيدة فقال:

– تركتُ العمل عندها من زمان.. وقد حدثت أمور عجيبة. ضبطها زوجها القواد المدعو حسن كوسه لك في بيت دعارة...

خطيئتها في رقبته. أنا لم أصدقه.

– غير معقول يا صاحبي، قلتُ له.

– ليس الذنب ذنب الحرمة. كل الحق على الكافر زوجها... لقد لعب عليها...

حكى لي أن المدعو حسن كوسه لك من وجهاء البلد وروى تفاصيل كثيرة لا أتذكرها الآن.. بعد ذلك كثيراً ما رأيتُ صورتَهُ منشورة في الجرائد.. لا بد أنك سمعتَ به... ولكنها أمور قديمة... لن تتذكرها... الآن لا أحد يسمع به. أنت الآن تبحث عن السيدة بتول إذن؟ قد تكون ضالتك امرأةٌ أخرى. تلك كانت امرأة عصرية جداً وأصيلة جداً... مع السلامة يا بنيّ.. مع السلامة...

إعلان في الراديو

في فترة الإعلانات عن المفقودين يذيع المذيع ما يلي:

Twitter: @ketab_n

«هنا راديو استانبول. نقرأ عليكم الآن إعلاناً عن المفقودين. محمود يارلي يبحث عن عمته "وردة". وهي من قرية بالقاج ـ محافظة إزمير. قبل أربعين أو خمسة وأربعين عاماً تبنّتها أسرة موظف في مركز المنطقة. وبعدما غادر الموظف المنطقة انقطعت أخبار "وردة" تماماً. العنوان: محمود يارلي ـ الفندق الجديد ـ سيركه جي ـ استانبول».

الأميرة فشافيش ذات الطابقَيْن

بونجور.. أنتَ قريب الأميرة فشافيش؟ برافو.. أنتَ شاب صغير السن.. لا أعطيك أكثر من ثمانية عشر عاماً.. «كودي فو؟» *هـ للغرابة! عمرك واحد وعشرين؟ «آمبو سيبل» لايبدو عليك أبداً.. أنت مثل صبي صغير.. لكنني أعتقد أنك تبلغ الثلاثين.. بغض النظر عن المظهر.. لماذا؟ لأن الأميرة فشافيش صديقة قديمة لي.. كيف يقولونها بالتركي؟ «إل يا كلك آن». هل تجيد الفرنسية؟ يا خسارة.. لغتي الأم هي التركية «ناتورلمان» «فو».. لكن.. بقيتُ فترة طويلة في «أوروب». واللغة التركية هي بالنسبة لي «ديفيسيل» بعض الشيء.. أتكلم الفرنسية بإرتياح أكثر من التركية.. «إت إز فيري ديفيكلْتي» هل تجيد الإنكليزية؟ آه.. خسارة.. «سوري»..

أنتَ لم ترَ عمتك قط؟ أبوك أيضاً لم يرها؟ ألم تكن تعرف أنها أميرة؟ غريب! «كودي فو؟» نعم، كانت أميرة. وأميرة شهيرة جداً... «آكوفا بانسيه فو؟» كيف يقولونها؟ لِمَ فكرتَ هكذا؟ سأحكي لك «ناتوريل مان».. ولِمَ لا أحكي؟ «إل نيا يا دو كوفا...»

الآن؟ طبعاً ما تزال أميرة. إن أصبحت المرأة أميرة، فهي تبقى كذلك... لا أعرف مكانها الآن.. ربما تكون في بلاد العرب. أو في مكان مشابه... ولعلها في أوروبه. كانت تقضي أشهر الصيف في فرنسا وإيطاليا، في «الروفاجات» الجنوبية. «روفاج» معناها شاطئ، شواطئ البحر الأبيض

---

* يتحدث الرجل تركية مكسّرة يشوبها الكثير من المفردات الفرنسية والإنكليزية.

Twitter: @ketab_n

المتوسط. صادفتها آخر مرة إما في كان أو نيس أو مونت كارلو.. لا أدري كيف هي الآن لكنها كانت، وقتها، إمرأة «روتوغان» جداً، كيف أقولها بالتركي؟ يعني «كبتيفان» جداً... دعني أوضّح لك.. إنها نموذج المرأة التي تثير شهية الرجال وتدفعهم لعبادتها... «سو لا أو تو سيرتيتود دان لو شوز».. هل فهمت علي؟

نعم يا سيدي؟ تستغرب أن لها أسماء كثيرة؟ تشك أن يكون الحديث يدور عن نساء أخريات؟ هكذا؟ لا.. يا «مون شير».. عمتك إمرأة عظيمة، من الطراز الفريد... ولذلك «نورمال» جداً أن يكون لها العديد من الأسماء.. كانت تحيا حياة ثرية جداً ومفعمة بالألوان... عاشت حتى الإمتلاء. «إي تيل إيان دو بلوبو؟» يعني... كيف تقال؟ هل ثمة ما هو أجمل من هذا؟

نعم؟ أتسأل عما إذا كانت عاشت حياة بائسة في بعض الأحيان؟ وماذا يضر يا «مون شير»؟ إنه تفكير «كونسر فاتيف»... أنت ما تزال يافعاً جداً وغراً... «إل فوسيه مال بارل آن سي...» إيه... كيف تقال بالتركي؟ يعني لا يليق بك الحديث عن عمتك بهذه الطريقة... إنها امرأة كبيرة مون شير... لسوء حظها أنها ولدت في بلدٍ صغير. لو أن امرأةً مثلها وُجِدَتْ في أوروبا، كانت دخلَتْ التاريخ، تاريخ الحب، وربما تاريخ الأدب وتاريخ الفن وتاريخ السياسة. أعندك شكوك من أن الأميرة فشافيش ليست عمتك التي تبحث عنها؟ ربما يامون شير، «بوسيبل» أنها إمرأة أخرى... قل لي بأية أسماء سمعتَ عنها حتى الآن؟ أووه! إذن فقد سجلت في دفتر ملاحظاتك؟ إقرأْلي أرجوك نعم... بتوش الحلوة... شُكران... السيدة بتول... وماذا بعد؟ حسناء شيشلي، الطفلة الشقراء، بتول ـ الراحة، سيدة المزاد، السيدة عملة صعبة... السيدة الإستثنائية... «أون مومان»... تقول السيدة عملة صعبة؟ قه قه قه... قه قه ... نعم هي نفسها... نعم، نعم، نعم. ونحن.. كيف يقولونها... أضمن لك أن الآنسة عملة صعبة هي نفسها الأميرة فشافيش. «جو سو سولا آفِك سير تيتود». باردون... أريد أن أقول، لا تشك

Twitter: @ketab_n

في هذا أبداً... لأنها قبل أن تصبح أميرة كانت معروفة في الوسط المخملي باسم المودموزيل عملة صعبة. «شي واز ول نون وومن، يس..» باردون.. أنت متأكد من أن المودموزيل عملة صعبة هي عمتك؟ إذن جيد يا مون شير، وأنا شاهد على أنها فيما بعد أصبحت الأميرة فشافيش. هي بالضبط المرأة التي تبحث عنها...

أنت تريد أن تعرف كل المعلومات التفصيلية عنها؟ «سولمان».. باردون.. كيف أقولها؟ «أنتيمان شوكر» كيف يقال؟ ثمة تفاصيل ينبغي أن تبقى سراً.. أخشى أن تتأثر لكونها عمتك. لن تتأثر؟ إذن اسمع.. «جومان لاف لو مان».. لا تلمني بعد الآن...

هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟ مرسي... حتى الآن لم يسأل عنها أحدٌ من أسرتها... حتى أبوك لا يعرفها... لِمَ الآن تريد الوصول إليها؟ إذن هي الروابط الأسريّة وعاطفة القرابة؟ برافو إذن... أم تراك تريد أن تطلب منها شيئاً؟ لعلك سمعتَ عن ثرائها؟ هه! إذن ثمة دعوى قضائية وأنت ملزم بالعثور عليها... منذ زمان بعيد أصبتُ بمرض الـ «جينيكوفوبي».. أتعرف ماذا تعني الكلمة؟ وكيف سأشرح لك؟ إنه مرض خاص بالرجال ويدعى الخوف من النساء، قرف من المرأة.. كنتُ وقتها أخاف من النساء... وحتى الآن أخاف... وكان لي صديقٌ يدعى سادات الناعس. سموه كذلك لأنه ينظر نظرات ناعسة دافئة... أصبحنا صديقين حميمين منذ بدأ عندي الخوف من النساء... كنا مع بعض باستمرار، هل تفهمني؟ أينما مكثنا وأينما ذهبنا. سويةً... وذات ليلة ذهبنا إلى حفلة راقصة في نهاية الموسم. حيث تعرّفنا على الأميرة فشافيش. سألتُ عن معنى كلمة فشافيش فشرحوا لي. معنى الكلمة بالتركي الخفيف. ولهذه التسمية قصة: تزوجت عمتك أميراً عربياً واكتسبَتْ لقب أميرة. في لقائها الأول بهذا الأمير (الباشا) كانت ترتدي ثوباً من التفتا. وكلما تحرّكَتْ في الصالون كانت أطراف الثوب تحتك بالأرض وتصدر حفيفاً خاصاً «فش.. فش.. فش..». افتتن الباشا العربي بهذا الصوت وراح يقول مبتهجاً: «ياله من فشافيش! يا له من

Twitter: @ketab_n

فشافيش!..». ومن شدة ولعه بصوت الحفيف، سمى الأميرة بعد زواجه منها فشافيش. وهكذا صارت عمتك الأميرة فشافيش... إن معنى اسمها الأميرة حفيف، لكنها غير مناسبة «تري جولي» قه قه قه...

عندما أخبروني أن الأميرة فشافيش هي المودموزيل عملة صعبة التي نعرفها ازداد استغرابي. إذ أنها تغيَّرَتْ كثيراً... بالكاد عرفتها... عندما كانت مودموزيل عملة صعبة كانت تيباً أوروبياً خالصاً. لكنها بعد زواجها من الباشا صارت تشبه أميرات العرب... إن خصوصية الأميرة العربية الكلاسيكيه هي كونها شهية كالفستق الحلبي..

كانت الأميرة فشافيش وقتها ممتلئة الجسم بعض الشيء وكحيلة العينين. كيف أصبَحَتْ أميرة؟ في منتهى البساطة. بالنسبة للمرأة الحسناء ليس أسهل من أن تصبح أميرة... «بار إكزامبل» يكفي أن تذهب إمرأة جميلة إلى بعض بلاد العرب، تمتطي بعيراً، يراها شيخٌ عربي أو ملك أو أمير هناك فإنه لن يتركها قبل أن يحوّلها إلى أميرة... ففي تلك الأيام، كان عدد الشيوخ والأمراء أكثر من عدد الفلاحين. وهذا «تري نورمال». لأن الأمير إن كان قنوعاً فإنه يتزوج على الأقل عشرين امرأة. فإذا أنجبت كلٌ منهن خمسة أطفال، أصبح لديك مئة طفل وطفلة. وإذا كان نصفهم ذكوراً أصبح لديك خمسين أميراً تحدروا من أمير واحد. وإذا تزوج كلٌ منهم عشرين امرأة وأنجبت الواحدة خمسة أطفال.. أصبح لديك خمسين أمير جديد.. وهكذا.. أتفهمني؟ إن أكثر المخلوقات تناسلاً هي الأرانب والخنازير والأمراء. لولا الـ «روفولوسيون»، أعني لولا الإنقلابات على الأمراء، ولولا قتل الخنازير والأرانب، لأمتلأ العالم بهذه المخلوقات الثلاثة: أمراء، خنازير، أرانب.. طبعاً بالإضافة إلى الأميرات.. لحسن الحظ أن الإنقلابات والثورات لا تنتهي، وإلا ما بقي شبرٌ من الأرض يتسع لباقي البشر... أريد أن أقول أن بعض أمراء العرب هؤلاء، ما إن يروا إمرأة حسناء، حتى يحوّلوها إلى أميرة. أنا أعرف عدداً من النساء والبنات اللواتي حوّلوهن إلى أميرات. تذهب إحداهن شهراً واحداً إلى تلك البلاد فلا تعود إلا وهي أميرة. نعم يامون شير. لكلّ امرئ طبعٌ وهواية. وطبع

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الشيوخ والأمراء هو أنهم يحولون كل امرأةٍ جميلة يرونها إلى أميرة. ما أن يلمسوا المرأة حتى تتحول إلى أميرة... الأمر في منتهى السهولة. في تلك الأيام كانت تلك البلدان مصنعاً للأميرات. والمرأة الذكية لا تبقى عندهم. فقط تحصل على لقب أميرة. وبعد شهر ترحل إلى أوروبا... وأوروبا مستودعٌ للأميرات.. أي من المصنع إلى المستودع...

والأدهى أنني اكتشفتُ في تلك الليلة أن صديقي سادات الناعس كان زوجاً سابقاً للأميرة فشافيش! كنتُ وقتها في أوروبا، حيث بقيتُ نحواً من عشر سنوات. كانا قد تزوجا في فترة وجودي في أوروبا. قالت عمتك لسادات:

- «شقيتُ كثيراً في صِبَايَ. أريد منك ولداً». كان سادات شاباً وسيماً. تزوجا. ولكن كيف لسادات الناعس أن ينجب؟ «آمبوسبيل!» لأنه مريض مثلي «جينكوفوبي»... يشمئزّ من النساء مون شير... سألتني لماذا تزوج منها إذن؟ لأن مودموزيل عملة صعبة... عفواً مدام عملة صعبة لديها الكثير من المال... تسافر إلى أوروبا وتأتي بالكثير من البضائع. «نوفو بارتي..» أتفهم؟ وسادات الناعس وهو «تري غو شيري» كزوج... باردون، باردون... أقصد فاشل تماماً... هو «غالانتان» لكنه «غوشيري».. كيف أشرح لك؟ يعني أنه ناقص الرجولة.. تقبل مدام عملة صعبة بقدرها على مضض.. صحيح أنها لم تنجب طفلاً، إلا أن لها زوجاً وسيماً... لكن لسادات الناعس أصدقاء كثيرون، وزوجته تغار عليه منهم... تغار بشدة... بعد ذلك يهرب سادات منها ويتركها وحيدة... كيف أقول؟ مدام عملة صعبة تنهار من جراء الصدمة، لأنها تحب زوجها كثيراً. تُغرقُها التعاسة... تدمن على الكحول... ثم تنجرف وراء نوعٍ آخر من الحياة... أتعرف كيف؟ أعني تبدأ بمعاشرة رجال عديدين... كل ليلة مع رجل جديد... ثم تنزلق إلى بيوت الدعارة. لكن بيت الدعارة الذي استقرت فيه «لوكس» جداً...

في تلك الأثناء يزور تركيا أحد الأمراء ... ووفقاً للبروتوكول ينبغي أن ترافقه امرأة... سألوا ياور الأمير: «أيُّ لونٍ يفضل سمُوهُ؟» فأجابهم قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«سموهُ يحب الشقراوات المتلئات». وكما في كل مرة فقد اتصل مدير البروتوكولات بأرقى بيت دعارة في استانبول وطلب إرسال شقراء بدينة ذلك اليوم. ومن هي الأدرى بأتيكيت الوسط المخملي؟ طبعاً مدام عملة صعبة... وهي شقراء وممتلئة حسب الطلب... تجيد الفرنسية والإنكليزية. اتصلوا بها وأخبروها. «مو مال شانس مون شير...» فقد صبغَتْ مدام عملة صعبة شعرها باللون الأسود في نفس اليوم! وهي لا تعرف أن سُمُوَّهُ يحب الشقراوات. ذهبت إلى القصر. عندما رآها مدير البروتوكول غضب بشدة واتهمها بالضحك على ضيفنا سموالأمير.. وطردها من القصر. في الليلة نفسها داهمت الشرطة الأخلاقية بيت الدعارة الذي يشترك فيه وجهاء الوسط المخملي... «مارولوزمان..».

مدام عملة صعبة استاءت كثيراً مما حدث. وفي تلك الأيام تحوّل عدد كبير من نسائنا المحليات إلى أميرات. كانت موضة... وكثيرات من معارف مدام عملة صعبة أميرات.. لذلك قررت أن تصبح أميرة لسببين: أولاً لتنتقم من سادات الناعس الذي تركها ورحل، وثانياً للإنتقام لكرامتها التي تعرضت للإهانة بسبب طردها من القصر. كانت ترغب أن تُجبر مدير البروتوكول على تقبيل يدها بعد أن تصبح أميرة. كانت ذات إرادة حديدية مون شير! كان عليها أن تسافر إلى إحدى البلدان العربية حتى تصبح أميرة. سافرت عن طريق وسيط يورّد الراقصات والفنانات إلى كباريهات ذلك البلد... وفي سعيها إلى لقب الأميرة ظلت عاماً كاملاً تنتقّل بين الكباريهات والملاهي والفنادق، لكنها أخيراً بلغت مرامها. «كولو سنيور إي غراند...» باردون.. أريد أن أقول الله أكبر! كما سبق وأخبرتك التقت الباشا ـ قريب الملك، في حفلة راقصة. يسمع الباشا حفيف ثوبها التفتا فيسيل لعابه وهو يردد: «ياله من فشافيش! ياله من فشافيش!». وهكذا تزوجها الأمير وصارت الأميرة فشافيش. يشرّف الملك عرسهما بحضوره. وما إن يرى الأميرة حتى

Twitter: @ketab_n

يصعق بجمالها فيقول غاضباً: «لِمَ لم تظهروها أمامي حتى الآن؟». يُهَدِّئُهُ الباشا قائلاً:

– وما الفرق يا صاحب الجلالة؟ سواءٌ أكانت لك أم لي؟..

بعد ذلك يصحبها زوجها إلى القصر الملكي. لأنه من الرجال الذين يفهمونها وهي طائرة. لقد رأى الملك وهو يتلمظ لرؤية زوجته. فتركها في القصر بعد انتهاء وليمة العشاء وانصرف هو. وهكذا حلّت الأميرة في تلك الليلة ضيفةً خاصة على الملك. لكنها آفة يا مون شير. لم تترك الملك يلمس ولو ذيل ثوبها... إنها إمرأة مجربة يا مون شير... لو أنها هي الراوية لما صدقتها. لكني سمعت القصة من آخرين. أوشكت في تلك الليلة أن تصبح ملكة! وهذا حقّها! إن لقب أميرة قليلٌ على إمرأةٍ مثلها... إنها امرأة «آنسا نتيابل»...باردون... كيف يقولونها؟ أعني أنها من النوع الطموح الذي لا تشبع له عين..

عندما صرف الملك ضيوفه وخلا القصر له وللأميرة، راح يطاردها في أرجاء القصر... هو يركض وهي تركض... ظلا يتراكضان في ممرات القصر حتى وقتٍ متقدم من الليل... ولم يتمكن الملك حتى من لمسها بطرف أصبعه. كانت تقول له: «إن امرأةً شريفة وبائسة مثلي لا تليق بجلالتكم». أو تقول له ضاحكة بصخب: «انتبهوا يا جلالة الملك.. اركضوا على مهل وإلا وقع منكم كرشكم!». وتضحك. إل لوي يري أون ريرفو.

نعم ثمة نساء شريفات إلى هذا الحد. وهل كان الباشا تركها في القصر ليلاً لولا ثقته الكبيرة بها؟

استمرت المطاردة حتى أطراف الصباح. خشي الملك أن يتوقف قلبه إرهاقاً قبل أن ينال غرضه منها. غارقاً في عرقه رسم خطة سياسية سريعة في ذهنه ثم صرخ بها يقول: «قد رسمتكِ ملكة!». وهذا ما كانت تنتظره الأميرة. ما إن سمعت هذا الكلام حتى ارتخَتْ أوصالها وتهالكت على الأرض قرب أحد الأعمدة. جاء الملك وتهالك قربها تراجعَتْ مقاومتها لأنها وصلت إلى مبتغاها. لكن الملك كان يلهث من الإرهاق. ما كان في مقدوره في

Twitter: @ketab_n

تلك اللحظة أن يحوّلَ الأميرة إلى ملكة... دعك من ذلك ما كان باستطاعته حتى أن يحرك أصبعه الصغرى... قال لها وهو يلهث:

-«أأعجبك ما فعلتِ بي؟ أترين إلى حالتي هذه...»

إلا أن عمتك ذات حظٍ سيئ يا مون شير... ففي تلك الليلة نفسها حدث إنقلاب.. أمسك الانقلابيون بالملك وهو يحاول الاختباء تحت تنورة الأميرة. رحّلوا الملك إلى المنفى. لو أن الانقلاب حدث بعد الظهر لكانت عمتك قد رُسِمَتْ ملكة. إنه الحظ السيّئ. صحيح أنها ليست ملكة رسمياً، إلا أنها ملكة بعض الشيئ... لأن الملك تفوه بهذه الكلمات: «سأجعل منك ملكة!». وكلام الملوك يحمل أهمية خاصة...بعد الانقلاب عادت الأميرة إلى بيت زوجها. ولأن أقرباء الملك يواجهون خطر القتل أو النفي، فقد انقلبوا جميعاً ضد الملك. "مال أونت!" باردون، كيف يقولونها بالتركي؟ إنعدام الشرف...

الباشا يصرخ في وجه زوجته - مِلْ باردون - : «أنتِ قحبة ولا يمكن أن تكوني زوجتي!». «بارسكو» يقول لها: «لقد خدعتيني. قضيت ليلةً مع ذاك الملك الخائن في قصره». فترد عليه الأميرة بلا تردد: «أنت أخذتني إلى القصر بنفسك. وتركتني هناك بملء إرادتك. ثم تسللتَ هارباً دون أن تخبرني!» فيقول الباشا: «تركتك أي نعم. ولكن تركتك أمانة هناك».

تصور يا مون شير هذا الموقف الأليم... الأميرة إمرأة كبيرة وخبيرة.. ذاقت حلو الحياة ومرّها. هل تسكت على هذا الكلام!.. مِلْ باردون مون شير، رفعت حذاءها في وجه الباشا وهي تصرخ به: «ولاك يا دّيوث! إن ما فعلتهُ ينافي حتى أعراف القوّادين وأخلاقهم! لقد تعاونتُ مع عدد كبير من القوادين، لكني لم أصادف من هو أسفل منك وأحط!..» وراحت تضربه بالشحاطة.

كان الانقلابيون يداهمون بيوت بطانة العهد البائد. تصادف دخولهم بيت الباشا وهو يتلقى علقته الساخنة من الأميرة بواسطة الشحاطة ويصرخ «النجدة! المدد!» راح يستنجد بالجنود الذين جاؤوا لقتله!

Twitter: @ketab_n

أثار مشهد الأميرة وهي نصف عارية في ثياب النوم، وإحدى علاّقتَيْ حمّالة صدرها متهدّل، راكبةً فوق زوجها وهي تضربه بالشحّاطة وتصيح به «يا قواد» أثار هذا المشهد إعجاب الضباط الانقلابيين فراحوا يصفقون لها ويشجّعونها.. «لو روبلي دولَ ام».. كيف يقولونها؟ أقصد أن أدق المشاعر الخبيئة للضباط قد ارتعشَتْ لمرأى عري الأميرة. ومثلما أنقذوا الوطن ـ الأم من طغيان الملك، أرادوا الآن إنقاذ الأميرة من طغيان زوجها. قالوا لها: «أنتِ رمزُ وطننا يا سيدتي!» إلا أن عمتك امرأة «تري أنتليجانس» ردت عليهم تقول: «أنقذوا أنفسكم أولاً..».

صدقني أنا لا أفعل «رد يكوليزه» أبداً.. بالضبط هذا ما حدث... استاء الباشا استياءاً شديداً بعد طرد الملك وقال: «إن تضحيتي قد ذهبت أدراج الرياح! تركتُ زوجتي في القصر ولم أستفد!» ومن لا يستاء من موقف كهذا!..ماذا تقول؟ كيف؟ الحق على الباشا؟ أنا لا أشاطرك الرأي. صحيح أنه هو الذي أخذ زوجته إلى القصر وتركها هناك مع الملك. لكن ما أدراه أن إنقلاباً سيحدث ليلتها؟ أكان يقوم بتضحيةٍ كهذه لو كان يعرف؟ لقد اغتاظ جداً.. ومن لا يغتاظ؟

صادر الانقلابيون كل ممتلكات الباشا وجعلوا له راتباً بسيطاً.. وعلى إثر ذلك حصلت الأميرة على الطلاق لأنها «غير قادرة على العيش مع رجل محدود الدخل». في الحقيقة إنَّ كليهما على حق. لقد قدم الاثنان تضحيات كبيرة ولكن «مال شنس».. لا نتيجة. لولا الانقلاب لأصبح زوج الأميرة وزيراً أول.

أما الباشا فقد أدعى أنه هو الذي طلّقها لأنها كانت «تسيء إلى سمعته».. «إل نيا سرتيتود دان لو شوز دون موند.»... آه باردون.. في التركية تعني: لا تثق بمخلوقات العالم. اليوم تجدها وغداً تفقدها... «الآراتي لا في...» كيف أقولها؟ لقد أفسدت حياتها. لم أرها بعد ذلك قط... «مو».. لكنني سمعتُ أنها مرت بظروف صعبة جداً. «إيروني دو سو» هذه سخرية القدر... أورفوار... العفو...

Twitter: @ketab_n

خبر في جريدة

الأسرة التي ورثت عشرين مليون ليرة تبحث عن قريبتها المختفية منذ أربعين عاماً كي تتمكن من استلام الميراث واقتسامه.

يقدر البعض الثروة التي تركها عمٌ للعائلة في مصر، بعد وفاته، بعشرين مليون ليرة، بينما يقدِّرُها البعض الآخر بعشرين مليون دولار. ولا تستطيع هذه الأسرة إستلام الميراث مالم يتم العثور على قريبةٍ لها انقطعت أخبارها منذ أكثر من أربعين عاماً حين تبنتها أسرة موظف. وخلال ما يقارب النصف قرن الماضي فقد توفي أبو «وردة» وأمها وأخوتها ومعظم أقربائها، ولم يبق على قيد الحياة سوى أولاد الأخوة والأحفاد وهم نحو خمسة عشر شخصاً. وقد بدأ هؤلاء يبحثون عن (وردة) في كل مكان، إلا أنهم لم يعثروا لها على أثر. ومادامت مختفية عن الأنظار، ومالم يثبت وفاتها بوثائق رسمية فإن الميراث الضخم سيبقى معلقاً.

أثر قبقاب شكران المتبناة

من الذي يسأل عني يا علي؟ ليصعد إلى هنا إذن... ماذا يريد؟ يسأل عني؟ دعه يدخل... نعم يا فتى؟ عمن تسأل؟ نعم أنا مظفّر الجقر. نعم، أنا... عمّ تريد السؤال؟ مسألة خاصة؟ طيب... خذ راحتك واحكِ.. تفضل، اجلس هنا. من؟ بتول؟ أية بتول؟ وما شأني بها؟ أنتَ تبحث عنها؟ وما أدراني؟ هاه! الآن فهمت... قل هذا من الأول... إذن هي عمتك؟ غير معقول!... يااه.. كم مضى من سنوات!. ترى أين هي الآن؟ إذن هي عمتك؟ طيب ومن أين ظهرتَ أنت؟ إذن أنت تبحث عن عمتك؟... نعم... إنها هي بالذات... وأنت الآن تبحث عن رأس خيط.. طيب، وماذا بعد أن تجمع عنها المعلومات؟ إن كان عليّ، فسوف أخبرك عما أعرف... ذهبتَ إلى حارتي القديمة... وهناك دلّوك عليّ؟ الله يعطيهم العافية... لم ينسونا بعد.. مضت سنوات طويلة لم أطىء خلالها حارتي القديمة. آخر مرة كنتُ فيها تأثرتُ كثيراً... تغيّر كل شيئ نحو الأسوأ...

Twitter: @ketab_n

باعوا البستان عقارات، وامتلأ كل مكان بالبنايات الشبيهة بالأسنان الاصطناعية. كان ثمة نبع في البستان أيام زمان.. أهو موجود حتى الآن؟ وراء ذاك النبع كانت تكيّتنا. لا يغرّنّك مظهري الحالي... الحمد لله لستُ أشكو من شيئ. أنا ابن رستم أفندي شيخ زاوية طريقة "الآق باش". كانت شجرة قرّاص ضخمة تنتصب في الخلاء وراء الزاوية. في آخر مرة زُرتُ فيها الحارة عرفتُ أنهم قطعوا تلك الشجرة... أليست خسارة! أتُقطعَ شجرةٌ مثلها؟ شعرتُ بغصة... كانت لي ذكريات حلوة عند تلك الشجرة... يالها من أيام!.. أول معرفتي بعمتك كانت عند تلك الشجرة. أتريد أن أحكي لك كل شيئ؟ ولكن أخشى أن يسوؤك ما سأقول... لا تزعل! ما فيه زعل... قد أرسلك إليّ الله يا بنيّ... بفضلك سأفضفض وأتذكر الأيام الخوالي.. ولكن كيف أحكي ومن أين أبدأ؟

كان المرحوم والدي واحداً من أصحاب الكرامات. كان يقول لي منذ ذلك الوقت: «لن تصبح رجلاً يا بنيّ.». وحقاً حدث ما تنبّأ به. من كان يتوقع أن ابن شيخ زاوية «الآق باش» سيفتح مقهى؟ إنها الحياة يا بنيّ...

كنت وقتها شاباً في مقتبل العمر... بالاعتماد على نفوذ أبي كنتُ فاراً من الخدمة العسكرية، ومقيماً في الحارة... قرب الساحة التي تتوسطها الشجرة التي حدثتك عنها كان بيت الدكتور. وأسرة الدكتور من نفس طريقة «الآق باش» التي يرأسها أبي.. كل يوم أربعاء كان الدكتور يأتي إلى الزاوية ويشارك في حلقة الذكر... وذلك طالما هو في استانبول... في بيتهم الذي في الحارة... وقد جاؤوا معهم من مكان ما من الأناضول بفتاة تبنوها. هي من تسميها بتول... انظر إلى حكمة ربكً... ما أصغر هذا العالم! لكن آنذاك لم يكن اسمها بتول... كانوا يسمونها «شُكران»...

نعم، نعم، الآن تذكرت... نعم إنه لكذلك... بالفعل كان اسمها الحقيقي (وردة). فقد أخبرتني بذلك.. بدّلَتْ زوجة الدكتور اسمها بحجة أنه اسم فلاحيّ. في ذلك الزمن اعتادوا أن يفعلوا ذلك... كانوا يغيّرون أسماء البنات بالتبني... وهؤلاء لحكمة من عند رب العالمين ـ كلهن

Twitter: @ketab_n

جميلات... حتى لا يظن الناس أنهن بنات الأسرة بالفعل، يطلقون عليهن أسماء مستعارة وبذلك يعرف الجميع أنهنّ متبنّيات... هل فهمتني؟

ليس هذا وحسب، بل كانت سيدة البيت تقص شعر الفتاة المتبناة من جذوره بحجة القمل، بينما السبب الحقيقي هو رغبة السيدة في أن تبدو الفتاة قبيحة فلا يتحرّش بها زوجها.. نعم هكذا... لأختصر يا سيدي. عندما تقاعد الدكتور واستقر مع أسرته في الحارة راح اسم شكران يتردد على ألسنة شباب الحارة. صحيح أنها بالكاد تبلغ الخامسة عشر من عمرها ولكن ما شاء الله... تخزي العين.. كانت لها مؤخرة عريضة ممتلئة ولا أجمل... لا تزعل مني على صراحتي.. كنا نسمع من نساء البيت، أن زوجة الدكتور تدّعي أن رأس شكران مليئ بالقمل، فتدهن رأسها بنوع خاص من السم لقتل القمل.. لذلك قصت شعر الفتاة "على الصفر". غير أن الجميع يعرف حقيقة الأمر. صحيح أن الدكتور كبير السن، لكنه لا يوفّر أنثى الذباب الطائرة في الهواء.. وهو على كل حال من مريدي الطريقة.. أبي كان مثله.. رحمه الله وعفى عن فعاله مع النساء... لقد ضَبطَتْهُ زوجة الدكتور أكثر من مرة وهو يتحرش بالفتاة، يحاصرها هنا وهناك من زوايا البيت. فقَصّتْ شعرها حتى يختفي جماله... هل فهمت؟

إن حارتنا حارة فقراء، أتفهم؟ البيت الوحيد الذي فيه فتاة بالتبني هو بيت الدكتور... ولأن الفتيان لا يتجرؤون على التحرش ببنات الحارة، راحوا يلاحقون شكران كالقطط الهائجة في شباط...

ذات يوم، وأنا أعبر تلك الساحة، رأيتُ شكران فوق الشجرة. واي واي واي! أنت كبيرٌ يارب! قد أرسلَ الله لي نصيبي... فوراً خلعتُ حذائي ذا الكعب العالي وتسلّقتُ إليها.. يا لها من أيام! عندما رأتني أطلقتْ صرخة. «اسكتي يا بنت!» قلتُ لها «إذا سمعتك جماعتك، طردوك من البيت. وأنت الخاسرة!».

– «دخيلك اتركني!» بدأت تتوسل إليّ.

Twitter: @ketab_n

كانت تنتفض بين يديّ كطير الكنار... حتى اليوم أحس بدقات قلبها فوق راحتي... نكأتَ لي جراح القلب أيها الشاب... لسوء الحظ لم يكن على رأسها شعر لأتمكن من شدها نحوي... كانت أسوأ من صبي. «اتركني وإلا!» قالت فجأةً. «وإلا ماذا؟» قلتُ لها وأنا أمد يدي لأمسك بتنورتها.. وللتو مزّقَتْ وجهي بأظافرها ثم قفزت إلى الأرض! كانت المسافة مرتفعة جداً، الشجرة أعلى من سقف زاويتنا. راح قلبي يدق بعنف من شدة خوفي عليها. انزلقتُ على جذع الشجرة وهبطت إلى الأرض... وهي نهضَتْ فوراً من حيث وقعَتْ، مددتُ لها قبقابها الذي كان عند جذع الشجرة. لبسته وهمّتْ بالهروب مني. «أخشى أن تكوني تأذّيْتِ يا ملاكي». قلتُ لها ومددتُ يدي... كان ردّها سريعاً وعنيفاً: ضربَتْ بالقباب على رأسي! انظر الآن إلى جبيني، رغم مرور كل تلك السنوات مازال أثر قبقاب عمتك فوق جبيني... حلال عليها..

بعد ضربة القبقاب تلك عاهدتُ نفسي أن أثأر منها.. لكن من المستحيل الإمساك بها... كان الأصحاب يسألونني عن الجرح الذي في جبيني فألفّق لهم مشاجرةً شاركتُ فيها في أحد الجوامع.. لنختصر.. تتعّرض شكران المسكينة للضرب كل يوم حتى أصبح الجيران يُحرمون النوم بسبب صراخها وعويلها... كان الدكتور وزوجته وابنه، يضربونها كلٌّ بدوره... وياله من ضرب! كانت الدماء تنفر من فمها وأنفها... تسألني لماذا؟ لأن الزوجة تغار منها على زوجها، والدكتور يغار عليها من ابنه. والبشت الذي هو ابن الدكتور يغار عليها من أبيه! وكلما استفردها أحدهم ينزل بها ضرباً. حتى أن زوجة الدكتور دفعتها أكثر من مرة من فوق الدرج...

ذات يوم، وكنتُ ماراً خلف بيتهم، سمعتُ طرقاتٍ خفيفة على قفص النافذة. نظرتُ باتجاهها فلم أر شيئاً... أيمكن أن تكون شكران التي فجّت رأسي بقبقابها؟... كانت تصّف أمام النافذة مزهرياتٍ فيها أزهار السردينيا والقرنفل والعطرية والحبق... فجأةً وقعت أمامي زهرة قرنفل... اقتربتُ حتى حاذيتُ النافذة. سمعتها تهمس: «هل برأ جرح رأسك؟» ـ عرفتُها من

Twitter: @ketab_n

صوتها. قلتُ لها دون أن أرفع رأسي: «كدتِ تقتلينني يا عديمة الرحمة!».

– ليتَ يدي كسرت ولم أضربك بها...

خشيتُ أن يراني أحد، لكني تابعت إظهار استيائي:

– «ماذا تريدين مني الآن؟»

– عندي ما أقوله لك. تعال إلى تحت الشجرة!

التففتُ من وراء المقهى وجئتُ إلى تحت الشجرة. وإذا بي أراها بانتظاري. بلا مبالاة، وبشيئ من القسوة قلتُ لها: «ماذا تريدين يا بنت؟» باغتتني ببكائها! المسكينة تريد أن تحكي فتسبقها الدموع. أثارني بكاؤها.. كدت أشاركها. قالت لي من بين دموعها:

– أتريدني؟ إن كنتَ ترغب بي خذني وافعل بي ما تشاء.. سيقتلونني.. انظر كل جسمي متورم من الضرب.. متُّ وانتهيت.. سوف تخرج جثتي من هذا البيت.

أرتني ذراعيها.. كانت بشرتها زرقاء من الكدمات.. وكذلك وجهها... صحيح أنني وقتها كنتُ شاباً، لكني ما أزال أعتمد على أبي... بالأضافة إلى أن نيتي بالأصل، والحق يقال، كانت نيل بعض المتعة منها.. كنتُ أقول لنفسي «لِمَ تعطي الدكتور وتبخل علينا؟» هذه كانت نيتي... لكن حال الفتاة أثّرت بي تأثيراً عميقاً.. والحال أنني ابن شيخ لن يرضى أبداً بزواجي من شكران اليتيمة... قلتُ لها:

– عودي الآن إلى البيت. وسأفكر بمخرج ما...

– سوف أقتل نفسي. لن أتحمل أكثر من هذا. أليس هذا أفضل من أن يقتلوني هم؟ أرجوك خذني. أكون لك عبدة. أنقذني وافعل بي ما تشاء.

امتلأتْ عيناي بالدموع. من المعيب أن أبكي أمام امرأة! وجدتُ ذريعةً للتهرب منها. قلتُ:

– طيب. ولكن ثمة إشاعات سيّئة عنك في الحارة. يقولون أن الدكتور ينام معك. هل هذا صحيح؟

Twitter: @ketab_n

ليس في هذا العالم القذر إمرأة أشجع من عمتـك... آ واللهِ.. أتعـرف مـا كان جوابها؟

– ليعاقبه الله. يأخذني إلى سريره بالإكراه... ولِمَ أخفي عن العبد ما يعرفه الله؟

أترى الإحساس بالشرف عند فتاةٍ في عمرها؟ تفو على ذاك الدكتور العجوز... مع فتاةٍ بعمر حفيدته!..

قلتُ لها: – يقولون في الحارة أن ابن الدكتور أيضاً يفعلها. صحيح؟

الدموع تنهمر من عينيها كالمطر. ترد باكية:

– لن أكذب عليك... وخصوصاً عليك أنت. نعم، صحيح... إن زوجة الدكتور ترغمني على النوم في حضن ابنها حتى تبعد زوجها عني...

وتستمر المسكينة في نحيبها...

خشيتُ أبكي.. بل بكيتُ فعلاً.. أدرْتُ ظهري لأخفي عنها دموعي وقلتُ لها:

– هيا عودي إلى البيت. سأراك فيما بعد...

آهٍ من عقلي.. لو قلتُ أن عقلي عقل حمار لظلمت الحمار وأهنتُهُ.. تزوّجنا فتاةً عذراء، فماذا جنينا؟ لقد ركّبَتْ لي قروناً مُعرَّشة... ونمتُ ست سنوات في السجن من ورائها...

لنختصر إذن، صرنا نلتقي أنا وشُكران تحت تلك الشجرة كلما وجدنا فرصة سانحة. كانت الفتاة كثيرة الدموع... تتكلم وتبكي، وتبكي أكثر مما تتكلم. وذات يوم منعتها الدموع الغزيرة عن الكلام. فقط استطاعت أن تقول: «لن أستطيع الكلام. احكِ أنت...» ثم ضغطت بيدها على صدرها وهي تقول: «يوجد الكثير هنا ولكن...» ثم رفعت يدها إلى شفتيها وتابعت: «ولكن هنا لا يوجد شيء...» مازلتْ أذكر... ولكن أين لي الضمير في تلك الأيام؟ قلت لها: «فهمت يا صغيرتي» وأطبقتُ بفمي على شفتيها. روت لي شكران قصة حياتها وهي تبكي... ولدت أثناء خدمة أبيها في الجيش. كانت الأم هي الزوجة الثانية. وكانت مريضة وضعيفة، لا

Twitter: @ketab_n

تستطيع القيام بأي عمل. عند عودة أبيها من الجيش تزوج للمرة الثالثة من إمرأة آفة، قوية، شابة، تقوم بكل الأعمال... بدأتْ هذه تضغط على زوجها كي يزوّجوا شكران - كان اسمها آنذاك (وردة) - وكان لها عمٌ يُدعى حسن اعترض علَى تزويجها لأنه كان يحبها كثيراً قال لأخيه: «كيف تريد تزويج فتاة ماتزال تبول في فراشها؟». وللعلم كان العريس جاهزاً، رجلاً بعمر أبيها مستعداً لانتظارها حتى تكبر.. صحيح أن العم حسن استطاع منعهم من تزويجها، لكن ضغوط زوجة الأب الجديدة أثمرت في النهاية، أخذها أبوها إلى مركز المنطقة وأعطاها لأسرة الطبيب.. ووردة صغيرة آنذاك، لكنها تفهم كل شيء. سمعت أن خلافاً دب بين أبيها وعمها حسن بسبب النزاع حول حقل من بضعة دونمات. وعندما تخلى الأب عن ابنته ازداد استياء العم من أخيه فترك القرية وتغرّب. قبل سفره، مرّ على بيت الدكتور وقال لشكران: «سوف أسافر وأكسب نقوداً. بعد ذلك سآتي وآخذك من هنا. لا تخافي!..».

قالت شكران: «من بين كل أقاربي، أحببت فقط عمي حسن. لكنني لم أره بعد ذلك أبداً. إذا عرف بمكاني، سيأتي وينقذني».

مالنا... بعد حوالي شهرين من علاقتي بها مات الطبيب العجوز. كانت شكران في حضنه عندما مات... يبدو أن الانفعال العنيف في مضاجعة الفتاة قد تسبب في موته... ارتعش بعنف ثم تخشب تماماً.. فرّت المسكينة من الفراش وهي تطلق صرخاتٍ جنونية. استيقظ أهل البيت، وصرخوا بها: «لم تكتفِ يا قحبة بقتل الرجل، بل تريدين فضحنا أمام الناس بصراخك...» وطردوها فوراً من البيت.. وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل، والوقتُ شتاء.. بردٌ وثلج.. وهي عارية كما ولدتها أمها..

سمعنا بهذه التفاصيل من جيران بيت الدكتور. ادعت زوجة الدكتور أنها طردتْ الفتاة لأنها حبلَتْ من ابنها. وشكران وقتها بالكاد تبلغ السادسة عشر من عمرها.

Twitter: @ketab_n

بعد بضعة أشهر سمعنا أن شكران عادت إلى الحارة. نزلَتْ من سيارة أجرة واتجهت إلى بيت شريفة قرب الساحة. وشريفة هذه امرأة بلا زوج، أمٌ لثلاثة أطفال لا أحد يعرف من يكون أبوهم. ظلت سيارة الأجرة تنتظرها أمام البيت، أثناء وجودها داخله. قالوا أنها جلبت معها علباً كثيرة نقلتها إلى داخل بيت شريفه. أدهشَتْ شكران كل من رآها بزينتها وثيابها الفاخرة. وعندما غادرت كانت ستائر نافذة بيت الدكتور تتحرك. يبدو أن زوجة الدكتور كانت تراقب.. لسوء الحظ لم أكن في الحارة عندما جاءت..

مرت بعد ذلك سنوات. نسينا شكران. والدي انتقل إلى رحمته تعالى. وقد أغلقوا الزوايا الدينية كما تعلم. بقيتُ وحيداً بلا سند. ولحسن الحظ فقد عينوني سائقاً أثناء خدمتي العسكرية لأنني من استانبول وأجيد القراءة والكتابة.

بعد تسريحي من الجيش اشتغلتُ سائقاً بالأجرة على سيارة أحدهم. كانت سيارات الأجرة قليلة في آستانبول، في تلك الأيام. كنتُ أشتغل ليلاً، ثم يستلم السيارة سائقٌ آخر في النهار...

ذات ليلة، في وقتٍ متأخر، أوصلتُ زبوناً من «بيوغلو» إلى بيوك دره. في طريق العودة، قرب «بِبَكْ» صادفت سيارة خصوصية وقد تعطلت على الطريق. كان السائق يحاول إصلاح العطل. وقفتُ قربه وقلت له:

– أتحتاج إلى مساعدة يا صاحبي؟

– هذه اللعينة لا تريد أن تتحرك. خذ جماعتي وأوصلهم..

– نزل من السيارة رجلٌ وامرأة. صعدا سيارتي العتيقة. وشوف النصيب.. يتكلمان بالفرنسي.. إذن فهما أجانب..

سألتُ السائق:

– أين يريدان الذهاب؟

– إلى شيشلي...

نظرت إلى المرأة.. يالها من امرأة! طفله.. طفله شقراء! أما الرجل فهو عجوز مكرّش...

Twitter: @ketab_n

انطلقت بالسيارة ورحتُ أراقبها من خلال المرآة. كانا يتحدثان باستمرار. من الواضح أنهما يتشاجران. حتى بالفرنسي يمكن إدراك أنها مشاجرة... يتصارخان بحدة. الأصح أن المرأة هي التي يعلو صوتها. وكلما خفض الرجل صوته إزداد تنمّر المرأة. واي واي واي... لولا الخجل فإنها ستضربه... من الواضح أنهما ثملان طيخة...

من بين حديثها الفرنسي المتدفّق فاجأتني بشتيمة تركية كلاسيكية وبتجويدٍ وأصالة: – يا حمار ابن حمار!

وقتها أدركتُ أن المرأة بضاعة محلية.

تابعت ملاسنتها بالفرنسي، لكنها بين الحين والآخر، وعندما تحتدّ جيداً تسلخ الرجل شتيمةً تركية من العيار الثقيل: – قواد! ابن الكلب!

وشتائم أخرى من هذا العيار... احمرّ وجهي لأني شعرتُ في إهانتها لهذا الرجل إهانةً لجنس الرجال.. واعتقدتُ أن الرجل لا يعرف اللغة التركية.

– يا أبو قرون!، صاحت به. فلم أتحمل أكثر من ذلك. خاطبتها:

– المعذرة يا سيدتي، لا أريد التدخل في خصوصياتكم، لكنني أتساءل أليس لهذه الشتائم مقابل بالفرنسية حتى تقوليها بالتركي؟

– لا طعم للشتائم باللغة الفرنسية، لا أرتاح إلا عندما أشتم بلغتي الأم...

– دعيه وشأنه.. أنتِ تسخّمين المسكين لأنه لا يعرف التركية...

– وما شأنك يا بقرة، اهتم بعملك!

أغاظني كلامها.

– لا تخطئي معي يا أختي!

– وماذا إن أخطأت يا ابن مالا أعرف..

وراحت تمطرني بسباب يحمّر له الوجه. واي واي واي! تورطتُ إذن...

Twitter: @ketab_n

– عيب عليك... رأيت ملابسكم فظننتكم من المجتمع الراقـي... حتـى أولاد الشوارع لا يتمادون في الكلام مثلك...

– وما تظن؟ إن المجتمع الراقي الحقيقي يتصرف مثلنا...

أعجبني كلامها هذا. لولا ذلك كنـتُ طردتهمـا مـن السـيارة... في هـذه الأثناء قال لها الرجل شيئاً، ثم التفتَتْ إليّ:

– سألني عما كنا نتحـدث. فقلت لـه: أنـني ساومتك علـى الأجـرة. أخبرته بأنك تريد مبلغاً كبيراً..

عـادا إلى الصـراخ.. وكـانت تزيّـن كلامهـا بالفرنسـية بـأقذع الشـتائم التركية. لم أحتمل. ضغطتُ على الفرامل وقلتُ لها:

– هذه السيارة لن تتحرك. انزلا!

– لا تكن غبياً. سوف يدفع لك مئتي ليرة..

الآن فهمت. إذن هي حقاً «بضاعة»... يالقلة الحياء! مـا معنـى مئـتي ليرة بنقود تلك الأيام؟ لم نكن نكسب المئة ليرة في أسبوع.

إلا أن المبلغ لم يغرني ولم يغطّ على استيائي من شتائمها للرجل:

– اسمعيني جيداً. حتى لو دفعتم لي ألفـي لـيرة فـإن هـذه السـيارة لـن تتحرك. التفتُّ إليها وقلتُ لها طالباً منها النزول. صرخَتْ ما إن رأتني: ـ مظفر!

جمدتني الدهشة. نظرتُ إليها بإمعان. هذا الوجه لا أعرفه...

– ألم تعرفني؟

– لا

– مدت يدها إلى رأسي. أزاحت الشعر عن جبيني وقالت:

– مازال أثر القبقاب واضحاً هنا...

– شكران؟

– لم يعد اسمي شكران. أنا الآن بتول ـ الراحة...

– صرت في حالةٍ إذا قطعوا شراييني لـن تـنزل مـني نقطـة دم واحـدة. شعرتُ بغصة في حلقي. كنتُ على وشك البكاء.

Twitter: @ketab_n

- هيا تحرك! قالت.

بصمت ضغطتُ على البنزين. يبدو أن الرجل استغرب حديثنا. راح يسألها وهي تجيب دون انفعال... لكن صوتها بدا غريباً. واضح أنها تبكي..

راح الرجل يتحدث إليها ليسليها، وأنا أراقبها من المرآة. عندما أحس أنها هدأتْ مد يده يريد وضعها فوق كتفها. دفعته عنها. سألتني عن أخبار الحارة. حكيتُ لها.

-ما أخبار السيدة شريفة؟

- على حالها... تقدم بها العمر وأنهكها المرض.

- وأولادها؟

- الأصغر في الجندية، وابنها الأكبر يشتغل في السوق.

- وحدها السيدة شريفة وقفَتْ إلى جانبي وساعدتني. ليلة مات الدكتور كنتُ عاريةً في حضنه.. كان الوغد يعريني تماماً في كل مرة... نفقَ أمام أنظاري وهو يرتعش... لست قادرة على نسيان ذلك المشهد أبداً...

- لا تبكي!

- اتركني أبكي... قفزتُ من السرير كالمجنونة... هاجمت عليّ زوجة الدكتور وابنها وهما يصيحان بي: «يا قاتلة!». ضربوني ورموا بي إلى الشارع.. تصوّر... لم يكن على جسدي حتى السروال الداخلي... والطقس شتائي بارد... وأنا أمرّ أمام كوخ السيدة شريفة رأيتُ ضوءاً يتسرب من النافذة. كانت قد أفاقت على الضجة الصادرة عن بيتنا، فوقَفَتْ في الباب. أمسكت بي من ذراعي وأدخلتني إلى بيتها... ظلت حتى الصباح تحكي لي وتبكي. عرفتُ منها أنها كانت متبناة مثلي.. وأن ما حدث لي حدث لها أيضاً... في الصباح الباكر ألبستني وأعطتني مالاً... ثم أخرجتني من الحارة دون أن يراني أحد. قالت: لن يحدث ما هو أسوأ. لا تخافي. إن صرتِ في ضائقة تعالي إليّ، واعتبري نفسك ابنتي!"

- اسكتي، سوف يرتاب الرجل!، قلتُ لها.

Twitter: @ketab_n

– طظ! ولو.. قل لي، ما أخبار زوجة الدكتور؟
– من زمان باعوا البيت وانتقلوا من الحارة. من سنوات..
– كان الرجل يسألها بين الحين والآخر، فتسكتُهُ بتول.

أدركتُ لِمَ يتحمل الرجل إهاناتها... فهي مجرد رفيقة سرير لليلة واحدة بالنسبة له... ولذلك لم أسألها عن الرجل.

– يا خسارة.. صادفتك في وقت غير ملائم. نحن مسافران غداً.
– إلى أين؟
– إلى القاهرة.
– لماذا؟
– هناك سأتزوّج هذا القوّاد.
– كيف تتكلمين هكذا عن رجل سيصبح زوجك؟
– لكنه فعلاً قواد. لو لم يكن قواداً لما رضي بالزواج مني... ألا يعرف أية بضاعة أنا؟... ألم يبق في العالم نساء غيري؟..

ثم استدركت فجأة وقالت لي:

– ولكن لِمَ لا. لن أذهب غداً. نؤجل السفر..
– ثم التفتتْ إلى الرجل وكلمتهُ بالفرنسية. اغتاظ الرجل. ارتفع صوته.

تلاسنا لبعض الوقت. كان الرجل غاضباً لأنها طلبت منه تأجيل السفر، ثم رضخ في النهاية لرغبتها...

– للأسف ليس معنا ما نشربه. بقيت المشروبات في سيارتنا...
– لم أعرفك، قلتُ لها.
– وكيف لك أن تعرفني؟ لم ترني أبداً وعلى رأسي شعر...

نزلا أمام بنايةٍ في شيشلي. كانا يترنحان من السكر الشديد...

– لا تنسَ، غداً بعد الظهر، قالت لي.
– حسناً.
– الآن سأضطجع في أحضان هذا الوغد القذر... كيف لا أشرب!

ضايقني كلامها خشية أن يفهمها الرجل.

Twitter: @ketab_n

كان الفجر في أوله، عندما عدتُ إلى الحارة. لم أدخل إلى البيت فوراً. بقيت فترة أحوم حول الشجرة التي في الساحة...

نعم هكذا... هذه الأحداث كانت أشبه بفيلم سينمائي.. لا تزعل مني لأنني أحكي لك... أتزعل؟ كم صادفت نساء في حياتي. لكني لم أر أمرأة بشجاعتها. لم يسجل التاريخ امرأة كالرجال مثلها.

ذهبتُ إلى زميلي الذي يشاركني في العمل على السيارة، طلبتُ منه أن يترك لي السيارة في ذلك النهار ويأخذها ليلاً.

وصلت في الوقت المحدد إلى تلك البناية في شيشلي. صدمني البيت بفخامته عندما دخلته. لم أر بيتاً بهذه الأبهة طوال عمري... كان مثل القصور...

كان ثمة عدد كبير من الخدم والخادمات. أصابني الذهول في الداخل. أين يتوجب عليّ الجلوس؟ أخشى أن أوسّخ المقاعد الفخمة. أدخلوني صالةً. كانت بتول قد أخبرت الخدم بقدومي منذ ليلة البارحة. ويالحماقتي! للوهلة الأولى ظننتُ أن الخادمة التي رافقتني إلى الصالون هي بتول. كانت جميلة جداً، فضلاً عن أني لم أرِ وجه بتول جيداً في عتمة الليل... ولا بقي فيها أيُّ أثر من شكران التي أعرفها.

بعد قليل جاءت بتول... يالها من امرأة! كلها أنوثة.. والآن كيف سأخاطبها؟ أقول لها "بتول" حاف.. سيكون أمراً معيباً..أم أقول لها «ياسيدتي»؟ وهذا يصعب على لساني..

صافحتني:

- أجّلنا السفر إلى الغد. سنسافر غداً بالطائرة.
- جيد.
- لنذهب معاً إلى السيدة شريفة... ماذا تشرب؟
- أي شيء...

قدمت لي مشروباً لا أعرف اسمه، حلو على مرّ... وفجأة صارت تضحك بصخب. ساءني ذلك. قالت لي عندما لاحظت عبوسي:

Twitter: @ketab_n

- أتعرف ما الذي يضحكني؟ أتصدق أن رَجُلي هذا يعرف التركية؟

- معقول؟ أصحيح أنه يعرف التركية؟!

- نعم. كنتُ ظانة أنه لا يفهم عليّ. هو بدوره فضل التظاهر بالجهل...

- وكيف اكتشفتِ معرفته بالتركية؟ هل أخبرك بنفسه؟

- طبعاً لا. ضبطتُهُ يهذي في نومه بالتركية. أدهشني الأمر. اتصلتُ بمن يعرفونه. أكدوا لي أنه يعرف التركية.

- لكنك زوّدتيها معه... وما معك حق...

- بالعكس. الآن صار بإمكاني أن أسخّمه على المرتاح..

- كما تشائين. لكني أرى أن تصرفك معه غير لائق، خصوصاً وهو يحييك حياة مترفة باذخة.

- «ولكن ألا يعرف أية بضاعةٍ أكون؟ إني أفعل ذلك نكاية»... مع أنه يعرف بعملي في بيت دعارة، يريد الزواج مني. لن أشفق على سافل كهذا.

اتخذت، فجأة، هيئة جادة:

- هل السيارة لك؟

فكرت بالكذب عليها لأنفخ نفسي، إلا أن صراحتها وحميميتها منعتاني:

- ومن أين لي يا أبلة* بتول...

هكذا وجدت بالمصادفة صيغة المخاطبة المثلى: (أبلة بتول).

- لن أستمر طويلاً مع هذا الرجل... عندما أعود سأشتري لك سيارة...

جرحتني. لكني التزمت الصمت. قالت:

- سأغير ملابسي لنخرج.

---

* الأخت الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

أقول لك ما كانت نيتي آنذاك؟ لأنني أعرف أنها كانت تميل لي من أيام الصبا فقد طمعت بالنيل منها في بيتها.. ولم أخفي ذلك عنك؟ كنت قد ذهبت إلى حمام السوق، اغتسلتُ وارتديت ثياباً نظيفة... وحلقتُ حلاقة عرسان... لكنني عندما رأيتُ فخامة البيت انكمشتُ على نفسي ولم أجرؤ على الإقدام. عادت إليّ في ثياب جديدة... كانت باهرة، يشتهي المرء أن يشربها.. نزلنا.. كانت سيارتها الخاصة أمام باب البناية.

– سيارة الأجرة معي، قلتُ لها.

– حسناً. نذهب بسيارتك.

جلسَتْ بجانبي.

– يا أبلة بتول، اعذريني على سؤالي، أين تعلمتِ الفرنسية؟

– وكم تعلمتُ من أمور! وهل الفرنسية شيئٌ يُذكَر. إني أتعلم شيئاً جديداً من كل رجل أعاشره... أقمتُ في أوروبا فترة طويلة...

تسوّقنا في محلات «بيوغلو»،امتلأت السيارة بالرزم. واتجهنا إلى بيت السيدة شريفة. كان دخولنا الحارة مشهداً إستثنائياً... رؤوس النساء تطل بالعشرات من نوافذ البيوت... تركنا السيارة عند النبع. أكثر من خمس مرات تنقّلتُ بين السيارة وبيت شريفة وأنا أنقل الأغراض. وكما توقعت لم تعرف المرأة بتول للوهلة الأولى... بعد أن ذكَّرتْها بنفسها أسندتْ رأسها على صدرها وأجهشَتْ بالبكاء... شاركتها شريفة بكاءَها. لم أحتمل هذا المشهد. خرجتُ ووقفتُ تحت الشجرة إياها.

عدت بعد فترة. وجدتهما تتبادلان الحديث. فوجئتُ ببتول تحدث صديقتها برقة وتهذيب، كما السيدات، على عكس ما كانت تفعله معي من رفع للكلفة قالت لشريفة أنها متزوجة.

– وكم ولداً عندك؟

– لم أنجب أطفالاً يا خالتي شريفة..

Twitter: @ketab_n

- لا بأس، ستنجيبين فيما بعد. أنتِ نفسك ما زلت طفلة...

عندما غادرْتُ أعطت شريفة رزمة كبيرة من النقود.

- أنا بمثابة ابنتك يا خالة شريفة. سأسافر مع زوجي. عندما أعود سأزورك ثانيةً. إلى اللقاء.

صعدنا إلى السيارة وانطلقنا. لاحق أولاد الحارة السيارة... ولِمَ أكذب عليك، فقد تحركَتْ رغباتي مجدداً. وأملتُ بنيل شيئ منها. كان المساء قد اقترب. فكرت قائلاً لنفسي «لعلها تدعوني لأقضي الليلة عندها». كانت إحدى يديّ على المقود. بيدي الأخرى اقتربتُ منها بحذر، حاولتُ تطويق خصرها. صدّتني وهي تقول بصوتٍ كالجليد:

- مظفّر!

ولكم خجلتُ! سحبتُ يدي فوراً. أدركتُ أن لا خبز لي معها. صار وجهي في منتهى العبوس. إنها إمرأة داهية. غيّرَتْ الحديث وراحت تتكلم في غير موضوع محدد. أما أنا فلم أكن أتكلم. لكنني، ولا أدري كيف، نطقتها:

- طبعاً لا تعطينني وجهاً فأنا لستُ ثرياً.

- وماذا لو كنت ثرياً؟

- طبعاً، لا خبز لأمثالي...

- لم يعد عندي خبزاً لأيٍ كان .. لا خير فيّ...

كان صوتها ينذر بالبكاء... ظللنا صامتين حتى وصلنا بيتها. قالت:

- تفضل معي.

- من الأفضل أن أذهب.

داعبت أثر جرح القبقاب فوق جبيني..

- هل زعلت؟ سألتني.

- لا.. ولِمَ أزعل.. وما الذي يدعو إلى الزعل؟

Twitter: @ketab_n

قالت شيئاً لم أفهمه. أرادت التعبير عن إستيائها من أن كل الرجال لا يفكرون بغير النوم معها. لم أفهم هذا إلا بعد وقتٍ طويل.

صافحتني بحرارة وترجَّلَتْ. حتى لم أنزل من السيارة لأودّعها. ومن يومها لم أرها قط. بعد فترة وجيزة تزوجتُ. ولم يمض عام واحد حتى ركَّبَتْ لي قروناً معرّشة. قتلت عشيقها ودخلتُ السجن..

أرسلك لي الله... فضفضتُ وأرحتُ قلبي... واي يا شكران واي!.. انظر! ها هي ذكراها على جبيني.

ولكن ما الذي يجعلك تبحث عنها الآن؟ هكذا إذن... أنا من كان يجب أن يبحث عنها.. ولكن إنه القدر.. فرّق بيننا..

لا أعتقد أنك تستطيع العثور عليها هنا. الأرجح أنها في مكان ما من بلاد العرب. هي غنية للغاية. وقلبها أغنى.. صحيح كدتُ أنسى. جاءت مرةً تبحث عني وأنا في السجن. فيما بعد أخبروني بذلك. ألم أقل لك أنها كانت ستشتري لي سيارة؟ لا والله ما كنتُ أقبلها منها.. أوووف!. ولاك يا علي، يا زفت! اركض واشترِ لي زجاجة عرق. تفتقت جروحي القديمة...

أنا الآن أدير مقهى هنا. يلعبون القمار أيضاً على الخفيف. أسكن هذه الغرفة فوق المقهى. نلتقط رزقنا...

لِمَ نهضتَ؟ ابقَ لنشرب سويةً... إذن فهي عمتك؟... ولاك يا علي! أين العرق يا ديّوث؟!

مع السلامة سيدي. انت تعرف مكاني الآن. تعال ثانيةً. سأنتظرك. إذا عرفتَ شيئاً عنها، أخبرني أرجوك. الآن أعرف كيف يجب أن أكلّمها. كانت فتاةً طيبة... مع السلامة... سأنتظر أخبارك.. ولاك يا علي، يا ابن الكلب! أين العرق ولاك؟ لا تَنْسَنا يا بنيّ... مع السلامة...

الراقصة حجل التي تقطّع الوصلات

وكيف لا أعرفها؟... إني أعرفها جيداً... أية بتول؟ لا، لا، إن اسمها في السوق «كولجان الحجل...» إذا سألتَ عنها باسم بتول لن يعرفها أحد.

Twitter: @ketab_n

لهذا السبب لم تعثر لها على أثر يا بنيّ. عليك أن تسأل عنها باسمها الفني: الراقصة كولجان الحجل... على كل حال مرت سنوات طويلة... من يدري أين يمكن لها أن تكون؟ من الأفضل أن تسأل عنها أصحاب الملاهي والخمارات والفنادق الكبرى.. ولكن إياك أن تسأل عنها باسم بتول.. عرفتُ أن اسمها بتول بمحض الصدفة... وهذا طبيعي. أنت تعرف أن للراقصة الواحدة ثمانين اسماً. ولكن أحداً لا يعرف أيٌّ من أسمائها حقيقي، وأيُّها مستعار؟ حتى الشرطة والأخلاقية لا تعرف...

كنتُ وقتها رئيس الجباية في بلديّة استانبول ـ قسم «بيوغلو». أتعرف ما معنى ذلك يا بنيّ؟ معناه أنني كنتُ ملكاً. نعم ملكاً... كنتُ وقتها ملكاً في «بيوغلو»!

لا يغرّنّك مظهري الآن. كان عليك أن تراني في تلك الأيام... مؤكد أنك لم تكن وقتها حتى في بطن أمك. كنتُ مسؤولاً عن كل منطقة «بيوغلو». كل أبواب بيوغلو كانت تفتح لي...

نعم هكذا أيها الفتى.. فيما بعد أصيب نصفي الأيسر بالشلل فصرتُ كما تراني الآن.. مع ذلك الحمد لله.. ثمة ما هو أدهى وأمرّ... قالوا لي لو أن الشلل أصاب نصفي الأيمن لما استطعتُ الكلام... الحمد لله الذي ترك لي القدرة على الكلام. الناس الذين في عمري تنسحب القوة من ظهورهم وتتجمع في ألسنتهم.. بعيد عنك، لو أنني فقدت القدرة على الكلام فوق ذلك، فالموت أهون..

والله لو شئت وقتها لامتلكت الخانات والبنايات... لكنني لم أفعل. اشتغلت بشرف، والله على كلامي شهيد. إن رئيس الجباية الذي قبلي كان يأخذ لنفسه ثلاثة أرباع، وللبلدية ربعاً. هذا قلة وجدان! لم يكن يخاف الله... حتى الإختلاس له حدود... يشهد الله على كلامي، أنا لم أفعل مثله أبداً... كنتُ آخذ النصف لي والنصف للبلدية واحداً لي وواحداً لها... هكذا كنتُ أشتغل... يسمونها الآن «ففتي/ففتي». لستُ أكذب يا بنيّ. إذا استوليت على كل شيئ انهارت البلدية! وإذا انهارت البلدية

Twitter: @ketab_n

انتهيتَ معها.. أيبقى وقتها منصب رئيس الجباية؟ عندما تنهار البلدية، كيف تصبح رئيساً للجباية وماذا ستجبي وممن؟ إن بعض زملائنا في المصلحة غدارون جداً، لا أقول هذا بقصد النميمة... هذا لا يجوز. عليك أن تفكر قليلاً بالبلدية، حتى تفكر هي أيضاً بك... كما يقول المثل، مثلما ينظر الأحْوَل إلى ربه، فإن ربه ينظر إليه بالطريقة نفسها. ينبغي أن تحترم مصالح البلدية، حتى تحترم هي أيضاً مصالحك... وفوق ذلك، ما حاجتك أصلاً إلى المال ما دامت كل الأبواب مفتوحة لك.. كل، اشرب، امرح، تسلّ، البس، سافر، تنزّه... وماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل ستأخذ المال معك إلى القبر؟

لا تنخدع بكوني مقيماً في دار عجزة. أنا هنا أصرف على نفسي من أموالي. عندي راتب تقاعدي، وبعض الأملاك. تبرعتُ بها جميعاً لدار العجزة... أعيش الآن وحيداً مع ذكرياتي. خدمتُ الدولة والشعب والوطن سنواتٍ طويلة.. حلالٌ عليهم خدماتي. لم أُسِئْ لمواطن في حياتي. لم يرفع أحدٌ بي شكوى واحدة لأنني عاملتُ الجميع بما يرضيهم ووفقاً للأصول...

وقتها كان لي صديق حميم للغاية، هو مفوّض الشرطة رجب. كنا في رفقة دائمة. وكان هذا رجلاً مخيفاً.. حتى حجارة أرصفة «بيوغلو» كانت ترتجف خوفاً منه عندما نجتاز الشارع. كنا وقتها شابين في مثل عمرك أو أكثر قليلاً. نقضي ليالينا في ملاهي بيوغلو. وأكثر محل كنا نتردد عليه كان «كوردون روج». أظن أن معناها بالتركي «التكة الحمراء» على كل حال فإن ألمانيّتي ضعيفة ولا أعرف معنى العبارة تماماً. أليست الكلمة ألمانية؟ أنا أظنها كذلك. على كل حال مالنا... كان لصاحب الكوردون روج عدد آخر من الملاهي والكازينوهات. ويدعى «زينو الذئب». كان صديقاً حذقاً وودوداً للغاية... والحق أنه.. كيف أقولها... إن قلتُ عنه قواد، سأظلمه... وعبارة «وسيط غرام» أيضاً لا تليق به... ثمة نوع يسمونه «قواد متعة» هو من هذا الصنف. غير أنه ذا مستوى رفيع. يقدم كل خدماته بمنتهى الدقة

Twitter: @ketab_n

واللطف، دون أن يؤذي ظهرا لنملة.. وسبب ترددنا على الكوردون روج أكثر من غيره من المحلات هو أن زينل بيك (زينو) جاء بعدد من الفتيات الهنغاريات كل واحدة منهن شعلة نار تكفي لإحراق العالم بأسره... وعندما يصعدن إلى البيست ويبدأن بالهزّ كانت القلوب تشتعل حتى لمن يتفرج عن بعد.

نسيتُ أن أقول لك أن صديقي المفوّض رجب كان موظفاً مخلصاً جداً لعمله... وحبه لعمله هو ما كان يدفعه إلى السهر في الملاهي... فكلما تعلم، اللصوص والنصابون والمختلسون والمرتشون وكل من لف لفهُم من مخالفي القانون، يرتادون مثل هذه الأماكن ليبدّدوا فيها ما نهبوه من أموال. والمفوّض رجب يتفحّص الزبائن طوال الوقت... ما إن يُكثر أحدهم من التردد على الملاهي ويبدأ بصرف أمواله بسخاء على النادلات، حتى تنتصب أذنا رجب مثل كلب صيد اشتم رائحة فريسة. كان يقول: «ما الضرورة لملاحقة المجرمين؟ سوف يأتون إلى هنا عاجلاً أم آجلاً. أنا بانتظارهم وشبكتي منصوبة». سبق له أن اعتقل العديد من المطلوبين ومنحه رؤساؤه جوائز تقديرية، كان يلهو ويقوم بعمله في الوقت نفسه.

سألتُهُ مرةً: «ولكن ألا يرتاد هذه الأماكن أناس شرفاء؟» «نعم يأتون. وهم غالباً من التجار الكبار أو المتعهدين أو أصحاب المصانع أو المزارعين الأثرياء أو من علية الساسة. فقط هؤلاء يحق لهم أن يلهوا في مثل هذه الأماكن!».

«ونحن؟» سألتُهُ. فأجاب: «نحن على رأس وظيفتنا يا صاحبي...».

وذات مرة تردّد رجلٌ على الكوردون روج كثيراً، صار يواظب كل ليلة ويصرف المال بلا حساب. وكان متقدماً في العمر. وقد رفع المفوّض رجب لواقِطِه فوراً. فهو شرطيٌ منذ الميلاد. وله موهبة شم لا تخطئ. إن كان يمشي في الشارع ورأى رجلاً يمشي أمامه، لقال عنه: «هذا مذنب. واضح من رقبته أنه مذنب» وما أن يقول ذلك حتى يقبض على الرجل ويحجزه في المخفر.. وهناك، خلال بضعة دقائق ينتزع إعترافاً من الرجل ويتضح أنه

Twitter: @ketab_n

مذنب فعلاً. كان يذهلني! كيف له أن يعرف جريمة رجل من شكل رقبته أو ظهره! تصور!

لقد وصلتُ إلى قناعة بأن كل من ينزل إلى بيوغلو مجرم. بغير ذلك لا يمكن لشرطي ألا يخطئ أبداً مثلما كان حال صديقي رجب. حكيت لك هذا لتفهم مواهب صديقي المفوّض..

ركزّ رجب إهتمامه على ذاك العجوز المدمن على الكوردون روج. وبعد عدة أيام قال لي: «مشي الحال. لقد عرفتُ كل شيء عنه». وحكى لي قصة العجوز.

كان مليونيراً يتقن الفرنسية والإنكليزية وما إلى ذلك.. وقد وقع في غرام إحدى الفتيات المجريات في الملهى. كان يجالسها كل ليلة ويتحدثان بلغة الكفار. وكان المعلم (زينل) ـ صاحب الملهى مسروراً جداً منه لأنه يصرف الكثير من المال. قال رجب:

– لم أفهم وضع هذا الرجل. لا يمكن أن يكون لصاً أو نصّاباً. وليس موظفاً حتى أتهمه بالإختلاس أو الرشوة. ومادام بهذا الثراء ويتقن لغات أجنبية فهو على الأرجح جاسوس.

كان لرجب منطقٌ متماسك للغاية.

ذات ليلة يأتي الرجل كعادته إلى الملهى. وبعد قليل تنضم إليه امرأة شابة وجميلة... وكلمة جميلة لا تكفي لوصفها... ماذا تساوي المجرية التي يحبها العجوز بجانب هذه! تتوسل المرأة إلى العجوز طالبةً منه الخروج من الملهى. تبكي وترجوه. ولكن بلا جدوى! يطردها. تخرج باكيةً، تستقل سيارة وتبتعد. في الليلة التالية تعود ثانيةً.

عرفنا حقيقة الموقف. كانت المرأة زوجته. وكانت تأتي كل ليلة وتبكي وتقول له: «عيب عليك! هذا المكان لا يليق بمكانتك الإجتماعية. هيا بنا نذهب إلى البيت».

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة تكرر المشهد. لكن المرأة لم تنصرف عندما طردها هذه المرة. طلب العجوز فتاته المجرية لتجالسه أمام أنظار زوجته. قالت هذه الأخيرة:

- ولكن ماذا في هذه المرأة أفضل مني؟ ما هي مواهبها التي أفتقد إليها أنا؟ بعد قليل جاء دور الفتاة المجرية على المسرح. أطفِئَتْ الانوار. ظهرت المجرية على الخشبة نصف عارية، مرتدية غلالات شفافة. تركزت عليها أنوار ملونة وبدأت ترقص. أما زوجة العجوز فقد انصرفت وهي تبكي أمرّ بكاء.

في مساء اليوم التالي جاءت مجدداً، يتعتعها السكر. ذهبَتْ إلى طاولة زوجها. كنا على طاولةٍ خلفها. وكانت لرجب موهبةٌ أخرى لم أخبرك بها. كان يسمع ويفهم ما يُحكى همساً على بعد عشرين متراً. هذا ما يجب أن يسمى أُذُن الشرطي. إلا أننا لم نحتج ليلتها أذنه. فقد كان الزوجان يتكلمان بصوت مرتفع ويتصارخان. كنتُ أسمع كل شيء. وكذلك زينل بيك ـ صاحب الملهى.

- فعلتُ معك كل ما بوسعي. لا تلمني بعد الآن. لقد فهمت أمرك. أنت قوّاد متطوّع. تستمتع بالقَوّادَه... أعرف ما عليّ عمله بعد الآن. لتعرف ما معنى التعري والرقص أمام الرجال الغرباء. سأريك لتتعلم. قد جنيتَ على نفسك.

قالت الزوجة ذلك وانتقلَتْ إلى طاولة أخرى. طلبت النادل بعد أن شربت زجاجةً من النبيذ، سألَتْهُ عن صاحب الملهى وطلبت مقابلته.

وزينل بيك لم يلقبوه سدى بـ «زينو الذئب». فهو ذئب حقيقي. كان قد اشتم الرائحة وراح يكمن للفريسة. سال لعابه وابتسم بملء فمه. فرك راحتيه بشهية. كان رجل أعمال من الطراز الأول. عندما أخبره النادل بطلب السيدة، قال له:

- أدخلها إلى مكتبي.

Twitter: @ketab_n

ذهبنا ـ أنا ورجب ـ مع زينو إلى غرفة المكتب. دخلت المرأة وهي تترنح من السكر. بلهجة أبوية ودودة قال لها:

– تفضلي يا ابنتي... اجلسي... بماذا يمكن أن أخدمك؟

– أريد أن أرقص في هذا الملهى. عندي عروض خاصة.

– لا يا ابنتي... لا يا صغيرتي... هذا لا يليق بسيدة ابنة نـاس مثلك. أرجوك لا تتسرعي...

– دعك من هذه الجعجعة... إن كان الأمر لا يناسبك بوسعي الذهاب إلى ملهى آخر. ليس هذا الملهى الوحيد في بيوغلو...

قالت ذلك وهمت بالنهوض. لكن زينل قال لها:

– بودي أن أساعدك. هل تجيدين الرقص؟

– أعرف ما يسمى بالرقص الشرقي... وماذا سأعرف فيه؟.. جرّبني. أنا مستعدة للظهور على المسرح منذ الليلة.

حتى زينل، هـذا الذئب، فوجـئ باندفاعهـا. وأفلتـت مـن فمه كلمـة «آمان!»

– لِمَ تقول آمان؟ جربني وما عليك. لا أريد أجرةً منك. أنا جاهزة. مُرْ فرقتك بأن تعزف لحناً شرقياً.

– هل سبق لك أن رقصتِ؟

– أليست المسألة أن أهزّ وسطي بالتوافق مع الإيقاع؟ أنا أتقن ذلك. منذ طفولتي أرقص هذا اللون.

تدخل المفوض رجب:

– ألستِ متزوجة؟ لا يمكن أن ترقصي دون إذن مـن زوجك ودون الحصول على ترخيص فنانة.

– لستُ متزوجة!

– أليس ذاك السيد زوجك؟

– ليس زواجاً رسمياً...

– إذن عليك أخذ رخصة من البلدية. رخصة فنانة.

Twitter: @ketab_n

- أتختنتموها! تصطفلوا!

لكن زينل تدخل مجدداً، خشية أن يطير هذا الكنز من بين يديه:

- طيب. لنجرّب الليلة مرة.

طلبتْ المرأة زجاجة نبيذ جديدة. حذّرها زينل:

- لا يمكنك وأنتِ سكرانة...

- لا تخف. وسترى عندما أصعد إلى المسرح.

جلبوا لها عدداً من بـذّات الرقـص لتنتقـي واحـدة علـى مقاسـها. قـال زينل:

- أعرف أنها لـن تنجـح. ولكـن لنجربهـا علـى سـبيل التغيـير. مـاذا نخسر؟

انتقلنا إلى الصالة. بعد قليل أطفئت الأنوار وبدأت الفرقـة تعـزف لحنـاً شرقياً راقصاً. اشتعلت الأضواء الكاشفة الملونة على المسرح. ظهـرت راقصـة في بذّتها المزركشة. يـا إلهـي! لم يسـجل التـاريخ راقصـةً تضاهيهـا في هـز الوسط والقفا! حتى زينل الذي عركته السنين فتح فمه اندهاشاً:

- لقد مر من تحت يديّ عدد كبير من الراقصات. لكني لم أر مثل هذه!

- مستحيل! قال المفوضّ رجب، مؤكد أنها راقصة محترفة منـذ وقـتٍ طويل.

- لا، قال زينل معترضاً، صحيح أنها ترقص لأول مرة. إن فراخ البـط، ما إن يفقسوا من البيضة حتى ينزلوا الماء ويسبحوا. هل يعلمهم أحدٌ العوم؟ ونساؤنا مثل فراخ البط. يعرفن هز الوسط منذ الصغر. هـذه موهبـة مـن رب العالمين. وهي موهبة خص بها نساء بلدنا. لـو أن طفلـةً تركيـة ولـدت مـن أمها للتو، وسمعت لحناً راقصاً، لقامت ترقص حتى قبل أن تتعلم السير.

انتهى الرقص... تصفيق... تصفيق... وصلـة أخـرى، ثـم أخـرى. بعـد انتهائها من الرقص عادت إلى مكتب زينل. وقتها عرفنا أن اسمها بتول. في اليوم التالي أُنجِزَتْ كل الإجـراءات القانونيـة. وزينـو الذئـب ربطهـا بعقـد متشدد حتى يمنع الملاهي الأخرى المنافسة مـن أن تخطفهـا منـه. ثـم قـال

Twitter: @ketab_n

لها: «ينبغي أن نجد لك اسماً فنياً». كان هو من يسمي أكثر من نصف راقصات الملاهي.

– أنتِ ترقصين كالحَجَل. ليكن اسمك «كلجان الحجل».

هكذا لمع نجم كلجان الحجل يا بنيّ. ولو أنك سألتَ عنها بهذا الأسم كنتَ عثرتَ عليها. إن كل رواد ملاهي تلك الأيام يعرفونها. تذكرتُ شيئاً آخر... في وقت لاحق حرّف الناس اسمها وصاروا ينادونها بـ «تكلِكْ». أنت تعرف أن هذه الكلمة تعني «ليرة واحدة». وسبب تحريف اسمها بهذه الصورة، هو أنها امرأة سخية للغاية، متواضعة جداً، تحب عمل الخير وتطييب خاطر الفقراء والمساكين. وعلى العكس كانت معي ومع صاحبيَّ زينل بيك والمفوّض رجب. لم تكن تعطينا وجهاً بالمرة! معنا كان سخاؤها يختفي. أتعرف؟ لقد جرح هذا مشاعر زينل بيك، وهذا طبيعي. راقصةٌ تشتغل عنده تفعل به ذلك؟! كنا، نحن الثلاثة وراءَها. نحن قادرون على التفاهم فيما بيننا لكن التفاهم معها صعب.

عندما بدأت بالرقص في الكوردون روج، دفعت بكل الراقصات والفنانات إلى الخلف. حتى المجريات الجميلات والجذابات لم يعد أحدٌ يكترث لهن. فقط ككلك ولا أحد سواها! صار الكوردون روج يمتلئ بالزبائن عن آخره. وما إن تبدأ فقرتها حتى يجن جنون الجمهور. في حياتي لم أر انفعالاً وهيجاناً كهذا. راح زينل يكدس الأرباح الطائلة من وراء راقصته الجديدة. التقطوا لها صوراً ببذة الرقص، طبعوها على ملصقات ملأتْ جدران استانبول. راحت الصحف والمجلات تنشر صورها الضخمة على مساحة الصفحة. كتبوا اسمها بمصابيح النيون الملونة..

والأهم من كل هذا يا بنيّ، هو ما حدث لزوجها غير الرسمي، العجوز الذي حدثتك عنه. راح يتذلل لها كالكلاب مرتمياً عند قدميها. يبكي ويقول لها:

– سأسجل كل ما أملك باسمك. سأتزوجك زواجاً شرعياً.

Twitter: @ketab_n

لقد عرف قيمة امرأته عندما رآها ترقص نصف عارية أمام الملأ. إلا أن الحجل امرأة غدّارة. لم يلن قلبها رغم كل توسلاته وبكائه وتذلله. كانت تضربه برأس حذائها المدبب كما لو كانت تدفع خرقةً قذرة بعيداً عنها، وتقول له بلا شفقة:

– أمثالك يستمتعون بتعري زوجاتهم أمام الناس. انقلع! أعرفتَ قيمتي الآن؟ هيا اذهب إلى فتياتك المجريات.

عندما يئس الرجل من إقناعها، التفت إلينا. وعد زينل بما يريد من مال مقابل أنلا تتعرى زوجته وترقص في الملهى. نقل زينل كلامه إلى الحجل. فتنمّرتْ هذه وهددت المعلم:

– إن سمحتم بدخوله هذا الملهى فلن أرقص هنا بعد اليوم!

إلا أن عقد المعلم زينل مدته ستة أشهر. ومن يفسخ العقد يدفع تعويضات أخبرها زينل بذلك. فماذا تتوقع ردها؟ قالت بلا تردد:

– حسناً. غداً سأدفع لك التعويضات المستحقة وأغادر.

كان أصحاب الملاهي الأخرى جاهزين للدفع كي يتعاقدوا معها. أحسَّ زينل بالعطب وراح يرجوها أن تبقى. كان يعرف أنه بانتقالها سينتقل معها كل زبائن الملهى إلى محل عملها الجديد. وبرأيي أن الأمر كان أبعد من ذلك. كنتُ على يقين من أن زينل مغرمٌ بها ولا يريدها أن تبتعد عنه.

بعد ذلك منعوا العجوز من دخول الملهى. صار المسكين يلطي أمام مدخل الملهي حتى الصباح كالكلاب وهو يرتجف من البرد. وإذا حدث وتحيّن فرصةً ودخل فإن إشارة من الحجل تكفي لينقض عليه فتوات الملهى وينزلوه إلى القبو إلى حيث مرجل الشوفاج. حيث يوسعونه ضرباً ثم يلقون به ثانية إلى الخارج. والرجل يرضى بكل ذلك ويصرخ بهم:

– اضربوني. اضربوني. ولكن فقط اسمحوا لي أن أراها ترقص. اكسروا عظامي!

Twitter: @ketab_n

لقد رضي بكل شيء. فلترقص ولتفعل ما تشاء. ولكن لتسمح له فقط بأن يراها عارية، مثله مثل كل الآخرين.. لكنها امرأة لئيمة. لم تسمح له حتى بذلك.

أما صاحبي المفوّض رجب فلم يعد كما أعرفه. تغيّر كثيراً. ارتخى إحساسه بالمسؤولية المهنية. لم يعد يراقب الزبائن أو يعتقلهم على الشبهة، لأن أنظاره معلقة على الراقصة، لا يرى سواها...

ما إن انتهت فترة العقد حتى انقلبت الحجل إلى ملهى آخر! قامت القيامة ولم تقعد. ازدادت شهرة الراقصة. راحت صورها العارية تملأ صفحات الجرائد. حتى على بطاقات الشوكولا طبعوا صورها. قال زنيل لرجب:

– اسمع يا أخي. نحن أصدقاء منذ سنوات. لا أحد غيرك يمكن أن يساعدني. أرني شطارتك.

ومن ذلك اليوم عاد رجب إلى سلوكه السابق وإخلاصه لمهنته. وحيث تشتغل الحجل يكون رجب. لقد تسلط عليها. وإذا تسلط رجب على أحدهم فمعنى ذلك أن هذا انتهى! صار يكتب تقريراً كل ليلة: «إن الراقصة المعروفة باسم الحجل والمسجلة عند الضابطة الأخلاقية، تقوم بعروض مخالفة للآداب العامة، وبحركاتٍ مهيِّجة لأحاسيس الرجال، وهي في ملابس غير لائقة، بلا فستان وبلا قميص داخلي، ضاربةً عرض الحائط بمشاعر الحياء والحشمة عند المواطنين. أرجو من أولي الأمر القيام بما يلزم. التوقيع».

احترَقَتْ الحجل. صارت تتنقّل بين أقسام الشرطة وتعرض على النيابة. يستجوبونها، يحاكمونها. لم أر في حياتي امرأة عنيدة مثلها يا بنيّ. لو أنها تعطينا وجهاً سترتاح. لكنها لا تفعل. رفعت عدة دعاوى ضدها. أوشكَتْ تُحاكَم وتسجن. وذات مرة حكم عليها ولكن مع وقف التنفيذ.

Twitter: @ketab_n

أوَ تعرف ماذا فعلت رداً على ذلك؟ لم تعد تتعرّ كما في السابق. صارت تستر جسدها بما يشبه الملاءة. ملاءة سوداء. هكذا ظهرت على المسرح. ولا يظهر من جسدها شيئ. ورقصت الرقص الشرقي بالملاءة! وأثناء الرقص تنفعل فتكشف جزءاً ضئيلاً من معصمها، وشيئاً من ساقيها، حتى ما تحت الركبتين. صحيح أنها كانت ترتدي زوجاً من الجرابات السوداء السميكة، إلا أنها أثناء الرقص تظاهرت كما لو ان الجرابات انزلقت من تلقاء نفسها... وما إن يظهر لحمها البض المورد من وراء الملاءة السوداء ـ وإن كان بذاك القدر الضئيل ـ حتى يجن جنون الجمهور. كان رقصها بالملاءة أكثر إثارةً للجمهور من رقصها السابق نصف العاري. صار الملهى يزدحم كما لم يحدث قط من قبل. صارت الطاولات تحجز في السوق السوداء...

الراقصة الحجل تقول في تصريح للصحافة:

«لستُ من الراقصات اللواتي ينتزعن التصفيق من الجمهور عن طريق عرض أجسادهن. أنا أعرض فني. حتى لو رقصتُ في معطف شتوي شديد الإحتشام فإن جمهوري يقدر الفن الذي أقدمه». عندما كانت ترقص في ملاءتها السوداء، كان الزبائن يصرخون بأعلى أصواتهن:

- يا حجل! تعيشي يا حجل! أرينا بعضاً من فنك يا صغيرتي. أرينا فنك! عندئذٍ تُسَحّل جراباتها فيظهر ساقاها البيضاوان، فتقوم القيامة!

ويستمر صاحبنا رجب في رفع تقاريره:

«من أجل اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة بحق الراقصة المعروفة باسم الحجل، التي تظهر على المسرح بهيئة منافية لأعراف وعادات شعبنا، في ثوب محكم ملتصق بجسدها بطريقةٍ تبرّز التقاطيع الأنثوية المحرِّمة، وبكشفِها عن ساقيها حتى الركبتين، وبتهييجها بهذه الطريقة مشاعر الرجال، نتقدم بهذا التقرير، راجين النظر إليه بعين الاعتبار الجدي. التوقيع».

Twitter: @ketab_n

والحجل تجرجر بين أقسام الشرطة والنيابة والمحاكم... لكنها تواصل كفاحها بعزيمةٍ لا تلين... غير أن تلك الجرجرة أتعبتها بعض الشيئ. عندما حل الصيف بدأت جولةً في الأناضول. لكن ذلك لم ينفعها. لأن شهرتها سبقتها إلى حيث ذهبت. والصحافة لا ترحم. أينما حلت كانت الشرطة في أعقابها.

في مدينة من مدن الأناضول، لا أتذكر أية مدينة، وبينما هي ترقص نصف عارية في بذة الرقص الشرقي التقليدية، حدث أن سقطت حمالة ثدييها وظهر نهداها بكل عريهما. اهتاج الجمهور إهتياجاً عظيماً. قامت القيامة ولم تقعد! ولأن الحجل من أصحاب السوابق فقد نظموا بحقها ضبطاً فورياً وقدموها للنيابة. هناك قالت لهم أنها لم تُسقِط حمالتها عن عمد، «سقطت من تلقاء ذاتها. لأن الشرائط والكلابات مهترئة وصدئة فلم تتحمل يديّ وأنا أرقص. راحت الحمالات تتقصّف وتنقطع والكلاّبات تتساقط. إن كنتم لا تصدقونني تعالوا لمشاهدتي أثناء الرقص».

برزت مشكلة قانونية: هل تُسقِط الراقصة حمالة ثدييها عمداً، أم أنها حقاً تسقط لوحدها لأنها لا تقاوم إندفاع صدرها أثناء الرقص؟ ومن أجل إيجاد حل لهذه النقطة فقد شكلوا لجنة خبراء لتقصي حقيقة الموقف. تزاحم كل وجهاء المدينة للدخول في هذه النجنة وهم يدّعون أنهم يفهمون في هذا الأمر. قال بعضهم: «أنا خبير في المطاطه وقال آخرون: «لا أحد مثلي يفهم بأمور كلابات حمالات الثدي!».

أخيراً تم تشكيل اللجنة التي جاءت لحضور إحدى حفلات الحجل. بدأت الفرقة تعزف لحناً راقصاً واندفعت هي ترقص بكل جسدها... فقد بعض أعضاء اللجنة رشدهم وراحوا يهتفون بابتهاج:

– من تحت يا روحي من تحت... هزي يا حجل هزي!

وفجأةً تنقطع المطاطات والكلابات وتتطوّح حمالة الثديين إلى بعد عشرة أمتار! ظهر صدرها بكل جلاله عارياً عارياً! آمان يا ربي آمان! قال أحد أعضاء اللجنة:

Twitter: @ketab_n

- ولكن كيف حدث هذا... انتظروا لحظة... لم نلاحظ كيف حدث الأمر.. يجب أن نجرب مرةً أخرى... لقد أقسمنا بشرفنا، وينبغي أن نقدم تقريراً موضوعياً وعلمياً... أرجوك يا حجل ارقصي مرة ثانيةً يا صغيرتي... لنفهم جيداً كيف تقطّع مطاط حمالة الثديين.

وحتى يتيقنوا من عدم وجود حيلة فقد فحص أعضاء اللجنة بأيديهم مطاطات حمالة الثديين وكلاباته، وعلّقوها بأيديهم على ظهر الراقصة العاري. وعندما تأكدوا أن كل شيئ على ما يرام عادت الحجل للرقص مجدداً، وعادت هتافات لجنة الخبراء وبقية الجمهور:

- اخلعي يا صغيرتي. هزي.. من تحت.. من تحت...

طَقْ! طَقْ!... تقصفت المطاطات والكلابات من جديد.. انطلقت حمالة الثديين بعيداً وظهر النهدان الجامحان!

جعلوها تكرر المرة تلو المرة... ثلاث مرات.. خمس مرات... لا أذكر بدقة.. وللحجل صدرٌ - حماه الله من عيون الحساد! - حتى لو ربطته بحبال متينة لقطّعَتْهُ شرَّ تقطيع!

إذن لم يستطيعوا إدانة الحجل لأن الأمر حدث دون قصد مسبق، ولا جناية حيث لا وجود لقصد! لكنهم طلبوا من الراقصة ألا تهزّهما كثيراً وبعنف حتى لا تتقطّع وصلات الحمالة المطاطية أو كلاباتها.

ثم انتقَلَتْ إلى مدينة أخرى حيث حدث ما هو أكبر. هذه المرة انقطع مطاط السروال، وهي ترقص، انزلق على ساقيها! شوف الحظ المعاكس! الحادث نفسه يتكرر في كل ليلة! صار الناس يتقاطرون من المدن المجاورة، وحتى من المدن البعيدة ليشاهدوا الحجل وهي ترقص. صاروا يتقاطرون ويتهافتون بالسيارات والقطارات والطائرات.. بالخيول والعَرَبات.. امتلأت الفنادق عن آخرها، وبقي البعض ينامون في الشوارع. ومن جديد نُظِّمَ الضبط. ومن جديد أحالوها إلى النيابة! وتقول لهم ببراءة: "يا سيدي أنا لا أتقصّد في سقوط سروالي - العفو - إن المطاط لا يتحمل وينقطع من تلقاء ذاته." ومن جديد يشكلون لجنة خبراء...

Twitter: @ketab_n

- ارقصي يا صغيرتي الحجل!.. هزي يا صغيرتي الحجل!

وتهزّ وتخلع.. طَقْ! يتقصف المطاط ويسقط السروال! آمان ما هذا! دعيني أثبّتهُ بيديّ لنر إن كان سيتقطّع.. إن زوجاً من الثيران لن يتمكن من تقطيعه الآن! ألن يتقطّع؟ هزي من فوق... هزي يا صغيرتي من تحت... ويتقطّع المطاط ويتطاير السروال... والصحف تحكي كل هذا مع الكثير من البهارات...

إني أتذكر جيداً. واحد من مشاهير كتاب تلك الأيام كتب في إحدى الصحف ما يلي على وجه التقريب:

«يا صغيرتي كلجان، لِمَ تستفزين مشاعر الحياء عند شعبنا؟ لا تفعلي ذلك. عيب! ليست مشاعر الحياء هذه متينة مثل قماشة الواقيات الذكرّية»، بل حسّاسه جداً وسريعة التمزّق. إنها تتأذّى ما إن تهزي وسطك هزّتين. إن ستارة الحياء تتمزّق بسهولة. لا تمزقيها برعشات بطنك التي تبلغ رقماً لا يعلمه إلا الله في الدقيقة الواحدة!" ويضيف الصحفي الكبير ناصحاً موجّهاً:

«دَرَجَتْ في هذه الأيام عادة إرسال سفيرات الجمال والظُرف من بناتنا إلى الخارج لتعريف الأجانب بهنّ. وأنا اقترح عليك الذهاب إلى بلدان أوروبا وأمريكا لتكوني سفيرة الوسط لبلادنا لتعرّفيهم على أفضل الأماكن فينا! حتى يعرفوا كيف يكون البطن وهز البطن... حتى تتفتح عيونهم وعقولهم. ثم عودي إلى بلدك وكأنك راقصة أجنبية. عندها ستزداد قيمتك فترقصين في أرقى وأفخم الملاهي والكازينوهات. ولأن زبائن تلك المحلات الراقية هم من نخبة مجتمعنا، فإن مشاعر الحياء عندهم متينة جداً ولا تتأذى وتتمزّق بسبب رعشات بطنك».

ومن يومها بدأت دعاية جديدة لراقصتنا: «الراقصة كلجان الحجل، مدار فخر بلادنا، مُقَطّعة المطاط، مفكّكَة الكلابات والسراويل» أو: «ملكة الرقص الشرقي، مُهرِّئَة المشدات، كلجان الحجل!» «نجمة الرقص الشرقي كلجان الحجل التي تمزق السراويل!»

Twitter: @ketab_n

انتشرَتْ شهرتها وطبَّقَتْ البلاد. إلا أننا لم نتركها تلتقط أنفاسها. التقارير. الضبوط. المخافر وأقسام الشرطة. النيابة. الإستجوابات. مديرية الأمن. المحاكم... أخيراً لم تعد المسكينة تحتمل. انفجرت في وجهنا:

– لقد أنهكتموني. لكن أعمالكم سترتد يوماً إلى نحوركم! قررتُ اعتزال هذه المهنة ـ لكنكم لم تنالوا مني بغيتكم. الحسوا أياديكم! ولكن... (وهزّت سبابتها في وجه المفوّض رجب) إن كنتُ أنا بتول فلن أترك أفعالك دون جزاء... ذات يوم سأجعلك تفتح لي باب السيارة! لا يكون اسمي بتول ـ الراحة إن لم أجعلك تفعل ذلك وتدفع ثمن أفعالك...

سكتنا مثل قطةٍ سفَحَتْ إناء اللبن... وبعد انصرافها أفاق رجب من ذهوله وقال:

– لقد أهانتني في حضوركم! ألن تشهدوا معي على ذلك؟ إن إهانة موظف دولة أثناء تأديته لمهمته هو إهانة للدولة ذاتها! وهذه الراقصة التي لا تساوي خمسة قروش، من تظن نفسها؟ سأنظم فيها ضبطاً وأجرجرها إلى القسم.

أيّدَهُ زينل بيك وطلب منه القيام بما يمليه عليه الواجب والقانون. ليلتها قَدَّمَتْ الحجل آخر عروضها. وكان عرضاً رائعاً يفوق أي وصف. والجمهور يصفّقُ كالمجانين ويطرقع بالصحون والملاعق، يضرب الكراسي والطاولات بالأرض...

صاح المفوض رجب:

– ينبغي أن ننظم ضبطاً!

ولكن ما نفع الضبوط؟. فقد طارت الحَجَل من بين أيدينا. ومن يومها لم نعثر لها على أثر.

بطن المس كاميبا ذات المحركَيْن

يا سلام! هذا ما كان ينقصنا! من أين اخترع أنني وقعتُ في غرام كولجان الحجل؟ لا شيئ من هذا القبيل. هو من وقع في غرامها... أنا لم أشعر نحوها بأي شيئ خاص.. هه، تذكرتْ. كان المفوض رجب هو الآخر

Twitter: @ketab_n

مغرماً بها. كلاهما وقع في غرامها. أما في مهنتي فلا يجوز أن تحب فتاة تعمل عندك. إن فعلتَ انتهيتْ.

قالوا لك إذن أنها في دار العجزة؟ واخ واخ.. تقول أنها مصابة بالشلل؟ وكيف لم تجدها حتى الآن؟ كيف تستطيع امرأة مشلولة أن تهرب من دار العجزة؟ غير معقول!

مرت سنوات طويلة... لا، لا تنظر إليّ هكذا... هو أكبر مني... إنه بعمر أبي. ولا أعرف شيئاً عن المفوّض رجب أيضاً، ولا عن مكان تواجده. لكني أتذكر يوم رفعوا رتبته وأصبح مفوّضاً أول. بعدها فقدتُ آثاره.

سأحكي عن قصة ترفيعه... إذ رأيتُ أن العاصمة أنقرة تنمو وتزدهر يوماً بعد يوم، قلتُ لنفسي لأفتح ملهى هناك أيضاً، بدلاً من أن يقتصر نشاطي على استانبول. وفي أنقرة لا يجوز العمل كيفما اتفق. بل ينبغي أن يكون شيئاً لائقاً بمكانتها. ولا يجوز فتح ملهى من الدرجة الثانية أو الثالثة. لأن لي سمعتي في هذه المهنة. وعلى الملهى الذي سأفتحه أن يكون لائقاً بهذه السمعة. صرفتُ المال بلا حساب فخرج للنور كازينو سياحي من الدرجة الأولى. مضى العام الأول على خسارة كبيرة. وكذلك العام الثاني... قلتُ لنفسي أنني سأخسر في أنقرة كل ما أكسبه في استانبول. وسبب خسارتي أن الكازينوهات الأخرى تستقدم فتيات أوربيات يقدمن عروض تعرٍ، أما أنا فلم أجد فتاة تعرَ مناسبة. وقد دَرَجَتْ تلك البدعة حديثاً آنذاك في البلد.

كنت أتنقّل باستمرار بين استانبول وأنقرة. وفي تلك الأثناء انتقل المفوّض رجب بقرار مفاجئ إلى العاصمة. استاء كثيراً من نقله. قال: «بعد سنواتٍ طويلة قضيتها وأنا أخدم الدولة والحكومة والشعب والوطن بإخلاص، بعد شغلي المتفاني الذي لم أميّز فيه ليلاً عن نهار، أيكون هذا جزائي؟ أينفونني إلى أنقرة؟ أهذا جزائي على حبي لعملي؟» قال هذا وقدم استقالته. إلا أنهم لم يكتفوا بعدم قبول الإستقالة، بل رفعوا رتبته ونقلوه إلى أنقرة. وقد أدهشه الترفيع أكثر من أي شيء آخر. لأنه كان يعتبر الأمر

Twitter: @ketab_n

مستحيلاً لأنه لا يحمل الشهادة الثانوية. لذلك أفرحه الأمر وعوّضه عن النقل الذي اعتبره "نفياً"... وكلما سافرتُ إلى أنقرة من أجل العمل كنتُ ألتقيه هناك. وبعد فترة سمعتُ أن أحد الموظفين الكبار في الدولة أخذه تحت حمايته وصار يعمل تحت إمرته. باختصار تحسنت أحواله على عكس ما كان يتوقع لها. أما أنا فقد استمرت أوضاع محلي من سيئ إلى أسوأ. ولا يمكن تحمل الخسارة إلى الأبد... صحيح أنني أتيتُ بفتاة تعرٍّ من أوروبا إلا أنها لم تتمكن من لفت الأنظار إليها. والسبب أن إحدى ملاهي أنقرة كانت تقدم عرض تعرّ لفتاة تدعى «مس كامبيا». كانت تشد كل جمهور أنقرة ولا تترك للملاهي الأخرى زبائن.

ذات يوم كنتُ أتشكى لصديقي رجب عن سوء الوضع فقال:

– ولِمَ لا تتعاقد مع مس كامبيا هذه؟ مادامت هذه الفتاة تعمل هناك فلا خبزَ للملاهي الأخرى. إن ملهى فخماً كملهاك لا يرتاده فقراء القوم... يختلف الوضع هنا عما هو عليه في استانبول... إن رواد الملاهي هنا من علية القوم، أي رجالات الحكومة ومن لف لفهم، كبار التجار والأثرياء. وحتى تجتذب هؤلاء عليك من كل بد أن تستقدم الآنسة كامبيا هذه.

– ولكن كيف؟ فهي تعمل هناك وفقاً لعقد.

– أنا علاقتي بها جيدة أستطيع إقناعها.

– هل تجيد التركية؟

– لا

– وأنت لا تجيد لغة الكفار... إذن كيف تتبادلان الكلام؟

– إنها صديقة حميمة لمعلمي. وكما تعلم فأنا أقود سيارة المعلم كل ليلة. كل ليلة أوصلها، بعد انتهاء فقرتها، من الكازينو إلى بيت المعلم. وأحياناً أوصلهما سويةً. بهذه الطريقة تشكلَتْ صداقتنا. ونحن نتفاهم بالعين والحاجب، أي بالإشارات. هي ترتاح إلي كثيراً. آه لو تراها يا أخي! إنها بدعة من بدع الزمان. يجب أن نقنعها بالإنتقال إلى محلك.

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة ذهبنا سويةً إلى الملهى الذي تعمل فيه الآنسة كامبيا. كان مزدحماً عن آخره، في الوقت نفسه الذي لا تنشغل فيه في محلي أكثر من ثلاث أو أربع طاولات كل ليلة.

حان وقت فقرتها. أُطفِئَتْ أضواء الصالة، وأشعلت أضواء المسرح الملونة. كانت العادة أن تطفأ معظم أضواء الصالة ولكن ليس جميعها بحيث تسود ظلمة حالكة. سألتُ رجب عن الأمر، فأجابني:

– ستفهم السبب عندما تبدأ مس كامبيا بالتعري. لقد اضطروا إلى هذا الإجراء اضطراراً. لأن أموراً معينة تحدث في الصالة. تتغير وجوه الرجال وهم يرون عريها. يخجل الجميع بعضهم من بعض. وفي اليوم التالي يهزؤون بعضهم ببعض. سترى بنفسك. من المستحيل أن تضبط نفسك وأنت ترى العرض. بعض الرجال ينشبون أظافرهم في الطاولات، آخرون يدعكون أغطيتها، والبعض الآخر يقلب الكؤوس والزجاجات سهواً, إنها إمرأة لا مثيل لها...

ما إن أطفئت أنوار المسرح حتى ظهر عليه قرد مخيف من نوع الأورانغ ـ أوتان...

– ما هذا؟!

– سوف ترى الآن...

في إحدى زوايا المسرح كانت امرأة ترتعش رعباً... بدأ القرد يطاردها وهي تصرخ بأعلى صوتها. وبضربةٍ من مخالبه خلع عنها معطفها. هربَتْ... لاحقها القرد... ضربةٌ أخرى... ثم أخرى... وبهذه الطريقة عراها القرد قطعة بعد قطعة كما تُقَشّر موزة! راحت المرأة بكل عريها تتلوى على الأرض خوفاً وألماً بينما القرد يدور حولها... أخيراً رفعها القرد العملاق بين ذراعيه وركض بها إلى ما وراء الكواليس. لحسن الحظ لم يشعلوا الأضواء فور انتهاء العرض. ووجد الرجال الوقت الكافي لتمالك أنفسهم. سألني رجب:

Twitter: @ketab_n

-ما رأيك؟

- إنها ذات مهارة خارقة. ليس هذا الازدحام من غير سبب.

- أتريد أن أجسّ نبضها الليلة في السيارة وأمهد الجو معها؟

في تلك الليلة وبمساعدة من معلّمِهِ فاتحها رجب بالموضوع. فقالت:

- ليدفع عني تعويضات فسخ العقد ويدفع لي ألف ليرة عن كل ليلة. وأنا موافقة.

ألف ليرة في الليلة، كان أجراً مرتفعاً جداً في ذلك الوقت. لكنني وافقتُ على كل شروطها. وانتقلَتْ مس كاميبا إلى محلي. ومعها امتلأ الملهى بالزبائن من نخبة رجال أنقرة.

بعد فترة ابتكرت مس كاميبا عرضاً جديداً. أو الأصح أنها طورت في القديم. بعد أن يعريها الأورانغ أوتان حتى آخر قطعة من ملابسها يبقى مصدرٌ وحيد للضوء، يضيّق ويضيّق حتى يتركز فقط على سرّة «مس كاميبا» بينما يغيب ما تبقّى من جسدها في العتمة. ويبدأ بطنها المكشوف على الضوء يهتز ويرتعش وكأن محرّكاً يديرُ حجر طاحون. هذا العرض أعجب الزبائن كثيراً وزاد من عددهم... أكسبها لقب ذات المحرّكين.

لقد تحسّن وضع المحل وأصبحتُ على وشك أن أقف على قدميّ... لكن المس كاميبا لا تهدأ... أصبحت تُمرّر الكرات* لكل الزبائن المحترمين وكبار الساسة. وكادت تتسبّبْ في أزمة حكومية! لأن الجميع تخاصموا من أجلها. وفي الوسط المخملي لأنقرة لا يتحدثون إلا عنها. ويتباهى الرجال المحترمون بصحبتها:

- ليلة البارحة كنتُ مع مس كاميبا...

- مس كاميبا وقعَتْ في غرامي..

وانتشرَتْ الشائعات كالنار في الهشيم. الأسَر الراقية تخاصمَتْ. ناصبَتْها النساء العداء:

---

* حرفياً: تفتح الباصات.

Twitter: @ketab_n

- أية عديمة أخلاق هذه! إنها تغوي أزواجنا...

هكذا بدأت شكاوي النساء. صارت هذه تشكو لزوج تلك، وتلك تشكو لزوج هذه:

- أرجوك أنقذ زوجي من بين براثنها! إن حياتنا الزوجية السعيدة مهددة بالإنهيار!

تحولت مس كاميبا إلى مشكلة سياسية بكل معنى الكلمة. نعم يا سيدي، كانت رأس الفتنة فتاة التعرّي هذه. أيجوز معاشرة جميع رجال نخبة البلد في وقت واحد؟ اكتفي بواحدٍ منهم وعيشي حياتك معه. لكن عينها لا تشبع!

وأخيراً حدث المحظور: صدر قرار رسمي بطرد مس كاميبا خارج حدود البلاد. وصلني النبأ من المفوّض أول رجب الذي قال لي:

- ... وكلّفوني أنا بتنفيذ القرار. غداً صباحاً سأرافقها حتى الحدود.

صدمني الخبر. فمعناه العودة إلى تشغيل الملهى بخسارة.

في ذلك المساء ذهبنا ـــ أنا ورجب ـ إلى الفندق الذي تقيم فيه كي نخبرها. عندما أخبرها رجب بالإشارات عن فحوى القرار، راحت تضحك بصخب وقالت بلغة تركية سليمة:

- لا أحد يستطيع طردي خارج البلاد!

- وكيف لا يستطيعون؟ إن قوة الحكومة قادرة على طردك.

- لا تستطيع أية قوة طردي.. لأنني.. وتضحك.

- لأنك ماذا؟

- لأنني تركية يا أخي! ألم تعرفاني يا أغبى رجلين عرفتهما في حياتي! ألا تتذكران كلجان الحجل؟ لقد سممتما حياتي وشغلي. جرجرتماني بين أقسام الشرطة والنيابة والمحاكم.. طيب. سافرتُ إلى أوروبا واحترفتُ التعري. اشتغلتُ سنتين أو ثلاث سنوات في الخارج. ثم عدتُ إلى بلدي مس كاميبا.

- غير معقول! لكم تغيّرت يا بنت! لم نعرفك!

Twitter: @ketab_n

التفتتْ إلى رجب وقالت له:

– من الذي تظنه نقلك إلى أنقرة؟ ومن الذي رفع رتبتك؟ ومن عينك تحت إمرأة المسؤول الكبير؟ أنا وأنا وأنا! ألم أعدك بأن أجعلك تفتح لي باب السيارة وتغلقه؟ ها قد وفيتُ بوعدي...

لقد كسبت يا حجل. إني أعلن هزيمتي!، قال رجب.

– تدعون إذن بأنني أغوي الأزواج الأبرياء الذين في الخمسين والستين من أعمارهم؟... أنا أفسد أخلاقهم؟ واي يا أطفالي الأبرياء واي! لن تستطيعوا إبعادي إلى أي مكان. هذا بلدي. والآن لم أترك في جسمي مكاناً لم أكشفه على الملأ. لِمَ لا تنظم بحقي ضبوطك؟

– هذا ليس من شأني. تلقيتُ أمراً بإبعادك وسوف أنفذه...

– اسمع يا رجب. معي رجل ألماني يتنكر في هيئة الأورانغ أوتان ليعريني كل ليلة. لا تزعجني وإلا سأجعلك أنت تقوم بهذه المهمة بعد أن أجعلك في هيئة قرد... اذهب وقل لهم أنني لستُ أجنبية.

نعم هكذا... لم يستطيعوا إبعادها خارج الحدود. وبقي هذا الأمر سراً. لكن الحجل لم تعد إلى الرقص بعد ذلك ولا عدنا رأيناها. سمعت لاحقاً أنها تزوجت من رجل ثري جداً.

لكنني سأسرّ لك بشيء. ألم أقل لك أنه بعد أن يعريها القرد من كل ثيابها فإن الضوء يتركز على بطنها وتبدأ بهزه وتدويره؟ من أول مرة رأيتُ فيها ذلك قلتُ لنفسي: «يستحيل أن تكون هذه المرأة أجنبية ـ هذا البطن، وهزة البطن، تركيّان...» عشتُ حياتي في الملاهي كيف لا أميزّ البطن المحلي عن البطن الأجنبي؟ وكيفما غيّرت كلجان من هيئتها فإن بطنها يفضحها. ومع ذلك كيف انخدعتُ وصدّقتُ أنها أجنبية؟ هذا ما آلمني...

خبر في جريدة

مازال البحث عن صاحبة العشرين مليون جارياً على قدم وساق. منذ حوالي أربعين عاماً غادر المدعو حسن قريته وبلده وبسبب خلاف على أرض نشب بينه وبين أخيه، تغرّب وعاش أوقاتاً صعبة استقر في نهايتها في

Twitter: @ketab_n

القاهرة. تزوج امـرأةً مسنّة (سليلة إحـدى العـائلات في مصـر) وورث كـل أملاكها بعد أن وافتها المنية. وعندما توفي حسن منذ بضعة شهور، لم يكـن له أيّ أولاد، وتبين من وصيّته أنه وهـب كـل ثروتـه لابنـة أخيـه المدعـوة (وردة). يُتَوَقَّع أن تكون قيمة هذه الثروة حوالي عشرين مليون ليرة أو دولار. عندما وصل الخبر إلى قرية حسن، لم يبق سوى شخص أو شخصان ما زالا يتذكران (وردة) التي أعطوها خادمة لأحد الموظفين وهي في سن السادسة أو السابعة. أقارب وردة الباقين على قيد الحياة، استشاروا المحـامين وعرفـوا أنهم سينالون حصةً من هذه الثروة الضخمة بشرط أن يعـثروا علـى (وردة). وقد بدأوا حملة كبيرة للبحث عنها. إلا أنهـم لم يتوصلـوا حتـى الآن لا إلى مكان إقامتها ولا إلى ما يؤكد أو ينفي أنها علـى قيـد الحيـاة. والأرجـح أن (وردة) الآن لا تعلم أنها واحـدة مـن أصحـاب الملايـين القلائـل في تركيـا، وتعيش حياةً ملؤها البـؤس والعَـوَز. أحـد أبنـاء أخيهـا مـن أبيهـا، شـاب جامعي، وهو يعد بمكافأة مجزية لمن يدله على مكان وجودها.

سر الستارة التي تحركَتْ

أأنتَ من سأل عني؟ قالوا لي أنـك جئـت إلى المكتـب عـدة مـرات. وإلى البيت أيضاً. غبتُ عن استانبول مـن أسـبوعين. كنـتُ في أنقـرة مـن أجـل بعض الأعمال. تفضـل يـا سـيدي، مـا الموضـوع الـذي جئـتَ تقـابلني مـن أجله؟... مسألة شخصية؟ أية مسألة هي؟... عن امـرأة؟ السـيدة بتـول؟ لا أتذكر امرأة بهذا الاسم... هـل أرسـلك إليّ حسـن كوسـه لـك؟. نعـم، إنـه صديق عزيز عليّ... تفضل بالجلوس... قال لك حسن بـأني أعـرف السـت بتول؟... غريب! آه. تقول بأنها عرضَتْ عليّ العمل عندها كسائق؟ لكنـني لا أجيد السواقة... طبعـاً... وراء السـتارة؟ هـا.. الآن فهمـت... يـا إلهـي كيف نسيتُ ذلك؟ نعم. نعم. تذكرتُ جيداً... لكنهـا قصـة قديمـة... نعـم حكيتُ هذه الحادثة لحسن بيك ذات مرة...

ياللغرابة!.. عندما سألتَ عن السيدة بتول، لم أتذكـر، لأنـني عرفتُهـا باسم «مدام مزاد» واعتقدتُ وقتها أنه اسمها الحقيقي، فيما بعد عرفتُ أنـه

Twitter: @ketab_n

مجرد لقب. كانت امرأة طيبة تحب أعمال البر والإحسان. وكانت تعرض شفتيها في المزاد أثناء الحفلات التي تقيمها الجمعيات الخيرية، لصالح صناديق تلك الجمعيات، من ذلك اكتسبت اسم «مدام مزاد». وقد كان المزاد يشتعل ويرتفع. ليبلغ سعر شفتيها في بعض المزادات، سعر بناية. طيب ولماذا تبحث عنها الآن؟... هم... نعم، إذا عرفتُ غرضك، سأتمكن من مساعدتك بشكل أفضل... أليس كذلك؟ أهي قريبتك؟... حسناً إذن. مادام حسن كوسه قد أرسلك إليّ فإنني لن أكسر بخاطره. فهو صديق عزيز سأحكي لك.

تعرفتُ عليها في ليلة واحدة. صحيح أنني سمعتُ الكثير عنها فيما بعد، إلا أن معرفتي بها لا تتعدى تلك الليلة. كان شيئاً أشبه بالحلم.

لم تكن الأمور مثلما هي اليوم. في صبانا كانت الدراسة صعبة على الفقراء من أمثالي. لم أستطع إتمام الثانوية. بعد إنهائي لخدمتي العسكرية عُيِّنتُ موظفاً في الدائرة العقارية. صحيح أن الدراسة كانت صعبة، لكن إيجاد فرصة عمل كان أسهل مما هو عليه الآن. لأن خرّيجي الثانوية كانوا يُعَدّون على الأصابع.

كان راتبنا ضئيلاً للغاية والمعيشة صعبة جداً. وكنتُ أعيل أمي وأختي الكبيرة وأخاً صغيراً في المدرسة. كان عليّ أن أواجه مصاريف البيت براتب يبلغ 59 ليرة و70 قرشاً بالتمام. تصوّر بنفسك... كان لي زميلٌ يشاركني المكتب اسمه «كنان»، وسيم جداً في منتهى الأناقة. كان يصرف بسخاء مع أنه لم يكن مجداً في العمل. وبينما نحن نعمل كان هو يسند رأسه فوق طاولة المكتب وينام. ولأنه يصرف بسخاء، كان الرؤساء يراعونه ولا يزعجونه بسبب نومه أثناء الدوام. كان غالباً ما يدعو زملاءه إلى ولائم في أفخم المطاعم. لذلك كان محط أنظارنا جميعاً. والحال أنه في بداية التحاقه بالعمل كان يبدو عليه البؤس الشديد. ثم فجأة تغير مظهره وطريقة حياته. اعتقدنا أنه ورث ثروةً. صار همنا معرفة سبب تغير أحواله ومصدر أمواله

Twitter: @ketab_n

التي يصرفها بلا حساب. فكرنا أيضاً بالرشوة. حتى أنا ارتشيت... ولكن الرشوة في دائرتنا لا تطعم خبزاً. لا تغطي مصاريف دخان الموظف.

ذات مساء دعاني لتناول العشاء في مطعم على المضيق. ونحن نشرب، وجدت فرصةً سانحة وسألته:

- مادمتَ بهذا الثراء يا صاحبي، لِمَ تتحمل عبء الوظيفة؟

- ومن قال لك أني ثري؟

- إن لم تكن كذلك، من أين لك كل هذا المال الذي تصرفه بلا حساب؟

- لا تكن فضولياً... لكل شخص طريقته...

ازدادت شكوكي على أثر هذا الجواب الغامض. بدأتُ أراقبه. لم أره حتى وهو يقبض رشوة! كيف له أن يرتشي وهو لا يعمل، بل يقضي فترة الدوام وهو نائم؟

ذات يوم لجأت إلى التهديد الصريح:

- سأقاسمك في الرشوة التي تقبضها، وإلا أخبرتُ عنك.

بلا أدنى اكتراث أجاب يقول:

- حسناً، أخبر عني...

بَرَدَتْ علاقتنا فترة من الوقت على أثر هذا التهديد. ثم مالبث أن استقال من عمله وغادر الدائرة. ثم حدث أن فصلوني من العمل. ساءَتْ أحوالي إلى أقصى الدرجات. وذات يوم وأنا أتمشى في «بيوغلو» على غير هدى، أفكر بمخرج من حالتي صادفت كنان. تصرف تجاهي بود وكأن شيئاً لم يحدث. وعندما أخبرتهُ بأنني عاطل عن العمل رأف بحالي. دخلنا محلاً لبيع الحلوى. قال:

- أشابٌ مثلك يبقى بلا عمل؟

- لا صنعة في يدي ولا شهادة ولا واسطة...

- حرام عليك... قامتك طويلة، كتفاك عريضان قويٌ كحصان، وفوق ذلك أنت وسيم... أنت من النوع النادر... ما إن يروك حتى يتخاطفوك...

Twitter: @ketab_n

– من الذي سيتخاطفني؟... ماذا تقول؟ لي أشهر وأنا أتجول بلا عمل، لم أجد من ينظر في وجهي...

– ألم تسألني ذات مرة من أين آتي بالمال؟

– نعم...

– سوف أقدم لك معروفاً.

حكى لي أن ثمة حفلة راقصة الليلة في مكان يدعى «نادي القمة». قال أنه سيصحبني إلى هناك. وأنه من المستحيل ألا يجدَ شاب مثلي عملاً هناك.

– ولكن يجب أن نصلح من هندامك.

أخذني إلى بيته. كان يقطن شقةً بمفرده في «مجقه». أخرج لي بذّة سموكنغ وطلب مني أن ألبسها. لبستها، فبدت كبيرة عليّ. طويلة وواسعة.

– ياسوء حظك! هناك الكثير من المحلات تؤجر الملابس. ولكن الوقت تأخر ولن نجد ما نريد الآن. لو كان لدينا الوقت الكافي لجعلنا خياطاً يغير في مقاسها. فكر قليلاً ثم قال:

– انتظر. سأجد طريقة...

ألبسني السموكنغ... (كان يتقن كل شيء). بواسطة الدبابيس ضيّق خصر البنطال وسرجه... قصّرَ أكمام السترة. بعد ذلك كوى البذّة جيداً. عدتُ فلبستها. نظرت إلى نفسي في المرآة.. كل شيء على خير ما يرام. أماكن التعديل غير واضحة البتة. صرتُ متألقاً. بعد قليل جاء أحد أصدقاء كنان مع خطيبته. إصطحبانا في سيارتهما الخاصة، انتقلنا إلى جهة الأناضول، وصلنا نادي القمة...

كان النادي عبارة عن قصر ضخم على شاطئ البحر، تحيط به حديقةٌ واسعة. كان كوخ البواب في مدخل الحديقة أكبر من البيت الذي أقطنه مع أمي وأخوتي في حي «شهرمن». اجتازت السيارة البوابة الحديدية التي فتحت إحدى مصراعيها، تقدّمتْ على ممرٍ رملي بين صفين من الأشجار الباسقة. أمام باب القصر ترجلنا من السيارة. كانت سيارات كثيرة تصطف هناك.

Twitter: @ketab_n

أنت لا تعرف استانبول جيداً، أليس كذلك؟ مؤكد أنك لا تعرف تلك المنطقة... عندما وصلنا كان الظلام قد أطبق تماماً ولكن القصر كان مغموراً بأضواء المصابيح الكهربائية. على شجرات الحديقة علقتْ مصابيح ملونة. وفي ممرات الحديقة كانت أعمدة نور مزخرفة تحمل المصابيح.

لم أر في حياتي مكاناً بهذه الفخامة. بدأتُ أرتبك وأتعثر وأنا أمشي. كنت نادماً على مجيئي، وفي الوقت نفسه يقضمني فضول جارف للتعرف على النادي.

يتم الصعود إلى الباب الخارجي الأبيض للقصر عبر صفين من الدرجات الرخامية العريضة... بعد أن تجتاز الباب الخارجي الحديدي ذاك، يواجهك بابٌ آخر من الخشب المنحوت. بعده بابٌ آخر زجاجي كبير يُفضي بك إلى الصالون. وأيُّ صالون؟ هو من الإتساع بحيث يمكنك أن تقيم فيه سباق خيول. ترنحتُ بدخولي الصالون، من صدمة النور الباهر، فقدتُ الرؤية لثوان. والسبب أني وَجلٌ بعض الشيء... كان هذا هو «المجتمع الراقي» الذيُّ أسمع به منذ سَنوات طويلة... وجدتُ نفسي فجأة في وسط المجتمع الراقي. وصُدِمتْ.. الانوار الباهرة من جهة، القهقهات التي ملأت أذنيٌّ والموسيقى من جهة أخرى.. نعم صُدِمْت.

كان الصالون ممتلئاً بالرجال والنساء الأنيقين. ومن الطرفين تنفتح أبواب على الصالون. وكلها مزخرفة، ملونة جميلة... والجدران مطلية بالطلاء الزيتي ومقسمة بإطارات من الخشب المزخرف. والسقف الذي يعلو إلى إرتفاع يعادل إرتفاع بناء من ثلاث طوابق، مزخرف ومطلي وتتوزع عليه الثريات الفخمة التي تغمر الصالون بالضوء. ويتناثر الضوء ألواناً ألواناً على نحور وأكتاف وصدور النساء العارية.

كنتُ في ذهول شديد. شبّهتُ المكان بصالون رأيته في أحد الأفلام عندما كنتُ لاأزال طفلاً صغيراً صالون أحد قصور فييناً... وعما قليل سوف ينزل إلى هنا بخطا بطيئة، امبراطور النمسا ببذته المارشالية المكوية جيداً، والمزينة بالأوسمة، سيمسك أطراف أصابع فتاة كالدمية في ثوبها الأبيض من

Twitter: @ketab_n

التفتا وبيدها منديلٌ حريريّ تجفف به عرق كفيها، سيمسكها من أطراف أصابعها ويدعوها للرقص. ثم يقوم الرجال والنساء الآخرون ويبدأ فالسُ فييني... ثم ينضم إليهم الأمراء والأميرات، الأرشيدوقات والكونتات والكونتيسات والبارونات... ومع صوت الأمواج التي تتكسر على الشاطئ سترتفع الأقدام عن الأرض، ستتملّص النساء من أيدي الرجال ويطرن بكل الألوان في فضاء الصالون.

أتعرف أولئك الجنود الذين يتجمعون في باحة المسجد الجديد يوم إجازتهم الأسبوعية، خائفين من الضياع وسط زحام استانبول التي لم يسبق لهم أن رؤوها؟ إنهم يلتصقون ببعضهم ويمسكون أيدي بعضهم البعض. كنتُ في ذلك الصالون مثلهم. كنتُ أمسك يد كنان بشدة بعد أن اكتشفتُ إبتعاد وإختفاء الشاب الذي أقلنا بسيارته، هو وخطيبته. سحب كنان يده من يدي. توغلنا في عمق الصالون. انتحى بي جانباً وقال لي:

- إن عرفتَ كيف تستخدم نفسك بشكل جيد. من الممكن أن يلمع نجمك!

- كيف أستخدم نفسي؟

- إنها مسألة بيع... ينبغي أن تجيد بيع نفسك... لا تكن مبتذلاً وتسترخص نفسك. بعها بالقطّارة... يمكن أن تؤمن لنفسك مستقبلاً باهراً. إن معروفي إلى هنا فقط. الباقي عليك.. أنت ورجولتك. إن لم تحصل على خير هنا هذه الليلة، معنى ذلك أنه لا نفع منك. وستحكم على نفسك بالبؤس الأبدي. ومن الأفضل، إذا كان هذا هو حالك، أن ترمي بنفسك من فوق «سراي بورنو».

كان يتكلم وكأن هذا النادي هو مكتب تشغيل. مكانٌ لا أعرفه. أناس لا أعرفهم جاؤوا ليستمتعوا بوقتهم. كيف أذهب وأطلب منهم أن يشغّلوني؟ قال أنني لن أطلب عملاً من أحد. بل سيأتيني العمل من تلقاء ذاته. كان عليّ فقط أن أمشي وأتبختر... وأضاف بأنني لستُ بحاجة إلى من يعرّفني

Twitter: @ketab_n

بأحد. بل عليّ أن أتحدث إلى من أشاء بلا كلفة. وسيجدونك بأنفسهم...
لم أفهم من يقصد بـ «هم».

– دعني الآن أريك تفاصيل النادي. في الأسفل يوجد بار، وفي الأعلى عدد كبير من الغرف وصالة رقص.

صعدنا إلى الطابق العلوي. كان ثمة صالون آخر في نهاية ممر طويل وعريض. وفي الطابق الأعلى شرفةٌ عريضة تكاد تطل على البحر بحيث ظننتُ نفسي على متن سفينة. كان النُدُل يحملون صواني عليها كؤوس الشراب يمرون بين الطاولات الحديدية المطلية بالأبيض فوق تلك الشرفة المليئة بالرواد.

كانت الامواج تضرب الشاطئ بطراوة تحت ضوء القمر، وتلتمع في البعيد أنوار سفينةٍ تتحرك ببطء في الظلام.

مررنا بين الراقصين في صالون الطابق الأرضي ونزلنا إلى الطابق الأسفل. هناك كان الملهى. يدخل إليه عبر مدخل طويل تصطف على جدرانه من الجانبين المرايا الكبيرة. عندما تنظر إلى المرايا ترى عدداً من أخيلتك يفوق العشرة. وهذا زاد في إرباكي. أصبحت أرى أكثر من عشرة صور لصديقي كنان. ولم أعد أميز أيهم كنان الحقيقي وأيّهم خياله في المرايا. أوشكتُ أرتطم بالمرايا ظناً من أنني أقترب من رفيقي. لكن الأدهى كان بانتظاري عندما ولجنا قاعة الملهى. كانت القاعة مقسّمه بجدران زجاجية سميكة ونظيفة. نظيفة إلى درجة لا يفطن المرء إلى وجودها. وفي حركةٍ خرقاء مني اصطدم رأسي بأحد تلك الجدران الزجاجية وأنا أنوي إختراقه. رأيتُ نجوم الظهيرة كما يقولون. ولولا أن أسندني كنان لكنتُ تكومتُ على الأرض. كان الأمر أشبه بفخٍ لكشف المغفلين. انتقلنا إلى البار السياحي في الملهى. كانت هنا فرقة جاز وخمسة أزواج متلاحمين يرقصون على البيست.

نعم؟ الست بتول؟ كيف أحكي لك قصة الستارة دون أن أحكي عن إرتباكي؟ هذه التفاصيل التي أحكيها لك ضرورية للوصول إلى بيت

Twitter: @ketab_n

القصيد. وعلى كل حال لو ظللتُ أصف لك ذاك النادي طوال ساعات فلن أنتهي.

كان الرجال والنساء في البار الأمريكي متشابكين ومتداخلين كأذرعة أخطبوط. وفي كل جهات الملهى غرف خاصة ذات واجهات شبكية، يغطي بعضها ستائر أشبه بمناشف الحمّام... تصدر أصوات أقرب إلى الهمس من تلك الغرف. كان المكان أشبه بمكان لتزاوج طيور الكناري. كان الصخب يزداد مع اقتراب الفجر. هذا ما أعلمني به صديقي كنان.

جلسنا على المقاعد العالية أمام البار وبدأنا نشرب... لحسن الحظ لم تكن الإنارة شديدة هنا كما في الصالون، بل أقرب إلى العتمة. لولا ذلك كان الجميع رآني وأنا أصدم رأسي بلوح الزجاج.

حتى أن مصادر الضوء كانت مخفية هنا. والأضواء ملونة: صفراء ـ حمراء ـ خضراء... سألت صديقي عن السبب في إعتام هذا المكان بينما يغرق الصالون العلوي في النور الباهر. كان كنان خبيراً وعتيقاً في هذه الأماكن. ويعرف كل شيئ. شرح لي سبب خفوت الضوء في الملهى. قال أنهم يشربون هنا كثيراً. وتحت تأثير الكحول وخفوت الضوء كان الرجال يرون ملكات جمال في أقبح النساء. كان الضوء الخافت كميناً بإظهار العجوز الثمانينية وكأنها صبية في الثامنة عشر من عمرها. والبشرة المليئة بالتجاعيد كانت تظهر نضرة بضة مورّدة. حكى لي كنان أنه ذات ليلة تعرف على فتاةٍ لا يزيد عمرها عن الثامنة عشر عاماً وعرض عليها الزواج. عصف بهما غرامٌ جارف. شربا حتى الثمالة... إلا أن الفتاة كانت ترفض مغادرة الملهى. يقول لها كنان: «لنذهب إلى الصالون في الطابق الأعلى..» فترد عليه الفتاة وهي تشرب: «الإزدحام هناك سيفسد علينا سعادتنا.. لنبق هنا وعندما يصبح الصبح نذهب إلى أقرب مأذون ونتزوّج..» أخيراً تمكّن من أخذ الصبية الحسناء إلى الصالون. ويالهول ما رأى! عجوز شمطاء قميئة يفوق عمرها الخمسين عاماً.

Twitter: @ketab_n

قال لي أن هذه الأضواء الملونة الخافتة التي لا تظهر مصادرها، أشبه بعصا سحرية، ما أن تلمس الوجه المليئ بالتجاعيد للعجوز الثمانينية حتى تحولها إلى عروس غضة في العشرين من عمرها.

بالإضافة إلى ذلك كانت العتمة هناك تساعد على أن يخطئ الرجال والنساء بعضهم بعضاً، يتم تبادل الزوجات والصديقات بالخطأ. ثم حين يتضح الخطأ تحت الضوء يقولون بعضهم لبعض: «باردون».

ثمة أمر آخر. فكما أن لكل امرأة مساحيق تجميل مختلفة تناسب بشرتها، فإن لكل امرأة أيضاً ضوءاً ذا لون محدد يناسبها. وكل امرأة من الوسط المخملي تعرف اللون المناسب لها. ثمة نساء يصغرن ثلاثين عاماً تحت الضوء الأحمر، بينما يمسخهن الضوء الأخضر إلى قرود. أخريات يكتسبن النضارة تحت الضوء الأصفر ويتحولن إلى حيزبونات مخيفة تحت الضوء الأزرق. على المرأة أن تعرف كل هذه الأمور. ليس من السهل أن تكون المرأة من المجتمع الراقي.

ثمة مهنة يسمونها هندسة الديكور. أساس هذه المهنة هو السحر والإيهام البصري. ومن الصعب الإتقان في خلق تلك العتمة وتلك الأضواء الملونة الخافتة. لقد استقدموا مهندس ديكور من فرنسا ودفعوا له أموالاً طائلة كي يخلق هذا الجو الخاص في الملهى.

إن المرأة السبعينية تخفض عمرها عشرين عاماً عن طريق الحلاق والمكياج وحمامات الحليب وطلاء الأظافر وما إلى ذلك. فتصبح بذلك في الخمسين من عمرها. ثم ترتدي أزياء على الموضة فينزل عمرها عشر سنوات. لقد أصبحت في الأربعين. وعن طريق المغامرات العاطفية وما إلى ذلك تنزل عشر سنوات أخرى. أصبح عمرها ثلاثين عاماً... ثم يأتي دور الدلع والرقص والنَطْوطَة والسخسخة والسكسكة فيخفضون من عمرها خمس سنوات أخرى. ها قد أصبحت شابة في الخامسة والعشرين. يكفيها الآن أن تستلقي تحت ذاك الضوء الخافت من اللون الذي يناسبها فإنها تصبح وردةً في ربيعها الثامن عشر لا يشبع المرء من شمها. لكن عزرائيل الوغد، يأتي

Twitter: @ketab_n

مع ذلك، وبصورة مباغتة ذات يوم ليقبض روح ابنة الثامنة عشر! كان كنان يحكي لي عن هذا الوسط المخملي، عن خبرة ودراية، يحكي ويذهلني.

كان بجانبنا جدار مفروش بالخشب المنحوت... نظرتُ إلى الزخرفة: ثلاثة غزلان يحيط بها العشب، وفوق الأعشاب صور رجال ونساء عراة كما ولدتهم أمهاتهم. شربتُ بلا توقف حتى أكتسب بعض الجرأة.

– اقترب موعد مجيء صاحبتي، سأتركك لوحدك، يقول لي كنان. ياإلهي!.. كيف سأتصرف هنا وحدي؟ طمأنني بأنهم لن يتركوني وحدي. وقال أن هذه الحفلة الراقصة أقيمت خصيصاً من أجل مساعدة الشبان الفقراء. وأنا أُعتبر واحداً من هؤلاء. بالتأكيد سوف يظهر أحدٌ ما ليأخذ بيدي. من المؤكد أن كنان يهزأ مني: تصوّر أنه يطلب مني أن أركّز على إحدى النساء ثم أقترب منها وأقول لها: «يا سيدتي، أنا أيضاً واحدٌ من أبناء هذا الوطن المساكين والمحتاجين إلى المساعدة». هل يعقل هذا يا سيدي؟ حتماً سأتبهدل، لكن كنان يؤكد أنه من المستحيل أن يتبهدل المرء هنا. لأنه إذا بدر منك ما يعيب اعتبروا الامر مزحة وحباً للنكتة! لذلك إذا اقتربتُ من إحدى النساء وقلتُ لها: «يا سيدتي. أنا يتيم الوالدين جودي عليّ مما يجود به قلبك...» فإنها ستفرح وتقول: «ياله من شاب دمث!» ثم تقدمك إلى زوجها... أي أنك لن تتبهدل هنا حتى لو سعيتَ إلى ذلك عامداً متعمداً. حتى لو تجشّأتَ يعتبرونك تقلّد أحداً أو تهرّج. وكنان يلقنني الدروس: يجب أن تكون وقحاً عديم الحياء. هذا واحد. وأن تتمايع وتداهن. وهذا ثانياً. ستلقي النكت حتى لو كانت نكاتاً باردة... وهذا ثالثاً. قال لي أن هؤلاء يبحثون عن أية ذريعة ليضحكوا. وهم جاهزون للضحك مهما بدر منك من كلامٍ أو حركات أو أصوات.

تركني كنان وابتعد بعد أن أكد لي أنني سأراه مراراً من الآن وحتى الصباح. لحسن الحظ أنني كنتُ أحمل بضعة ليرات صرفتُها في الشرب

Twitter: @ketab_n

حتى الثمالة. تعتعني السكر لأنني لم أكن معتاداً وقتها على الشرب. أردت أن أجد مكاناً أغسل فيه وجهي وأصحو. ولكن أين دورة المياه؟ درتُ في أرجاء الملهى، صعدتُ إلى الصالون، ثم الطابق الأعلى، لكنني لم أعثر على مكان يشبه دورة مياه. وكنتُ أخشى فتح الأبواب المغلقة. لأن كنان لقنني درساً بهذا الخصوص حتى لا أقترف أية غلطة:

- لا يجوز أن تتدخل في كل شيء أو تلمس ما يخطر على بالك هنا. حذار أن تفتح الأبواب المغلقة أو تنقّب هنا وهناك. حتى لو كان باب غرفتك لا يجوز أن تفتحه فجأة. قبل أن تفتح باباً عليك أن تسعل. السعلة الاولى لأخذ العلم. السعلة الثانية تطلب ممن في الداخل أن يتهيّؤوا. السعلة الثالثة معناها لملموا أنفسكم، إني قادم. أسرعوا ولا تلوموني... وبعد ذلك لا يجوز أن تفتح الباب أيضاً... يجب أن تعد حتى العشرين ببطء شديد، ثم تفتح الباب. ومع ذلك إذا كان من في الداخل في وضع غير ملائم، تقول لهم «باردون» وتغلق الباب.. ربما كانوا من شدة الانفعال أهملوا إقفال الباب.

في وضعٍ كهذا أيُّ بابٍ يمكن لي أن أفتح؟

خرجتُ إلى الحديقة. كانت ليلة صيف دافئة وأزواج من النساء والرجال يتمشون في ممراتها تحت الأضواء يتهامسون ويتضاحكون ويتباوسون... دخلتُ في الممرات الفرعية المظلمة. كان عددٌ من الأزواج متمددين على العشب الطري يمارسون الحب. أيُّ مكانٍ هذا؟ واعجبي!

صحيح أن الحديقة مضاءة، إلا أنه ثمة زوايا كثيرة مظلمة ينزوي فيها الأزواج ويفعلون ما يحلو لهم دون أن يراهم أحد. توغلتُ في منطقةٍ وبدأتُ أتبول تحت إحدى الأشجار. لكنني سمعتُ صرخة حادة، فقفزتُ مبتعداً. وما أدراني أنهما يفعلان ذاك الشيئ في تلك العتمة!

Twitter: @ketab_n

نعم، نعم، سوف أحكي لك عنها. لا تتعجل... مشيتُ باتجاه الشاطئ. وقفتُ فوق صخرة ورحتُ أتأمل مشهد البحر. أفقتُ على نسمة ريح باردة بعض الشيئ لفَحَتْ وجهي. كان شاطئ رملي ناعم يمتد من عند أسفل الصخرة التي أقف فوقها. وكان المكان مضاءً كالنهار تحت ضوء النجوم والقمر. سمعتُ نقاشاً يدور بين عددٍ من الشبان على ذلك الشاطئ الرملي. ولم يكونوا يرونني. منهم سمعتُ اسم «مدام مزاد» للمرة الأولى. فهمتُ من جدالهم أن في جسد مدام مزاد شامة، وهم يختلفون على مكان وجودها بالضبط. أحدهم يقول أنها على ردفها الأيمن، والآخر يقول أنها على الأيسر. بينما يدّعي ثالث أنه فوق عانتها. احتدّ النقاش كثيراً، وأوشكوا يتماسكون بالأيادي. وكل واحدٍ منهم يزمجر في وجه الآخر قائلاً: «أأنتَ تعرفها أكثر مني؟». أخيراً حسموا النقاش بأن راهنوا على ثلاث مئة ليرة. يا للظلم! أنا راض بالعمل مقابل ستين ليرة شهرياً ولا أجد عملاً، بينما هؤلاء الشبان يتراهنون بثلاث مئة ليرة على مكان شامة مدام مزاد. قال أحدهم:

– لنطلب المدام إلى هنا، نأخذها معنا في قارب. وفي وسط البحر نعريّها لنتثبت من مكان شامتها.

تركتهم هناك وعدتُ إلى القصر. كنتُ أشق طريقي في الزحام بارتباك عندما وصل أسماعي صوت امرأةٍ تشير إليّ وتتحدث عني لصديقتها:

– ما شاء الله! هذا الصبي له رقبة كعمود كنيسة!

نزلتُ إلى الملهى مجدداً. شربتُ ثلاثة أقداح أخرى وعدتُ إلى الصالون. توغلتُ إلى أبعد نقطة، وقفتُ أمام إحدى النوافذ، ورحتُ أراقب ما يجري. كان الكحول قد فعل فعله وشعرتُ بدوران في رأسي.

شردتُ وهلةً وأنا أتابع حركة الناس في الصالون. أفقتُ من شرودي على همساتٍ غريبة تصدر من مكان ما خلفي. التفتُّ فرأيت أن النافذة مغطاة بستارة خمرية من المخمل.. من أين إذن أسمع هذه الهمسات؟ ثم بدأت

Twitter: @ketab_n

الستارة تتحرك وتتماوج. كنتُ أعرف أن النافذة مغلقة، فلا يمكن أن تكون الريح هي التي تحركها..

فجأة سحبني أحدهم من الخلف، ممسكاً بردن سترتي. كدتُ أقع. لم أعرف كيف صرتُ وراء الستارة بينما أحاول التوازن كي لا أسقط. لا أحد يعرفني هنا حتى يمزح معي بهذه الطريقة. وفي مسعاي للتوازن والتماسك التفت الستارة حولي بإحكام. مددتُ يدي فلمستُ شيئاً دافئاً طرياً. أدركتُ أنني أمسكت مكاناً غير لائق من جسد امرأة. ولكن الستارة التفت على جسدينا فلم أتمكن من تخليص نفسي. كدتُ أموت خوفاً من أن تصرخ المرأة صرخة استنجاد فأتبهدل.

وإن قلتُ ستارة فلا تتوهم أنها ستارة نافذة عادية.. كان طولها مئة متر أو ألف متر، أكبر من ستارة المسرح.

قلتُ للمرأة «المعذرة» لكنني لم أتمكن من التخلص من فخ الستارة. وكلما حاولنا الخروج التفتْ علينا أكثر. كان جسدانا في وضع أشبه برضيع في قماط محكم. كانت المرأة تتمتم أو تغمغم، إلا أنني لم أفهم ما تقول، إما بسبب السُكر أو بسبب الإرتباك. فيما بعد أوضح لي كنان أن المرأة كانت تسأل عن بون سرفيس خاصتي. وما أدراني؟ أنا غريبٌ على الوسط. قال أنه عليّ في الأحوال المشابهة أن أبرِزْ البون ـ سرفيس خاصتي. وبينما نحن نتصارع مع الستارة وقعنا سوية على الأرض. كنتُ كمن يصارع الأمواج. أخيراً استطعتُ أن أفهم كلامها:

– هدّئ روعك يا صاح. مابك تتلعبط؟ لِمَ اضطرابك؟

كنتُ على وشك الإختناق.. أليس في كل هذا الصالون ابن حلال واحد ينقذني من فخ هذه الستارة التي تلتف عليّ؟ في المواقف المشابهه لا أحد يتدخل في شؤون أحد في هذا الوسط المخملي. كانوا يغضون النظر ويتجاهلون وهذا ما يجب أن يفعله اللبقون. لأن أحداً لا يعرف سبب وقوعي تحت الستارة، ويظنون أنني أقوم بشيئ ممتع هناك. بينما كنتُ أتوهم أن الجميع واقفين أمام الستارة يضحكون مني.

Twitter: @ketab_n

– لا تضرب يا سُكَّرَتي. اهدأ!

عندما سمعتها تقول ذلك شعرتُ ببعض الراحة.

– أين كنتَ أيها الكافر؟ منذ متى وأنا أنتظرك هنا!

يا سلام!

– تنتظرينني أنا؟

– طبعاً أنت! ومن غيرك أيها الخائن!

كان الظلام دامساً وراء الستارة السميكة. لم نكن نرى وجهي أحدنا الآخر. كنا كمن يتحدث على الهاتف. من الواضح أنها ضربت رقماً خاطئاً وتظنني شخصاً آخر. شبّهتني بأحدهم.

– يبدو أنه ثمة خطأ يا سيدتي. فأنا لم أتفق معك على موعد.

–اخس عليك يا برتيف. أهكذا تستقبلني؟

– يبدو أنك شبهتِ صوتي بصوته. أنا لستُ برتيف..

عندها مدت يديها وراحت تتحسسني! بعد أن داعبت فخديّ جيداً قالت:

– أووه لكم تشبهه. والله أنت «تكين». عرفتَكَ من رائحتك...

– الإنسان يشبه الإنسان، والصوت يشابه الصوت، والرائحة تشابه الرائحة..

أنا لست «تكين»..

– هَهْ الآن عرفتك. أنت «آيدن». كيف عرفتك؟

خلّصتُ ذراعي من يدها وقلتُ لها:

– الذراع تشابه الذراع.

– إذن فأنت «يالجين».. لقد عرفتك..

– أيتوجب عليك أن تشبهيني بأحدٍ غيري؟

– إذن من أنت؟

– أنتِ لا تعرفينني يا سيدتي. أنا غريب هنا. هذه أول سقطة لي في هذا المكان.

Twitter: @ketab_n

أعجبها كلامي جداً..

– يالك من ظريف! وراحت تقهقه ثم قالت:

– لقد عرفتك مع ذلك أنت «موزو».. «موزو».

قالت ذلك وعانقتني. كانت تفوح منها رائحة عطر نفّاذة جداً. انقطع نَفَسي، شعرتُ بالإختناق. حللتُ ذراعيها عن عنقي وقلت لها:

– أرجوكم يا سيدتي!

– رجاء ارفع هذا الحاجز* من بيننا! قالت.

وكيف لي أن أرفع الستارة؟

– ولكن كيف سأرفعها؟ لا أستطيع..

– أنا لا أقصد هذه الستارة يا روحي..

– أية ستارة إذن تقصدين؟

– ستارة (حاجز) الرسمية. لا تكلمني بصيغة الجمع. خاطبني بالمفرد.

هذه المرة بدأ صراع بيني وبين المرأة... لا أدري كيف حدث الأمر، إلا أنني ملصتُ منها فجأة وقفزتُ مبتعداً عنها، فوجدتُ نفسي في الجهة الأخرى من الستارة تحت أضواء الصالون. وقبل أن تسنح لي فرصة الفرح بنجاتي وجدتها قد أصبحت بجانبي.. عانقتني فدفعتها برقة وأنا أطلب منها راجياً أن تتركني.. تتكوم هي على الأرض. أجدها فرصةً للهروب، لكنها تمسك بي... أية مصيبة هذه! والخجل يقتلني خشية أن يرانا الناس.. انتهزتُ فرصةً وألقيتُ نظرة على ما حولي. وكم كانت مفاجأتي كبيرة عندما رأيتُ كلَّ رجل وقد تشبثت به إحدى النساء، تماماً مثلنا! من سينجد من مادام كل الرجالُ يتخبطون في عذابهم.. كل رجل يتعارك مثلي مع امرأة.. ما أغرب ذلك! إذن فقد فعلت كل النساء ما فعلتْه صديقتي.. كل واحدة أمسكت برجل وحشرته وراء ستارة.. كنتُ قد نسيتُ المجتمع الراقي وما إلى ذلك.. كان الصالون الكبير قد تحول إلى ساحة مصارعة يصارع فيها كل رجل إمرأة!

---

* الحاجز والستارة كلمة واحدة في التركية. تقصد السيدة حاجز المخاطب الرسمي بالجمع.

Twitter: @ketab_n

الشيء الـذي لم أفهمـه هـو أن فرقـة الجـاز كـانت تعـزف بـلا توقـف بينما الصـراع علـى أشـده بـين الرجـال والنسـاء. وكـأن الجيـش العثمـاني يدق أبواب فيينا، والفرقة العسكرية تعـزف المارشـات! لا تسـتهن بـالمرأة. إذا تمكنت منك فلن تتخلص منها إلا بعد أن تقتلع لك طرفاً من ثيـابك. لم أكـن أعـرف المـرأة هكـذا.. كنـتُ عمومـاً أشـعر بالإحـترام تجـاه النســاء، لاعتبارات مبدئية. إلا أن ذلك الموقـف لم يـترك أي مجـال للإحـترام. لقـد حدثت مهزلـة المهـازل عندمـا انتصـب بجانبنـا عـازف السـاكسـيفون وراح يعزف بينما نحن في عز عراكنا. لربما كان ينفخ في بوقه حتى يغطــي علـى ضجيجنا فلا ننفضح..

من المعيب أن أضرب امرأة.. ولكن ما العمل يا أخـي.. فالمسـألة مسـألة حياة أو موت.

– كفي! ، صرختُ بها وهجمتُ عليهـا. كـل الموجوديـن الذيـن سمعـوا صرختي راحوا يهتفون بصرخات التشجيع والإستحسان! لربما كانت هـذه عـادة المجتمـع الراقـي، إذا صـرخ أحدهـم، يصـرخ الآخـرون ويهرعـون لمساندته..

البهدلة الحقيقية حدثت بعد ذلـك. ألم أخـبرك أن كنـان عـدّل لي بـذّة السموكنغ بعد أن علم أماكن التضييق بالدبابيس؟ لقد ارتخت هذه الدبابيس أثناء عراكي مع المرأة، وراحت تنغرز في قفاي وفخذي وبـين الفخذيـن وفي أكثر الأماكن حساسيةً. شعرتُ كمـا لـو أنـني وقعـتُ داخـل برميـل مليـئ بالدبابيس.. بدأتُ أصرخ عن ألمٍ حقيقيّ:

– آمااان!

ويأتيني الجواب من حشد الرجال والنساء:

– يووو... هيه!

– آآآه، آماآآن!

– يووو! هيه!

Twitter: @ketab_n

أمسك بخناق المرأة وأطوّح بها في الهواء.. لكنها لا تهدأ ولا تعقل.. تمسكني بدورها من ذراعي وتلقي بي إلى وسط الصالون. وأنا يتعتعني السكر، بصعوبة أقف على قَدَمَيَّ. وفي إحدى المرات اهتاجت المرأة وطوّحَتْ بي بعيداً، سقطتُ فوق الأرضية الزَلِقة فانغرزت إحدى الدبابيس في مؤخرتي حتى آخرها... والله سمعتُ صوت الدبوس يمزق اللحم. صرختُ ألماً:

- احترقت!

وقفت المرأة فوق رأسي وقالت لي بمرح:

- ولنحترق يا حبيبي! أنا أيضاً احترقت!

وراحت تجرجرني على الأرض ثم طوّحَتْ بي في الهواء! وكلما تحركت كانت الدبابيس تنغرز في أنحاء جسمي. وأنا لا أستطيع فكاكاً من بين يديها.. هل كفرنا عندما قلنا بمساواة المرأة بالرجل؟ أتَصِل المساواة إلى هذه الدرجة؟

- أُقبِّل قدميكِ يا سيدتي، اتركيني..

وهي لا تكترث لتوسلاتي ولا تسمع آهاتي. وعندما يئست لم أجد مفراً من ضربها بلا شفقة، لكماً وركلاً وصفعاً. لقد نتفتُها.. وعلى كل حال إذا حدث خطأ وماتت المرأة بين يديَّ، أكون قتلتها دفاعاً عن نفسي.. أمسكت من ذراعها وطوّحتُ بها. لكنها تعود لتلتصق بي وهي تصرخ:

- يووو! هيه!

فجأة توقفت الفرقة عن العزف. هدأ الجميع. أسندتُ ظهري إلى جدار وأنا ألهث. مددت يدي إلى مؤخرتي فلامستْ أصابعي رطوبة... يبدو أنه نزيف الدم من أثر غرزات الدبابيس.. كنتُ أرغي وأزبد كحصان منهك. اقترب مني أحد الرجال. صافحني وقال:

- مبروك. أهَنِّئُكَ! قال لي.

Twitter: @ketab_n

اندلع تصفيق مدوٍّ في الصالون. لاصقتني تلك المرأة الدَّبقَة. شعرتُ بالخزي لأنهم يهنئونني على ضربي إمرأة. هنؤوها هي الأخرى. ربما على قوة تحمُّلها. قال لي ذاك الرجل:

– لقد انتخبوك ملكاً! وهو مايزال يهز ذراعي.. والدبابيس تنغرز في لحمي..

– أرجوك لا تهزّني يا سيدي!

– قد انتُخِبْتَ ملكاً!

من الواضح أنهم يضحكون عليّ. هل يُختار الملك هنا بواسطة الإنتخاب؟! ثم اتضح كل شيئ. لقد حصلنا على المرتبة الأولى. اختاروني ملكاً للرقص، ورفيقتي ملكةً للرقص. لقد اتضح لي أننا كنا نرقص وأنا لا أدري. وكنا قد شاركنا في مسابقة الرقص بعد خروجنا من وراء الستارة.

كان الرجل لايزال يهز يدي مصافحاً وهو يردد:

– أهَنئك المرة تلو المرة. لقد شاهدتُ كثيراً من الراقصين. لكنني لم أصادف قط من هو في مهارتك. إن طريقتك تشبه بعض الشيئ رقصة الآباش التي يرقصها الباريسيون، إلا أن رقصتك، هي في الحقيقة، تنويع جديد على الروك آندرول.

وقالت إحدى النساء المهنّئات:

– إن طراز الرقص عندك أوريجينال للغاية!

طبعاً يا سيدتي. دعيني أدس تحتك حفنة من الدبابيس ليصبح رقصك أكثر أوريجانالية مني! ولكن لا يمكنني أن أقول لها ذلك وأسفاه! والمرأة التي رافقتني في الرقص لا تبتعد عني قيد أنملة. إنها مصيبة التَصَقَتْ بي كأنما بمادة لاصقة! مازالت تمسك بيدي. إن خلّصتُ منها يدي أمسكت بذراعي. إن خلّصتُ ذراعي طَوَّقَتْ خصري... وعندما يئستُ من الإفلات منها. قلتُ لها:

– إني أخاطب ضميركِ يا سيّدتي. ارحميني واتركيني!

ولكن أين منها الضمير! بالعكس راحت تضحك بلا حياء. لم أتحمل:

Twitter: @ketab_n

- إن اضطررتُ إلى الرقص معك مرةً أخرى فسوف أخنقك وأمزّقك. كرمى لله ولرسوله لا تلوّثي يديّ بدمائك. ارحمي شبابي!

عندما سمعوا كلامي هذا راحوا يضحكون ويقولون:

- ياله من شاب محب للنكتة!

- ياله من شاب لذيذ!

لم أعد أحتمل. كانوا يسخرون مني على المكشوف. بدأ الشيطان يوسوس لي أن أتكل وأصفعها صفعةً تطيش بصوابها. لكنني أمسكتُ نفسي، وأنا أقول «لا تطاوع الشيطان يا بنيّ».

سلمتهُا كأس مسابقة الرقص على أمل أن أخلص منها، لكنها ظلّتْ متشبثة بي. ورغم كل ضربي وركلي لها فلم تتأثر قط. فيما بعد أخبرني كنان أن المرأة مريضة ومرضها أنها تستمتع بتلقّي الضرب. كم من أمراض عجيبة في هذه الدنيا يا سيدي... إن أعصابها تتوتر إن لم تنضرب ثلاثَ وجبات يومياً، فإنها تلجأ إلى حيل كالرقص وماشابه لتتلقى حاجتها من الضرب فترتاح..

أتعرف من هي هذه المرأة؟ إنها مدام مزاد التي حدثتك عنها..

بعد زمان طويل، وفي سهرة أنس حكيتُ هذه القصة لصديقي حسن كوسه لك. وتبيّن لي أنه يعرفها معرفة حميمة. لقد كان عضواً في مجلس النواب ومشتركاً في نادي القمة. ولذلك كان يعرفها معرفة جيدة. قال لي أيضاً أن ذاك القصر كان في الأصل ملكاً لها، باعته فيما بعد، وقال أنها غنية جداً.. كانت قادرة على امتلاك عشرة قصور مثل ذاك..

أما أنا فقد تعرفتُ على زوج مدام مزاد أيضاً.

نعم. إن حسن كوسه لك إنسان مرموق. خدمني كثيراً. أخذ بيدي في أصعب الظروف. وكرمى له سأحكي لك كل شيء..

ولكن مالك ولهذه القصة كلها؟ أم أنك محرر في جريدة؟ أنت تريد معرفة مكانها؟ ولكن ألا يعرفه السيد حسن كوسه لك؟

Twitter: @ketab_n

زوجها؟ نعم. هي التي عرفتني عليه في الليلة نفسها.. لنتابع من حيث وصلنا.. شابَكَتْ مدام مزاد ذراعها في ذراعي، وهي تستند عليّ وتلزّ. حشرتني عند جدار وراحت تجرجرني إلى مكان ما وهي تهمس في أذني بلا توقف. وأنا صامت لأنه لم تبق فيّ قوة تساعدني على الكلام. هبطنا الدرج. وفجأة رأيتُ كنان برفقة امرأة مدوّرة حمراء الوجه. عندما رآني مع مدام مزاد ابتسم لي وغمز لي غمزة استحسان. وعندما حاذاني همس لي يقول:

- أنت في الطريق الصحيح..

نزلنا إلى الملهى ودخلنا إحدى المقصورات الخاصة التي تنفصل عن القاعة بواسطة جدران شبكية من الخشب تلتف عليها متعرّشات إصطناعية. ومن الداخل كان الجدار مغطى بقشور جذوع الأشجار. من السقف الواطئ تدلت قطع حصير وأعواد جافة. لقد جعلوا هذا المكان أشبه بمخزن للتبن حتى «يتحد فيه القلبان ويصير مخزن التبن فرجة!».

ضغطَتْ على زرِ مصباح الطاولة، فغمر الغرفة ضوءٌ أحمر. وتحت هذا الضوء ازدادت بشرتُها البيضاء الموردة توهّجاً. رغم عراكنا الطويل لم يتسنّ لي رؤية وجهها إلا في تلك الغرفة نصف المعتمة. كانت جميلة للغاية... في حوالي الثلاثين من عمرها... شفتاها المصبوغتان بأحمر فاتح يزيدان أسنانها بياضاً والتماعاً. جلسنا متجاورين، أي متلاحمين. كان كوعي الأيمن يغطس في مكان طري ودافئ من جسدها. طلبت من النادل جن مع الصودا.

- لِمَ تجلس بغير ارتياح؟ هل تشعر بضيق؟.

وكيف لا؟ الدبابيس تنغرز في لحمي. ولم أجد فرصة سانحة حتى أصلح من وضعي.

- كأنك جالس فوق الشوك...

- لا.. أنا بخير...

- إذن فأنت خجولٌ جداً... أموت في الشبان الخجولين... سوف يعجب بك زوجي كثيراً...

Twitter: @ketab_n

-زوجك؟

- إحكِ معي بلا كلفة أرجوك... آن للحاجز الرسمي أن يسقط ... نعم زوجي .. كان هو أول من هنأك باختيارك ملكاً للرقص. ألا تذكره؟

سحبت كوعي الضاغط على صدرها وقلت:

- وإذا جاء إلى هنا؟

- فليأت، قالت بلا مبالاة، لكنه لن يأتي... هو الآن إما يرقص أو يلعب القمار... يهملني كثيراً... آآه... إني امرأة تعيسة جداً..

تغمض عينيها بدلال وهي تحكي. ثم تعود وتفتحهما... نظراتها تنتقل بين شفتيّ وعينيّ... تمسح وجهي مثل أضواء كاشفة.

قالت أن حياتها أشبه برواية... وفي تلك الفترة صار زوجها يهملها كثيراً جداً. الليلةَ مثلاً لم يراقصها مرةً واحدة. عينه على النساء الأخريات.

- واضحٌ من عينيك أنك شابٌ ذو قلب طيب، قالت لي.

قالت أنني أستطيع أن أقدم لها أكبر معروف لو شئتُ... إن حياتها الزوجية مهددة بالدمار... وعليّ أن أمد يدي بالمساعدة إليها، هي المرأة التعيسة الحظ. كانت تبكي. التصقت بي أكثر وهي تبكي... كان جسدها بلا عظام. طرياً. لدناً. أسندت رأسها على صدري:

- أرجوك أنقذ سعادتي... ساعدني على إستعادة زوجي... وأنت تستطيع أن تقوم بذلك. إنقاذ علاقة زوجية له ثواب عند الله. لا أحد غيرك يستطيع إنقاذ سعادتي الزوجية...

لم أفهم شيئاً مما تقول. لقد ضعضعني السكر. كانت هي الأخرى سكرى... اغتاظت لصمتي:

- أقول لك أني متزوجة، ألا تفهم؟

- فهمت، قلتُ لها

- وأنا لا أنجب أطفالاً. ليست عندي مشكلة من هذا النوع. هل فهمتَ الآن؟

Twitter: @ketab_n

أقول لها فهمت، لكن الواقع أنني لم أفهم ما ترمـي إليـه. لقـد كـانت تعطيني الضوء الأخضر... وما أدراني؟.

زادتني شرحاً وإيضاحاً. قالت أن زوجها لا يغـار عليهـا مـع أيٍّ رجـل كان... فقط من رجل شاب، وسيم، مثلاً مثلي، كان يمكن أن يغار عليهـا. من رجل يتفوق عليه...

لقد حاوَلَتْ إثارة غيرته كثيراً. كان زوجها لا يكتفي بعدم الإكتراث بل يهينها قائلاً: «تفو علـى ذوقـك... ألا تخجلـين مـن خيـانتك لي مـع هـذا الفلعوص الكريه.. اخس عليك يا عديمة الـذوق...». أمـا أنـا فسـوف يغـار مـني بشـكل جـدي ويعـود إلى عـش الزوجيـة... طلبـت مـني تقديـم هـذه التضحية، وقالت أنها لن تنسى لي جميلي هذا وسترده لي...

– لكني لا أستطيع أن أفعل..

– أنت لن تفعل أي شيئ... فقط أريد منك هذا المعروف..

وكانت تبكي.

– إنـي إمـرأة وحيـدة... ولا أحـد يفهمـني... لا أحـد يفهـم دخيلـة نفسي، روحي.. هاقد أفضيتُ لك بكل شيئ. الجميع يعرفني. اسـأل أياً منهم عني. إن مَخْبَري لا يختلف عـن مظهـري. أنـا واحـدة مـن الداخل والخارج. ليس عندي شيئ مخفي...

وكيف يكون عندها شـيئ مخفـي وهـي نصـف عاريـة، تكـاد لا تلبـس شيئاً؟ بعد مرور سنوات طويلة أفكر فأقول أنني كنتُ غراً جداً أو أن السكر كان يحجب عني الفهم. كنتُ كلَّ قليل أقول لها:

– اسمحي لي بالإنصراف... أنا جريح..

– أنا أيضاً جريحة... من قلبي جريحة..

– إن جراحي من نوع آخر، وفي مكانٍ آخر... ليست كما تظنين. أقـول أني جريح..

– أعرف. أعرف جرح القلب...

– لكن جرحي ليس في القلب. إنه جرح الدبابيس...

Twitter: @ketab_n

أخيراً حكيتُ لها لماذا وكيف جئتُ إلى هنا. عندما عرفت أنـي أبحـث عن عمل،

– حسناً. عز الطلب.. أنتَ تعرفني أليس كذلك؟

– لا..

– أحقاً لا تعرفني؟

أخبرتني أن الصحف تحكي عنها باستمرار وأن غرامياتها تمـلأ أعمـدة صفحات الفضائح.

– وكأن هؤلاء الصحفيين لا عمل لهم غـير الحديث عـني.. ألم تسـمع عني قط؟ إن جرائد اليوم كتبت عني تقول: «المرأة التي تغار علـى سـائقها من الخادمة...».

طبعاً أغار عليه. هذا شوفير وليس أيـاً كـان... إلا أن الصحافة فسّرت الأمر بمعنى آخر... الصحـافيون أنـاس مغرضـون وفاسـدون.. أمـن السـهل العثور على شوفير جيد هذه الأيام؟ نعم، إني أقولهـا بـلا مواربـة: أتخلـى عن زوجي ولا أتخلى عن شوفيري...

فما أكثر الأزواج - كما قالت لي - بإشارة من يدها يتقدم نحوها خمسـين واحد... ولكن أين الشوفير الجيد؟ ثـم إن مـايقوم بـه شـوفيرها لا يسـتطيع القيام به عشرة سائقين غيره. حتى اليـوم لم يرتكـب أي حـادث بإسـتثناء ذاك الحادث مع تلك الخادمة. حتى في هذا الحادث لم يكـن الحـق عليـه الخادمة هي التي أغوتَهْ... ولذلك ضربَتْ مدام مزاد خادمتهـا شـر ضـرب. فذهبت هذه إلى قسم الشرطة واشتكت على سيدتها: «السـيدة غـارت مـني على شوفيرها وضربتني.» وأمسك الصحفيون بهذا التصريح وراحوا يلوكونه.

بعد أن انتهت مـن حكايـة الصحافـة هـذه قـالت أنهـا أعجبـت بـي، وعرضت عليّ أن أصبح شوفيرها...

– لكنني لا أملك الأهليّة*، قلتُ لها.

---

* تعني الأهلية: 1– شهادة السواقة

2– القدرة والإمكانية

Twitter: @ketab_n

- كفى تواضعاً... من نظرة واحدة في وجه الرجل أستطيع أن أحكم عليه إن كان لديه أهلية أم لا.

- والله ليس لدي أهلية!

- يا كذاب يا مكار!

- يا سيدتي، لا أستطيع أن أصبح شوفيراً. لأنني لا أجيد قيادة سيارة.

- مايلزمني ليس رجلا يجيد قيادة سيارة، بل رجلاً ذا شخصية قوية. إن شخصيتُكَ قد أعجبتني جداً...

فقط من أجلي مستعدة لإبعاد شوفيرها القديم. كانت ستقوم برحلة إلى أوروبافي ذلك الصيف. وهي تحتاج شخصيّتي. أما السيارة فسيقودها سائق آخر. سائق حقيقي.

قالت لي أنها جرَّبَتْ رجالاً كثيرين... كانوا جميعاً يدّعون أن لهم شخصيات قوية وسليمة... ثم تبين أن شخصياتهم مهترئة رخوة متفسخة... قالت انها ستسرني وتحقق لي الإشباع بجميع وجوهه...

- يا عثمان.. يا عثمان، صاحت تنادي أحدهم، ثم التفتَتْ إليّ:

- هذا هو زوجي!

- لأذهب أنا إذن، قلتُ بارتباك شديد...

- ولِمَ تذهب؟ ناديته كي أعرفك عليه.

كان رجلٌ يشرب وحده على البار. جاء إلينا وبيده كأس من الويسكي.

- انظر يا عثمان. هذا شوفيرنا الجديد...

نهضتُ واقفاً. تصافحنا.

وانا أجلس انغرز عددٌ من الدبابيس في قفايَ. مددتُ يدي خفيةً إلى داخل البنطال وحاولتُ إخراجَ بعض الدبابيس. وكنتُ أجعّد وجهي من الألم. أعجبه وجهي المتجعد هذا:

- إنه شاب خجول جداً، قال لزوجته.

- زوجي لا يحب الشوفيريّة الجريئين... هل أعجبك ذوقي يا حبيبي؟ فكرتُ بك وأنا أنتقيه. كنتُ متأكدة أنه سيعجبك.. رد زوجها يقول:

Twitter: @ketab_n

- المهم أن تتفاهما مع بعض... لا مشكلة بالنسبة لي...

ثم انتقلنا معاً، نحن الثلاثة، إلى الطابق العلوي. كنتُ أشعر بآلام فظيعة في كل جسدي من الرقص والدبابيس، وكنتُ أمشي مثل الأطفال المختونين، فارداً بين ساقيّ، بسبب الألم الذي تسببه الدبابيس. كنتُ أفكر بطريقةٍ للهروب من هذا المكان. استأذنتها بالإنصراف. طلبت مدام مزاد من زوجها أن يعطيني بطاقته. مد البطاقة التي فيها العنوان وقال:

- أنتظرك غداً.

بحثتُ في كل طوابق القصر عن كنان لننصرف معاً، لكنني لم أعثر له على أثر. لم يبقَ لدي من مال سوى بعض الفراطة. خرجتُ أولاً إلى الحديقة واندسستُ بين الأشجار الكثيفة. خلعتُ البنطال وتخلصتُ من كل الدبابيس. وعندما ارتديتُهُ مجدداً - بقياسه الطبيعي، صرتُ أشبه بالأطفال اليتامى الذين ألبسوهم ثياباً مستعملة في العيد. كان النهار في أوله.. خرجتُ إلى الطريق. ما بقي معي من مال كان بالكاد يكفي لدفع أجرة الإنتقال بالسفينة إلى ضفة استانبول الأوروبية. كل من يراني في الطريق يضحك... ومعهم كل الحق.. رجلٌ في بذّة سموكنغ كبيرة عليه يمشي في عز الصباح... صار منظري أشبه بالجنود العائدين من جبهات القتال..

مهنة السائق؟ أية مهنة ياصاح... عندما وصلتُ إلى البيت ارتميتُ على فراشي ولم أغادره طوال اليوم. وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى كنان وحكيتُ له ما حدث.

- ألم أقل لك أنك ستجد عملاً هناك من كل بد؟ هذا المكان أفضل من دوائر الدولة... لا يخذلون أيّ عاطلٍ عن العمل... منذ سنوات وأنا أعيش بهذه الطريقة...

- طيب، ولكنني لا أجيد السواقة...

وحقيقة الأمر لم تكن كما ظننت. أخبرني كنان أن مدام مزاد تخاف كثيراً من الشائعات وتحاول تجنب الفضائح. ولذلك تجد عملاً رسمياً لكل رجل يدخل بيتها ويخرج. فإذا حدث وبدأ الحساد يتكلمون عنها، قالت:

Twitter: @ketab_n

«إنه مجرد سائق. من حقه أن يدخل البيت والغرفة أيضاً... ألم يبق رجال في الدنيا حتى أتنازل لشقفة شوفير...» وبذلك تسد جميع الأفواه في الدنيا وتخرس الألسنة. قال كنان أن مدام مزاد تحب عمل الخير وقد اتخذت عدداً من الشوفيرية الشبان، دَرَّسَتْهم في الجامعة وصنعت منهم أطباء ومهندسين، صيادلة وأطباء أسنان... وما إن يبدؤوا بكسب رزقهم حتى يتركوا ولية نعمتهم ويهربوا..

- فليشملها الله بعطفه، كم هي إمرأة طيبة القلب... وحدها خدمت البلد أكثر من وزارة التعليم... هي من الطراز الذي يقولون عنه «امرأة مثل الحكومة!».

وكيف ذلك؟ سألته.

- سأقول لك كيف: لقد درَّسَتْ على حسابها أكثر مما درّست وزارة التعليم من شبان مجاناً. لها أيادٍ بيضاء على البلد... بل أكثر من ذلك، إن الشاب الذي يدرس على حساب الحكومة، مجبرٌ على «الخدمة الإلزامية» أما مدام مزاد فلا تطالب شبانها حتى بهذه «الخدمة الإلزامية». ولماذا لا تطلبها؟ لأن ذاك الشيئ إما يكون طوعاً، برغبة، أو لا يكون. هل فهمت؟ لوعندنا في البلد خمسة عشر أو عشرين إمرأة من طراز مدام مزاد لما بقي شابٌ واحد بلا شهادة جامعية.

- طيب يا كنان. هذا كله جيد. لكنني لا أجيد السواقة يا أخي...

قال كنان بأنني لا أفهم شيئاً البتة... ثم شرح لي بمثال توضيحي. ألا يوظفون في دوائر الدولة عدداً كبيراً من الناس بصفة فرّاش أو بواب أو جنائني. إلخ؟ مع أنهم لا يؤدون أياً من تلك الأعمال. ومع ذلك يذهبون إلى الدائرة في بداية كل شهر ليقبضوا رواتبهم... قال أن عملي مثل عمل أولئك «الموظفين» كان عملي الرسمي، الواجهي، هو الشوفير الخاص لمدام مزاد. لكنني لن أقود سيارة. سيكون لي عملٌ آخر...

ولأنني لم أتمكن من إتمام دراستي بسبب الفقر، لم أنه حتى الثانوية، فقد أعجبني الأمر.

Twitter: @ketab_n

- لأذهب إليهم فوراً.

صرخ بي كنان:

- ماذا؟ ألم تذهب برفقتها في تلك الليلة؟ إذن فقد طارت منك الوظيفة...

كان يتوجب عليك أن توافق فوراً. مؤكد أنها وجدت شوفيراً لنفسها. لأنها لا تستطيع البقاء بلا شوفير... ثمة في البلد عدد هائل من الشبان الراغبين في إتمام تعليمهم العالي... كان عليك الذهاب في الليلة نفسها...

- وكيف أذهب معها وقفاي ينزف بسبب الدبابيس؟ حتى المشي كان صعباً عليّ فكيف أقوم بذلك وأنا في ذلك الوضع؟

- إذن فلتذهب. لا أظن أنك ستصل إلى شيئ.. ولكن أتمنى لك كل خير...

ذهبتُ إلى العنوان... كان بيتاً أشبه ما يكون بقصر صغير. مررتُ أمام عدد كبير من الأشخاص مستأذناً حتى وصلتُ إلى مدام مزاد..

أدخلوني صالة. كانت هي وزوجها هناك. لكنها لم تكن تشبه المرأة التي رأيتها منذ أربعة أيام... إنها إمرأة مختلفة كلّ الإختلاف. كانت أشبه بأميرة إنكليزية. صافحتها. خاطبني زوجها بأدب وبرود بالغين:

- تفضل يا سيدي. ما الخدمة التي يمكن أن نقدمها لك؟

كنتُ واقفاً. حتى لم يدعواني للجلوس. ارتبكتُ ارتباكاً عظيماً. ندمتُ على مجيئتي.

- لقد عرضت عليّ السيدة أن أعمل سائقاً لديها...

نظر الرجل إلى زوجته كأنما يترك لها اتخاذ القرار. قالت هي:

- لقد أخذنا سائقاً يا سيدي. البارحة عيّنا سائقاً.

كانت تتكلم بنبرة المدراء العامّين. ياإلهي! أليست هذه من أسندت رأسها إلى صدري وبكت وهي تتوسل إلي كي أنقذ حياتها الزوجية؟

تضاعف ارتباكي. تمنيتُ لو تنشق الأرض وتبتلعني. أناس المجتمع المخملي هؤلاء لا تعرف لهم مزاجاً ثابتاً. يتغير بين ليلة وضحاها...

Twitter: @ketab_n

وكأنني ما عاركتها وراء الستارة وتلاحم جسدانا... ظننتُ أنهما لم يعرفاني:

- يا سيدتي. لقد أبديتِ إعجابك بشخصيّتي... أنسيتيني؟

ردت بوجه بارد:

- إني أتذكرك يا سيدي...

مؤكد أن هذه المرأة ليست تلك..

منعني ارتباكي حتى من الإنصراف. لم أعد أعرف كيف أنصرف. قلتُ لها:

- أنا واحدٌ من أبناء هذا البلد الذين لم يتمكنوا بسبب ظروفهم من إتمام دراستهم العليا. وأنتِ تستطعين مساعدتي يا سيدتي... يمكن أن تعتمدي عليّ في كل شيئ... وبفضلك يمكن أن أكمل تعليمي وأصبح رجلاً نافعاً لهذا الوطن وهذا الشعب.

ابتسم زوجها بسخرية وقال لي:

- من فضلك اترك اسمك وعنوانك عند السائق. وإذا احتجنا إليك، سوف نخبرك برسالة.

قال ذلك، وبوجهه أشار ناحية الباب.

طبعاً كان بإمكاني أن أخرج فوراً. إلا أن إضطرابي وخيبتي جعلاني أطيش تماماً... ذهبتُ إلى الشوفير... كان صبياً صغيراً وقوياً...

- أأنت شوفير الست الجديد؟

- نعم.

- طلبوا مني أن أمليك عنواني.

- اذهب إلى دورسون أفندي البواب. أملِ عنوانك عليه.

- هل عندك أهلية (إجازة سواقة)؟

- لا ولكنني سأحصل عليها قريباً..

اللعنة على كل شيئ. كان وضعي في الحضيض وأنا أغادر بيتها.

Twitter: @ketab_n

عندما حكيتُ هذه القصة ذات مرة لصديقي حسن كوسه لك، تبين أنـه يعرف مدام مزاد، وقال أن اسمهـا الحقيقي هـو بتـول ويلقبونهـا "بتـوش الحلوة" مرت سنوات طويلة على تلك الحادثـة. لكنـني لم أرهـا ولم أسمـع عنها شيئاً. هذا كل ما أعرفـه. هـل ستقابل حسـن بيـك مجـدداً؟ حسـناً. أرجوك أن تبلّغه تحياتي واحـترامي. هـو يعرفهـا أكـثر مـني... هـو الـذي حكى لي كيف كانت تعرض شـفتيها وخدّيهـا في المـزاد لصالح الجمعيـات الخيرية... حسناً يا سيدي.. مع السلامة... بلغ تحياتي لحسن بيك...

إمرأة مثقفة للغاية

أخطأ من أرسلك إليّ. معرفتي بها ضئيلة جداً... صحيـح أنـني سمعـت عنها الكثير، إلا أن معرفتي المباشرة بها ضئيلة للغاية... رأيتها ليلة واحدة فقط. وكان بيتها شديد الازدحـام في تلـك الليلـة بحيـث لم أسـتطع تبـادل الحديث معها كما ينبغي.

نعم يا سيدي؟ يهمك كل شيئ أعرفه عنها؟ أيمكن أن أسألك فيم تهمك الست بتول؟ هل أنت شاعر؟ وعلى كل حـال لابـد أن تكـون السـت بتـول الآن قد تقدمت كثيراً في العمر...إذن فأنت تبحث عنها ولا تعرف مكانهـا؟ أهي قريبتك؟... همْ... عمتك إذن؟

لا أعرف أي شيئ يا سيدي. سمعتُ مـن النـاس. يعـني شـائعات وقـد مرت سنوات طويلة الآن...

من أخبرك بأنني أعرف عمتك؟ سادات بيك؟ أيُّ سادات بيك يا ترى؟ ماذا؟... سادات الناعس؟ هكذا إذن... كنتُ أظنه في مكان ما من أوروبـا... لماذا إذن لم يحكِ لك هو وأرسلك إلي؟ هو يعرفها أكثر مني. كان زوجهـا... هو مريض؟... أمرضه ثقيل؟ نعم... بالطبع... فهـو أكـبر مـني... كـان هـو رجلاً كبيراً بينما أنا تلميذ في الثانوية... حتى أنه كان ـ وقتها ـ يكتـب في المجلات الثقافية. وقد تعرفتُ عليه عن هذا الطريق.

كنتُ وقتها أكتب الشعر. لا تنخدع بمـا تـراه الآن مـن عملـي في وكالـة سيارات. صحيح أن عملي الحالي لا يمت بصلة إلى الأدب، لكنـني في تلـك

Twitter: @ketab_n

الأيام كنتُ شاعراً بعض الشيئ... قه، قه، قه! لا تبدو عليَّ مظاهر الشعراء، أليس كذلك؟ لا يغشك مظهري، وراءه يوجد قلبٌ حساس جداً، لا تظن أنني أمتدح نفسي، كنتُ أكتب قصائد جميلة آنذاك. ومن حين إلى آخر ألقي نظرة على شعر اليوم، فأراه بحاجة لألف شاهد حتي يثبت أنه شعر. لقد بهدلوا الشعر أيضاً. لو يتوفر لي الوقت لكتبت الشعر الآن... ولكن من أين لي الوقت؟ لا يتسنى لي حك رأسي... كتبتُ شعراً كثيراً أيام شبابي، وبلا إرادة. فقد اضطررتُ إلى الكتابة اضطراراً. أبداً لم أشعر بدافع داخلي عميق لكتابة الشعر... كنتُ في كنف زوجة أب... وتركتُ المدرسة في الصف العاشر.. وكان العمر قد تقدم بي وبلغتُ الثانية والعشرين... البيت في اضطراب دائم... علاقتي بأبي متوترة... والفقر يأكلنا... وكأن كل هذا لا يكفي... داهمني المرض أيضاً، نَحَلتُ نحولاً شديداً. ظننتُ أنني مسلول. شاب في وضع كهذا ماذا يصير إن لم يصر شاعراً؟ كل الشروط كانت متوفرة لدي كي أصبح شاعراً. وهكذا وجدتني مرغماً على كتابة الشعر. والله كتبتُ قصائد جميلة جداً... قد لا تصدقني، لكنهم كانوا يعجبون كثيراً بأشعاري... كنتُ حساساً جداً، وما زلت على كل حال، إن مظهري لايدل علىذلك... إن رأيتُ ولداً يتسول في الشارع، لا أتحمل رؤيته أبداً. إما أن أدير وجهي أو أغيّر طريقي...

كما تعلم لكل عمل سوقه. أنا الآن، على سبيل المثال أعمل في تجارة السيارات وقطع الغيار. إن لم أدخل سوق هذه المهنة وأفهم أسرارها لن أتمكن من إدارة هذا العمل، يعني إذا ذهبت إلى سوق الزهور لا أستطيع أن أبيع سيارات... ومهنة الشعر ينطبق عليها ذلك أيضاً. كنتُ وقتها أكتب الشعر لنفسي. إلا أن المرء لا يصير شاعراً إن لم يدخل سوق الشعر. يقول المثل أن من يبحث عن ربه يجده، ومن يبحث عن هلاكه يلاقيه أيضاً... وأنا، وجدتُ نفسي في وسط سوق الشعر بعد بحثٍ طويل.. لكل مهنة سوق على حده. للشعراء والصحافيين ومن لف لفهم أماكن يلتقون فيها.. مقاهٍ،

Twitter: @ketab_n

كافتريات، خمارات.. إلخ.. وجدتُ طريقي إليهم. وعن طريقهم بدأت أنشر بعض القصائد في المجلات...

في تلك الفترة شاع على ألسنة الوسط الثقافي اسم «مدام انتلّكتويل». من هي مدام انتلّكتويل هذه؟ إنها امرأة واسمها الحقيقي السيدة بتول. كل الشعراء والصحفيين والمحررين الشبان في سوق الثقافة يعرفونها... أنا لي طبعٌ (أحبُّ طباعي الحسنة) وهو أنني عندما أسمع كلاماً لا أفهمه أو اسماً لا أعرفه، لا أظهر ذلك، بل أتظاهر بأنني أعرف. لكنني لا أتدخل في الحديث حتى لا ينكشف جهلي. وذلك لأن المرء إذا لم يعرف ما يعرفه الجميع يعتبرونه غبياً، وإذا تحدث عما لا يعرفه يصبح أهزوءة. بعد ذلك، يمر وقت، أسمع من هنا وهناك نتفاً من الموضوع، فأتعرف عليه جيداً. وبنفس هذه الطريقة عرفتُ من هي السيدة بتول.

هي امرأة، وفق إجماع المثقفين، ذات ثقافة رفيعة «انتليكتويل» جداً. لا تضاهيها إمرأة أخرى في تركيا! كانت في فرنسا وإنكلترا وألمانيا، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحتى في يومنا هذا، نساءٌ من طرازها، كان أهم وجوه العصر الثقافية تجتمع في صالونات أولئك النساء... دعني أتذكر. نعم، كان ثمة على سبيل المثال صالون مدام لامبير في باريس، أو صالون مدام «كورك سان». لكن في بلادنا تركيا، كانت مدام بتول هي الأولى من نوعها. وحسبما فهمت، لم يكن من السهل أن تكون المرأة «انتليكتويل» للغاية. يجب عليها أولاً أن تكون غنية جداً، لأنها ستجتمع في بيتها مرةً كل أسبوع، كبار مثقفي وفناني البلد: الشعراء والمعراء، والرسامون والمسامون، المحررون ومن لف لفهم... يجتمعون عندها كل أسبوع، يأكلون ويشربون، يتكلمون ويتناقشون ويتشاجرون..

وكان في بيت مدام بتول صالون كبير يفي بهذا الغرض، يسمونه «صالون الأربعاء»، لأن ضيوفها كانوا يجتمعون هناك كل يوم أربعاء.

ووفقاً لما سمعتُ، لا يتكرس الفنان إلا إذا تردد على صالون الأربعاء. وقتها أدركتُ لِمَ لا يعتبرني أحدٌ شاعراً رغم ولوجي سوق الشعر. كان عليَّ

Twitter: @ketab_n

ولوج ذاك الصالون حتى يعترفوا بي كشاعر. عليك الذهاب إلى هناك مرة واحدة على الأقل حتى تصبح شاعراً أو محرراً أو روائياً أو ما شابه. حتى لو كتبتَ أجمل القصائد، حتى لو نشرت إنتاجك فإنك لا تكرسّ شاعراً إن لم تدخل محراب صالون الأربعاء. تماماً مثل التاجر غير المسجل في غرفة التجارة. لا البنوك تعترف به وتقرضه، ولا الزبائن يتعاملون معه. كان صالون بتول خانم «غرفة تجارة» المثقفين.

ولكن دخول ذاك الصالون لم يكن من السهولة بمكان... على الشاعر أن يصعد السلّم درجة درجة، يجب أن يعرفه الناس بعض الشيئ، أن يتكلموا عن أعماله، عليه أن يفعل بعض الأمور... فقط بعد ذلك ينال حق القبول في صالون الست بتول لينفتح الطريق أمامه بعد ذلك وينال الإعتراف والتكريس.. عندما عرفتُ هذه الامور بدأتُ أفكر بطريقة لدخول هذا الصالون. ولم أكن في ذلك وحدي كان عددٌ كبير من الشبان ينتظر دوره لدخول المحراب. كان الصالون أشبه ما يكون بأكاديمية. حتى الساسة المشاهير كانوا يرتادونه. أقصد أنهم كانوا يرغبون بارتياده. لأن الصالون لم يكن يرحب إلا بأولئك الساسة المحبين للفن والثقافة.

تحولتُ إلى تحرٍ سري. بدأتُ أسأل أصدقائي ممن يعرفونها، وأجمع عنها أكثر ما يمكن من معلومات. كنتُ قد سمعتُ أنها تأخذ بيد الشعراء الفقراء وتصنع منهم رجالاً. إذن لم يكن أمامي من سبيل لأصبح رجلاً وأدخل بين الشعراء في الوقت نفسه، إلا التعرف على مدام بتول. فالطريق إلى دخول تاريخ الأدب يمر بالضرورة من صالون السيدة بتول. وحدهم المثقفون المحترفون «الأساتذة الكبار» كانو رواداً دائمين في صالونها. ومدام بتول هي بطاقة مرور إلى الأدب الحقيقي. يكفي أن تقول عن قصيدة أنها «جميلة» حتى تحلق تلك القصيدة في سماء الأدب والنقد تكفي دفعتها لإنجاح عمل ثقافي...

كنتُ أسمع عنها كلاماً متناقضاً. مثلاً يقول عنها سادات الناعس الذي أرسلك إليّ، والذي كان زوجها ويعرفها حق المعرفة، يقول أنها قبل تلك

Twitter: @ketab_n

الفترة لم تكن لها أية علاقة بالشعر والأدب والفن وما إلى ذلك. وزوجها رجل ثري جداً. كانا يعيشان حياة رغيدة مرفهة عندما اقتحم عليهما شاعرٌ شاب حياتهما وأصابهما بلوثة الشعر والثقافة. نعم أقول أصابها، أو جعلها تدمن... هذا التعبير أنسب... حتى تفهم الفن عليك أن تعتاد عليه ببطء ثم تدمنه. تماماً كما هي الحال مع التدخين.. أنا أعرف ذلك لأنني مررتُ بهذه التجربة أيام شبابي - لا قدَّرها الله لأحد. إن هذا الإدمان أصعب من إدمان الكحول أو لعب القمار. التخلص منه صعب جداً. ولكن لسوء الحظ فإن إدمان الشعر مرض شبيه بالحصباء، يصيب كل شاب في مرحلة معينة من عمره. وإن نجامنه المرء دون عواقب فهو محظوظ، وإلا كان هلاكه. وقد أصاب داء الشعر وحب الفن مدام بتول في مرحلة متأخرة. قبل ذلك كانت حتى تكره الشعر. وذات يوم تتغيّر المرأة فجأة وتبدأ تخاطب زوجها بشكاوى من مثل: «إنك ذا روحٍ جلفة غليظة.. أنت لا تفهم مشاعري. لا أستطيع الإستمرار معك!».. ومن تكرار شكاواها هذه يبدأ الرجل بالشك في نفسه فيقول لها مثلاً: «ومن أين عرفتِ أن روحي غليظة؟» فترد عليه: «ليس في حياتك شعر...» يتشوش الرجل ويحتار. ماالذي حدث لزوجته التي لم تشك يوماً من غلاظة روحه؟ ماالجديد في حياتها؟ ويبدأ تحرياته فيكتشف حقيقة الأمر: ثمة شاعر شاب تعرف على بتول في أحد اللقاءات.. لنقل في حفلة راقصة.. طلبها للرقص. وراح يهمس في أذنها الأشعار وهو يراقصها. ومع أنها تضايقت من ذلك ونبهته أكثر من مرة قائلة: «أرجوك كفّ عن هذه الغمغمة!» فلم يرتدع الشاب. حتى أن البعض يقول أن السيدة بتول اغتاظت إلى درجة تجاوزت معها حدود اللياقة والأدب وصرخت به تقول: «كف عن الغمغمة في أذني ولاك!». إلا أن الشاب لم يستح. استمر يهمس ويتمتم ملصقاً فمه بأذنها. لم تتحمل ذلك. تملصت من بين ذراعيه، تركت الرقص وجلست. إلا أن الشاب يلحق بها، يجلس بجانبها ويتابع تلاوة الشعر. تهرب المسكينة والشاعر يلاحقها ويدّبق...

Twitter: @ketab_n

من يومها لم يعد يكف عن ملاحقتها أينما حلّت. وما إن يحاصرها في إحدى الزوايا حتى يلصق فمه بأذنها ويهريها شعراً.

في وقت لاحق كان هذا الشاب قد اعترف لأصدقائه بما يلي:

- وماذا أفعل؟ لم يكن لي أي خيار آخر. كنت قد قررت الإنتحار بعد أول لقاء لي مع السيدة بتول. لم أنتحر. قلت لنفس علي أن أواصل الحياة. وحتى أواصل الحياة كان علي أن أغتنم الفرص جيداً.

والست بتول تجهد لتخليص أذنها من فمه، ولكن جهودها تذهب سدى. في إحدى المرات وصلت حداً من الإنهاك، فقالت له:

- كفى ياحقير! لقد سطلتني. سد فمك ياوغد!

قالت ذلك صارخة وحطمت كأساً من البوظة فوق رأسه فجّ رأس الشاب سالت منه الدماء على وجهه. لكنه مال على أذنها وهمس يقول، وكأن شيئاً لم يحدث.

- سوف تعتادين، سوف تعتادين! وإذ تعتادين لن تتمكني من العيش بلا شعر...

ثم يتلو الشعر مجدداً في أذنها. لم تتحمل المسكينة، أغمي عليها وسقطت على الارض بطولها.. ركع الشاب قرب رأسها وتابع تلاوة الشعر...

فتحت بتول عينيها عندما استعادت رشدها فوجدته يتابع.. صرخت صرخة عظيمة وغابت عن وعيها مجدداً.

مختصر القول أنها لم تتمكن من التخلص منه رغم كل جهودها. يئست، فحبست نفسها في البيت، تجنبت الخروج حتى لا تصطدم به. صار الشاب يتصل بها هاتفياً ويتلو عليها قصائده عبر الأسلاك..

وهكذا يا سيدي، تعودت المسكينة على الشعر غصباً عنها. مثلها مثل من يعوّد نفسه قسراً على التدخين. وعندما تمكن منها حب الشعر ماعادت تطيق الحياة بلا شعر.. ولا تحبه إلا مهموساً ومتمتماً في أذنها.. صارت هي تبحث عنه وتطلبه. وما إن تلتقي به حتى تتوسل إليه:

Twitter: @ketab_n

- أرجوك اهمس لي شيئاً من الشعر..

وتسند أذنها على فمه. كانت تداهمها نوبات عصبية إذا انقطع عنها الشعر. وما إن يأتي إليها حتى تستند على ركبيته وتسلم له أذنها: «هيا اهمس لي..» حتى وهي نائمة ترغب أن يهمس لها أحدهم شعراً. أصبحت كمدمنة الهيروين. أصبحت على حواف الإنزلاق إلى أحضان الشاب. لكنها لا تريد ذلك. هي تريد أن يتحول زوجها إلى شاعر ويهمس في أذنها قصائده، حتى تطرد ذاك الشاب وتتخلص منه. لهذا السبب راحت تستفز زوجها بشكاواها: «أنت لا تفهم في الشعر. أنت لا تساوي عشرة قروش. على الرجل الحقيقي أن يفهم في الشعر..» المرأة تريد إنقاذ شرفها. وحتى يتحقق لها ذلك على زوجها أن يكتب الشعر.

حسبما فهمت ياسيدي، كانت الست بتول تركض وراء الإشباع المعنوي. بينما زوجها رجل أعمال. وليس عنده وقت للمعنويات والروحيات. أنا أيضاً رجل أعمال، إلا أنني مررت بالتجربة وأعرف الإشباع المعنوي وما شابه... وهذه هي فائدة الشعر..

لقد أفدت كثيراً من عهدي الشعري ذاك. على المرء أن يتعلم دروساً كثيرة في حياته. وقد تعلمت الكثير مما جرى لزوج الست بتول. ومنعاً لتكرار ذلك معي، فقد منعت دخول الشعراء إلى بيتي. إني أعرف من تجربتي الخاصة أن ملّة الشعراء هذه تقع في غرام النساء الجميلات ثم تعمل المستحيل لإغوائهن. احذف الغرام من العالم، لن تجد شاعراً واحداً على وجه البسيطة! والنساء الغبيات سرعان ما يقعن في حبائل الشعراء. ولذلك لم يدخل بيتي أي شاعر منذ تزوجت. حتى أنني سكنت شقة في شارع «الشاعر فضلي» قمت بمساع جبارة لتغيير أسم الشارع. وعندما عجزت عن ذلك بعت تلك الشقة الرائعة بثمن بخس وانتقلت إلى حي «البقال الذهبي» وهو اسم بديع لحي.

لنعد إلى الست بتول وزوجها. المسكين الذي يحبها حتى الجنون. ونظراً لذلك، أصدر مجلة أدبية باسم الشاب إرضاءً لها وإشباعاً لحاجاتها

Twitter: @ketab_n

المعنوية. المال من زوج بتول، والمجلة لصديق زوجته الشاعر... من يومها بدأ المجتمع الراقي يسمي بتول «مدام انتليكتويل». إنشاء المجلة الأدبية لم يشفع للزوج عندها. ظلت تقول له وتكرر: «أنت لا تفهم في الشعر. لو كنت تفهم في الشعر لفهمت روحي!».

فلم يبقَ أمام الرجل من خيار غير تعلم هذه الصنعة. وهذا أمر في منتهى الصعوبة. ما أصعب أن يستشعر رجل الأعمال بعد عمر طويل! وأنا أتكلم عن خبرة. نعم بدأ الرجل يتلقى دروساً في الشعر. وحسب أقوال معارفه لو أنه تابع على دروسه بتلك الحمية لأصبح، بعد فترة وجيزة، شاعراً كبيراً.

لقد تعلم الرجل كتابة الشعر... ولكن هيهات أن يرضي زوجته. لأن المرء لا يصبح شاعراً بمجرد كتابة الشعر... فقد كان الشاب الآخر شاعراً من قمة رأسه وحتى أظافر قدميه... فهو قبل كل شيئ، في منتهى النحول (طبعاً من الجوع...) شعره المنكوش كان يغطي وجهه وعينيه. نظراته غائمة وعميقة (والسبب بالطبع قلة النوم فلا ليله ليل ولا نهاره نهار) أما هيأته.. فلا تسأل.. رثة ومهركَلَة.. طبعاً لأنه لا يملك ثياباً مناسبة، وهو دائماً شارد.. وكيف لا يكون شارداً وقد انسدَّت كل الآفاق في وجهه... هو لا يستطيع حتى التفكير... عيناه مثل عيني مدمني الحشيش. لو دسست الصبي بين طابور من الجنود، فإن كل من يراه سيقول: «هذا شاعر!».

لقد تحدثتُ مع معارف هذا الشاعر أيضاً. قالوا عنه: «كان ولداً فلعوصاً نحيلاً لا يملأ العين.. يشتهي المرء، ما إن يراه، أن يصفعه كفين وبقفا اليد» كان بعض الناس ما إن يروه عن بعد حتى يقولوا لمحدثيهم:

– عن إذنك دقيقة. سأذهب لأضرب هذا الشاب صفعتين وأعود إليك...

– وهل أساءَ إليك بشيئ؟

– لا. أبداً. أنا حتى لا أعرفه. لكنني أشتهي من كل قلبي أن أصفعه!

نعم، تقدم زوج مدام انتلّكتويل، في تعلّم الشعر، ولكن كيف له أن يصبح شاعراً حقيقياً؟ فهو رجل أعمال معروف، ذا جسد ضخم، وكرش

Twitter: @ketab_n

يمتد مترين أمامه، ورقبته غليظة ذات طبقات عديدة، وعنقٌ تـنزل مباشـرةً من طرف ذقنه إلى صدره.. من الصعب جداً تحويل رجل بهـذه المواصفات إلى شاعر. إلا أن الرجـل يعشـق زوجتـه.. ولذلـك تحمَّـلَ كـل شـيئ.. راح ينحـف وعينـاه تغـوران وهيأتـه تتهركـل.. وفي الطـرف الآخـر، كـان ذاك الشاعر الشاب، وقد ترأس تحريـر المجلـة الأدبيـة، يـأكل أمـوال الـزوج، تتحسن صحته ويزداد وزنـه.. حتـى أصبـح كـالعجول. وجـاء اليـوم الـذي تحول فيه الشاعر الشاب إلى رجل أعمال بكـل معنـى الكلمـة، بينمـا نُقِـلَ الآخر إلى المستشفى من شدة استشعاره!

أنا أعرف من تجربتي الشخصية أنه من المستحيل أن يكون المرء رجـل أعمال وشاعراً في وقت واحد. عندما تحول شاعرنا الشـاب، بفضـل الست بتول المثقفة للغاية، إلى رجل أعمال مرموق، اعتزل كتابة الشعر نهائياً. ويا لسوء حظ الست بتول المسكينة! فهـي بحاجـة لمـن يهمـس القصـائد قـرب أذنها. لقد أدمنت. زوجها لا يفلح في التحول إلى شـاعر. وشـاعرها الشـاب خَـنْزَرَ واعـتزل الشـعر. والمـدام بحاجـة إلى صـبي فلعـوص كـالعودة. تبـدأ بالبحث عمن يسد الفراغ. لقد حانت الفرصة لكل شاب تعس يريد إصلاح أوضاعه وترميم حياته. راحوا يتسابقون لإرضائها ويتعلمـون كتابـة الشـعر. أنتَ لم تعاصر تلك الفـترة يـا سـيدي. لقـد حدثـت قفـزة في عـدد الشـعراء بحيث أن نصف ركاب كل أتوبيس ممتلئ عن آخره، كان من الشعراء. وقد جاءت هذه الغلة الوفيرة في الشعر والشعراء بفضل مدام بتول. إن كثيراً مـن الشبان كان يعمل ماكياج مناسباً، فيتشبه بالشعراء، ثـم يذهـب إلى صـالون الأربعاء في بيت الست بتول.

مرة واحدة فقـط اسـتطعتُ دخـول هـذا الصـالون. اصطحبنـي إلى هنـاك سادات بيك، زوج الست سابقاً، وصديق العائلة لاحقاً. كـان البيـت عبـارة عن شقة كبيرة في «نيشان طـاش». عندمـا دخلنـا عـانق سـادات أول امـرأةٍ صادفها وقبَّلها، ثم قبّل الثانية.. فالثالثـة.. كـان يقبِّـل كـل مـن يصادفـه. وبينما كنتُ محتاراً ما الذي يجب أن أعمله، توجَّهتْ نحوي إمـرأةٌ قبَّلها

Twitter: @ketab_n

سادات. قلت في نفسي أن العادة هنا هي هكـذا. وقَبَّلتُهـا. إن التقبيـل هنـا بديل عـن كلمـة «مرحبا». كـان سـادات يقّبـل أيـادي بعـض النسـاء، ثـم خدودهن. صرتُ أفعل مثله.

كان في الصالون حـوالي ثلاثـين شـخصاً مـن الجنسـين. كـانوا يتكلمـون الفرنسية والإنكليزية والألمانية... وكان عدد قليل منهم يتكلم التركية أيضاً. كان المشروب والمازوات وفيرة... كان غرضي لفت انتبـاه مـدام إنتلكتويـل، صرتُ ألاحقها باستمرار. كنتُ أتحين الفرص لأستفردها وأحشرها في زاويـة لأتمكن من إسماعها بعضاً من قصائدي همساً. لكنني لم أقبـض علـى هكـذا فرصة قط. كنتُ أظنها سيدة في منتصف العمر، فاجـأني جمالهـا وصباهـا. هي جديرة بأن تختار ملكة جمال في أية مسابقة تشترك فيها. كـان يوجـد في تلك الليلة عددٌ من أساتذة الجامعات ورؤساء التحريـر، والساسـة وعـددٌ من فناني المسرح.

بعد لأي تمكنتُ من ضبطها في نهاية المر، اقتربتُ منهـا مغـامراً بكـل شيئ، حشرتها جيداً، ألصقتُ فمي بأذنها وبدأت تلاوة الشعر. لكنها منـذ أول كلمة قالت:

– اسمح لي... لقد انحصرتُ...

كنتُ قد حصرتُها كثيراً بالفعل. ولكن لا خيار آخر أمامي. كَرَّرَتْ:

–ألا تفهم؟ أقول لك انحصرت..

وقفزت مبتعدة عني. فتحت باباً واختفت وراءه. كان «انحصارهـا» إذن من نوع آخر...

لم أتمكن من الإقتراب منها مرة أخرى. كلما دنوتُ منها هربـت. علـى كل حال الحمد لله أنني أصبحتُ فيما بعد رجـل أعمـال. ولكـن بصعوبـة. والحال أنني لو نجحتُ في نيـل رضاهـا لاختصـرتُ الطريـق وكونـتُ ثـروة كبيرة بصورة أسهل وأسرع.

لم أكن لأقبل بالهزيمة لولا أنها، سـافرَتْ إلى أوروبـا بعـد أيـام قليلـة. وبعدها ام أرها ولم أسمع عنها شيئاً.

Twitter: @ketab_n

أتقول أن سادات مريض؟ ومرضه ثقيل؟ هو من يعرف مدام بتول حق المعرفة. لولا مرضه لأخبرك بمعلومات كثيرة عنها... ولكن كيف تذكرني؟ أيعرف أيضاً أنني أعمل في تجارة السيارات وقطع الغيار؟

إذا أردتَ الوصول إلى عمتك، عليك أن تسأل شعراء تلك الفترة عنها. كلهم يعرفونها. يكفي أن تذكر لهم اسم «مدام انتلكتويل».

أقلعتُ عن كتابة الشعر منذ زمن طويل. لكنني كتبتُ قصائد جميلة جداً. لي قلبٌ في منتهى الرقة والحساسية. لا يغرّنَك مظهري الحالي...

شيفرة سيدات الوسط المخملي

عمن تسأل؟... نعم؟... أتقول أنك لم تأتِ من أجل ذاك الشيئ؟ لِمَ جئتَ إذن يا حبيبي؟... هذه ليست دائرة حكومية... ماذا تريد إذن؟.. التحدث إليّ؟.. يا سلام! هذا ما كان ينقصني.. هل فقدتَ عقلك يا صغيري؟ هيا إلى شغلك.. بوجود كل هؤلاء الصبايا تريدني أنا؟.. مفهوم أنت جلدك يحكك يا عجلي! هيا حلّ عني! اسمع، إن جاء صاحبي وضبطك هنا... هيا أيها الصبي ذا الخدين الحمراوين، اذهب قبل أن أنزل قبقابي على رأسك!

شوفي المجنون! ما الذي ستبحثه معي يا فرخ الدوري؟.. من الذي أعطاك عنوان هذا البيت؟ قه قه قه قه... الصالون مليئ بالبنات. انتق من تشاء. يبدو أنك جئتَ من استانبول لتصرف نقودك. هل سرقتَ أموال أبيك العجوز؟ ألم تفعل؟

بدأتَ تعجبني..

ماذا تقول؟ أتبحث عن عمتك؟ هؤلاء هن جميع البنات العاملات هنا.. ابحث عن عمتك في بيت آخر يا أحمر الخدّين.

ما اسم عمتك؟ بتول؟ أية بتول؟.. نعم؟ أأنتَ قريب بتول ــ الراحة؟ أحقاً؟.. يالمحاسن الصدف.. احكِ من الأول يا بنيّ.. تعال، تعال معي.. في هذه الغرفة نأخذ راحتنا بالكلام. تفضل اجلس هنا.. يا إلهي! بتوش

Twitter: @ketab_n

هي عمتك إذن؟ وأين هي الآن؟ أنت تبحث عنها؟ واه يـا حبيبتي بتـوش أواه!

مضى وقتٌ طويـل انقطعت أخبارها عـني... مـاذا تشـرب؟ ويسـكي؟ كونياك؟... يجب أن تشرب كأساً..

ألم تسمع باسمي قط؟ أحقاً لم تسمع؟ ولا قرأتَ عني في الصحف؟ أيـن كنا، وأين صرنا؟.. عمتك هي من قـادتني إلى هـذه المهنـة. اسمـع لأحكـي لك. كنتُ وقتها متزوجة، وساذجة لا خبرة لي بالحياة. وكان زوجي تاجرا ثرياً... آه إنني امرأة سيئة الحظ... لكني أحـب بتـوش. لهـا أيـادٍ بيضـاء عليّ. ألا تشرب كأساً أخرى؟

كان زوجي وسيماً جداً، لكن عينه زائغـة. كـم مـن التضحيـات قدَّمـتُ لأشدَّهُ إلى عش الزوجية. ما الذي لم أفعله من أجل الحفـاظ عليـه... كنـتُ أتزين وأتعطر كل ليلة وأنتظره على الشباك حتى الصباح... كم ليلـة شـتاء غفوتُ على النافذة المفتوحة... إن ما تحملتـهُ يفـوق الوصـف... كنـتُ آمـر الطباخة بتحضير ما يفضله من طعام، وأمد له موائد ولا أشـهى فقـط لأنـال رضاه... كانت أمي تقول لي: «الطريق إلى قلوب الرجال يمر عـبر المعـدة.». كنتُ أعمل بنصحيتها وأهيّئ لـه أشـهى وألـذ الأطعمـة. لـو أن أحـداً رأى موائدي العامرة لقال عنها: «هذه ليست سفرة. هذه قصيدة!» لكـن كـل مـا فعلته من أجل ذلك الوغد ذهب سدى. لم أستطع شده إلى بيـت الزوجيـة. عينه دائماً على برّه، يلاحق القحاب وفتيات الملاهي... لقد كـان رجـلاً ذا روح منحطة. أتفهم؟ وقد فعلتُ كل ما بوسعي لأتشبّه بهن حتى أجذبه إلى البيت.

أتسأل عما إذا كنتُ أحبه؟ طبعاً.. وكيف لا أحبه؟ أقول لـك أنـه كـان غنياً جداً. من كثرة البكاء نحل جسدي ووهنت قواي...

ذات ليلة انتظرته على الشباك كالعادة.. غفوتُ.. عندما استيقظتُ كان الصباح. ولم يأتِ زوجي بعـد... اجتـاحتني موجـة بكـاء عنيفـة اسـتمرت حتى الظهيرة.. دخلت الخادمة غرفتي وأخبرتني بقدوم السيدة بتول.

Twitter: @ketab_n

- أدخليها إلى الصالون، قلتُ لها.

أصلحتُ زينتي أمام المرآة. إلا أن آثار البكاء ظلت باقية. أجفاني منتفخة. كنتُ قد تعرفتُ بها في نادي القمة، أثناء حفلة راقصة اصطحبني إليها زوجي. بعد ذلك صرنا صديقتين حميمتين. كانت وقتها متزوجة من رجل ثري يدعى إبراهيم مَرْتَلَكْ. كان رجلاً قاسياً. وكانت صديقتي المسكينة تتحمل قسوته لأنه ثري. عندما رأت آثار البكاء على وجهي، صرخت ملهوفة:

- ما بكِ يا ناريمان؟ ما هذه الحال؟

- لا شيء.. لا شيء، قلت لها.

- واضح أنك كنتِ تبكين. عيناكِ حمراوان.. حرام على شبابك وجمالك..

- أواه يا بتوش. ساعديني. انصحيني. دليني على طريقة أشد بها زوجي إليّ..

- أهذه مشكلتك؟ فلتكتن أكبر المصائب.. وهل هناك ما هو أسهل! هناك الكثير من الرجال.. أما الشباب والجمال فلا يعوّضان. يجب أن تحافظي عليهما وتقدّري قيمتهما. اسمعي ما سأقوله لك وافهميه جيداً. ونفذي ما سأطلبه منك. سترين عندها كيف سيتحول زوجك إلى كلب سيرك مهذب.. إني خبيرة بهذه الشؤون. لقد تزوّجتُ عدداً من الرجال. كلهم عاملني كما يعامل عيونه. لقد فعلتُ معهم جميعاً ما سأطلبه منك.

- هيا أخبريني ما فعلتيه معهم.

- الحمد لله. فقد نجح هذا الأسلوب مع الجميع. لكن ما سأخبرك به ينبغي أن يبقى بيننا. مفهوم؟

- آآ.. طبعاً. لن أخبر أحداً قط. أعدك.

جعلتني أقسم الأيمان بألا أفشي السر. لأنه إذا انتشر وعملت جميع النساء بهذا الأسلوب، فلن يبقى أي زوج «عينه لبرة». وهذه مصيبة.

- عليك أن تفعلي ما يثير غيرته عليك.

Twitter: @ketab_n

– أتظنين أني لم أفعل يا بتوش؟ فعلتُ المستحيل. لكن فشلت في إثارة غيرته. كتبتُ رسائل غرام موجهة إليّ أرسلتها إلى البيت بواسطة البريد.. لكنه لا يفتح الرسائل الموجهة إليّ... لأنه لا يشك بي بتاتاً. ثم أريتُهُ الرسائل بنفسي... ماذا تتوقعين أنه قال؟ «أنا فخورٌ لأنني وحدي أمتلك امرأة يعشقها كل الرجال!». وذات مرة أرسلتُ إليه رسالة بدون توقيع، فحواها: «زوجتك تخونك». لم تسبب له الرسالة أي انفعال. قال لي: «يحسدونك فيلفقون الشائعات الكاذبة عنك».

لم يكن يغار عليّ. كانت ثقته بي غير محدودة. وكان يعرف بمقدار حبي له...

– ما أشد سذاجتك يا ناريمان... ما ستفعلينه الآن لن يكون مجرد شائعات سيضبطك زوجك متلبّسة. أتفهمين؟ عندما يراكِ عارية في حضن رجل غريب، لن يبقى أمامه خيار إلا تصديقك. سوف يصدق غصباً عنه. اسمعي ما جرى لي مع زوجي الثاني. كانت ثقته بي مطلقة. وعندما ضبطني عارية في الفراش مع رجل عارٍ هو الآخر، اهتزّت ثقته بعينيه ولم تهتز ثقته بي. بعد تلك التجربة أصبحتُ أفعل ذلك أمام عددٍ من الشهود حتى لا يبقى مجال للتهرب أمام زوجي. حتى لا يكذّب عينيه. بل قد تضطر الواحدة منا إلى إدخال الحكومة أيضاً في الموضوع.

ظننتُ أنها تمزح معي.

– لا! دعي الحكومة بعيدة عن أمورنا!

– إن تدخل الحكومة ضروري. يكون هناك ضبط ونيابة وصحافة، بحيث لا يستطيع زوجك أن يفلحص.

كانت بتول على حق. إن الرجال من أمثال زوجي، يعتبرون زوجاتهم في الجيب، يبدؤون بالرعي في المراعي المجاورة، عيونهم تزوغ يميناً وشمالاً. مادامت الزوجة مضمونة في البيت، لم لا يتلقطون الرزق من النساء الأخريات.. قبل مرور ثلاثة أشهر على زواجهم يشبعون من الزوجة. هكذا هي ملّة الرجال.. يعتقد هؤلاء الأغبياء أن نساءَهم إما قبيحات أو فاشلات

Twitter: @ketab_n

إلى درجة لا يلاحقهن أي رجل. أو أنهم يعتقدون أن زوجاتهم مغرمات بهم حتى العماء الذي يمنع عنهن رؤية الرجال الآخرين. ثقتهم بأنفسهم عالية جداً. يعتقدون أن لا رجل يتفوّق عليهم في أنظار زوجاتهم. ولذلك يسهل ضربهم. لا تزعل مني، هذا هو حال جنس الرجال، لعنة الله عليهم... فقط عندما تركّب الزوجات لهم قروناً، ويضبطونهن بأنفسهم متلبسات، يعود إليهم رشدهم. ولسان حالهم يقول: "واي واي واي! إذن فزوجتي فيها خير وأنا لا أعرف!" ويعضون أصابعهم ندماً.

ولا يصدّق هؤلاء الحمقى أشياء صغيرة.. بل ينبغي أن يروا كل شيء رأي العين. وكأن لا رجال في العالم غيرهم. هو أجمل رجال الأرض، وأحذقهم وأكثرهم لطفاً وكياسة...

قالت لي بتول:

- كفى بكاءً يا بنت يا حمقاء. هيا استعدي لخيانة زوجك فوراً.

- لا أستطيع ذلك وحدي..

- أنا أساعدك.. هيا البسي وتأنّقي.. سآخذك إلى بيت دعارة أعرفه

- أوووه! هل جننتِ يا بتوش؟ أيُّ كلامٍ هذا! أنا امرأة شريفة، لا أفعل ذلك لو متّ!

كنتُ أعتقد أن اللعبة تتمثل في مشوارٍ مع رجل غريب أو لقاء في مقهى يرانا زوجي خلالهما.. وليس شيئاً شبيهاً بما تعرضه بتول..

لكنها كانت إمرأة خبيرة، تعرف كل شيئ. شرحت لي بكل هدوء أن الأسلوب الذي تعرضه عليّ، أسلوبٌ قديم جداً يرتقي إلى أعماق تراثنا المحلي. قالت أن أشد الأسر تديناً كانت تمارس هذه اللعبة...

- أأنتِ مجنونة يا بتول؟ كيف كان لهم أن يفعلوا ذلك قديماً ولم يكن ثمة بيوت دعارة؟

أوضحت لي أنهم كانوا يفعلونها في البيوت. قالت لي أن الأزواج كانوا يسلمون زوجاتهم بأيديهم إلى رجال غرباء. بعد ذلك سألتُ آخرين عما قالته لي بتوش، فأكدوا لي كلامها. إذا ما طلّقَ أحدهم زوجته وأراد الزواج

Twitter: @ketab_n

بها من جديد، كان يستأجر لها زوجاً لليلة واحدة. يتزوجها هذا ويطلقها في صباح ليلة الدخلة فيتزوجها زوجها الأصلي من جديد. كانوا يسمّون هذه العملية «حُلّة». نعم كان القدماء يدفعون أجرة «لحلّة جي» من أجل أن يتزوج امرأتهم... وما سأفعله الآن ـ قالت لي بتوش ـ هو حُلّة عصرية. كما أوضحت لي أن الحلّة جي لا يلمس المرأة أبداً في ليلة الزفاف مع أنه ينام معها في غرفة واحدة حتى الصباح. تماماً مثلما سأفعله أنا. والحق أني اقتنعت بكلام بتول. مادام الأمر يرتقي إلى تراثنا، لِمَ لا أقوم به؟ لستُ أنا من ابتدع هذا العرف... ولكن ثمة أمر يثير الخشية مع ذلك. قال لي بعض العارفين بأمور «الحُلّة» هذه أن بعض «الحُلّة جيّه» يستغلون انفرادهم بالمرأة في غرفة النوم ويقولون لها: «أنت زوجتي على سنة الله ورسوله. أفعل بكِ ما يحلو لي...» يضربون بالاتفاق عرض الحائط ويُسرّون المرأة ويمتعونها إلى درجة أن هذه تطرد زوجها عندما يأتي في الصباح للاطمئنان عليها قائلةً له: «لم أعد أريدك.. الحمد لله وجدت أخيراً الرجل الذي يسعدني ويناسبني!» وتثبّت زواجها من «الحلّه جي» كنتُ خائفة من مصير مماثل.. أنتَ تعلم.. قد يلعب الشيطان بعقل الواحدة منا..

لا يعرف المرء مصيره ومآله قط. كيف لي أن أتوقع ـ يومذاك ـ أنني في يومٍ من الأيام، سأدير بيت دعارة.. إنها سخرية الأقدار!

– أنتِ لن تفعلي شيئاً يا عزيزتي، قالت بتول، ثم أن الأمر لا علاقة له بالشرف.. ثم أن كلامك يعني اتهاماً لي بانعدام الشرف! لا ينفع فيك عمل الخير.. صحيح أن زوجك سيضبطك متلبسة في بيت دعارة ولكن نيتك نبيلة. ليس المهم المظهر.. المهم النية..

– أووه! وهل سيتم ضبطي متلبسة أيضاً؟

– طبعاً.. وإلا كيف يُصَدّقُ زوجك؟ ستتحملين هذا في سبيل إنقاذ حياتك الزوجية. أتفهمين؟ ما دمت طيراً أنثى فسوف ترممين عش زواجك. ألا يقول المثل أن أنثى الطير تبني عشها؟ بالطبع ليس زوجك من سيضبط في بيت الدعارة، بل أنت.

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع!

- أنتِ لن تفعلي شيئاً يا عزيزتي... ليس بيت الدعارة هذا من النوع الذي تسمعين عنه.. اسمعيني جيداً. سوف نستأجر لك رجلاً لن يلمس حتى يدك. أفهمت؟ سيبقى شرفك مصاناً. المهم أن نيّتك طاهرة...

هذا ما يجب فعله حقاً مع الرجال الذين يتركون زوجاتهم اللواتي كالورود ويركضون وراء القحاب. حتى أن بعض الرجال يستمتعون بذلك... هؤلاء لا يرتاحون ولا يطيب لهم عيش إن لم تركّب لهم قروناً..

- سوف تتصلين بالشرطة الأخلاقية وتخبريهم بعنوان بيت الدعارة قبل لقائك فيه مع الرجل.

- من؟ أنا؟ أنت مجنونة!

ثم شرحت لي أن الشرطة الأخلاقية قد لا تأتي منذ الإخبارية الأولى. لأن بيوت الدعارة تملأ البلد والشرطة لها خطة تحرك محسوبة مسبقاً.. تداهم بيوت الدعارة وفقاً لتلك الخطة..

- تقولين أن ثقة زوجك بك عالية، وأنه لن يصدق حتى لو ضبطك في تلك الوضعية مع رجل آخر.. أنت محقة.. لا يصدقون.. يقول المثل ليس أشد عماءً ممن لا يريد الرؤية، وليس أشد طرشاً ممن لا يريد السماع، وليس أجحش ممن لا يريد أن يعرف... صحيح.. أنا أيضاً لم يصدقني عددٌ من رجالي، قالوا «أنه فخ» نُصِبَ لزوجتي. إنهم يكذبون!". وأحد أزواجي، رأى صوري العارية مع رجل غريب في أوضاع شاذة جداً، سبق والتقطها خصيصاً من ثقب الباب، ودفعتُ فيها أموال طائلة، رآها ولم يصدق! قال أنها مركبة «فوتو مونتاج»! إن كان الرجل لا يريد أن يصدق، فإنه لن يصدق مهما فعلتِ معه. ولذلك سوف تتصلين بالشرطة الأخلاقية، بينما يتصل شخص آخر بزوجك ويخبره بعنوان بيت الدعارة. وعندما يضبطك زوجك والأخلاقية معاً، لن يبقى أي مجال للشك والتكذيب...

- لقد اقتنعت بفكرتك يا بتوش. ولكن ماذا لو طلقني زوجي؟

Twitter: @ketab_n

- أيُّ طلاق يا عزيزتي؟ أفقدت عقلك؟ إن التجربة أثبتت أنه ما إن يراك في أحضان رجل آخر حتى يتذلل إليك ككلب... سترين..

لم يبق أمامي أيُّ خيار أمام قوة إقناعها.

- طيب. أين الرجل الذي سيضبطونه معي؟

- موجود. جاهز.

قالت أن بعض الرجال يكسبون رزقهم بهذه الطريقة. اصطحبتني إلى واحدٍ من هؤلاء. يمكن الوثوق به وباحترامه للشرف. طلب مني الرجل ألفَيْ ليرة!

- ما هذا الكلام! ، قلتُ له ، أيعقل أن تطلب كل هذا المبلغ!

- إني أخاطر برأسي يا سيدتي!

ضرب على رقبته براحة يده وتابع يقول لي:

- ألا تساوي هذه الرقبة ألفي ليرة يا سيدتي؟ ماذا لو استل زوجك مسدسه وقتلني؟

كلامه سليم. لكن زوجي ليس من النوع الذي يستل مسدسه ويقتل.. المسكين لا يحمل لا مسدساً ولا سكيناً. ولا عنده قلب... ما الذي سيستله إذن، ومن سيقتل؟ على كل حال وافقنا على الأجرة. ورسمنا خطةً محكمة. ليلتها عاد زوجي إلى البيت قرب الفجر والسكر يتعتعه. وأنا أستعد للخروج في اليوم التالي قلتُ له: «سأذهب لزيارة أمي».

لم يقل شيئاً. بعد انصرافه خرجتُ فوراً. ذهبتُ لملاقاة بتول. قلتُ لها:

- أرجوكِ يا بتوش. ليكن المكان الذي سأضبط فيه مناسباً لمستواي العائلي. ليكن مثلاً فندقاً من الفنادق السياحية في البوغاز.

قالت أن الفنادق السياحية مستواها متدن. تتردد عليها النساء العاديات. وأن الأفضل هو بيت دعارة.

أخذتني بتوش إلى إحدى العمارات. كان الرجل قد سبقنا إلى هناك. دخلتُ غرفةً. تصوّر.. وجدتُ نفسي هناك وحيدة مع رجلٍ غريب...

Twitter: @ketab_n

صرتُ أرتعش بقوة من شدة الانفعال.. كـان ثمـة جهـاز هـاتف في الغرفـة. ركضتُ إليه فور دخولي الغرفة. منعني الرجل قائلاً:

– ما هذا الذي تفعلين يا سيدتي؟ لا يجوز هكذا!

– كيف إذن؟

– لا يجوز قبل أن تتعرّي.. إن زوجك لن يصدق إن لم يراك عارية...

خلعتُ معطفي.

– تعري أكثر.. أكثر..

عندما رآني مترددة قال:

– اسمعي يا سيدتي. هـذه ليسـت أول مـرة بالنسـبة لي... مـا الـذي لم أصادفه. كلٌّ يكسب أسباب حياته بطريقة مختلفة... ونحـن نصـرف علـى أولادنا من هذه المهنـة... كـم مـن السـيدات مثلـك أعـدتُ لهـن سـعادتهن الزوجية.. رممتُ لهن أعشاشهن... حتى أن بعـض الزبـائن الذيـن سـرتهم خدمـاتي مـازالوا يدعونـني إلى بيوتهـم كصديـق للعائلـة. وأنـا لا أقصّـر في زيـارتهم.. تعـرّي.. تعـرّي... لا تخجلـي! لسـتُ مـن الرجـال الذيـن في ذهنك... فلتعمى عيناي إن نظرت إليك بعين السوء.

– لن أتعرّ أمامك...

– سأدير وجهي إلى الجدار. ولن ألتفت. أنتِ أختي في الدنيا والآخرة!

استدار الرجل نحو الحائط. بدأتُ أخلع ثيابي. فجأةً سمعته يقول:

– يالها من شـامة كبـيرة! مـا شـاء الله! لم أر في حيـاتي شامةً بهـذا الحجم. تخزي العين..

كيف رأى الخنزير شامتي التي لم يرها حتى زوجي؟

– ألم تعدني أن تستدير نحو الجدار؟

– وجهي إلى الجدار!

– كيف إذن رأيتَ الشامة؟

– إن لي بصيرة معنوية. أرى ما أمامي وما خلفي على حد سواء.

Twitter: @ketab_n

التفتُ ونظرتُ إليه. حقاً كان مستديراً نحو الجدار، لكن مرآةً كبيرة بحجم قامة إنسان كانت مثبته أمامه!

بصقت عليه وشتمته ثم رميتُ بنفسي على السرير. غطيتُ نفسي والتقطت سماعة الهاتف. أدرتُ رقم الشرطة الأخلاقية الذي حفظتُهُ مسبقاً عن ظهر قلب. رد علي أحدهم. أعطيته عنوان الشقة قائلة له:

– هذا بيت دعارة. أسرعوا وداهموه! وأغلقتُ الهاتف. قال الرجل:

– سيأتون الآن. يجب أن أتعرّى أنا أيضاً.

– ولِمَ ذلك؟

– أنت عارية في السرير، وأنا في كامل ثيابي... أويجوز ذلك؟ لن يصدق زوجك.؟ أعرف ذلك من خبرتي الخاصة. ليس من السهل إقناع زوج بحقيقة الموقف.

– طيب. تعرَّ إذن. ولكن إياك أن تقترب مني!

– من الأفضل ألا تتدخلي أبداً...

خلع الرجل ثيابه. كان له جسد جميل للغاية... حذار أن تظن أنني نظرتُ إليه! مستحيل أن أنظر إلى رجل عار. لكنني شاهدته في المرآة...

بدأنا ننتظر... مرت عشر دقائق... ربع ساعة... ليس هناك من يداهم البيت! أدرتُ الرقم مرةً أخرى. قلتُ للرجل الذي رد عليّ:

– لماذا لم تأتوا؟ لِمَ تأخرتم؟ منذ نصف ساعة وأنا أنتظركم.

– من أين تتكلمين؟

أمليته العنوان مرة أخرى. ووصفتُ له المكان ليجدوه بسهولة.. وانتظرنا... لكن أحداً لم يأتِ.. بدأ صبري ينفذ. قال لي الرجل:

– إني أشعر بالبرد يا سيدتي. سوف أمرض. سأدخل الفراش بعد إذنك. رأيتُهُ يرتجف فعلاً من البرد. أشفقتُ عليه . قلتُ له:

– حسناً. ادخل الفراش. ولكن أدر لي ظهرك.

اندس الرجل في الفراش. اتصلتُ مرةً ثالثة:

Twitter: @ketab_n

- أين أنتم حتى الآن؟

- إلى أين تريديننا أن نأتي؟

- ألم تعدني منذ قليل بأنك ستأتي. البيت الذي أعطيتك عنوانه هو بيت دعارة.

اضطرب صوت الرجل الذي على الهاتف.

- أرجوك أعطيني العنوان مرة أخرى.

- وكم مرة سأعطي العنوان؟

أمليته العنوان مجدداً.

بعد انتظار طويل اتصلتُ مرة رابعة:

- داهموا هذا البيت وخلصونا..

-وأين يقع البيت؟

من جديد أمليته العنوان. وأنا أرتجف من الانفعال والغيظ. طيب. الشرطة الأخلاقية لم تأتِ. ولكن أين زوجي؟ حسب اتفاقنا كانت بتوش ستتصل به وتعطيه عنوان بيت الدعارة. ومن المفروض أن يأتي حالما يصل الخبر. كان الوقتُ يمر.. فلا زوجي يظهر ولا الشرطة تداهم الشقة. وفجأةً رنّ جرس الهاتف. خفق قلبي بقوة. من شدة ارتباكي ظننتُ أن جرس الباب هو الذي يرن. صرختُ مفجوعة: «أواه! ضبطونا!»

- ولماذا تخافين يا مدام. نحن هنا كي يتم ضبطنا. الجرس هو جرس الهاتف. لا تخافي.

عاد إليّ رشدي. رفعتُ السماعة. كانت بتول. قالت لي:

- لم أستطع الوصول إلى زوجك حتى الآن.

- في هذا الوقت يكون في مكتبه.

- لكن الاتصال بالمكتب لا يتأمن: ثمة تداخل في الخطوط الهاتفية. أدير رقم مكتب زوجك، فيرد دائماً رقم خاطئ. لي ساعتان على الهاتف. اتصلتُ بالخطأ بعددٍ من الرجال وقلتُ لهم: «زوجتك في بيت الدعارة الفلاني» وأعطيتهم العنوان. لو أنك سمعتِ أصواتهم على الهاتف لَمُتّ من

Twitter: @ketab_n

الضحك. يصبح صوتهم مختنقاً... بعضهم بكى والبعض أنّ والبعض صرخ والبعض الآخر شتم.. فهمتُ متأخرة أنهم ليسوا زوجك. قال لي واحد منهم:

- أنتِ مخطئة يا سيدتي. لا يمكن أن تكون زوجتي في بيت دعارة. لأنني أعزب.

- فقط عندما سمعتُ هذا الكلام فهمتُ الموقف..

- وما ستفعلين الآن؟ سألتُ بتوش على الهاتف.

- انتظريني قليلاً أيضاً. إني أبذل جهودي لتأمين اتصال مع زوجك وأنت ماذا فعلتِ؟

- وأنا منذ ساعات أتصل بالأخلاقية... يعدون بالمجيء ولا يأتون..

أغلقَتْ بتول الخط. عدتُ للإتصال بالأخلاقية:

- لِمَ لا تأتون يا سيدي؟

- إلى أين يا سيدتي؟

- طبعاً إلى بيت دعارة... منذ قليل أعطيتكم العنوان...

- أرجوك، تفضلي وكرري العنوان.

- اكتب حتى لا تنساه..

أمليته العنوان. قال الرجل الذي على الهاتف:

- أنا مشغول الآن. ألا يجوز أن آتي ليلاً؟

- لا. أنا مشغولة ليلاً!، قلتُ له بعصبية وأطبقتُ السماعة في وجهه.

تصوّر موقفي. مع رجل غريب عارية في فراش واحد. صحيح أن بيني وبينه مسافة... ولكن مع ذلك..

- سوف تتأكدين بنفسك، قال لي الرجل المضطجع قربي، لا تشغلي بالك بشيء. سوف يغفر لك زوجك بعد أن يرانا في هذا الوضع. سوف تقسمين له أن شيئاً لم يجر بيننا. وأنت لا تكذبين. انظري.. حقاً لا يوجد بيننا شيء. أنتِ عارية، وأنا كذلك.. لا يوجد بيننا حتى ملابس داخلية.

قال ذلك وهو يضحك بخبث. أبعدته بيدي.

Twitter: @ketab_n

- أنا بردان، قال.

- أبعد يا عيني..

- ولكن كلما ابتعدتُ، تقتربين أنت. فسوف أسقط من السرير..

شُفْ الوقح! أمطرتُهُ بوابل من الشتائم. قال لي أخيراً:

- لا تؤاخذيني، نحن هنا من أجل عمل. بينما أنتِ تتشاجرين معي وكأننا زوج وزوجة حقيقيان...

بدأتُ أبكي. راح يداعب شعري وهو يقول:

- أرجوكِ لا تبكي..

- اسحب يدك! أنا امرأة شريفة. وعندما أرغب بالبكاء أبكي. حتى زوجي لا يستطيع منعي..

- إذا رؤوك هكذا سيعتقدون أنني أرغمتك.. أرجوكِ كفّي عن البكاء..

هكذا هم كل الرجال.. زوجي كان كذلك، ينام فوراً. بدأ الرجل بالشخير. عندما يئستُ من مجيء أحد ارتديتُ ملابسي وخرجتُ. قالت لي صاحبة البيت:

- كان وجهك خيراً علينا. لم يسبق أن جاء كل هذا العدد من الزبائن.

وما أدراها أنني اتصلتُ بعددٍ من الرجال وأعطيتهم عنوان الشقة، ظانةً أني أتصل بالشرطة الأخلاقية؟

عندما وصلتُ إلى البيت وجدتُ زوجي، على غير عادته، بانتظاري.

- انشغل بالي عليك يا حلوتي. أين كنتِ؟

أول مرة طوال حياتي الزوجية أسمع منه هذه الكلمة الحلوة. عندما أخبرتُ بتوش في اليوم التالي، قالت لي:

- أرأيت؟ ألم أقل لك؟ من الآن بدأتِ تجنين الثمار. هذا ما يفهمونه.. لو أنك تصغين إليّ وتفعلين هذا كثيراً سوف يعبدك عبادة..

وما حيلتي؟ لقد تحملت تضحيات جمة لأستعيد زوجي وأشده إلى البيت. في النهاية صار مثل خروف. يفعل كل ما أطلبه منه، لا يخالف لي أمراً..

Twitter: @ketab_n

«تعال في الساعة كذا»

«كما ترغبين يا حلوتي».

«اذهب في الساعة كذا!».

«كما تشائين يا صغيرتي».

لعنة الله عليه! مادام يجيد استخدام كلمات مثل «ياحياتي، يا حلوتي، يا صغيرتي، يا روحي، يا عزيزتي» فلم لم يكن يقولها لي قبل أن أركّب له قروناً؟.

ذات ليلة، وأنا في تلك الشقة نفسها فُتح الباب فجأةً! نعم، رغم كل اتصالاتي في المرة الأولى لم أستطع استقدام الشرطة الأخلاقية. لكنها جاءت هذه المرة من تلقاء نفسها. قال البعض أن دور ذاك البيت كان قد جاء في تلك الليلة. بينما قال البعض الآخر أن مديرة البيت لم تدفع الضريبة الخاصة المترتبة عليها في الوقت المحدد. كل صحف اليوم التالي كانت تكتب عني:

«مدام ن. ف، وهي زوجة رجل أعمال معروف، ضبطَتْ متلبسة في وضع مخجل في بيت دعارة!».

بعد ذلك صارت مدام ن.ف. مشهورة. راحت الصحف تردد اسمي بكثرة. وأكثر ما كان يزعجني أن امرأة تدعى «نرمين فرطنه» كانت تزعم أنها هي مدام ن.ف. كلما ذكرت اسمها الجرائد. صحيح أنها لم تكن تقول شيئاً واضحاً، لكنها كانت تلمّح هنا وهناك أنها هي التي تعرّضت للمداهمة في تلك الشقة، وذلك لتدفع زوجها إلى الغيرة عليها. أنا اسمي «ناريمان فرتكيز»، وهي «نرمين فرطنه». ولا أريد أن أغمط أحداً حقه. قد تكون هي بدورها ضبطت في مكان ما. هذا شأنٌ يخصها. ولكن عندما كانت الجرائد تكتب عن «مدام ن.ف. من المجتمع الراقي» كنتُ أنا المقصودة.

أتسأل ما الذي فعله زوجي بعد ذلك؟ وماذا بوسعه أن يفعل؟ في أول مداهمة تعرضتُ لها قلتُ له: «لم يكن بيني وبينه أي شيء!» وأقسمتُ له بذلك. وهو يصدق عندما أقسم له. قال لي: «لحسن الحظ يا عزيزتي أننا

Twitter: @ketab_n

قمنا بالمداهمة في الوقت المناسب. لو تأخرنا لكان شرفي تمرّغ في الوحل...» صار بعد ذلك مطيعاً، لا يرفض لي أمراً. وكلما نشرت الصحف عني بشيفرتي "مدام ن.ف" كان يرتمي على قدميّ ويبكي ويتذلل إليّ قائلاً: «أرجوكِ يا حبيبتي لا تذهبي إلى تلك الشقة. افعلي في بيتك ما يحلو لك، ولكن لا تذهبي إلى هناك..».

ماذا؟ أتسألني إن كنتُ لا أزال أحبه؟.. طبعاً لا. في البداية كنتُ أحبه بجنون. لكن الحمار لم يُقدّر ذلك. هل يُحَبّ رجلٌ يتذلل كالكلاب ويرضى بكل شيء؟ قديماً كنتُ أتوسل إليه قائلة: «أرجوك لا تشرب خارج البيت. اشرب في بيتك. وادعُ أصدقائك أيضاً إن شئت!» وأزين له موائد العشاء الفاخرة. فيما بعد صار هو يتوسل إليّ قائلاً: «أرجوك يا عزيزتي لا تبقي في الخارج. افعلي ما يحلو لك في بيتك... وادعي من تشائين إلى البيت!» وبيديه بدأ يحضر موائد الشرب والسمر. وفوق ذلك كان غيوراً جداً.. «افعلي ما تشائين. ولكن بعلمي... لا تفعلي ذلك من وراء ظهري!» بالطريقته الغريبة في الغيرة! في الحقيقة لم يكن ما أشعر به تجاهه حباً، بل مجرد اعتياد. وحتى لا ينهار عش الزوجية بدأتُ أفعل في البيت.وبذلك ارتاح زوجي أيضاً. لقد اعتاد.

كانت عمتك تشتغل في شقتنا. طبعاً كانت متزوجة... كانت أحياناً تأتي مع زوجها... كانا صديقا عائلة لنا... لا أعرف أخبارها بعد تلك الفترة. سمعتُ أنها انتقلت إلى أنقرة وفتحت بيتاً هناك. لكنني لم ألتق بها. كانت امرأة جيدة. ولها أيادٍ بيضاء عليّ.. آه يا بتوش آه.. كم اشتقتُ إليها! مضت سنوات.. أرجوك، إذا وصلتَ إليها أخبرها أن تأتي إليّ.. ولتكتب لي رسالة إن كانت بعيدة.. لَكَم أحبها..

ابحث عن رجل يدعى «إبراهيم مرتك زاده بيك».. سوف يعرف الطريق إليها حتماً. كانوا يسمونها في تلك الأيام «بتوش الحلوة».. وبالفعل كانت حلوة.. هذه حال الدنيا وهذه سخرية الأقدار.. المرأة التي كان الوسط المخملي يعبدها غابت في النسيان...

Twitter: @ketab_n

لِمَ نهضتَ؟ أأنتَ ذاهب؟ ولِمَ العجَلَة؟.. مع السلامة.. أنتظر أخبارك حتماً.. مع السلامة...

خبر في جريدة

- كل من يسمع عن قصة العشرين مليون يدّعي أنه أبوها

- أقرباء وردة يبحثون عنها في كل مكان من أجل تقاسم الميراث المقدر بعشرين مليون.

إزمير - وكالة الأنباء التركية - من الواضح أن الميراث المقدّر بعشرين مليون دولار والذي تركه لقريبته المعروفة في الوسط المخملي باسم بتوش الحلوة والتي اشتهرت في أوروبا وأمريكا على أنها صيادة المليونيرية، عمُها الذي توفي مؤخراً في مصر.. من الواضح أن هذه القضية مرشحة لتتخذ أبعاداً أكثر إثارة...

منذ كانت صغيرة، وكان اسمها (وردة) انتقلت بتوش الحلوة من قريتها إلى استانبول. كانت في البداية امرأة شوارعٍ عادية. بعد مرورها بالعديد من المغامرات، تمكنت من أن تصنع لها اسماً لامعاً بين شخصيات المجتمع الراقي المرموقة. وبفضل ذكائها وجمالها سرعان ما وطّدتْ أقدامها في زبدة الزبدة من الوسط المخملي في أوروبا. كما اكتسبت لقب أميرة بعد زواجها من أمير عربي. ثم، ولسبب غير معروف غادرت بتوش الحلوة عالم الأضواء وانزوت في مكان لا يعرفه أحد. الآن بعد أن انتشر خبر الميراث الذي تركه لها عمها المتوفّىً في مصر، والبالغ، حسب التقديرات، أكثر من عشرين مليون دولار، تحرك أقرباؤها وأهل قريتها، وكثيرون يدّعون قرابتها. هؤلاء الأقارب الذين حتى لا يعرفون شكل قريبتهم المزعومة (وردة) راحوا يبحثون عنها في كل مكان. في هذه الأثناء تطورت أحداث مثيرة. وادّعى ثلاثة من الرجال المسنّين أبوتهم لوردة وطالبوا بحصتهم في الميراث. قال واحدٌ منهم: «حبلت بها أمها وهي زوجتي. ثم هربت إلى رجل يدعى يعقوب وهي في شهرها السابع من الحمل». ولدت «وردة» أثناء وجودْ أمها في عهدة يعقوب هذا على أساس زواج عرفي. عندي شهود على

Twitter: @ketab_n

أنني أبوها الحقيقي. وعدا هؤلاء الثلاثة، ظهر آخرون يدّعون أبوّتها أيضاً. إن عدد المطالبين بحصة في هذا الميراث يزداد يوماً بعد يوم. حتى وصل عددهم إلى خمسة وعشرين شخصاً حتى الآن. لكنهم لن يصلوا إلى شيء مادامت الوارثة الحقيقية مختفية. ولا يعرف أحد إن كانت حية أم ميتة.

امرأة من أصحاب السوابق المكررة تدعى يرطق ليلى

لو أن اسم المرأة التي تبحث عنها معروف، كنا بحثنا في سجلات المستشفى ووجدناها.. لو تعطيني طرف خيط.. أهي بنت عائلة؟.. لا تستغرب.. لأنهم يأتون إلى هنا بنساء عندهن أسرة وأولاد، يتم ضبطهن في الفنادق المسماة سياحية أو حتى في الشقق الخاصة، في أوضاع غير لائقة. طيب.. ألم يعطِكَ ممتاز بيك أية معلومات عنها؟.. أستغفر الله.. إن رغبات ممتاز بيك هي أوامر عندي..

لو كنتَ تعرف، بصورة تقريبية، متى جاءت إلى مستشفانا.. تقول أنها كانت هنا العام الماضي؟ لو تعرف أيضاً لبحثنا عنها في الدفتر.. وكيف تبدو هيأتها، شكلها؟.. لا تعرف؟.. تقول أنها ـ حسبما سمعتَ عنها ـ عصبية وعنيفة؟ ولكن كل نزيلات هذا المستشفى يتصفن بالعصبية والعنف.. كم عمرها؟ فوق الأربعين؟ هوه! إنه عمرٌ متقدم جداً على مهنة كمهنة هؤلاء.. إنها في وضع بائس إذن.. أهو أول نزول لها في مشفى أمراض الزهري؟ هه! تقول أنها دخلت وخرجت كثيراً؟ قل إذن أنها من أصحاب السوابق.. من السهل الوصول إلى واحدة مثلها.. حتماً يوجد من يعرفها بين نزيلات مشفانا.. أما من معلومات أخرى؟ يبقى الأمر صعباً للغاية يا بنيّ.. تقول أنها تعرج قليلاً؟ وقالوا لك أن تحت عينها اليسرى أثر جرح يمتد حتى شفتيها؟ الآن عرفتها.. طبعاً أعرفها.. إنها زبونة دائمة عندنا.. قه قه قه! يسمونها هنا «يرطق ليلى» أو «ليلى المرقّعة». وذلك بسبب الندبة العميقة التي على وجهها. كل نساء السوق يعرفنها بأحد هذين الاسمين.. إنها امرأة آفة قادرة.. إن جيشاً كاملاً لا يقدر على

Twitter: @ketab_n

مجابهتها يا سيدي. حتماً لها ملف سوابق في سجلات الأمن. أما ملفها الأساسي فهو عند الشرطة الأخلاقية...

لكنها لم تأتِ إلى هنا العام الماضي. آخر مرة كانت منذ عامين.. نعم، منذ عامين. على كل حال سنلقي نظرة على سجل الدخول ونتأكد، هذا سهل. أنتَ تريد أن تصل إلى مكان إقامتها؟ إذن انتظر قليلاً. النزيلات يعرفنها جيداً. يا خالد أفندي! تعال هنا يا خالد أفندي!.. اطلب لي الست حليمة.

كانت آخر مشكلاتها هنا شيئاً مرعباً! حتى الآن يقشعر بدني عندما أتذكر. كم من الفجائع والجرائم والمشاجرات الدامية رأيتُ هنا طوال سنوات.. لكن ما فعلته يرطق ليلى يفوق كل تصوّر. سأحكي لك..

جئتِ يا ست مليحة؟ تتذكرين يرطق ليلى، أليس كذلك؟.. نعم، هي نفسها. أتعرفين أين هي الآن؟ أرجوك اذهبي إلى المهجع واسألي النساء هناك. علّ إحداهن تعرف مكانها. حتماً ستعرف إحداهن. اسأليهنّ واحدةً، واحدةً..

نعم يا سيدي. أعرفها جيداً. يقال أنها كانت جميلة جداً في صباها. ولكن حتى وقوعها الأول هنا كان جمالها قد انطفأ. ولكن يقول المَثَلْ: حتى لو انهار الجامع، يبقى المحراب في مكانه.. وهي كذلك.. مع الزمن ساءت أحوالها وانحدرت. غَلَظَ صوتها وصار أشبه بالخوار المكتوم. قَبَحَ وجهها بشدة.. في حين أنها، قديماً، عندما كانت تنزل في المستشفى، كان الزوار لا ينقطعون عنها، يشكلون طابوراً عند باب المستشفى. أنت لا تعرف هذه المستشفى... إذا نزلت فيها امرأة جميلة «ماشي سوقها» وتشكل رأسمالاً فإن مديرات بيوت الدعارة يتسابقن لإقناعها.. ويتشاجرنَ فيما بينهن للتفاهم معها. في أيام عزها كانت كل «المعلمات» يتصارعن عليها. يغمرنها بالهدايا والنقود كل يوم... وكانت إمرأة شبعانة وسخية. كانت توزع ما يأتيها على النزيلات. وتدفع البقشيش بسخاء للممرضات والخادمات ثم أنها كانت امرأة مثقفة، تتقن عدداً من اللغات. كانت

Twitter: @ketab_n

تتحدث إلى الأطباء هنا بفرنسيةٍ يعجزون عن مجاراتها فيها. نعم كانت من عائلة مرموقة يا سيدي. إيه... وحده الله لا يسقط.. رأينا الكثير هنا يا سيدي. على المرء ألا يقول ماذا كنت، عليه أن يقول إلى أين المآل؟

اسمح لي قليلاً لأنظر في سجلاتنا القديمة... الآن... يا خالد أفندي... أحضر لي سجلات دخول السنوات الثلاث الأخيرة...

آخر مرة جاءَت فيها، كان حالها سيئاً للغاية.. لقد انحدَرتْ فجأة.. ولم يأتِ لزيارتها أحد. كانت تبقى صامتة ووحيدة طوال الوقت. لا تكلم أحداً. ولكن إذا انفعلت فلا أحد يستطيع التحكم بها. أعرف ذلك من عددٍ من مشاجراتها التي شهدُتها. إن احمرّت عينها فهي لا ترى أحداً، قادرة على التغلب على مهجع من النساء.

أحضرتَ السجلات يا خالد أفندي؟.. ينبغي أن نجد اسمها في أحد هذه الدفاتر. لنر.. سوف نجده الآن.. اسمح لي قليلاً.. هه. ها هو اسمها. ألم أقل لك؟ سأقرأ لك ما هو مكتوب هنا:

«... هويتها الحقيقية غير معروفة، وتقول في إفادتها انها لا تملك أوراقاً ثبوتية ولا قيد في السجل المدني. معروفة في محيط الشرطة الأخلاقية وملفاتها باسم يرطق ليلى أو ليلى المرقّعة، وهي من أصحاب السوابق المكررة. في تاريخ (كذا) في حوالي العاشرة والنصف ليلاً تم إلقاء القبض عليها في وضع مناف للآداب العامة مع رجل في حديقة تقيم بين الأشجار، سُلمَتْ إلى شرطة الآداب وتم تنظيم الضبط والفذلكة* الضروريين بحقها...».

هويتها الحقيقية غير معروفة. لأقل لك شيئاً يا سيدي. تحدث كثيراً مثل هذه الأمور هنا.. إن بعض النساء اللواتي ترسلهن الشرطة الأخلاقية إلى هنا تخفين هوياتهن الحقيقية إن كنّ من عائلات مرموقة أو متزوّجات. لكن الشرطة قادرة على التثبّت من هوياتهن. أما عن يرطق ليلى، فإني أرتاب بها مادامت الشرطة لم تتوصل إلى هويتها الحقيقية... أأنت أيضاً

---

* الفذلكة هي المقدمة – الديباجة التي تتكرر في مطلع الأوراق الرسمية.

Twitter: @ketab_n

ترتاب؟ ربما الشرطة تبحث عنها لهذا السبب. من المؤكد أنها من عائلة مرموقة من المجتمع الراقي. وهي تخفي اسمها حتى لا يعرف أحد عائلتها. أو ربما تخلت عنها العائلة لأنها وصلت إلى هذه الدرب.. من يعلم أي سبب يدفع بامرأة مثقفة مثلها إلى إخفاء اسمها؟

سأحكي لك الآن آخر حادثة لها. بعد تلك الحادثة لم تعد إلى هنا. ولم أراها قط.

كانوا قد جلبوا إلى المستشفى طفلةً في الثالثة عشر من عمرها. كان قد غرّر بها رجل. وعند المعاينة تبين أنها مريضة. لم يكتفِ باغتصاب الطفلة، بل نقل إليها مرضه أيضاً. بدأنا بعلاج الطفلة.

صحيح أن عمرها صغير، لكنها كانت جميلة وذات جسد نام. من الطبيعي في مثل هذه الحالات أن تدّبق مديرات المباغي وسمسارات النساء على طفلة مثلها، تغرقنها بالهدايا لاجتذابها وتشغيلها عندهن بعد خروجها من المستشفى.

أخذتها يرطق ليلى في حمايتها ورعايتها. سمعتُ وقتها أن غرضها كان تشغيل البنت لحسابها. لِمَ أكذب عليك؟ صدّقتُ ما يقال. لأن هؤلاء القحاب عندما يتقدم بهن العمر ولا يعدن قادرات على العمل، يلتقطن طفلة شابة ليتعيّشنَ من خيرها. فيما بعد، أي بعد وقوع الحادثة التي سأحكيها لك، فهمنا أن الأمر لم يكن كذلك. الفتاة الصغيرة هي التي أخبرتنا بحقيقة الأمر لاحقاً. قالت يرطق ليلى للفتاة - ولا أعرف مدى صدق هذا الكلام. سمعناه من الفتاة نفسها - أنها كانت متبناة عند أسرة. وفي سن مبكرة غرر بها رجل ثم القي بها في الشارع. هكذا كانت تحكي للفتاة قصتها وتلقنها الدروس. إن سألتني رأيي أقول كذب. أعتقد أنها كانت تكذب على الفتاة لتخيفها وتبعدها عن السمسارات والقوادات. أقول كذب لأن ليلى لا يمكن أن تكون فتاة تبني مسكينة. صحيح أنها عديمة الحياء عندما تنفعل، لكنها عندما تتكلم بشكل طبيعي تبدو سيدة عالية الثقافة والكياسة... وكما قلتُ لك فهي تتقن عدة لغات أجنبية. أتوجد يتيمة متبناة بهذه

Twitter: @ketab_n

المواصفات؟ هي تدّعي ـ كما أخبرتْ الفتاة ـ أنها قروية الأصل وأن زوجة أبيها أجبرَتْ أباها على إعطائها لأسرة دكتور. كانت تقول للطفلة: «أنا حتى لا أعرف اسم قريتي. فقط أتذكر بيتنا والنبع الذي وراءه...» الفتاة هي التي حكت لنا هذه الاشياء بعد وقوع الحادثة.

ذات يوم، وكان المساء يقترب، والنساء يتنزهن في حديقة المشفى وأنا في غرفتي. جاؤوا برجل يحيط به شرطيان. كان هو الذي غرر بتلك الفتاة. وقد جاؤوا به ليواجهوه معها. طلبنا الفتاة إلى هنا. ما أن رأته حتى بدأت تبكي وقالت «هذا هو..». تم تنظيم الضبط. أخرج الشرطيان الرجل. وقبل مرور دقيقة أو اثنتين سمعتُ صراخاً عظيماً... نظرتُ من النافذة فرأيتُ ليلى تنقض على ذاك الرجل غير آبهةٍ بالشرطيين. وصراخ الرجل يشق السماء.

هرعنا جميعاً إلى مكان الحادث. لكننا لم نستطع تخليص الرجل من بين يديها. نعم يا سيدي، تلك المرأة المريضة الناحلة تحولت إلى وحش كاسر. لا الشرطيان ولا الرجال الآخرون الذين جاؤوا للنجدة استطاعوا السيطرة عليها.

عندما سمعت ليلى بقدوم مفترس الطفلة، خبّأت عدة شفرات حلاقة بين أصابعها، وهجمت عليه بعد خروجه من غرفتي وراحت تشطبه أينما صادفت يداها. كانت تذبح الرجل والدماء تنفر من أنحاء جسمه وتغطي أرض الممر.. كنا حوالي عشرة رجال ولم نتمكن من تخليصه منها. وهو يصرخ كثور مذبوح ولا يستطيع التخلص منها. قطّعت الرجل كما تفرم بصلة، ولم تتفوه بكلمة أو صوت. لأقل أنا عشرة دقائق يا سيدي، ولتقل أنت ربع ساعة.. كل الأطباء والخدم والشرطة يحاولون السيطرة على ليلى. لكنها وقد جاءتها قوة من السماء كأنها قوة عمالقة. كانت تبعد بيدها من يحاول التدخل.. لقد أصبحت وحشاً حقيقياً...

كانت تذبح الرجل على رؤوس الأشهاد كما تذبح العجول في المسالخ.. أخيراً استطعنا دفع الرجل إلى خارج المستشفى وإنقاذه. نقلوه إلى مشفى

Twitter: @ketab_n

بسيارة إسعاف. ولا أعرف هل مات أم بقي على قيد الحياة. حتى لو لم يمت فلا خير فيه بعد تلك الحادثة. إنه نصف رجل. كانت الدماء تغطي وجه ليلى ويديها وثيابها. جلست عند ذاك الجدار وتأوهت من القلب: «أوووووه!».

ظلت صامتة وقتاً طويلاً. قال لها الطبيب المناوب:

-أحسنٌ ما فعلتِ يا ليلى؟ لقد جلبتِ لنفسك مشكلة.

سبق وقلتُ لك أن علاقتها بالأطباء كانت جيدة. عندما سمعت كلام الطبيب غرقت في موجة ضحك صاخبة. قالت:

– أنا ميتة أصلاً ـ لِمَ أخاف من المشكلات؟

واستمرت في ضحكها الهستيري الصاخب. قال الدكتور للموجودين:

– لا تلمسوها.. اتركوها في حالها...

وبعد الضحك بدأت تبكي. أخذوها إلى المهجع.

كانت تلك رؤيتي الأخيرة لها. لا أعرف إن كانوا سجنوها بسبب تلك الحادثة. لم تعد إلى هنا بعد ذلك.

تفضلي يا ست مليحة... هل سألت عنها؟ وماذا قلنَ؟ أيعرفنَ مكانها؟.. لا يعرفنَ؟ إذن يعرفنها ولكن لا يعرفن أين هي الآن.. منذ مدة طويلة لا تشتغل.. طيب يا ست مليحة... أشكرك. بإمكانك أن تنصرفي.. يا للأسف. لم أستطع مساعدتك.. أين ستجدها يا ترى؟ و ماذا أقول لك يا سيدي؟ ربما تكون ماتت.. ربما ماتت وتخلصت من بؤسها..

مع السلامة يا سيدي، مع السلامة.. أرجوك أن تبلغ احترامي لمتاز بيك العفو يا سيدي. هذا واجبنا.. مع السلامة.. مع السلامة..

الرسالة التي تركتها فتاتان في غرفة عُزّاب

إنها مغامرة قديمة يا سيدي، قديمة جداً.. قصة من قصص الصبا. لا أدري إن كنتُ قادراً الآن على تجميع شتات ذهني.. لقد مر على ذلك

Twitter: @ketab_n

حوالي خمسة وعشرين عاماً. في السنة الثانية لي في كلية الطب أدركتُ أنني لن أتمكن من المتابعة فانتقلتُ إلى كلية الحقوق. مات أبي في السنة نفسها، ولم يبق من يعيلني.. بقيتُ وحيداً وسط استانبول العملاقة.

في تلك الفترة تعرفتُ ببتول خانم التي تسأل عنها. ما أغرب ذلك! تصوّر أنني نسيتُ اسمها قبل أن تذكرني به، مع أني لا أزال أذكر اسم زوجها! لقد ضعفَتْ ذاكرتي إلى حد كبير.

نعم، ماذا كنتُ أقول؟ اسم زوجها؟.. يا سلام.. هاقد نسيتُ اسمه هذه المرة.. هه، لقد تذكرت: "كاظم بيك الفحل".. نعم، هكذا كانوا يسمونه. كان الجميع يعرفه. إذا وجدتَ طريقك إليه.. ولكن ربما يكون قد مات الآن.. كان عجوزاً حتى في تلك الأيام. ولكن ثمة من يعرفه حتى الآن. بالطبع الجميع يعرف الست بتول أيضاً. الحق أن سبب نسياني لإسمها هو أنهم كانوا يلقبونها بـ «الطفلة الشقراء».. ما كان أحد يناديها ببتول خانم أو ما إلى ذلك. يجب أن تسأل عنها باسم «الطفلة الشقراء». ومن يعلم ما حدث الآن لطفلة ما قبل خمسة وعشرين عاماً الشقراء؟ الأرجح أنها لاعادت «طفلة» ولا «شقراء»..

نعم.. ماذا كنتُ أقول؟ قلتُ أنني بقيت في استانبول وحيداً عندما مات الوالد رحمه الله. كان لي صديقٌ من إزمير، شاباً طيباً لكنه كثير المشاكل... كان طالباً في الجامعة منذ حوالي عشر سنوات. يئس منه والده وصار يمتنع عن مده بالمال.

صحيح، ماذا كنتُ أحكي لك؟ عن الست بتول؟ نعم، نعم. لا تؤاخذني يا سيدي. لقد أصبت منذ بضع سنوات بمرض التهاب السحايا، وأصبحت ذاكرتي واهنة جداً... أين وصلنا؟ كنتُ أحدثك عن إزمير أليس كذلك؟ نعم، كنتُ أحدثك عن صديقي الأزميرلي.. كان هذا يكتب الرسائل لأبيه مدعياً أنه مريض وبحاجة لعملية جراحية، حتى يشفق عليه ويرسل له نقوداً. كان العجوز لا يستطيع المقاومة، فيرسل المال إلى إبنه بلا إبطاء.. كان صديقي شاباً سخياً والحق يقال، وقد ساعدني كثيراً. هو الآخر لم

Twitter: @ketab_n

أقابله منذ سنوات. ولكن ما الذي كنتُ أحدثك عنه؟ هـه.. كنتُ أريد التحدث عن الطفلة الشقراء..

عندما كان صديقي يفلّس، كان يسألني: «أين سأجري عمليتي الجراحية الجديدة؟». فإذا قلتُ على سبيل المثال: «اعمل عملية الزائدة» كان يرد علي: «أبي لا يرسل إلا قليلاً من المال من أجل الزائدة». فإذا أشرتُ عليه بإجراء جراحة في الأذن، قال لي «لكنني أجريت عمليتين في كلتا أذنيّ..» ذات يوم قال لي:

– تعال نسكن في بنسيون، أنا وأنت. لقد رأيت بنسيوناً جيداً في «بيوغلو». ما كان اسم صديقي هذا. ياإلهي! ينسى المرء حتى اسم أقرب صديق إليه مع مرور الزمن.. اسمه شـ... شـ... شـ... هـه، تذكرت: أشرف. نعم أشرف.

– لكنك تعرف يا أشرف أن جيبي فارغة. من أين لي أن أدفع أجرة بنسيون وأنا لا أجد ما آكل به؟

– أشِر عليّ بجراحة خطيرة ولا تهتم بأمور المال.

قلتُ له على سبيل الدعابة.

– نحن الآن في فصل الشتاء. والثلج في كل مكان. اكتب له أنك انزلقتَ فوق الثلج فانكسر عمودك الفقري...

انكب شريف فوراً... لا... أقصد أشرف... انكب على كتابة برقية هذا نصها: «انزلقتُ فوقعْت. سيجبّرون عمودي الفقري في الجبْس. التفاصيل في رسالة ستصلكم قريباً».

لم نكن نملك أجرة البرقية. استدان أشرف من أحد الأصدقاء أجرة البرقية وأرسلها. ثم ألحقها برسالة مؤثرة ادعى فيها أنه يمكن أن يصاب بتحدّب مستديم إن لم يعالجه طبيب متخصص. بعد أربعة أيام تماماً وصلت حوالة بمبلغ مئتي ليرة، وكان وقتها مبلغاً محترماً. ذهبنا من فورنا إلى «بيوغلو»، استأجرنا غرفةً في بيت، في أحد الأزقة الجانبية من «طرله باشي». كانت الغرفة مفروشة، في الطابق الثالث، تطل على الزقاق. لماذا

Twitter: @ketab_n

حكيتُ لك كل هذا؟ كيف وصل بنا الحديث إلى «طرله باشي»؟ كنتُ أريد التحدث عن شيء مختلف.. هه.. تذكرت..

بعد بضعة أيام وصلت من والد أشرف.. رسالة كالسم لو شم الكلب منها كلمتين لجن جنونه. كان يبدأ رسالته بهذه العبارة: «ولاك يا كذا ابن كذا!». لقد تذكر العجوز، بعد أن أرسل المئتي ليرة، أن ابنه كان قد انزلق العام الماضي أيضاً وانكسر عموده الفقري.. وبهذه العبارة كان يختتم رسالته: «لن أرسل لك قرشاً واحداً بعد اليوم حتى لو كتبت تخبرني بأنك مت وتريد تكاليف الدفن!» المال الذي في الجيب سرعان ما ينتهي. لقد فصّلنا ثياباً لنا، وخلال أسبوعين انتهى المال تماماً.

ذات صباح خرج أشرف.. عفواً... نعم، كان اسمه أشرف.. خرج من البيت، بينما بقيت أنا في فراشي لأنني غير قادر على الحركة بسبب الجوع. يبدو أنني غفوت أو كنتُ في غيبوبة. في ساعة من ساعات الليل لكزني أشرف وقال:

– انظر ما أتيتُ به لك. ستموت هنا جوعاً من غيري.

أخرج من جيوبه أشياء ملفوفة بورق ملوث بآثار الدسم. قطع كاتوه، بسكويت، سندويتشات صغيرة.. بندق.. فستق... وما إلى ذلك. انقضضتُ على الطعام.. استعدتُ رشدي بعض الشيئ. سألته:

– كيف اشتريتَ كل هذا الطعام؟ هل أرسل لك أبوك شيئاً؟

– تأخر الوقت كثيراً. أنا نعسان. غداً صباحاً سأحكي لك.

كان ثملاً. تمدد في فراشه بكامل ملابسه. قال متمتماً:

– لا جوع بعد اليوم. لقد وجدتُ طريقة مثالية نتلقط بها رزقنا.

ولكن لِمَ أحكي لك يا سيدي؟.. آه نعم، من أجل الوصول إلى الطفلة الشقراء. حسناً.. سأكمل لك:

أكلنا ما جلبه في اليوم التالي أيضاً. وما إن حل المساء حتى قال لي:

– هيا تحرك!

– إلى أين؟

Twitter: @ketab_n

– تعال معي. وسترى بنفسك.

دلفنا أحد الكازينوهات الفخمة. قال لي:

– هيا كل واشرب بقدر ما تستطيع..

– هل سنهرب دون أن ندفع؟

– لا. لن نهرب. ثمة عرس هنا الليلة.

– هل هو عرس أحد أقربائك؟

– ليس لي أقرباء في استانبول.

– هل العريس من أصدقائك؟

ما كان يعرف العريس ولا العروس. أخبرني أننا نجوع لأننا أغبياء. كل ليلة يقام أكثر من خمسين عرساً في أماكن مثل هذا الكازينو. لا جوع بعد اليوم! سوف نحضر العرس الذي يعجبنا في المكان الذي يعجبنا كل ليلة. وسوف نأكل حتى التخمة.

–ماذا لو عرفوا أننا غرباء؟

– من سيعرف وكيف يا أخي؟ سيظن أهل العروس أننا من طرف العريس، والعكس بالعكس.. هؤلاء لا يعرفون كلَّ أقرباء الطرف الآخر منذ ليلة العرس.. كل واشرب واستمتع بوقتك. لا تشغل بالك بشيء.

وبالفعل، هذا ما فعلناه ليلتها. بعد أن أدى العروسان رقصتهما الأولى بدآ بمصافحة الحاضرين. وكانت العروس تقبلهم أيضاً، وصلا إلينا، باركنا لهما وتمنينا لهما حياة زوجية سعيدة. قبلتني العروس من خدي. ربما ظنَّتْ أنني واحد من أقرباء زوجها.. العريس قبلني هو الآخر، ربما ظناً منه أنني من أقرباء زوجته.. تباوسنا كثيراً يا سيدي... ثم انتقلنا إلى مائدة الطعام.. الخدم يتحركون كالنحل.. كل قدر ما تستطيع.. لا أحد يعرف أحداً. ومن أين لهم أن يعرفونا؟ ثم بدأ الرقص. قال لي شاكر.. عفواً.. أقصد أشرف:

– سأراقص تلك الفتاة. ابحث لك عن واحدة.

Twitter: @ketab_n

ومن فوره اقترب من الفتاة، دعاها للرقص، ثم بدآ يرقصان على البيست. كنتُ ثملاً إلى درجة أنني أمسكتُ بأول امرأة صادفتها وجررتها إلى حلبة الرقص. كانت امرأة بدينة ومتقدمة في العمر بعض الشيئ. زخ منها العرق بغزارة أثناء الرقص. وكان يفوح منها عطرٌ أشبه برائحة مسحوق الطهارة الذي يستخدمونه في الحمام لإزالة الشعر. ياله من حظ! كانت هذه أم العروس. سألتني:

-أنت قريب عريسنا الجديد؟

– نعم، أنا صهره! ، قلتُ لها من غير اكتراث. بلغَتْ بها الدهشة مبلغاً عظيماً. قالت:

– صهر من؟

أدركتُ أنني تورطت. ولكن كيف لي أن أصلّح الأمر؟

– أنا يا سيدتي صهر شقيق زوجتي. وهو بطبيعة الحال ابن حمي.. وأخته تكون زوجتي.. إذن فأنا صهر شقيق زوجتي... هل استطعتُ شرح الأمر لك؟

ولكن لماذا أحكي لك هذه الأشياء؟ كنتُ سأصل بالكلام إلى شيء ما، ولكن ما هو؟ نعم، نعم.. سأحكي لك عن الطفلة الشقراء.. ولكن أين وصلنا؟.. إلى المرأة التي كنتُ أراقصها؟ نعم. نعم. عندما شربكتها هكذا بحديثي قالت لي مثل كل الذين لم يفهموا أي شيء:

– نعم فهمت. ولكن ما هي قرابتك مع عريسنا؟

أطلقتُ ضحكة صاخبة. قلتُ لها:

– إن صلة القربى بيننا حميمة جداً يا سيدتي.. فتصوري..

– أأنت صديقه؟

– صديق أو قريب، لا فرق. لكننا أكثر حميمية من الأصدقاء والأقرباء.

كنتُ أتمنى أن تتوقف الفرقة عن العزف لأنجو من هذا المأزق. على كل حال تدبرت الأمر معها خلال الرقص.. استمتعنا جيداً في تلك الليلة. عدنا

Twitter: @ketab_n

إلى البيت قرابة الفجر. راح شاكر يخرج من جيوبه الأطعمة والمازوات.. شاكر؟ أيُّ شاكر؟ لا. لا. أنا أقصد صديقي الإزميري ذاك... أعني أشرف.

مع الزمن ازدادت خبرتي واعتدتُ هذه الطريق. تسلّطنا على صالونات الأعراس. كل ليلة في مكان مختلف. نأكل ونشرب ونلهو حتى الفجر. حتى أصحاب الملايين لا يعيشون مثلنا. ولم نكن نرضى بأي عرس. كنا نختار أكثر الفنادق والكازينوهات فخامة. وكان الأمان يزداد مع ارتفاع مستوى العروسين. وفي تلك الأعراس اكتسبنا عدداً من الأصدقاء والمعارف أيضاً. والبعض منهم كان يدعونا إلى بيته. وكنا نلبي الدعوات.

ذات ليلة حدث ما كاد يفضح أمرنا. كنا قد شربنا كثيراً. في ساعة متأخرة من الليل اقترب مني العريس انتحى بي جانباً ليسألني:

– المعذرة. هل تعرف هذا الرجل؟

وأشار إلى صديقي أشرف.

– وكيف لا؟ طبعاً أعرفه؟

– إنه يعانق جالا ويقبلها باستمرار. فهمنا أنه قريبها. ولكن هذا يفوق الاحتمال! لم تعجبني طريقته في التقبيل.

– ومن هي جالا؟

يالغبائي! نظر إليّ العريس باندهاش:

– جالا يا عيني.. زوجتي..

– آمو جالا.. عروستنا يعني.. ولِمَ لا يقبّلها.. ماذا في ذلك يا أخي؟ تصورتُ الأمر يتعلق بجالا أخرى.. لذلك توترت. اسمح لي سأذهب وأقبّل جالا وأبارك لها...

بيدي ضربتُ على خدّيه بتودد وقلتُ له غامزاً بإحدى عينيّ:

– أم أنك تغار عليها منا؟ ومنذ الليلة الأولى.

–لا.. أيعقل ذلك؟ العفو..

– وماذا أسمع؟ أتعني أننا لن نستطيع حتى نحن تقبيلها بعد الآن؟

احمز وجهه وارتبك كثيراً.

Twitter: @ketab_n

– أنتم أقرباؤها، أليس كذلك؟

– طبعاً أقرباؤها... ماذا يكون أولاد عم ابن أخي عم والد جالا؟ أليسوا أقرباءها؟

من شدة اضطرابي خلطتُ هكذا في الكلام وأنا لا أعرف ما أقول. نظر الشاب في وجهي مطولاً. ثم انصرف بسرعة. عندما رأيتُ أن الوضع خطر بدأت أبحث عن شعبان.. أي شعبان؟ أقصد أشرف... بعد بحثٍ طويل وجدته ملتصقاً بالعروس يقبلها وهو يقول لها مجدداً: «ليسعدكِ الله يا صغيرتي الحلوة!». من الصعب أن أسمي ما كان يفعله تقبيلاً. كان يتمثّل الفتاة كما لو أنه يستنشق عطراً... سحبته من ردنه، وفصلته عنها بصعوبة:

– لنهرب بسرعة. سوف نتورط في مشكلة، قلتُ له هامساً.

– لن أذهب إلى أي مكان قبل أن أملأ جيوبي من المائدة.

– لا عليك. لقد ملأتُ جيوبي. هيا بنا.

– انتظر لنأخذ زجاجة ويسكي..

كان ثملاً.. بصعوبة بالغة جرجرته خارجاً ونجونا بجلدنا. ولكن لِمَ حكيتُ لك كل هذا؟ هه! للوصول إلى الطفلة الشقراء. حسناً. ذات ليلة، أثناء حفلة عرس جديدة، تعرّفنا على شقيقتين. بالطبع لم نعرف عنهما شيئاً. وما أسميه تعارفاً أننا راقصناهما بجنون حتى الصباح. أنا راقصتُ الكبيرة. وصديقي راقص الصغيرة. كانت الكبيرة تدعى بتول. عرفنا لاحقاً أنها هي «الطفلة الشقراء».

عندما حل الصيف تدهورت أوضاعنا. لأن عدد حفلات الزفاف ينخفض في موسم الصيف. أما في الشتاء فكنا نعيش كالملوك. حتى مصاريف التدخين كنا نؤمنها عن طريق الأعراس. كنا نبيع زجاجات الويسكي والمشروبات التي نسرقها من الأعراس. فنشتري بها ما نحتاجه. في الصيف حل بنا الخراب.

Twitter: @ketab_n

وصل بنا الوضع إلى درجة من التدهور قررتُ معها العودة إلى البلد. لكن الحياة يا سيدي لغزٌ مليئ بالمصادفات العجيبة. لو أنني عدتُ إلى قريتي فعلاً لتغيّر مسار حياتي بشكل كامل. كنتُ أصبحتُ مزارعاً ناجحاً. كنتُ أبحث عن أجرة الطريق. هذا وحده أخرني عن السفر.

ذات يوم، ونحن نتمشى على غير هدى. نازلين منحدر «كوموش صويي» توقّفتْ على يسارنا سيارة خصوصية حمراء فاخرة. لم نكترث لها بالطبع. لكن بوقها بدأ يصدح. وإذا نظرتُ رأيتُ وراء المقود امرأة ذات شعر أشقر بلون ريش الكناري. وبجانبها فتاة شابة... كانتا تنظران إلينا وتبتسمان. ترى من تكونان؟... فتح باب السيارة.

– سلاماً يا شباب... تفضلا.. إلى أين أنتما ذاهبان؟

صعقتُ. فقدتُ القدرة على الكلام. لحسن الحظ أن أشرف ثرثار. بدأ يكلمهما. قال لها أننا مشغولان مستعجلان ولا نستطيع الركوب معهما في السيارة. لكنه أخذ منهما رقم الهاتف ووعدهما بلقاء قريب.

قالت الشقراء وهي تتحرك بالسيارة، بعد أن ذكرت اسماً:

– مع السلامة!

اختفت السيارة. من هاتان الفتاتان؟ لقد تعرفنا على عدد كبير جداً من الناس في الأعراس. الأرجح أنهما من أولئك المعارف. وبعد تفكير طويل تذكرنا: إنها السيدة بتول وأختها. اللتان راقصناهما منذ حوالي الأسبوعين حتى الصباح.

جن جنون أشرف. قال لي:

– يا صديقي. سوف نتزوج هاتين الفتاتين.

– أفقدت عقلك يا صديقي؟ يبدو أن دماغك ذاب من الجوع.

– امش إلى البيت.

ولأننا مدينين لصاحبة البنسيون، صعدنا السلالم على رؤوس أصابع أقدامنا. عندما دخلنا الغرفة كتب أشرف رسالةً لأمه يقول فيها ما معناه:

Twitter: @ketab_n

أمي الحبيبـة:

حين تصلك رسالتي هذه قد أكون فارقتُ الحيـاة. إنـي أكتـب إليـك بصعوبة وأنيني يتصاعد من فراشي. قد لا يكون بمقدورك أن تري ابنك مرة أخرى يا أمي المسكينة. سامحيني بأفضالك يا أماه، يقول الأطباء أنني لـن أعيش أكثر من أسبوع إن لم أجرِ عملية جراحية عاجلة. سوف يستأصلون إحدى كليتيّ. ويطلبون أربع مئةَ ليرة مقابل إجراء العملية. لكـن لم يعـد لي وجه لأطلب من أبي. لأنني كذبتُ عليه كثيراً. لذلك لا ترسلي لي المبلغ يـا أماه. لم أكن جديرا بتضحيات أبي. الوداع يا أماه...

رجائي الوحيد أن تغفري لابنك التعس الـذي يعيـش أيامـه الأخـيرة في عذاب. أتوسل إليك يا أماه ألا ترسلي نقوداً. يجب أن أدفـع حيـاتي ثمنـاً لمساوئي. الوداع يا أماه..

لي طلبٌ أخير وهو ألا تُري رسالتي هذه لأبي. لا أريد لقلبه الحنـون أن يتمزق. أبداً لا أريد. ولا ترسلوا نقودا، أرجوكم!

وهذا رجائي الأخير: لا تزرعوا زهوراً على قبري. لستُ جديراً بهـا... الوداع يا أمي الحبيبة.

ابنك المعذّب أشرف

كانت رسالته مؤثرة أكـثر ممـا استطعتُ أن أنقـل إليـك. إلى درجـة أن أشرف راحِ يبكي وهـو يكتبهـا. بكيـتُ بـدوري وأنـا أقرؤهـا. صرنـا نبكـي كلانا: نوّاحــه وردادة! ومـع أنـني أعـرف أن صديقـي سـليم معـافى مثـل خنزير، فلقد خيِّل لي أنه على وشك الموت وأنا أقرأ رسالته.

- لنكف عن هذا البكاء الأحمق ونذهب إلى البريد لإيداع الرسالة..

مر يومان، ثلاثة أيام بعـد إرسـالها ونحـن لا نغـادر غرفتنـا خشـية أن يأتي ساعي البريد بالحوالة فلا يجدنا. في اليوم الرابع وصـل مبلـغ خمـس مئة ليرة. كان هذا مبلغاً كبيراً. الموظف المتوسط كان ينال راتباً لا يزيد عـن مئة وخمسين ليرة. قال أشرف:

Twitter: @ketab_n

- يجب ألا نفوّت هذه الفرصة يا صديقي. سنتزوج من هاتين الفتاتين.

- لا تفقد عقلك، قلتُ له، إنهما من أسرة مرموقة. ماذا تفعلان بصعلوكين من أمثالنا؟

- لا خيار أمامنا سوى هذا الزواج. علينا أن نضمن مستقبلنا.

- حتى لو وافقتا، فإن أسرتهما لن توافق.

- سوف نغررّ بالفتاتين يا بنيّ.

- نحن؟

- نعم نحن. سوف نضع أهلهما أمام الأمر الواقع.

- طيب. وكيف سنفعل ذلك؟

- عادي. كما يفعل كل الناس..

كان صديقي في السادسة والعشرين، وأنا في حوالي الثانية والعشرين... صحيح أننا لم نكن ساذجين غرّين. لكن عيوننا لم تتفتح جيداً بعد. أريد أن أقول، أننا لم نكن نمتلك أية خبرة باستثناء ما نسمعه عن أمور النساء وما شابه، ناهيك عن التغرير بامرأتين..

- لا أستطيع، قلتُ له.

- ألستَ رجلاً؟

- جرحني بكلمته هذه

- وإذا سجنونا بتهمة التغرير بفتاتين؟

- كلتاهما فوق الثامنة عشر يا بنيّ. نحن لن نغتصبهما. إنهما بالغتان راشدتان وتملكان حرية الاختيار والفعل. وهما فوق ذلك من عائلة كريمة. لن يدفعونا إلى المحاكم حتى لا يصبحوا مضغة في الأفواه.

- طيب، كيف ستغرّر بهما؟

- اترك هذا الأمر لي... سندعوهما إلى كازينو، نجعلهما تشربان حتى الثمالة ثم نأخذهما إلى غرفتنا في البنسيون.

- ولكن كيف نأخذهما إلى هذه الغرفة الحقيرة؟

Twitter: @ketab_n

– في حالة السكر لن تميّزا حقارة الغرفة... هناك سنكمل الشرب حتى تنطفئنا، بعد ذلك يتوقف الأمر علينا.. وعندما تستيقظان في الصباح وتبكيان على ما فقدتا، سنقول لهما: "نيّتنا جادة. نريد أن نتزوج منكما."

كنتُ خائفاً جداً. لكنني استصعبتُ ترك صديقي وحيداً في المواجهة. فنحن معاً في السراء والضراء، على الخير وعلى الشر. ووجدت لنفسي مخرجاً يجنبني المشاكل. سوف أتركه يفعل ما يشاء بالصغيرة، لكنني لن أغررّ ببتول. صحيح أن هذا سيعتبر خيانة لصديقي. ولكن ماذا أفعل؟ قد تصل الأمور إلى السجن. ثم لأعترف لك أنني كنتُ أفتقد إلى الشجاعة للقيام بذلك الأمر.. من الأفضل أن أحتفظ بشرفي ولا أتبهدل.

اتصل بهما أشرف واتفق معهما على موعد في كافتيريا. ملأنا غرفتنا بالمشروبات من كل الأنواع. كمية تكفي للقضاء على فرقة من الجيش.

لبسنا أفضل ما عندنا من ثياب، هممنا بالخروج. عند الباب جاء ساعي البريد برسالة. كانت من والد أشرف... لن أنسى كلماته القاسية أبداً. كان يبدأ هكذا: «ولاك يا ابن الكلب! ولاك يا حقير يا عديم الشرف! ولاك يا ابن الحرام!» كان العجوز قد ملأ نصف صفحة بالشتائم الجارحة...

كان الأب قد عثر بالمصادفة على رسالة أشرف لأمه، وعرف أنها أرسلت إليه خمس مئة ليرة من وراء ظهره. كان يقول في رسالته حسبما أذكر:

«إن البشر لهم كليتان، وفي حالات نادرة جداً ثلاثة. لقد أعدتُ قراءة كل رسائلك القديمة. ووفقاً لما جاء في تلك الرسائل فقد أجريتَ حتى الآن أربع عمليات زائدة وست عمليات إستئصال لوزات، ثلاث عمليات للتقرح المعدي. مرتين جبّرتَ عمودك الفقري المكسور، أجريتَ عمليتين في الأذن. وثلاث مرات استأصلتَ إحدى كليتيك. وإذا أضفنا المرة الأخيرة التي ذكرتها في رسالتك إلى أمك تكون الآن قد استأصلتَ كليتك الرابعة. ليت الله أعطاك شيئاً من الوجدان بدلاً من أربع أكباد وستة كلي وخمسة آذان... ليس لي ابنٌ مثلك. إني أرفض نبوّتك، وسوف أحرمك من ميراثي.

Twitter: @ketab_n

تطلب من أمك ألا تضع زهوراً على قبرك. إذا ظلت جثتك على وجه الأرض. أنا أدري بما سأزرع فوقه يا عديم الوجدان».

كان يكتب في رسالته التضحيات الكبيرة التي تحملها من أجل تدريسه في الجامعة. وأن زملاءه قد تخرجوا منذ سنين قضاةً وأطباء وضباط. تضايق أشرف كثيراً عندما قرأ الرسالة. قال:

– أبي على حق. وكما ترى لا خيار أمامي سوى الزواج من هذه الفتاة.

ذهبنا إلى مكان اللقاء. كنتُ أدعو إلى الله أن لا تأتيا. لكنهما بعد خمس أو عشر دقائق جاءتا...

– إلى أين نذهب؟

– إلى البوغاز..

أخذنا سيارة أجرة. دخلنا إحدى الكازينوهات في البوغاز وبدأنا نشرب ثم انتقلنا إلى كازينو آخر.. كان أشرف يسكب العرق للفتاتين حتى يقضي على مقاومتهما بسرعة. والفتاتان لا ترفضان الشرب... تشربان بشراهة. ولا تتأثران قطا! هبط الليل ونحن لا نزال نشرب ونشرب. بدأ رأسي يدور وعيناي تغيمان.. ولسان أشرف بدأ يثقل. لكن الفتاتين في منتهى الصحو. تضحكان بصخب وانتشاء. وتحت تأثير السكر واتتني جرأة غريبة. سننتُ أسناني على بتول. سأغرر بها حتى لو كان حبل المشنقة بانتظاري..

لأعترف لك أنني لم أر في حياتي إمرأة بجمال بتول وجاذبيتها... يا إلهي! وأشرف يلفق الأكاذيب. قال لهما أننا بعد شهرين سنتخرّج من كلية الطب، وأننا أبناء أسر غنية. وأن أهلنا يرسلون لنا خمس مئة ليرة شهرياً لكل منا. دفعنا الود مع الفتاتين إلى الأمام... همستُ لأشرف:

– انتبهْ ياصاحبي. ستسكر قبل البنات.

– انتبه أنت لنفسك. عندما تقف على قدميك فإنك تتأرجح. لا تشرب كثيراً. كانت الفتاتان ترفعان قدحيهما وتشربان العرق كما لو كان ماءً. وما إن تفرغ كأسي أو كأس أشرف حتى كانتا تملآنهما لنا. عندما يئستُ من مجاراتهما بدأت أستغفلهما وأدلق ما في كأسي تحت المائدة. إذا نجحت في

Twitter: @ketab_n

التخلص من كأسين أضطر لشرب الثالثة حتماً. انتصفَ الليل. خرجنا من الكازينو. ويا له من خروج! وقعتُ على طولي فوق الشارع. حاول أشرف مساعدتي على النهوض فتكوّم فوقي. وبتول تكاد تموت من الضحك.

كيف سنأخذهما الآن إلى غرفتنا ونغرّر بهما؟ وماذا لو رفضتا دعوتنا أصلاً؟ أسندتنا الفتاتان وساعدتانا على الوقوف. سوف أفعلها مع بتول هذه مهما كان الثمن.

- لقد أغلقت جميع المحلات أبوابها. أين سنشرب الآن؟ قلتُ، وحتى قبل أن أنهي كلامي تعثرتُ بقدمي ووقعتُ ممدداً على الأرض.

- لنأخذ سيارة ونوصلكما إلى بيتكما وننصرف نحن، قالت بتول.

وأخذنا سيارة أجرة. انحشرنا نحن الأربعة في المقعد الخلفي، تاركين السائق وحده. بدأت الفتاتان تغنيان، ومن شدة سكري كنتُ بين الفينة والفينة أغيب تماماً عما حولي، ثم أفيق على ضحكات بتول. وبالجرأة التي أكسبتني إياها الكحول لففتُ ذراعي حول خصر بتول. فانكمشت بكل جدية وهي تقول لي:

- أرجوك...

استأتُ وخجلتُ بشدة. واضح أنهما من عائلة راقية. كيف سنغرر بهما إذن؟ يبدو أن أشرف فعل بدوره شيئاً غير لائق. سمعتُ صديقته تقول له:

- لا... لا تتجاوز حدود الصداقة أرجوك!

عندما توقَّفَتْ السيارة أمام البنسيون قلتُ لهما ووجهي يحمرّ خجلاً:

- ما رأيكما بأن نشرب قليلاً عندنا في البيت؟

ردت بتول:

- صحيح أن الوقت تأخر كثيراً، ولكن لا بأس، بشرط ألا نطيل المكوث. ونحن نصعد الدرج تعثر أشرف وتدحرج بضع درجات. أما أنا فقد ساعدتني بتول مشكورة بالصعود وهي تدفعني في ظهري.

بعد طول تنقيب وجدتُ ثقب الباب وأدرتُ فيه المفتاح.

- تفضلوا.

Twitter: @ketab_n

- هيا املآ كؤوسنا!

أخذتا راحتهما كما لو أن البيت بيت أبيهما... همس لي أشرف:

- يبدو أن العرق لا يؤثر فيهما. لنقدم لهما النبيذ. سيقضي عليهما الخلط.

- ما رأيكما بالنبيذ؟

- نعم. ذلك أفضل...

منذ القدح الأول شعرتُ بالغثيان. ركضتُ إلى المرحاض وتقيأتُ كل ما تحويه معدتي. عندما عدتُ إلى الغرفة وجدتُ أشرف ممدداً على الأرض والفتاتان ترشان وجهه بماء الكولونيا. لقد تبهدلنا... قالت بتول:

- فرغت هذه الزجاجة. أتوجد غيرها؟

- نعم توجد، قلتُ لها وركضتُ مترنحاً إلى الخزانة. فتحتُ زجاجة النبيذ الكبيرة. ثم سكبتُ إبريقاً من الماء فوق رأس أشرف.

- لا تبهدلنا ياأشرف. تماسك ياصديقي.

تظاهرنا بالشرب الخفيف. البنات تحت أيادينا لكننا فقدنا القدرة حتى على تحريك أصبع.. كنا - أنا وأشرف - نتناوب بالركض على دورة المياه، نرش وجهنا بالماء لنصحى ثم نعود. قال أشرف:

- يبدو أنهما على وشك النضوج. قليلاً من الصبر أيضاً.

لم أكن أراه. قلت له:

- إني أسمع صوتك ياأشرف. ولكن أين أنتَ؟

- إني وراء الباب. مد لي يدك وساعدني على النهوض.

وعقلي يأخذ ويعطي...

- هل سنغرّر بهما ياأشرف؟

- انتظر قليلاً... ينبغي أن تسقط الواحدة منهما في كفنا كثمرة ناضجة.

سمعنا بتول تصرخ:

- ألا يوجد مشروب؟

Twitter: @ketab_n

- انتهى النبيذ. أتشربون عرقاً؟

- هاتهِ!

دلقتُ نصف العرق على الأرض وأنا أحاول سكبه في الكؤوس. لا هاتان الكافرتان عازمتان على السكر ولا نحن قادران على فعل ذاك الشيئ.

- هيا اشربوا!

أما بعد؟ لا أعرف يا سيدي ما حدث بعد ذلك. عندما فتحتُ عينيّ كان الظلام دامساً... أين أنا؟ جسمي حطام... وذهني مشتت... تحسست ما حولي... نعم إنها غرفتنا. وأنا تحت السرير...

نهضتُ بصعوبة وأشعلتُ النور. رأيتُ أشرف ممدداً بطوله وراء الباب. بصعوبة بالغة أيقظته... ما الذي جرى لنا؟ آه.. البنات!.. أين نحن؟ كم الساعة؟ أووه يا رأسي...

نعم هكذا أيها الشاب... ولكن إلى أين كنتُ أريد الوصول بكلامي؟... هه! كنا قد اصطدمنا بالمرأة التي يسمونها الطفلة الشقراء، ولا نعرف... ظنناها بنتاً، وهي إمرأة متزوجة.. وكيف نعرف؟ لا يبدو عليها من العمر أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً. عرفنا لاحقاً أنها زوجة كاظم بيك الفحل! والفتاة الأخرى التي اعتقدنا أنها أختها، كانت في الواقع ابنة زوجها كاظم الفحل.

عندما تمكنّا من استعادة وعينا اكتشفنا ورقة على الباب. كانت بتول قد كتبت لنا الرسالة التالية في المساحة المتبقية من رسالة والد أشرف:

أيها السادة:

نشكركما جزيل الشكر على السهرة اللطيفة التي قضيناها سوية. والحق يقال أننا استمتعنا كثيراً بفضلكما. سمعناكما تهذيان حتى الصباح بكلمات من مثل «تغريز».. يبدو أنكما رأيتما أحلام مزعجة. عندما سرقكما النوم، بقينا نحن نشرب حتى الساعة العاشرة صباحاً. نعتذر لأننا أخذنا من الخزانة، دون إذن منكما، زجاجة فودكا وثلاثة زجاجات بيره. نعتقد

Twitter: @ketab_n

أنكما بحاجة ليومين أو ثلاثة لتصحيا. نرغب بلقائكما مجدداً، سأكتب لكما عنوان البيت. عليكما العافية. تحياتنا. حبنا...

إذن بقينا نائمين ثمان وأربعين ساعة! فقط بعد ثلاثة أيام استطعنا إستعادة وضعنا الطبيعي.

من؟ أشرف؟.. لقد دخل فيما بعد معترك الحياة الساسية. انتخب عضواً في مجلس النواب وما إلى ذلك. آخر مرة التقيته فيها كان يشتغل بالتجارة. مضى وقت طويل دون أن أراه.

من الأفضل لك أن تبحث عن كاظم بيك الفحل أو أشرف. لأن أشرف ذهب إلى بيت بتول فيما بعد، وتعرف هناك على زوجها. كان قد حكى لي عنهم، لكنني لا أتذكر الآن شيئاً.

تبين أنها إمرأة شهيرة جداً.. أيكون كاظم بيك الفحل حياً حتى الآن؟ لا أعتقد ذلك... لا يمكنه تحمل إمرأة مثل بتول لوقت طويل... إنها آفة من الآفات.. شربت كل ذلك الكحول ولم يؤثر فيها...

لقد أثرتَ فضولي أيها الشاب. لماذا تبحث عنها الآن؟ نعم؟ تقول أنها قريبتك؟ صحيح؟ تفوو عليّ! لو كنتُ أعرف ما حكيتُ لك.. اعذرني ياأخي... لكنني حكيتُ لك الحقيقة... قد يوجد نقص فيما حكيت ولكن لا توجد زيادات أبداً... العفو... مع السلامة... مع السلامة...

الطفلة الشقراء زوجة كاظم بيك الفحل

أتسأل عن أشرف؟ نعم، أنا هو.. أنا أشرف... تقول أن خالد بيك أرسلك إلي؟ صديق قديم لي؟ من زملاء الجامعة؟ ولكن أيُّ خالد؟ كان طالباً في الطب ثم انتقل إلى كلية الحقوق؟... قصة إمرأة؟ الطفلة الشقراء؟ هه! بتوش!.. الآن فهمت... خالد... تذكرتُ جيداً.

اجلس يابنيّ. تفضل.. أين خالد الآن وماأخباره؟ مريض؟ واخ واخ واخ! التهاب سحايا؟ يجب أن أزوره... تقول أن ذاكرته ضعيفة؟ إنها الشيخوخة.. أنا أيضاً فقدتُ ذاكرتي تقريباً.. أنسى حتى ما أكلتُه

Twitter: @ketab_n

البارحة. أما الحوادث القديمة فلا أنساها مطلقاً... الذاكـرة البشرية أمرها عجيب. أنت تبحث عن الست بتول؟ همْ... من أجل قضية ميراث؟ إنـي أفهم... إذن فقد ماتت الطفلة الشقراء الحسناء...واخ، واخ، واخ! كـانت ثرية جداً، وكـانت لعوب جـداً... مع ذلك حتماً تركت ميراثاً كبيراً. أأنـتَ وريثها؟ ولا تعرف إن كـانت حية أم ميتة؟ إذن عـن أي مـيراث تتحدث؟ هه، فهمت. يجب أن تعثر على بتوش كي تحل مشكلة الميراث هذه...

لكنني فقدت أثرها منذ وقت طويل.... منذ سنوات... ماذا قـال خـالد؟ كاظم الفحل؟ قه قه قه! يالها من أيامٍ! إذن أنـت تجمـع عنهـا المعلومـات ممن كان يعرفها... طيب.. سأحكي لك... ولكـن يستحسـن أن تغلق هـذا الباب من فضلك... إن سمعتنا «جماعتي».. أنت تعرف غيرة النساء التي لاتطاق... لن تفهم مهما أكّدتُ لها أن هـذه الأحـداث جـرت منـذ عشـرين سنة ونيفّ. ولكن أتعلم؟ رغم مرور تلك السنوات، فإن بعض المشاهد لاتزال أمام عَيْنَيَّ بكل حيويّتها. وأجمـل المشـاهد هـي تلـك المتعلقـة بكـاظم بيـك الفحل وهو يستل مسدسه من جيبه الخلفي ويضعه فوق المنضـدة... قـه قـه قه! ولكن ما فائدة ما سأحكيه لك؟.. كانت مجرد قصة مراهقـة.. طيـب.. مادمت مصراً، فسوف أحكي لك.

لم يتعرف خالد على كاظم بيك. وكم مرةً دعوته لمرافقـتي وقلـت لـه أن من المعيب ألا نذهب إلى زيارة بتـول مـادامت أعطتنـا عنوانهـا، إلا أنـه لم يرافقني. سهرنا ذات ليلة حتى الصباح مع بتول وابنة زوجها في غرفتنا في «طرله باشي».. حكى لك خالد عن تلك الليلة؟.. أنا وخالد غفونـا بعـد أن أنهكنا الشّراب، بينما استمرت بتول وابنة زوجها تشـربان حتـى الصبـاح. وعندما غادرتا، تركتا لنا رسالة... كنـا نظنهمـا أختـين. ثـم اتضحـت لنـا حقيقة الموقف. في حياتي لم أر فتاة وزوجة أب متفاهمتين إلى هذه الدرجة. ماذا كان اسمها ياربي... ماذا كان اسمها؟ هه.. تذكرت.. كان اسـم الفتـاة بيرايه..

Twitter: @ketab_n

أين تراها الآن بتوش؟ لها أيادٍ بيضاء كثيرة عليّ. بقيتُ عشر سنوات في الجامعة ولم أتخرّج. ما لم أتعلمه من الجامعة خلال عشر سنوات، تعلمتهُ من بتوش خلال فترة قصيرة. كانت قد تركت لنا عنوان البيت ورقم الهاتف، بعد تلك الليلة المجنونة. ذات يوم اتصلت بها، ولم أكن أعرف، بعد أنها متزوجة. قالت لي ساخرة:

- انشغل بالي كثيراً عليكما. هل أفقتما؟

لَكَم كانت ساخرة! بعد أسبوع تسألني إن كنا أفقنا. هكذا رددتُ عليها:

- لم نسكر بسبب الشرب، بل بسبب جمالكما..

دعتني إلى البيت «فوراً».

- ألن أسبب لكم إزعاجاً؟

- أوه! طبعاً لا. تعالوا فوراً. إني بإنتظاركم.

ذهبت إلى شقتها في «أوصمان بَيْ» واستقبلتني بحرارة. كانت وحدها في البيت وقالت أن بيزاية خرجت. فقط كان ثمة خادم. أوشكتُ أن أعرض عليها الزواج، لولا أنها أخبرتني بأنها متزوجة، وأن بيرايه ابنة زوجها من زوجة سابقة. وقالت لي أثناء الحديث:

- زوجي رجل قاس جداً. ربما سمعتَ باسمه: كاظم بيك.

- لا. لم أسمع به.

داهمني الخوف عندما عرفتُ أنها متزوجة. اضطربتُ بشدة.

- اسمحي لي بالذهاب.

أدركَتْ أنني خائف. ضحكَتْ بصخب:

- افهمني يا صاح، أقول لك أن زوجي قاس جداً. ولا خوف من الزوج القاسي.

عدتُ للجلوس. وعند انصرافي أكدت عليّ أن أتصل بها مجدداً.

- وإذا رد زوجك؟

ضحكت ثانية:

Twitter: @ketab_n

- في بيتنا خطا هاتف. أحدهما لي ولبيرايه. والآخر لزوجي. نحن لا نشوّش على بعض...

يا لهذا العالم المليئ بالعجائب!

مختصر الحديث، أصبحنا صديقين أنا وبتوش. ليس على طريقة نجوم ونجمات السينما الذين يقولون: «لاشيء غير الصداقة بيننا!». كنا صديقين حقيقيين. كنا نخرج سويةً، نسهر ونلهو سوية، ثم أوصلها بعد منتصف الليل إلى بيتها وأعود إلى بيتي. كثيراً ما كانت تلحّ عليّ أن أقضي الليل عندها، لكنني كنتُ أخاف. سمعتُ من كثيرين عن قسوة زوجها. كانوا يلقبونه في الأوساط المخملية «كاظم الحمش» أو «كاظم الفحل».

لا أعرف أيصح أن أحكي لك... فهي قريبتك بعد كل حساب... ولكن مادمتَ تريد معرفة كل شيئ عنها، فلا بأس. سأحكي لك... في بعض الليالي كانت ترافقنا بيرايه في سهراتنا في الكازينوهات أو الحفلات الراقصة. كنا نشرب ونلهو ونستمتع بوقتنا... وكل ذلك على حساب بتوش. كنتُ قد كشفتُ لها كل شيئ عن وضعي المزري. كان صعباً أن أكذب عليها، هي الحميمة الصادقة معي.

الأمر الذي لم أكن قادراً على فهمه هو أن زوجاً مشهوراً بالقسوة مثل كاظم بيك يسمح لزوجته بالخروج ليلاً مع غرباء... وذات يوم تحيّنتُ فرصة وسألتها عن ذلك. فأجابت بأن ثقته بها غير محدودة. وحقاً كانت امرأة جديرة بكل ثقة. قالت لي:

- سوف يعجبك زوجي كثيراً. يجب أن تتعرف إليه. عندما يكون الزوج قاسياً فهو ليّن مع زوجته. سوف أعرفك إليه...

أخيراً نفذَت ما في رأسها. كنتُ في بيتها ذات يوم، ولم أكن أعرف أن زوجها في استانبول. كان الوقت ليلاً، وكنا نشرب، والخادم يدخل ويخرج. أما بيرايه فلم تكن في البيت هي الأخرى. دخل الخادم في إحدى المرات وأعلن:

Twitter: @ketab_n

- جاء السيد.

اجتاحني الرعب.

- ماذا بك ياصاحِ؟ لقد اصفرّ وجهك...

- لا أدري...

دخل كاظم بيك... ياإلهي! كان يفصّل إثنين من أمثالي. وعيناه تقدحان ناراً. لبعض الناس هيئات مثيرة. قد تنظر لأحدهم فلا ترى في وجهه سوى عينين. أو عند آخر ترى أنفاً فحسب، أو لاشيئ غير الفم! وكأن كل الملامح الأخرى قد اختفت. إن صاحب الأنف والعينين أو الفم، قبيحةً كانت تلك الأعضاء أم جميلة، يؤثر فيك تأثيراً عجيباً. عندما تنظر إلى واحد من هؤلاء لا ترى أمامك إنساناً بجسد متكامل، بل ترى فقط عينين أو أنفاً أو فماً. وعندما تتعرف إلى واحد من هؤلاء، ثم تتركه وتمشي فالشيئ الوحيد الذي يبقى منطبعاً في ذاكرتك عنه هو ذاك الأنف أو تلك العينان أو ذاك الفم أو تينك الأذنان. هكذا كان الرجل الواقف أمامي، ذا النظرات الحادة. كان مجرد شاربين! كان شارباه ذا الطرفين المدببين يطوّعان كل ما تبقى من وجهه ويعطيان انطباعاً بأنك لو قصصتهما لقضيتَ على رجولة الرجل أو ألغيتَ شخصيته وحوّلتهُ إلى كائنٍ آخر.

دون أن تتحرك من مكانها، رحبت به بتوش:

- أهلاً وسهلاً ياحبيبي.

وياله من حبيب، والحقُّ يقال...

لوهلة قصيرة جداً، فقط لوهلة واحدة لانَ وجه الرجل وهو يرد عليها:

- كانت عندي بعض المشاغل يا صغيرتي..

وما إن قال هذا حتى عاد وجهه إلى تجهّمه. تسمّرَتْ عيناه عليّ، وظل واقفاً بلا حراك على بعد ثلاثة أمتار مني. ياإلهي! ما الذي سأفعله الآن؟ بلا صوت كنتُ أكيل الشتائم لنفسي: ولاك بأي حق تأتي إلى بيت الرجل في غيابه؟ والأنكى من ذلك لاخبزة لك مع المرأة.. فقد ظللتَ تنجرف مع التيار حتى اليوم...

Twitter: @ketab_n

ماذا كنتَ فعلتَ لو أنك مكاني؟ كنتُ مشدوهاً مثل أرنبٍ مذعور داهَمَتْهُ مصابيح شاحنة... أأقوم واقفاً أم أصافح الرجل أم ماذا؟ هل أدعو الرجل للجلوس في بيته هو؟ أم أشمّع الخيط وأنجو بجلدي؟

نعم كان الرجل منتصباً أمامي بلا حراك، وأنا لاأرى منه سوى شاربين ضخمين مدببين. كان في وقفته وبشاربيه هذين أشبه بديكٍ يستعد للقتال نافشاً ريشه كالقنفذ. يكاد يصفق بجناحيه ويصيح كالديك ليقفز فوقي في إندفاعة عنيفة.

صحيح أن هذا الموقف لم يستمر أكثر من عشر ثوانٍ، لكنه بدا لي كساعة.

– أمتعَب يا عزيزي؟، سألته بتوش.

بلكنة غريبة أجابها الرجل*:

– لا. لست تَعِباً...

– تعال اجلس إذن لأعرِّفكَ على السيد أشرف... صديقنا أشرف بيك... هذا زوجي كاظم...

خطا الرجل خطوتين ووقف أمامي، ضيَّق عينيه وراح يتفحصني من فوق إلى تحت، ثم أمسك بيدي وضغط عليها بقوة كادت تدفعني للصراخ.

قال وهو يضغط على أحرف الراء:

– تشرّفنا ياسيدي..

– الشرف لي...، قلتُ له بصوتٍ راجف.

جلب الخادم كأساً من أجله. ملأته بتوش ورفعت كأسها نخبه:

– نخبك ياصغيري.

ضربنا الكؤوس بالكؤوس. كاد الرجل يكسر كأسي بسبب عنف ضربته. وعلى كل حال فقد اندلق قليلٌ من العرق خارج كأسي. كنا نشرب بصمت تقريباً. وحدها بتوش كانت تقول كلمةً أو كلمتين وتضحك وحدها. وكنتُ أتظاهر بالمشاركة فأبتسم ببرود. أما كاظم بيك فلم ينبس ببنت شفة.

---

* يتحدث الرجل بتركية مكسرة.

Twitter: @ketab_n

وكانت عضلةٌ ترتعش بعصبية تحت شاربه الأيمن. كانت عنده عزّة. صرخ بصورة مباغتة:

- الشرف!

كدتُ أقع من فوق الكرسي. شعرت بالعرق يسيل على عمودي الفقري.

- هل ثمة ماأثار استياءك اليوم ياحبيبي؟

- وكيف لا أستاء؟! الشرف! لِمَ يعيش الرجل؟، صرخ يقول. وكان يوجه سبابته إلى صدري والعضلة التي على خده الأيمن في ارتعاشتها القصوى. كان يسألني أنا.

- لِمَ يعيش؟

هو الذي أجاب على سؤاله:

- من أجل شرفه...

أردتُ أن أهدّئ من فورته:

- طبعاً لاشك في ذلك.. من أجل شرفه... معك حق ياسيدي...

- ثمة رجل، والكلام لايخصنا، ينظر إلى زوجات الناس وبناتهم...

- أوه ياصغيري كاظم... أعدتَ إلى تلك المسألة القديمة؟ مضى شهران ولم تنسَ؟

- وكيف لي أن أنسى؟ سواءٌ مَضَى شهران أم سنتان.. كلما تذكرته يتصاعد الدخان من رأسي (التفتَ إليّ:) ألستُ محقاً؟

- الحق معك!

- ولِمَ؟ لأنها مسألة شرف.. ولا نعبث مع الشرف...

- سأذهب، قالت بتوش، لأتصل بإحدى صديقاتي. سبق أن سمعتُ هذه القصة كثيراً..

نظرتُ إليها بعينين يفيضان رجاءً ألا تذهب وتتركني مع هذا الرجل. لكنها لم تكترث.

Twitter: @ketab_n

- كنتُ على وشك الانصراف، قلتُ له، لقد تأخر الوقت. اسمحوا لي... قلتُ ذلك وتحركتُ بقصد النهوض. لكن الرجل انقضَّ عليّ بيديه القويتين، ضغط على كتفيّ وأجلسني.

- لا يجوز والله... الآن بدأنا نستأنس... تفضل اجلس...

وملأ لي كأسي.

راح صوته يجلجل بمحاضرة مطولة دفاعاً عن الشرف وهو يلقي بالشتائم الثقيلة على عديمي الحياء الذين يلاحقون النساء المتزوجات. وكنتُ أؤيده:

- الحق معك ياسيدي... من الخطأ أن يسمح المرء لهؤلاء الفاسقين بمخالطة العائلات الكريمة...

بكلمات مماثلة كنتُ أحاول تهدئة الرجل... ولكن هيهات! كان اهتياجه يزداد كلما شرب أكثر. وبين الفينة والفينة يرفع عقيرته بصرخة: «الشرف!» ثم يحكي لي كيف أدّب فلاناً أو علاناً من عديمي الحياء الذين تجرؤوا وألقوا نظرة منحرفة على زوجته أو ابنته. وفي كل مرة يستل مسدسه من جيبه الخلفي ويضعه بقوة فوق الطاولة.

- بعدها يا سيدي رحتُ أدوس عليه بحذائي... إلخ...

وبسكين المائدة كان ينقضّ على قطعة اللحمة التي في طبقِهِ وهو يرغي ويزبد. كنتُ على وشك الصراخِ طالباً النجدة من شدة خوفي. كان كلما تفوّه بكلمة «ضربته» يغرز السكينة أو الشوكة التي في يده في قطعة الدجاج المحمّر بكل قوته.

- ضربته، ضربته، ضربته!

يالمصيبتي!

- لِمَ يعيش المرء؟

- من أجل شرفه...، قلتُ له.

هدأ قليلاً:

- لكنك لا تشرب...

Twitter: @ketab_n

شربنا.

أطلق عدة شتائم على أعداء الشرف. ثم فجأة صرخ:

- ياعديم الشرف!

ظننته يوجه كلامه إليّ. من شدة خوفي وقعت الشوكة من يدي على الأرض.

- الشرف!

- طبعاً ياسيدي. إن مسائل الشرف ليست لعبة...

لم يكن يهدأ مهما قلت أو فعلت...

- إني أشاطرك الرأي تماماً. فليقتلع الله عيني من ينظر بعين السوء إلى نساء الآخرين... اسمح لي بالذهاب... عندي بعض المشاغل...

- لا... والله لن أتركك تذهب. لايجوز قطع سهرة الأنس والود هذه في منتصفها... أنا، من أجل الشرف...

- أنا مثلك تماماً. إن كان الأمر يتعلق بالشرف. فأنا مستعد أن أحرق لحافاً كاملاً من أجل قملة واحدة...

صار هو يصرخ «شرف!»، وأنا أصرخ: «شرف!»

لحسن الحظ أننا كنا نشرب ونحن نتصارخ «شرف! شرف!»... لأنه أخيراً خضع لسلطان النوم وغفا. انحنَتْ رأسه على صدره. لكنه مع ذلك استمر يهذي في نومه: «الشرف! الشرف!» وخداه ينتفخان وينفسان بانتظام، بينما يتراقص شارباه المدببان كمخلبَيْ عقرب.

وحتى لايعود إلى الصحو رحتُ أهمس له متمتماً: «الشرف... الشرف...» ونهضتُ دون أن أصدر أدنى صوت، إستعداداً للفرار. وفجأة سمعتُ قهقهةً مجلجلة خلف ظهري كانت كوابلٍ من الرصاص الغادر... لشدة اضطرابي صرختُ بلا معنى:

- هاااي!

صاحبة الضحكة كانت بتوش. التفتُّ إليها فرأيتها تضحك وقد دمعت عيناها واهتز كل جسدها من شدة الضحك.

Twitter: @ketab_n

– أين كنتِ طوال الوقت؟، سألتُها هامساً.

– كنتُ في الحمام. انتهـزت فرصـة مسـامرتكما رجـلاً لرجـل وأخـذتُ حماماً. فهمنا، هو يصرخ كالعادة بكلمة «الشرف!». ولكن ماالذي جرى لك لتفعل مثله؟ قامت واقفة. خلعَتْ الثوب الرقيق دفعة واحدة. وصاحت:

– يارشيد!

جاء الخادم.

– خذ السيد إلى عشه...

أمسك رشيد بسيده مـن تحـت إبطيـه، وجرجـره خـارج الغرفـة. كـان الثوب الحريري الرقيق الذي خلعتـه بتـوش متكوّماً عنـد قدميهـا... لَفّـتْ ذراعيها حول عنقي. كان هذا يحدث لي للمرة الأولى. اضطربتُ وخفتُ

– وزوجك؟

– زوجي؟، قالت وهي تضحك، لقد أصبح الآن في عشه. إن له عشـاً.. ألم أقل لك مراراً: «لا تخف من الزوج القاسي. لأنه يكون في منتهـى اللـين مع زوجته..».

شبكَتْ ذراعيها بذراعي وجرجرتني إلى غرفة النوم.

– زوجي غيور جداً. قالت، هل عرفتَ لماذا يصرخ بكلمة شرف؟ ومـاذا يفعل المسكين مادام لايجيد شيئاً آخر؟ هو يصرخ ويعربد هكذا حتـى يُبْعـد عني الرجال...

كانت بتوش امرأةً جائرة.. لَكَم أشفقتُ على زوجها...

بعـد تلـك الليلـة اسـتقريتُ في بيتهـا. صـرتُ واحـداً مـن العائلـة... تصاهرنا... لكن كاظم بيك لم يغيّر من عادته وطبعه. كنـا نشـرب معـاً كـل ليلة، يصرخ ويعربد دفاعاً عن الشرف، يهدد ويتوعـد بـالقتل والذبح كـل أعداء الشـرف، ثم يغفـو حـوالي منتصف الليـل وهـو يهـذي: «الشـرف.. الشرف...» وتصرخ بتوش في كل مرة:

– يارشيد!

Twitter: @ketab_n

ويأتي الخادم، يجرجر سيده إلى عشه ثم تلف ذراعيها حول عنقي، تأخذني إلى غرفة نومها...

ذات ليلة، صرخت بتول كعادتها:

- يارشيد!

وعندما دخل الخادم، معتبراً نفسي واحداً من أفراد الأسرة، قلتُ له:

- هيا خذ سيدك إلى عشه يا بنيّ!

لسبب غير مفهوم استاءت بتوش استياء شديداً وراحت تصرخ في وجهي معنّفة: «وماشأنك أنت؟ فقط أنا زوجته، من حقي أن أقول ذلك. هذا جزء من واجباتي كزوجة تجاهه». وقالت أن الأسر الرفيعة المستوى لها عادات خاصة وقواعد سلوك محددة في المنزل، وأنني لاأفقه شيئاً من ذلك.. وأنني رجل جلف.. وبأي حق أتدخل بشؤونها العائلية.. قالت أن من حقها أن تقول مايحلو لها لزوجها وعنه.. أما أنا فما شأني؟ كانت تتكلم وتبكي بصخب.

أأقول لك شيئاً يابنيّ؟.. إن قريبتك بتوش هذه وزوجها كانا مجنونين. مالذي فعلته حتى تقرّعني بكل ذاك العنف؟ كانت هي التي تحكي كل ما هو سيئ عن زوجها وعن المجتمع الراقي.. فما الذي قلته أنا؟

بصعوبة بالغة استطعتُ تهدئتها.. استغفرتها لكنها لم تغفر لي. انتفخت عيناها من البكاء... فقد كانت بتوش تحترم قوانين المجتمع الراقي... كان ذلك شجارنا الأول والأخير. ذهبتُ بعدها عدة مرات. كان الخادم يفتح الباب ويخبرني أن السيدة ليست موجودة في البيت. وعلى الهاتف تهرّبت مني بنفس الطريقة. أما إذا ردت هي على الهاتف فكانت تتحدث ببرود شديد وتقول أنها مشغولة. وهكذا انتهت علاقتنا.

نعم؟ تسألني عن العش الذي كان يأوي إليه كاظم بيك ليلاً؟.. ولكنني لا أعرف كيف أحكي لك.. لقد شغل العش بالي كثيراً، لكنني لم أتمكن من معرفة حقيقته.

Twitter: @ketab_n

مرت ست سنوات أو سبع دون أن أراها. وذات ليلة كنتُ أسهر مع أصدقائي في ملهى من الدرجة الثالثة. هناك رأيتها... كانت قد تغيّرت كثيراً وصارت دميمةً. أدهشتني سرعتها في الهرم والتغيّر. كان على وجهها أثر جرح، وقد تضاءلتْ إحدى عينيها. لاأدري لأي سبب. ولكن مع كل ذلك عرفتها. كانت تبيع الدخان في سلة تعلّقها في عنقها. ناديتُها واشتريت منها علبة دخان.

– يابتول!. قلتُ لها.

تظاهرت بالتجاهل.

– ألستِ بتول؟

– أية بتول ياأخي؟

– أنا أشرف الإزميري...

ابتعدَتْ.. أشفقتُ على حالها. ناديتُ النادل وسألته عنها قال:

– يسمونها «يانبيري إجلال».

– ولِمَ يلقبونها بـ «يانبيري»؟

– ألا ترى مشيتها؟ تتأرجح وهي تمشي... عندها مرض. يستفحل مع الزمن. يداها وقدماها ينكمشان. إحدى ذراعيها لاتتحرك.

نظرتُ إليها وهي تبتعد. حقاً كانت تجرجر إحدى ساقيها وتمشي في شبه عَرَج. لعلها لم تكن هي نفسها. لعلني شبهتُ بها... لكنني شبه متأكد من أنها هي: رأيتُ شامتها على عنقها. ورأيتُ لون عينيها... لكنها تغيرّت إلى درجة لاتصدّقْ. يالها من أيام! يقول المثل: «رزق الله على أيام زمان..».

ولكن لِمَ لا تبحث عن كاظم بيك وتسأله عنها؟ كاظم بيك الفحل.. نعم إنه على قيد الحياة... أراه أحياناً في «بيوغلو».. لكننا لا نتحادث.... فهو لا يتعرف عليّ على كل حال... لقد تقدم به العمر كثيراً... حتى أنا شخت... هو فوق الثمانين... وربما أكثر من ذلك... يحمل عكازه في يده

Twitter: @ketab_n

ويمشي بخطوات قصيرة في شارع الإستقلال، بنفس شاربيه ويتفرّج على واجهات المحلات. كلا، لاأعرف عنوانه. ولكن من السهل الوصول إليه. اسأل عن كاظم بيك القاسي أو الفحل أو الحمش وستجد كثيرين ممن يعرفونه...

أنت أول واحد أحكي له هذه القصة. إن سمعَتْها زوجتي ستقيم القيامة. والحق معها. هي لا تريد أن يسمع الأولاد هكذا قصص.. مع السلامة.. أتمنى لك التوفيق. مع السلامة..

خبر في جريدة

«البحث عن الأب الحقيقي. الرجال الأربعة الذين ادّعوا أبّوتهم للمرأة المفقودة صاحبة الميراث يقاضون بعضهم بعضاً بتهمة الاحتيال».

إزمير - وكالة الأنباء التركية ــ قضية مثيرة ولا مثيل لها في التاريخ العدلي لمدينتنا، انتقلت إلى المحاكم. عدد الذين يدّعون أبّوة وردة وارثة العشرين مليون ليرة (وفي روايات أخرى عشرين مليون دولار) يزداد بإطّراد. والنقطة الأكثر إثارة أن المرأة صاحبة العلاقة، أي الوريثة الحقيقية والوحيدة مازالت مختفية عن الأنظار رغم حملات البحث المستمرة منذ أشهر. وقد ظهر مدّعو أبوتها وهي مختفية. عدم ظهورها رغم إعلانات الجرائد والراديو والبحث المنظم يزيد من احتمال موتها مما يزيد من طمع الطامعين والأفاقين. ادعى الرجل الرابع الذي زعم أنه أبوها، على الثلاثة الذين سبقوه، مما أدى إلى اتهام الأربعة بعضهم لبعض بالغش والإحتيال. من المحتمل أن يزداد عدد مدّعي قرابتها كلما زاد انتشار خبر الميراث الضخم. ويبقى أمراً مثيراً للفضول كيف ستتثبت المحكمة من هوية الأب الحقيقي لوردة.

صناعة البنات في المجتمع الراقي

تفضل ياسيدي... نعم أنا هو... بمَ يمكنني أن أخدمك؟.. العفو.. «الحورية»؟ «مجلة الحورية» نعم. أنا الذي أصدرتها ذات يوم.. الأصح أنني كنتُ مديرَ تحريرها، بينما كانت صاحبتها السيدة بتول. كانوا

Twitter: @ketab_n

يلقبونها بـ «الدمية بتول». ماذا ياسيدي؟ تبحث عنها؟ لأي غرض؟..
طيب ياسيدي. ماذا تشرب؟ ويسكي؟ مع الصودا؟.. حسناً ياسيدي..
«الحورية»؟ إنها قصة قديمة جداً...

كنتُ في سنتي الأخيرة في الجامعة، وقد توفي أبي قبل عامين من ذلك. كنتُ مضطراً لكسب معيشتي والاستمرار في الدراسة جنباً إلى جنب. راجعتُ كل مكان للحصول على عمل... لكنني لم أجد أي عمل... كنتُ مهدداً بالانقطاع عن الدراسة. يالها من أيام عصيبة...

أخبرني صديقٌ على دراية بوضعي، أن سيدةً غنية ترغب بإصدار مجلة وأنها تبحث عن مدير تحرير، وقال أنني قادر على القيام بهذا العمل. صحيح أنه لم تكن لديّ أية خبرة في عمل كهذا، إلا أنني كنتُ مستعداً لأي عمل يقيني شر العوز ويعينني على إتمام دراستي الجامعية.

ووفقاً للقانون كان ينبغي على مدير تحرير مجلة أن يكون حاصلاً على شهادة البكالوريا. ولأن السيدة التي ستصدر المجلة لم تكن حاصلة على تلك الشهادة، فقد كانت تبحث عن أحدٍ يملكها. لم أفهم أبداً كيف لإنسان لم ينهِ دراسته الثانوية أن يرغب بإصدار مجلة. وهذا الإنسان فوق ذلك إمرأة! أليس كذلك؟ إلا أنني بعد أن تعرفتُ على السيدة بتول عن قرب غيّرتُ رأيي. والحال أن علاقتي بها لم تستمر طويلاً. لأن مجلة «الحورية» لم تصدر سوى واحد وعشرين عدداً. ولم أقابل السيدة بتول بعد إغلاق المجلة. لأنها سافرت في رحلة طويلة إلى الخارج، بينما تخرجتُ أنا واستلمتُ عملاً. ولأعترف لك بالحقيقة: لولا الست بتول لما استطعت إتمام دراستي الجامعية. لقد أحسنَتْ إلي كثيراً. ومع أنني لم أعد أراها، إلا أنني كنتُ أتتبع أخبارها في الصحف. كانت صفحات المجتمع تتحدث عنها بغزارة وتحت أسماء وألقاب مختلفة، أذكر منها: الدمية، بتول الراحة، الطفلة الشقراء، بتوش الحلوة، الراحة التركية، وما إلى ذلك... هه تذكرتُ الآن، بمناسبة الحديث عن الجرائد: إن كنتَ ترغب بجمع معلومات عنها. عليك أن تقابل «شكران جنبير». الجميع يعرفها باسم «آيسلي

Twitter: @ketab_n

كول». تحت هذا الاسم المستعار كانت تكتب أخبار المجتمع الراقي وكواليس عالم السياسة. كانت إمرأة مشهورة جداً، وصديقة حميمة للسيدة بتول. لاأعرف الآن في أية جريدة تكتب. ولكن من السهل الوصول إليها. لأن الجميع يعرفها.

ربما لم تدرس السيدة بتول قط، إلا أنها كانت إمرأة ذكية جداً وذات إحساس مرهف. لقد أدهشتني منذ لقائي الأول بها. بدا لي أنها تسخر من كل واحد وحتى من حولها.. تسخر بعمق، ومن القلب وبلؤم. أتسألني لِمَ أصف سخريتها باللؤم؟ لأن سخريتها خفية جداً لا يفهمها أحدٌ غيرها. وعندما يسخر المرء من شخص فقط لمتعته الخاصة، معنى ذلك أنها سخرية لئيمة. ألا تشاطرني الرأي؟ تصور أنها تستمتع وحدها بالسخرية دون مشاركة أحد.. أثمة ما هو أكثر لؤماً؟ نبّهني صديقي الذي عرفني عليها بأنه عليّ فقط التفكير بما سأناله من مال، وأنه لايجوز أن أهتم بالحياة الخاصة لمعلّمتي. قال أنها امرأة ثرية لاتعرف كيف تبعزق أموال زوجها... وأنه سبق لها واهتمت حيناً بالشعر، فأحاط بها عددٌ كبير من الشعراء ومن لفّ لفّهم. ثم أقلعت عن ذلك فيما بعد. وهي الآن تريد إصدار مجلة صالونات. والسبب أن السيدة بتول، منذ أغلقت مجلتها الأدبية، أصبحت مستشارة بنات المجتمع الراقي. وتحول بيتها إلى مدرسة ترتادها صفوة بنات الوسط المخملي. كانت بتول تعلمهنّ طرق الحصول على زوج جيد، ولكل فتاة، أو لكل عائلة، زوج يناسبها: زوج ملائم ـ زوج ثري ـ زوج رفيع المستوى - زوج كبير القلب - زوج وارث - زوج سيرث... إلخ.. شيئ لا يصدَّق، أليس كذلك؟ لكنه صحيح. شاهدتُ الأمر بنفسي ليس البنات فقط، بل الأمهات أيضاً كنَّ يستشرن بتوش لإيجاد الزوج الملائم لبناتهن. ومما رواه لي صديقي عنها، ظننتها وسيطة من مستوى راق تقوم بدور التعارف بين البنات والرجال، أو نوع من الخاطبة التي تجد زوجاً ملائماً للبنت أو زوجة ملائمة للرجل.. ولكن مع ازدياد معرفتي بها اكتشفت أن الأمر ليس على هذه الصورة. كان بيتها أقرب ما يكون إلى مدارس عارضات

Twitter: @ketab_n

الأزياء التي نعرفها اليوم. هل تفهمني؟ أقصد تلك المدارس التي تعلم البنات الجميلات كيف يمشين، كيف يجلسنَ، طريقة وضع الساق فوق الساق، كيف يستخدمن أيديهن وأصابعهن، أي باختصار كيف تتصرف الفتاة لتتحوّل إلى وليمة معنوية لقلوب الرجال ذوي الذوق الرفيع... أي نوعاً من مدرسة «للأتيكيت».

ومع ازدياد شهرتها تحولت بتول إلى شخصية مقدسة كالأولياء الصالحين. وقد أرادت أن يعم نفعها عبر مجلة تنتشر على نطاق واسع، تكتب فيها ماتعلمه البنات بصورة مباشرة. وكانت تنوي أن تجمع ماستكتبه في المجلة، في كتاب مستقل تنشره لاحقاً.

ذهبتُ إلى بيتها يسيطر عليّ شعور بالإستخفاف وعدم الأخذ مأخذ الجد ممزوج بشيئ من الريبة وعدم الإرتياح. ثم سرعان ماتغير رأيي فيها بعد تعرفي عليها وحديثي معها. بصراحة أذهلتني بجمالها وبطريقتها الحاذقة في تقديم جمالها. صعقتني. فيما بعد رأيتُ رجالاً آخرين تصعقهم فتنتها منذ النظرة الأولى. كانت لديها جاذبية بقوة جاذبية المغناطيس. إن رجالاً في جميع الأعمار، ما إن يدخلوا ضمن مجال جاذبيتها حتى يستحيل عنيهم الفكاك من تلك الجاذبية.

دخلتُ مع صديقي شقةً فاخرة جداً. وقد ارتكبتُ حماقاتٍ عديدة بسبب جهلي بالوسط المخملي. كان أولها عندما فتح لنا خادمٌ أنيق الملبس يرتدي قميصاً أبيض مكوياً بعناية ويضع ربطة عنق على شكل فراشة سوداء. صافحته بحرارة وبسرعة ظاناً أنه زوج السيدة بتول.

في حياتي لم أر صالوناً بتلك الفخامة. كان ممتلئاً بالناس. قبّل صديقي يد السيدة بتول وقدمني إليها:

– هاهو صديقي الذي سيدير تحرير مجلتك...

رأيتُ أنه من واجبي تقبيل يدها بدوري. ولأنها المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك مع الوسط المخملي، فقد ارتبكتُ وكدتُ أرفع يدها إلى جبيني

Twitter: @ketab_n

بعد أن قبلتها ـ كما نفعل ذلك مع النساء المسنات. إلا أن الست بتول ابتسمت ومنعتني. ربما أعجبها ارتباكي.. قررت فوراً:

- إني أراه مناسباً. يمكنك البدء فوراً.

حاولتُ أن أشكرها وأنا أتلعثم.في السهرة نفسها تعرّفت إلى تلك الصحفية التي حدثتك عنها «آيسلي كول» ـ كانت هي الأخرى جميلة والحق يقال. إلا أنها بَدَتْ باهتة قرب تألق بتول. منذ تلك السهرة أدركتُ أن لها قوةً خفية تسيطر بها على الرجال. لا أعرف كيف أحكي لك.. لأضرب لك مثلاً... كان الصالون الكبير الذي سهرنا فيه على شكل حرف (U) وعلى طرفيْهِ الأقصيين صالونان صغيران. كان الضيوف يتجمعون في مجموعات صغيرة، يشربون ويتحدثون ويتضاحكون. لكن التجمع الأكبر كان متحلقاً حول بتول. وعيون جميع الرجال مثبتة عليها... وكذلك كنتُ أنا... وعندما ترفع بتول كأس الشراب الذي في يدها، فإن رؤوس جميع الرجال تلاحق يدها. ثم تأخذ يدها إلى نقطة في السقف. كنا جميعاً ننظر إلى تلك النقطة بلا إرادة منا. حتى أن رجلاً كان واقفاً أمامي، لاحق إحدى حركات يدها فاصطدم بكأس رجل واقف قربه ودلق ما فيها عليّ. أما أنا فقد وطأتُ قدم أحدهم وأنا ألاحق عينيها...

وكانت هي تعرِف إفتتان الآخرين ـ رجالاً ونساء ـ بها، فيلّذها ذلك وتسخر منهم خفيةً، بطريقةٍ لا يكتشفها فيها أحد فتستمتع بسخريتها الخفية وحدها. سوف أبرهن لك على ما أقول، وعن طريق كتاباتها هي... عندي جميع أعداد مجلة «حورية» التي أصدرناها. ها هي هنا. لأفتح لك أية صفحة من أي عدد. ها هي بتول تكتب هنا. سأقرأ لك:

«أن تكوني أماً لبنات، فهذا أمر شديد الدقة. إذا كان صديق ابنتك لايلبي دعوتها لأي سبب من الأسباب، عليك أنتِ أن تدعيه بنفسك. ويجب أن تتركيهما وحدهما في البيت. وبهذه الطريقة تظهر ثقتك بابنتك وبصديقها الشاب الذي ترينه للمرة الأولى. ولا أرى سبباً يجعلك لاتثقين بهما. فما الذي بوسعهما أن يفعلاه على أبعد تقدير؟ لن يقوضا البيت على

Twitter: @ketab_n

رأسك على كل حال. ولكن يستحسن أن تنبهيهما قبل مغادرة البيت، ألا يتركا مفتاح الغاز وصنبور الماء والصنابير الأخرى مفتوحة... وهذا تدبير كاف».

«يجب أن تدعي أصدقاء بناتك من الشبان إلى البيت كثيراً، حتى تتأكد بناتك بالممارسة العملية أن هؤلاء الشبان ليسوا طغاة مرعبين مثل أبيهم، وأنه لاسبب للخوف منهم. إن الفتاة الشابة بحاجة للثقة بالنفس. ولكي تحققي لها ذلك عليك، ياسيدتي، بمساعدتها على اكتساب الخبرات الحياتية الغنية».

ألستُ محقاً؟ ألا تلاحظ السخرية الخفية في هذه السطور؟ ولكن الناس، وقتها لم يكونوا يلاحظون أية سخرية، بل يأخذون نصائحها بمنتهى الجدية. ها أنا أفتح لك صفحة أخرى. ها هنا واحدة من كتابات الست بتول، بعنوان: «كيف تصبحين زوجة جيدة؟». أقتطف لك منها المقطع التالي:

«... لاتضايقي زوجك، لأنه لم يعد خطيبك. لقد مضى العهد الذي كان فيه يعصرك بين ذراعيه بقوة. لاتضايقي زوجك، حتى لايضايقك بدوره. وبقدر ما تطلقين حرية التصرف لزوجك، سيضطر بدوره إلى إطلاق حرية التصرف لك. وبهذه الطريقة يقل الإحتكاك بينكما وتستمر سعادتكما الزوجية وحياتكما الحلوة. أنتِ تعرفين من تجربتك الخاصة أن المرء يزداد تعلقاً بما هو ممنوع عليه. فلا تمنعي أي شيئ عن زوجك، حتى لايمنعك هو أيضاً، وبذلك لن تحرمي من أي شيء تحبينه. تصوري لو أن كل الزوجات في العالم لم يطلقن حرية التصرف لأزواجهن... ألا يشكل ذلك كارثة بالنسبة لكِ أيضاً؟..».

وهكذا تتابع المقالة.. نعم إن السيدة بتول لم تأخذ حتى شهادة البكالوريا.. ولكن لاحظ أنها تكتب بأسلوب الكتاب المقدّس.. إن تقديسهم لها كما لو أنها ولي من أولياء الله لم يكن بدون سبب.

Twitter: @ketab_n

حسناً دعني أقرأ لك قطعة أخرى.. هل أضجرتك؟ لا؟ حسناً. اسمع: «هل العلاقة الجنسية مقياس للسعادة؟» أترى الجرأة في العنوان؟ وخصوصاً في تلك الأيام..

«السيكولوجي المعروف برنار جودبون..» ولكن اسمع لأقول لك شيئاً: الأرجح أنه لم يوجد قط سيكولوجي بهذا الاسم.. فقد كان لها هذا الطبع. حتى تظهر جيداً غباء وجهل من حولها كانت تزين كلامها باستشهادات وهمية. فتقول على سبيل المثال: «وكما يقول الحقوقي الكبير أدوار سيج..» أو «يقول البيداغوجي ماير روبنسون...».. كانت تلفّق أسماء مشابهة وتطلقها في أحاديثها.. هي التي كشفت لي عن ذلك في وقتٍ لاحق. والأدهى من ذلك ياسيدي أن المستمعين إليها كانوا يكررون إستشهاداتها الزائفة تلك، حتى أن بعضهم يدعي أنه قرأ كتباً أخرى للكتّاب الذين استشهدت بهم بتول! بينما تضحك هذه في عبها دون أن تظهر سخريتها أمام أحد. أعود بك الآن لقراءة تلك القطعة:

«السيكولوجي المعروف برنار جودبون، توصل، بعد أبحاثٍ مطولة، إلى إستنتاج مفاده: لو كانت العلاقة الجنسية هي مقياس السعادة الزوجية لكان ثمانين بالمئة من العلاقات الزوجية قد انهار تماماً. ثمة حقيقة لا مراء فيها وهي أن العلاقة الجنسية واهنة جداً في أغلب الأسر السعيدة. وبالرغم من هذه الحقيقة التي أثبتها علماء الجنس...».

اسمع. إني أتذكر جيداً الآن ردة فعل زوج بتول على هذه المقالة. فقد استاء وقال لبتول، بعد قراءته للمقال: «كيف تسمحين لنفسك بإفشاء أسرارنا العائلية؟ أمن أجل هذا أصرف الأموال الطائلة على إصدار مجلتك؟..». وإرضاءً لزوجها فقد كتبت بتول، في العدد التالي من المجلة مقالاً تعليمياً للغاية.. سأقرأه لك.. ها هو. عنوان المقال:

«الأمومة والزوجية». اسمع:

«يمكن أن تتعرض الحياة الزوجية لهزة بعد الإنجاب الأول. لأن المرأة يمكن أن تفهمَ رغبة الزوج في أن يصبح أباً، على أنه لا يحبها،

Twitter: @ketab_n

ويستخدمها أداة للإنجاب. والزوج بدوره يشتكي من انخفاض اهتمام زوجته به وانشغالها بالمولود. من الصعب جداً المواثمة بين دور المرأة كأم ودورها كزوجة. ولذلك على المرأة وهي ترضع مولودها من أحد ثدييها، ألا تنسى أن ثديها الآخر لزوجها».

ياله من مقال بيداغوجي (تعليمي) بامتياز! أليس كذلك؟ لكنها لا تكتفي بهذا القدر. اسمع بقية المقال:

«... وإذا كانت المرأة قد أنجبت توأماً وانشغل بذلك ثدياها الإثنان، فإنها يجب أن تتدبر أمرها وترضع أحد التوأمين بواسطة البيبرون...».

حلال عليها! أليس كذلك؟

اسمع ما كتبته هنا تحت عنوان: «هل الخيانة جريمة؟»

«لأن الناس لم يرتقوا حتى الآن إلى أخلاق إجتماعية متسامحة تقبل الإنسان بأخطائه، فإنهم حتى الآن ينظرون إلى الخيانة الزوجية على أنها جريمة».

يتوجب على المرأة، حتى تبعد عن ذهن زوجها أنها تخونه، أن تلاحظ ما يلي بدقة:

1- يجب أن تخبري زوجك مسبقاً بأنماط الرجال الذين تفضلينهم وبكل التفاصيل، حتى لا يفاجأ زوجك بمواقف غير متوقعة.

2- إذا بدأتْ تصرفات أحد الرجال المعجبين تقلقك بسبب ما ينتج عنها من شائعات غير مستحبة، فيجب أن تخبري زوجك بالموقف، حتى يبادر فيؤمّن دخوله إلى البيت بصفة «صديق عائلة»، وذلك لوضع حد للشائعات المغرضة.

3- إذا اكتشفتِ نوايا خبيثة تجاهكِ عند أحد أصدقاء العائلة، أخبري زوجك بالأمر وادعي الرجل كثيراً إلى البيت حتى تنشأ صداقة متينة بينه وبين زوجك.

في الأعداد الأخيرة للمجلة كتبت بتول مقالات تسببت في فتور علاقتها بزوجها أكثر فأكثر. كان يسوؤه إفشاء أسرار العائلة بحجة التعاليم

Twitter: @ketab_n

الأخلاقية. في الفترة نفسها دفعت بزوجها إلى حوافّ اليأس إذ طرحت للنقاش، في إحدى السهرات، مسألة ما إذا كان الحب رياضة أم لا؟

ويا له من نقاش حامٍ، استخدمت فيه بتول كل قوة إقناعها، فراحت تؤكد أن الحب ضربٌ من ضروب الرياضة مثله مثل قيادة السيارات أو ركوب الخيل أو التزلج على الجليد أو القنص. إلا أن زوجها لم يقتنع بحججها، بل زاد الفتور بينهما بسبب ذاك النقاش. وقد دللت بتول على رأيها بأن أخبرت الحاضرين عن مدى حبها لزوجها ومدى ما تقدمه من تضحيات في سبيل هذا الحب وكيف أنها عندما سمعت عن مرض زوجها، وهي في باريس، عادت فوراً - أي بعد خمسه عشر يوماً من سماعها للخبر - قاطعةً ما كانت فيه من مشاغل. لقد حكت بطريقة درامية جعلتنا نوشك على البكاء. عندما ختمت حديثها متوجهة إلى زوجها بالقول: «ياخسارة! فأنت لا تفهم قلب المرأة!» امتلأتْ عينا زوجها بالدموع ولم يستطع أن يفوه بكلمة.

لنعد بحديثنا إلى الليلة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى بيت بتول. كانت ليلةً كما في الأحلام. كان ثمة عدد كبير من الرجال الأنيقين والنساء الجميلات اللامعات.. وحتى أتمكن من الإندماج معهم شربتُ ليلتها كثيراً. وأتذكر جيداً كيف شابكت الست بتول ذراعها بذراعي وأخذتني إلى قاعة مجاورة. وهناك أخبرتني بأنه عليّ البدء بالعمل فوراً، وأخذ المال اللازم من زوجها. أعطتني عنوان مكتب زوجها ورقم هاتفه. وقالت أنها ستكلم زوجها في الأمر.

بعد ذلك صار كل واحد من الموجودين يدلي بدلوه ويقترح اسماً للمجلة:

- ليكن اسمها شقائق النعمان.

قالت ذلك سيدة حسناء راحت تصفّق بيديها ابتهاجاً باكتشافها...

- الأفضل هو اسم اللؤلؤ.

- «الصالون».. ما رأيكم باسم الصالون؟

انبرى رجل آخر ذا صوت متخم وهيئة وقورة يقول:

Twitter: @ketab_n

– تعلمون أن الفرنسيين يصدرون مجلة بعنوان «فوالا». فيها ينشرون كل شيء. تماماً مثل المجلة التي تنوون إصدارها. لذلك سموا المجلة «هوَذا»! إنه اسم أوريجنال جداً.

تدخلت إمرأة واقترحَتْ:

– ما رأيكم باسم (الموزة)؟

ثم أوضحَتْ أن الموز يعطي مذاق أية فاكهة نتخيل أننا نأكلها. وبما أن المجلة ستنشر كل شيئ فإن اسم (الموزة) ملائم لها.

واقترح أحدهم اسم (المجتمع). إلا أن جميع تلك الإقتراحات تراجعت أمام وزن أفكار الست بتول التي اقترحت اسم (الحورية) وتم تثبيت هذا الأسم.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى مكتب زوجها فلم أجده هناك. قالت لي سكرتيرته أنه سافر إلى أوروبا. وعندما أخبرتُها بهويتي طلبت مني – بناءً على أوامر سيدها – أن أراجع المحاسب. سلمني المحاسب مظروفاً يحوي مبلغاً محترماً يكفي للبدء بالعمل.

بعد صدور أربعة أعداد أو خمسة من المجلة، أخبرتني بتول ذات يوم أنها مدعوة لعرس يجمع اثنتين من أرفع عائلات استانبول يتزوج ابن إحداهما من ابنة الأخرى، وطلبت مني مرافقتها، لأن زوجها غائب في رحلة إلى ألمانيا، ولأننا يمكن أن نتلقط أخباراً مثيرة من أجل المجلة.

اصطحبتني في سيارتها، انتقلنا إلى الضفة الآسيوية، ربما إلى منطقة (جفتة حاووظ) وصلنا ليلاً. كان مصراعا باب الحديقة الحديدي مفتوحين. دخلت السيارة وتقدمت على درب ترابية مفروشة بالحصى الناعم. ثم أوقف السائق السيارة بين حشدٍ من السيارات الغارقة في الأضواء أمام البيت.

كان صاحب البيت، والد العريس، واحداً من كبار رجال الأعمال. وكانت الصحف تتحدث عن هذا العرس منذ أكثر من أسبوعين.

Twitter: @ketab_n

دخلنا الحديقة الكبيرة المزدحمة بالناس. كانوا قد نصبوا ربما أكثر من أربعين سيخ شاورما في أرجاء الحديقة. وكانوا يسمونها اسماً نصفه تركي ونصفه أمريكي: «دونر ستيشن». أغاظ هذا الاسم السيدة بتول كثيراً. ومع أنها كانت، إلى ذلك اليوم، جادة في حديثها معي، فقد أفلتت لسانها قائلة:

– هذا مايسمى أكل الخراء الأمريكي بملعقة تركية!.

وكان كل من يلتقط طبقه يهرع صوب الـ «دونرستيشن» ويملأه بالشاورما. وفي إحدى الزوايا كانت تطبخ مأكولات فاخرة في قدور ضخمة. وانتشرت في أنحاء الحديقة طاولات امتلأت سطوحها بكل ما يمكنك تخيّله من الاطعمة والمازاوات والفواكه والمشروبات... كانت جنة حقيقية... وكانت الست بتول تشرب بلا توقف. في حياتي لم أر إمرأة تشرب مثلها. حتى بين الرجال من الصعب أن تصادف من يستطيع مجاراتها في الشرب.

سألتني:

– أتعرف كم من النقود صُرفَ على هذا العرس؟

– لا أعرف.

– ثلاث مئة ألف ليرة... قالت وهي تضغط على المقاطع اللفظية.

معنى ذلك حوالي مليون ليرة بنقود هذه الأيام.

لم أر الست بتول أبداً بالعصبية التي رأيتها فيها في تلك الليلة. كانت عصبية وثرثارة، تتكلم باستمرار. أخبرتني أنه لدينا قانون يعاقب على الإسراف والتبذير وسألتني إن كنت سمعت به. ومن أين لي أن أسمع! فردت علي قائلة أنني واحد من الحمير الذين هم الأغلبية... نعم، قالت لي هذا حرفيا... صدمت بكلامها وأنا أعرفها امرأة مثقفة مهذبة..

«إن هذا القانون» قالت موضحة لي «وضع لمنع الإسراف والتبذير كما تراه يحدث الآن في هذا العرس، ولكن على من يطبق القانون؟» قالت أنه يطبق فقط على الفقراء. لو أراد مثلاً أحد الفلاحين أن يقيم عرساً

Twitter: @ketab_n

لابنه الوحيد أو ابنته الوحيدة، وتدبر بعض المال توفيراً من حاجياته الأساسية فإن الشرطة تستطيع منع العرس بقوة قانون مكافحة الإسراف هذا.

وحتى لا أبقى صامتاً سألتها عن سبب ذلك. وليتني ما فعلت! لأنها تشتم مثل بائعي السمك، تشتم ملء فمها، شتائم من العيار الثقيل. ومع أن الشتائم لا تليق بالنساء، وخصوصاً بنساء الأكابر مثل الست بتول، إلا أن هذه تتفنن في ابتكار أنواع من الشتائم لا تخطر على بال.

وكم آسف الآن لأنني لم أسجل شتائمها. ظننت أنني لن أنساها.

كانت شتائمها جميلة كقصائد شعر.

وعندما علقت على كلامها، فقط بقصد المشاركة، وقلت: «مادام الفلاح المسكين يصرف من نقوده، ماشأن الشرطة به؟» ليتني بلعت لساني ولم أقل ذلك.. فتحتْ فمها وأغمضتْ عينيها... أمطرتني بأقذع الشتائم. قالت وما الذي لا تفهمه في هذا؟ كل شيء واضح كالشمس. فالفلاح يصرف من ماله هو. أما في هذا العرس، فإن صاحبالبيت الذي هو رجل أعمال، يصرف من أموال الآخرين. أو يهون على المرء أن يصرف ماله بهذه الطريقة وكأنه يدلق ماءً؟ فقط المال المسروق من عرق وكد الآخرين يمكن صرفه بهذه الطريقة. إن أسخى الناس هم اللصوص وقطاع الطرق والقوادون والكرخنجية والنصابون.. لماذا؟ لأنهم يصرفون أموال غيرهم. ولأن الحكومة تريد المحافظة على أموال الفقراء والمعدمين فقد سنت من أجلهم قانون مكافحة التبذير.. قالت أن القوانين لاتسري على من يسنها. وقالت أن القانون يمنع الفقراء أيضاً من لعب القمار. بينما يسمح به في نوادي المجتمع الراقي. لماذا؟ لأن الحكومة لا تريد إفساد أخلاق الفقراء.. وما الذي بقي من أخلاق أولاد الـ (...) هؤلاء حتى تحاول الحكومة المحافظة عليها وحمايتها؟ كانت تتابع بغضب: «وكأن أحداً في العالم لم يتزوج قبلهم. كأن أحداً، منذ وجد العالم، لايعرف معنى الزواج.. وحدهم هؤلاء يعرفون الزواج، ياترى هل سيفعلون شيئاً مختلفاً عما يفعله سائر الناس؟! هل يدخلون

Twitter: @ketab_n

فراش الزفاف بطريقة مختلفة عما نفعله نحن، حتى ينتفخوا هكذا! هل سيقومون بشيء فريد من نوعه في تاريخ البشر، أولاد القحبة هؤلاء؟..».

وفقاً لروايتها كان هؤلاء يقيمون حفلات الزفاف الباذخة هذه لغرض آخر: كانوا ينتهزون اجتماعهم في الحفلة ليعقدوا صفقات ستدر عليهم ما يعوض تكاليف العرس ويزيد. وتتابع بتول فتقول:

«أولاد الزنى هؤلاء حتى عندما يموتون يحققون المكاسب من وراء موتهم. فربما تكون أراضي المقابر قد ارتفعت أسعارها ويريد هؤلاء بيعها في السوق السوداء..» «أأنت أعمى؟» قالت لي «ألا ترى كيف اجتمع الناس من اثنتين وسبعين ملة في هذا العرس؟ بحجة العرس يعقدون الصفقات المشبوهة وعمليات النصب والاحتيال. وهذا الـ(....) يعرف أن ابنه سيطلّق قبل مرور عام على هذا العرس، لماذا إذن يبعزق كل هذا المال؟ هؤلاء الـ (...) هؤلاء الـ (...) هؤلاء اللا أدري ماذا، أولاد اللا أدري ماذا هؤلاء – المعذرة – عندما يموتون، فإن أسرهم تقيم مأتماً أفخم من هذا العرس. وفي المقبرة تعقد الصفقات ويتصالح المتخاصمون».

«أنا أعرف هؤلاء الأوباش!» كانت تصرخ بملء فمها. كلا، لم تكن سكرانة لكنها كانت في سورة غضب لا تنطفئ ولا أعرف لها سبباً. استغربت كلامها عنهم وكأنها ليست واحدة منهم. فإن لم تكن منهم، كيف لها أن تعرف تلك الحقائق عنهم؟ قالت لي أنها تعرف عن طريق ذلك المقرون الذي هو زوجها.

عندما برد الجو بعض الشيء في الحديقة دخلنا إلى القصر. تحدث عدد من الناس مع السيدة بتول على الواقف، إلا أنها لم تعطهم وجهاً. دخلنا قاعة اسمها الصالون الشرقي. مكان أشبه بمتحف.. ثم غادرناه بسبب ازدحامه الشديد، وانتقلنا إلى قاعة أشد ازدحاماً. كان الأثاث هنا حديثاً جداً إلى درجة لم أعرف طريقة التعامل معه، كان ثمة على الأرض أشياء اعتقدت أنها مقاعد، لكنني لم أعرف كيف يجلس عليها، وأين علي وضع مؤخرتي، وأين أسند ظهري؟. خوفاً من البهدلة رحت أترقب حتى أرى

Twitter: @ketab_n

من يسبقني للجلوس عليها فأفعل مثله. لحسن الحظ فقد جلست بتول على أحد تلك المقاعد، فراقبتها وفعلت مثلهـا علـى مقعـد بجانبهـا، وتحركـت بحذر شديد حتى لا ينقلب بي وترتفع ساقيّ في الهواء.

– أترى هؤلاء البنات، قالت لي وهي تشير بيدها، هؤلاء المهرجات هـن البضاعة التي تنتجها صناعة بنات الوسط المخملي..

– كنـت أسمـع ذلـك التعبـير للمـرة الأولى «صناعـة البنـات...» لكنهـا استفاضت في حديثها عن تلك "الصناعة" الـتي هـي أكـبر صناعـة في البلـد حسبما قالت.

– ألم تسمع ذلك؟ إن تنشئة البنات بالطريقة التي تتيح لهن الزواج مـن رجال أثرياء، اسمها «صناعـة البنـات». عندمـا تنجـح البنـت في «تطبيـق» عريـس غـني فإنهـا تؤمـن لنفسـها ولأسـرتها مسـتقبلاً لامعـاً... ولذلـك تم تأسيس هذه الصناعة التي توظف فيهـا أكـبر الرسـاميل وذلـك دون الأخـذ بالحسبان أمهات البنات اللواتي هـن الرأسمـال الثـابت... إن كـل أم هـي «المدير الفني» لابنتها، وهي تسعى للحصول على زبـون غـني لابنتهـا. وفي سبيل ذلك تربّيها بطريقة ترضي ذوق الزبون الذي يدفـع فيهـا أكـثر. كـل البنات اللواتي تراهن هنا الليلة من منتجات تلك الصناعة. راقب طريقتهـن في الوقوف، في الجلوس، في الضحك والابتسام، في وضـع سـاق فـوق سـاق. راقب إشعالهن لسكائرهن من ولاعات الرجال.. راقب أيديهن وأصـابعهن.. حتـى أصـابعهن تنثـني بطريقـة مختلفـة. انظـر إلى حنيهـن لأعنـاقهن، والتفاتات رؤوسـهن وإسبالهن لجفونهن.. انظر كيـف ينقلـن نظراتهـن بـين عيـني وشـفتي الرجـل الـذي يكلمهـن.. انظـر كيـف يمسكن بالمنـاديل أو بأطراف تنوراتهن... انظر إلى دلعهن وغنجهـن... مـن المسـتحيل أن تكـون كل هذه التصرفات عفوية...

والحق أن أفضل من تطبق ما تقوله كـانت هـي نفسـها. وكأنهـا كـانت تحكي عن نفسها. وما دام الأمر هكـذا، لمـاذا تتحـدث عنهـن وكأنهـا مـن خارجهن وغريبة عنهن؟. هذا ما لم أكن أفهمه .

Twitter: @ketab_n

- كنت أعتقد أن ذلك هو موهبة طبيعية عند البنات.. قلتُ لها.

- لو أنها موهبة طبيعية لكانت كل البنات هكذا. هل تتصرف بنات بيوت الصفيح بنفس هذه الطريقة؟ هذا الغنج أيتعلمونه من الله؟ انظر إلى تلك الفتاة التي تضرب بكعب حذائها على الأرض بحركات عصبية وكأنها مهرة عربية تنكش الأرض بحوافرها... ما معنى ذلك؟

- ما معنى ذلك؟، سألتُها.

- معناه واضح.. مثلما يغردّ أنثى الطير لاجتذاب ذكرها.. هي تنادي ذكرها بالنقر على الأرض بكعب حذائها..

في تلك الليلة فتّحَتْ بتول عينيّ على أشياء لم أكن أدركها سابقاً. كنتُ أعتقد دلع البنات هبةً طبيعية. كما يعرف فرخ البط كيف يعوم دون أن يعلّمه أحدٌ.

- من هنّ البنات اللواتي يسمونهن «حسناء الحارة»؟ إنهن بنات الأحياء الفقيرة اللواتي يحاولن تقليد منتجات صناعة البنات في الوسط المخملي... إن هؤلاء الأخيرات، قبل كل شيئ، ممنوعات من أكل الحمّص والعدس والفول اليابس والفاصولياء اليابسة وما شابه. اليابس ممنوع عليهنّ، والأخضر مسموح. لأن الخضار المجففة تسبب إنتفاخ الأمعاء. ولا يجوز على بنت المجتمع الراقي أن تشكو من الغازات. لأن الغازات هي العدو رقم واحد للجمال. ماذا يحدث إذا أفطرتَ بالخبز الجاف وتغذّيتَ حمّصاً وتعشيت فاصولياء مجففة؟ إن اللون الأخضر، لون الأموات يضرب على البشرة بسبب الغازات، إن الخضار الجافة تفسد لون البشرة من جهة وتُصلّب العضلات من جهة أخرى. لماذا تقترن نساء المجتمع الراقي برجال من خارج المجتمع الراقي لا من داخله؟ لأنهن يحبذن الرجال ذوي العضلات القاسية. ينبغي أن تكون عضلات المرأة لينة، بينما عضلات الرجل قاسية... هذه من تقنيات صناعة البنات. على البنت أن تكون طرية ناعمة إلى حد أنك لو لمستَ بشرتها بأصبعك، لغطس أصبعك في لحمها بسهولة. صحيح أن ثمة نماذج قاسية من بنات المجتمع، لكنها من نوع

Twitter: @ketab_n

مختلف... إنها قسوة ناتجة عن ممارسة التمارين والألعاب الرياضية... لو أنك ضربتَ على صدر الواحدة من هؤلاء بأصبعك لأصدر صوت طنين وتماوج بالرعشات. وإن ضغطتَ على لحمها بإصبعك لارتد أصبعك كما لو أنك ضغطت على نابض.

كانت تشرب بلا توقف وتحكي بلا فواصل. وفي أثناء حديثها كشفَتْ بعضاً من أسرارها الخاصة. عندئذٍ بدأتُ أفهم قليلاً سبب عدائها للوسط الراقي الذي كانت تعيشه من الداخل. لقد عاشت طفولة بائسة جداً في أحد الأحياء المتطرفة البائسة في استانبول. حكت لي عن حياتها في تلك الحارة وعن فتيات الحارة الجميلات جداً... إن أجمل بنات الوسط الراقي لا يمكن أن تضاهي بنات حارتها الفقيرة في الحسن والجمال. ولكن ما الذي حصل لأولئك الصبايا؟ كانت الشيخوخة تداهمهن قبل الثلاثين.. والسبب النوع المتدني لنظام التغذية وظروفهن القاسية عموماً.. هن يسترخصن الأطعمة الرديئة ويعملن كالحمير ويتلقين الضرب من الأب والأم والحبيب والزوجة... فما الذي يبقى من جمالهن؟

كانت الست بتول تتكلم، في تلك الليلة، والحق يقال، بطريقة علمية. راحت تشرح لي تأثيرات نوعية المأكل والمشرب على شكل ولون الكائن. لماذا تكون الحشرات التي تعيش بين الأعشاب خضراء اللون، في حين أن الحشرات في المناطق الصخرية تتميز بلونها البني الداكن؟ والإنسان هكذا أيضاً. إن أكلتَ القشدة تصبح مثل القشدة. رجال الدين يأخذون شكل طناجر البرغل بسبب كثرة ما يأكلونه منه ولماذا يتغزلون ببنات المجتمع الراقي فيقولون: «مثل الفستق» أو «مثل الراحة»؟ طبعاً بسبب ما يأكلنه...

ذات ليلة أولمت الست بتول لضيوفها فاصولياء بيضاء. وجمعت على مائدتها صفوة المجتمع الراقي. حتى الآن لا أنسى مذاق تلك الفاصولياء بالبسطرمة. ذكّرتُها بذلك، فأمطرتني بسيل من الشتائم المقذعة ثم أوضحت لي أن هؤلاء يأكلون الفاصولياء اليابسة أوما شابه مرة أو مرتين في السنة على سبيل التغيير، أو كحدث إستثنائي مثل دخول البقلاوة بيت فقراء. «إن

Twitter: @ketab_n

تناولنا الفاصولياء البيضاء نوع من الفشخرة» قالت «حتى أننا نسميها حفلة فاصولياء بيضاء». ثم حكت لي عن مطاعم الدرجة الثالثة أو المطاعم غير المصنفة التي يتسلط عليها أولاد الأكابر هؤلاء.. يصرخ أول من يذهب إلى مطعم من هذا النوع، مفتوناً متباهياً: «لقد اكتشفتُ مطعماً» وكأنه اكتشف القطب الجنوبي أو قارة جديدة. ثم يتحدث هذا لذاك وذاك لآخر ويعملون دعاية مجانية للمطعم موضوع الحديث. «إن الفاصولياء التي يقدمها ذاك المطعم لذيذة إلى درجة لا تصدق يا صغيرتي. ستأكلين أصابعك معها» ثم يتزاحمون على ذاك المطعم... وكم من طباخٍ أو مخللاتي أو بائع بوظة أو موالح أو فطائر اغتنى واشتهر في أحياء استانبول النائية بهذه الطريقة. تصطف السيارات الفارهة الخصوصية أمام تلك المطاعم والمحلات الصغيرة القذرة المتداعية. حين سألتُ بتول عن الموهبة التي يتميز بها هؤلاء الباعة فيجتذبون هؤلاء الأكابر، أجابتني أنه لديهم ما يمتازون به. قالت لي: ألم تسمع في الحكايات الشعبية عن الصبي الوسيم الفقير الذي يعمل كبائع متجول أو خادم يقدم القهوة، ذاك الصبي الذي يشبّهونه بالبدر في تمامه؟ وهنا يشبه الأمر ما يحدث في تلك الحكايات... يحدث أن تمرّ نساء الأكابر الناضجات، في سياراتهن قرب أحد المطاعم الشعبية الصغيرة، فترى الواحدة منهن أجيراً فتياً ووسيماً، صبياً جميلاً، فتفتتن به وتشتهيه، فتبدأ بالتذرع بما يقدمه المطعم، تحكي لصديقاتها ملء فمها: «أووه ياللفاصولياء التي يقدمها ذاك المطعم... لكم هي لذيذة وشهية خسارة أن تأكليها... يجب أن تضاجعيها...» حكت لي عن طباخ أحد المطاعم، عجوز وقبيح، لكنه الأشهر بين الطباخين وندل المطاعم.. كانت موهبة هذا العجوز تكمن في سبابه المقذع الذي لا يتوقف. كان هذا العجوز القبيح يشتم زبائنه في أمهاتهم وزوجاتهم. وكثيرٌ من رجال ونساء المجتمع الراقي كانوا يتلذذون بتلقي شتائمه الثقيلة. كانوا يحتشدون على الطاولات الأربع في المطعم الضيق الصغير ولا يدرك المرء هل يأكلون طعاماً أم يجلدون أنفسهم.. وعندما يمتلئ الدكان عن آخره، كان الباقون يصطفون في طابور أمام الباب،

Twitter: @ketab_n

يتحملون كل الصعوبات في سبيل تلقي شتائم العجوز القبيح مع كل مغرفة من الفاصولياء اليابسة يضعها في أطباقهم.

ولكن لماذا؟ أوضَحتْ لي أن هؤلاء كانوا في دخيلتهم يشعرون بذنوبٍ اقترفوها ويحتقرون أنفسهم ويتمنون أن يعاقبهم أحدٌ ما. ولذلك كانت شتائم العجوز تمنحهم شيئاً من راحة الضمير التي يفتقدون إليها... قالت أنهم يقومون بشيءٍ أشبه بفعل ندامة، أو الإعتراف الكنسي... كان السباب يمنحهم شيئاً من فرح من تجاوز ذنوبه بعقابٍ هين.. شعوراً وهمياً بالتطهّر.

ثم عادت إلى الحديث عن صناعة البنات فقالت أنها تحوّل أقبح البنات إلى ملكات جمال.. إن لهذه الصناعة استيطيقا خاصة بها، وعندما تعجز عن التغلب على قبح إحداهن فهم يغيّرون من هيئتها تماماً أو يقولون عنها أنها «جميلة على طريقتها» أو «ذات جاذبية خاصة».. إلخ..

– انظر مثلاً إلى تلك الفتاة الواقفة هناك أمام الستارة..

– نعم. إني أراها..

– كيف ترى فمها؟

كان فم الفتاة صغيراً حلواً.

– جميل جداً، قلتُ لها..

– كان عليك أن ترى فمها من قبل. كان أشبه بأبواب دكاكين بائعي البسطرمة الذين يبيعون بصورة مخالفة يوم الأحد ويخفضون درّاباتهم إلى النصف خوفاً من مداهمة دورية البلدية. كان فم المسكينة لا يتسع لأسنانها فينتفخ خداها وكأنهم ملؤوه لها بالحصى، وشفتاها لا تنطبقان فلا تستطيع التلفظ بأحرف الباء والميم. بيد أنّ أبوها ثري جداً، ومن السهل في هذا الحال إيجاد عريس لها. زوّجوها من شاعر. حتى هذا لم يحتمل بشاعة فمها. صحيح أنه شاعر، لكنه هو الآخر من عباد الله... أليس كذلك؟ عندها لم يجد أبوها مفراً من إرسالها إلى أمريكا ليرمموا لها فمها. إذ مادام المجتمع الراقي في أمريكا أرقى من المجتمع الراقي عندنا، فصناعة بناتهم أيضاً أرقى من صناعتنا.. وهناك أجروا لها عملية تجميل حولتها إلى ما هي عليه الآن.

Twitter: @ketab_n

وبعد أن تحمّلَتْ الفتاة كل تلك التضحيات والعذابات لم تعد ترضى بالشاعر فانفصلت عنه وتزوّجت ابن أحد الصناعين.

على بضائع صناعة البنات أن يتقنّ لغةً أجنبية بعض الإتقان حتى تسهل أمورهن في أوروبا وأمريكا. وعليهن تحصيل بعض المعارف في الأدب والرسم والموسيقا والسينما... عليهنّ معرفة شيئ ما عن كل شيئ.. ولكن عليك ألا تدفعهن للكلام أكثر من خمس دقائق. فإن فعلتَ سمعت الكلام المكرر نفسه الذي حفظنَهُ عن ظهر قلب مثل أسطوانة معلقة. وحتى تحول بينهن وبين الكلام المكرور عليك ألا تترك فمهن فارغاً، والطريقة المثلى هي أن تبوسهن من فمهن باستمرار. لأنهن أشبه بالببغاوات. إن أفضل أنواع الببغاء تحفظ جملة أو جملتين على أكثر تقدير... وهؤلاء البنات لا تتسع شريط الذاكرة عندهن لما هو أكثر من خمس دقائق من الكلام. فإن انتهت الخمس دقائق ولم يقبّلهن الزوج أو الخطيب أو الصديق أو أي رجل قريب فإن الشريط يتلخبط ويبدأن باستظهار سطرين من أوبرا ما أو جملتين من سارتر أو فكرة عن الموسيقا ويتنقّلنَ من مجال إلى آخر.. من الصعب تحمّل الثمار المثقفة لصناعة البنات..

وكم حكت لي بتول في تلك الليلة.. أشارت إلى امرأة جميلة طويلة القامة وسألتني:

– انظر إليها جيداً. من تشبه؟

لم أعرف.

قالت لي أنها تشبه نجمة شهيرة اسمها «بوغو يانسفيلد». هذه النجمة السينمائية اشتهرت بثدييها الكبيرين الجميلين ولذلك لقبوها بـ «الصاروخ الجنسي ذو القذيفتين». كانت متزوجة سابقاً من نجم سينمائي اسمه «وليم ديكي». إن مجرد ذكر اسم هذا النجم يتسبب في نوبات حمّى وارتعاش لنساء المجتمع الراقي. وكانت لهذا النجم موهبة نادرة، وهي أنه يتعرف على كل نجمات السينما الشهيرات بمجرد رؤيته لنهودهن وذات يوم عرّضوه لاختبار جدي في حفلةٍ ضمت أبرز نجوم ونجمات السينما. غطوا

Twitter: @ketab_n

وجوه وأجساد النجمات جميعاً وعرّوا صدورهن فقط. راح ديكي يمر بهن واحدةً واحدة، ينظر إلى نهدي الواحدة ويذكر اسمها فوراً. إلا أنه وقف مطولاً أمام زوجٍ من النهود ثم قال: «لم أعرف صاحبتهما. لا توجد في هوليود امرأة لها هذان النهدان» وحقيقة الأمر أن أحد المنتجين أراد أن يضلل ديكي فركّبَ نهدين إصطناعيين على ظهره ووقف مع النساء. لكن ديكي لم ينخدع. كان خبير نهودٍ من طراز نادر. وعندما طلّقَ زوجته الخامسة «سيمون فيرلين» سأله الصحفيون: «أيةً من زوجاتك تركت لديك ذكرياتٍ أحلى؟». فأجابهم بلا تردد: (كان لزوجتي الثالثة «بوغو يانسفيلد» نهدان لا يضاهيهما في الجمال أي نهدين آخرين) تناقلت الصحف كلامه هذا في أربع أرجاء الأرض. وتقول الشائعات أن ديكي قال هذا الكلام في سبيل الدعاية لشركة إنتاج نهود إصطناعية، مقابل مبلغ كبير من المال.

قالت لي بتوش أن هذه المرأة التي أراها، أصابها إضطرابٌ عظيم عندما قرأتْ في الصحف أن وليم ديكي هذا سيأتي إلى استانبول. وسبب اضطرابها أن وجهها وجسدها، وكل شيء فيها يشبه بوغو يانسفيلد، باستثناء نهديها. والحال أن ديكي هذا يهتم في المرأة أكثر ما يهتم بنهديها. ولذلك هرعت المسكينة إلى أخصائي تجميل، أي أحد أعمدة صناعة البنات. ومقاييس صدر بوغو يانسفيلد معروفة عالمياً على المليم. وعندما يحدث تغيير ما طفيف في تلك المقاييس تنقلها مباشرة وسائل الإعلام على طريقة النشرة الجوية. كما أن صور نهدي النجمة الشهيرة، ومن جميع زوايا التصويرالمكنة تملأ الصحف والمجلات.. وهكذا طلبت من طبيبها العزيز أن يجري لها جراحة تجميل ويصنع لها نهدين مطابقين لمواصفات نهدي بوغو يانسفيلد.

بعد العملية الجراحية لجأتْ إلى المحاكم وأصبحت مادة للصحافة. ادّعت المرأة أن الطبيب نجح في تجميل أحد نهديها وأفسد أخاه. وطالبت بالتعويض عن العطل والضرر.

Twitter: @ketab_n

سبق وقلتُ أن بتول تسخر من الآخرين بلـؤم. وفي تلك الليلـة لم تـترك أحداً من وجوه المجتمع الراقي إلا وهزأتْ منه أشد الهزء لؤماً.

كانت تحكـي لي عنهـم أشـياء لا يصدقهـا عقـل. لكنـني كنـت أتفهـم حقدها على أولئك الناس الذين تعيش بينهم وعداءها لهم. كلما هزأت بهـم وأهانتهم واحتقرتهم أكثر، كان عداؤها لهم يزداد أواراً بدلاً من أن يهدأ.

في تلك الليلة سكرتُ بشدة رغم أنـني لم أشرب بمقـدار ثلـث ماشربته بتول. صرتُ أرى الناس يتأرجحون أمام عيني في الصالون الكبير. وأسمـع قهقهات الست بتول تـأتيني مـن مكـان بعيـد بعيـد... ثـم رأيتهـا تركـض وكأنها تطـير.. لا، ليـس وكأنهـا.. بـل كـانت ترقـص وهـي تطـير فعـلاً، وشـعرها الأشـقر يتطـاير في الهـواء مثـل ريـش الكنـاري المتسـاقط. كـانت ضحكاتها تختلط بشعرها... حتى أنني رأيت قدميها وهمـا ينفصـلان فعـلاً عن الأرض... ربما تراءى لي ذلك من شدة السكر.

نعم، سبق وأخبرتك أن بيت السيدة بتـول كـان أشـبه بمدرسـة لبنـات المجتمع الراقي. ذات مرة حضرتُ أحد دروسها، رأيتهـا وهـي تحـاضر في البنات. سمعتها تقول لهن:

– هل تعرفن لِمَ تلبس النسـاء الحـذاء ذا الكعـب العـالي؟ هـه؟ أرأيـتن؟ تلبسنَهُ ولا تعرفن لماذا؟ اسمعن إذن.. قديماً كان ثمة باعئون يتجولون وعلى رؤوسهم أسفاط كبيرة مليئة بالتوت أو الأجاص أو ماشابه ذلك مـن فواكـه. وبسبب ثقل السفط كانوا يمسكونه من الجانبين ويمشـون بصعوبـة. وكيـف يكون المشي في تلك الوضعية؟ يكون باهتزازات وترنحـات محسـوبة... هـل فهمتنّ؟ أولئـك الباعـة يضطـرون إلى المشـي بتلـك الطريقـة للحفـاظ علـى توازنهم. يهزون مؤخراتهم يمنة ويسرة. وبفعـل التعـود فـإن أولئـك الباعـة يمشون بالطريقة نفسها حتى خـارج أوقـات عملهـم، أي جـين لا يحملـون فوق رؤوسهم شيئاً. في إحدى الفترات صـارت مشـيتهم هـذه «موضـة» درج على محاكاتها الشبان والمراهقون. ولأنه مـن غـير المعقـول أن يحمـل هـؤلاء

Twitter: @ketab_n

على رؤوسهم أثقالاً ليمشوا هازين مؤخراتهم، فقد اخترعوا لهم نوعاً من الأحذية ذات الكعب البيضوي العالي. إن علو كعب ذاك الطراز من الأحذية كان يرغم الشبان على المشي وهم يهزون مؤخراتهم حتى لا يفقدوا توازنهم ويسقطوا على الأرض. والآن هل فهمتن مانفع الكعب العالي؟ إنه لهز المؤخرة أثناء المشي. والآن لنأت إلى النساء ولماذا يلبسن الحذاء ذا الكعب العالي. صحيح أن الكعب الواطئ يصبح موضة بين وقت وآخر، إلا أنه لا يستمر طويلاً. لأن الرجال يستمتعون كثيراً بهز كل النساء - ماعدا زوجاتهم - لمؤخراتهن وهن يمشين في الشارع. لذلك فهم دائماً يعودون إلى تصميم موضة الكعب العالي. ونحن جميعاً مضطرات لاتباع الموضة... وعندما نلبس الحذاء ذا الكعب العالي كيف سنتوازن في مشيتنا حتى لا نقع؟ فكروا الآن بالبهلوان الذي يمشي فوق حبل مشدود. ماذا يفعل حتى لا يقع من فوق الحبل؟ إنه يمسك عصا توازن بيديه، يميلها تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال. والآن هذا بالضبط ما تفعله النساء للحفاظ على توازنهن أثناء المشي في حذاء بكعب عال. من غير المعقول طبعاً أن يمسكن عصا توازن بأيديهن، ولا أيضاً وضع سفط توت على رؤوسهن وفتح أذرعهن على الجانبين... ولذلك يضطررن إلى هز مؤخراتهن إلى اليمين وإلى الشمال في كل خطوة. أما بنات القرى فيفعلن ذلك بوضع دلو الماء على أكتافهن أو السلال على رؤوسهن... والآن ثمة أمر شديد الأهمية... إذ أن هز المؤخرة مشهد مؤذي جداً للنظر، وينبغي التغطية عليه بالحركة الإنسيابية للجسد والتأرجح الملائم حتى تبدو المشية جميلة للنظر... صحيح أن الطريقتان من أصل واحد، إلا أن إحداهما للمرأة ذات المستوى الرفيع.. وكلما زاد ارتفاع الكعب ودقته، كلما صعب حفظ التوازن فوقه، وتطلب بالتالي أرجحة أكثر... تماماً كضبط الإيقاع أو الرقص...

وكما تلاحظ ياسيدي، كانت بتول تسخر من أولئك البنات من تحت لتحت، بلؤم شديد، وتستمتع بذلك لوحدها، دون أن يفهم أحد سخريتها ويشاركها.. مع أن المعلومات التي كانت تحكيها للبنات لم تكن من سقط

Twitter: @ketab_n

المتاع، بل هي هي ما يعلمونه اليوم للبنات في مدارس التأهيل الاجتماعي «الأتيكيت»...

كانت السيدة بتول تؤكد على أهمية المستوى في أي أمر من الأمور. يمكن للمرء أن يتعرض لأسوأ المواقف. وإذا حدث وانحدرت المرأة مثلاً إلى مومس، فعليها أن تشتغل في مستوى مرموق كي يحترمها الناس وتصبح ذات كلمة مسموعة. أما إذا تورطت المرأة وسقطت في بيت الدعارة العمومي (الكارخانة) فإنها تصبح قحبة رخيصة دون مستوى، لا تعود لها أية قيمة... آآه... أتسألني أية امرأة كانت بتوش؟ لا أعرف كيف أقول لك... لقد كانت أنثى بملء معنى الكلمة.. كانت تبث بهاء أنوثتها حولها كعطر خفي لا يقاوم... كانت الأنوثة تتسرب من ملابسها ومناديلها ورؤوس أصابعها... من الصعب جداً أن أشرح لك...

بعد واحد وعشرين عدداً أغلقنا المجلة لأن بتوش وزوجها ذهبا في رحلة إلى أوروبا. وفي تلك الأثناء تخرجت من الجامعة وخطبت، ثم تزوجت. بعد ذلك لم أر الست بتوش قط لكنني كنت أقرأ أخبارها وأرى صورها في الصحف والمجلات باستمرار. بيد أن الصحف لم تعد تكتب عنها في السنوات الأخيرة. لا أعرف أين يمكن لها أن تكون الآن. عليك بمقابلة الصحفية «آيسلي كول» حتماً ستعرف مكانها. كانتا صديقتين حميميتن.

كنت أحترم السيدة بتول كثيراً. لم أخاطبها أبداً باسم بتوش كما كان يفعل الآخرون.

ثنائي سعيد مدمن على الضرب

أنت الذي اتصلت هاتفياً؟ تريد مقابلتي؟ تفضل بالجلوس أرجوك... من ياسيدي؟ السيدة بتول؟ ومن تكون؟ إني لا أتذكر أحداً بهذا الاسم... أنا وهي... غريب... لا أتذكر هكذا حادثة... من الذي أرسلك إلي؟... هه؟ فهمت؟؟؟ أنت تعني السيدة الإستثنائية.. قل هذا من الأول.. نعم، تذكرت قه قه قه! إنها قصة قديمة جداً.. وقد نسيتها تماماً..

Twitter: @ketab_n

كنتُ وقتها شاباً ناحلاً زريّ المظهر.. لم أتحملها، نجوتُ بجلدي بصعوبة نعم؟ تقول أنها قريبتك؟ عمتك؟ وأنت تبحث عنها؟... ولم ترها في حياتك؟... حسناً.. سأحكي لك.

كانت إمرأة ثرية جداً، قادرة على الأخذ بيدك. لكنني لا أعرف أين هي الآن.. تزوجت لاحقاً وصار لي أولاد.. كانت مغامرة من مغامرات الصبا، ولّت إلى غير رجعة..

أصبتُ في صباي بمرض السل، لا يغرنّك مظهري الحالي وسمنتي كنتُ وقتها في منتهى النحول.. كانوا يلقون بالمسلول في مستشفى لمدة ستة أشهر ثم يخرجونه دون أي علاج حقيقي.. تنقلتُ من مستشفى إلى مستشفى.. وليتهم يقبلون بك في مستشفى جديد فور خروجك من الأول.. كنتُ أضطر أحياناً للإنتظار سنة أو أكثر حتى يقبلني مستشفى جديد.

كنتُ معدوماً وعاطلاً عن العمل.. إذا زاد وزني بمقدار كيلو غرام واحد في المستشفى، عدت وخسرتُ خمس كيلو غرامات بعد خروجي منه. كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري.

كان لدي صديق يدرس في الجامعة بالنقود التي يرسلها له أبوه من منطقة ما من الاناضول ويسكن مع زميلين له في بيتٍ في «الحربية». قال لي ذات يوم:

– إن مرضك مرض أثرياء. ولن تشفى دون معالجة ستكلفك مالاً كثيراً. تعال أعرفّك على السيدة الإستثنائية، سوف تأخذك تحت حمايتها ورعايتها.

– ومن هي السيدة الإستثنائية؟، سألتُهُ.

– هي صاحبة البناية التي نسكن إحدى شققها الصغيرة.

لم يخطر في بالي أن أسأله لماذا لا يدخل هو في "حمايتها ورعايتها" ويعرض الأمر عليّ.

– إنها فرصة لا تفوّت بالنسبة لك، قال لي، سوف تعيش كالأمراء في كنفها. وما ستقدمه مقابل ذلك أمر في غاية البساطة: سوف تضربها بقدر ما

Twitter: @ketab_n

تقوى على ذلك. ولك فوق ذلك ثواب عند الله لأن المرأة مريضة ودواؤها الضرب. إذا نقص عنها الضرب تأزمت وأصبحت شرسة وعدوانية. لكنها تصبح أكثر النساء وداعةً وطيبة قلب حين تتلقى نصيبها من الضرب. سوف تدعو لك وتصبح أنت من أهل الجنة.

اعتقدتُ أنه يمزح. لكن الأمر كان في منتهى الجد. كانت المرأة شرهة للضرب وكلما تلقت اللكمات والصفعات والعصي يزداد جوعها فتصرخ: «كرمى لله اضرب كمان! أسرع! أكثر! أوجعني أكثر!».

أرجوك لا تأخذ على خاطرك لأنني أحكي هذه الأمور عن عمتك.. أنت طلبتَ مني ذلك. ومادمت مصراً فسوف أتابع..

قال لي صديقي:

- في البلد بطالة، ولا توجد فرص عمل. اسمع كلامي ولا تفوّت هذه الفرصة. إنه أفضل باب رزق يمكن أن ينفتح في وجهك.

وسبب تسميتها بالسيدة الإستثنائية هو شغفها بتلقي الضرب. كان الأزواج يضربونها مثلاً يحتذى لزوجاتهم اللواتي يحردن من مجرد كلمة جارحة أو قليل من التعنيف. فتقول الزوجة عندئذٍ: «هي إمرأة استثنائية، ليس بوسعي أن أكون مثلها». كانت لا تشبه النساء الأخريات.. أصيلة، متفردة وإستثنائية حقاً.

كانت جميلة جداً. بل كانت أجمل وأغنى إمرأة في استانبول. لكنني عندما تعرفتُ عليها كانت قد فقدت ذاك الجمال ومالت للبدانة. كانت قد فقدت الجامع والمحراب معاً. لآلا ملاً لإهلأيلإه ويهً لاً هلآى ط لآلاً البدانة كانت ـ ربما تظهرُها أكبر مما هي في الواقع. كان الجميع في الوسط المخملي يعرفها... وكانت تملك في منطقة «الحربية» بناية من ستة طوابق وبنايات أخرى...

* يقول المثل التركي: إذا تقوّض الجامع بقي المحراب سليماً.

Twitter: @ketab_n

وقعت هذه السيدة في غرام رجل وسيم جداً، طويل القامة، عريض الكتفين، غليظ الصوت قويّهُ... كانت كل نساء المجتمعِ يفتتنَّ به... وعمتك الست بتول، كما تسميها، إذا وضعت في ذهنها رجلاً، فإنها تفعل المستحيل للحصول عليه. وهكذا أوقعتْهُ في شباكها وتزوجت منه. والست بتول تحتاج من الرجل مداعباته، وجهه الباسم وكلامه الحلو... لكن الرجل، ومنذ الليلة الأولى استل عصاه وراح يضربها... وكلما دخلا الفراش وحان وقت ممارسة الحب كان يبدأ بضربها ضرباً وحشياً بلا رحمة... والحال أن ذاك الرجل، رغم وسامته وهيئته الرجولية، كان عنيناً يفتقد إلى قدرات الرجل. وللتغطية على عجزه كان يضرب كل امرأة تشاركه الفراش كان طبيبه النفسي قد أفشى سره هذا. إنها حكمة الله ياأخي. يعطي بعض الناس الهيئة ويحرمهم القدرة، بينما يغدق عليهم في هذا المجال، كما هي الحال معي، ويحرمهم الشكل والوسامة...

عجز الأطباء أمام علّة الرجل وأعلنوا أن حالته ميئوس منها. لكنّ الست بتول، بالرغم من ذلك، مازالت عاشقة حتى أذنيها لهيئة الرجل، لوسامته، لصوته الرجوليّ، لكتفيه العريضين ورقبته الغليظة. ولم تستطع الفكاك من حبه. تصور يا سيدي، كلما تعرّت بتول وهيّأتْ نفسها للرجل، انفعل هذا فربطها إلى عمود السرير بحبل متين وراح يضربها بنطاقه الجلدي. وبهذه الطريقة إعتادت المسكينة على تلقي الضرب وأدمنَتْهُ فلم تعد قادرة على الإستقرار من دون تلقي الضرب. يبدو أن رغباتٍ دفينة كانت موجودة عندها مسبقاً دون أن تعلن عن نفسها. وعندما جاءها الرجل المناسب وبدأ يضربها كشفت تلك الرغبات عن نفسها فصارت بتول تستلذ بالضرب. كانت شديدة الشبق للضرب... حتى وهي في حفلة عامة، كانت تنفعل فجأة فتطلب من زوجها الذهاب إلى البيت فوراً. وكانت أحياناً لا تقوى حتى على انتظار الوصول إلى البيت، فتدفعها رغباتها الملحة إلى الانزواء في ركن بعيداً عن أنظار الآخرين في مكان الحفلة ذاته. وهناك كان زوجها يهدّئ من جموحها ببعض الرفسات واللكمات

Twitter: @ketab_n

والقرصات والعضات الموجعة... يالهذه الأمراض العجيبة التي لم نسمع بها!..

أينما حلت عمتك كانوا يسمونها بحسناء ذاك المكان. فإذا أقامت في شيشلي لقبوها بـ «حسناء شيشلي». وإذا اصطافت في أحد الجزر لقبوها بـ «حسناء الجزر».. كانت بشرتها البدرية البياض والناعمة التي يخشى عليها عشاقها من المداعبة تمتلئ بالرضوض والتفسخات بسبب الضرب الذي تتلقاه من زوجها العنين.

وصل شبقها الشاذ إلى الضرب درجة من الخطورة أنهك حتى زوجها الذي كان سبب إدمانها... ما عاد قادراً على إشباع شهواتها الجامحة للضرب.. وإذ ذاك فعلت المرأة الإستثنائية ماتفعله كل امرأة لا يلبي زوجها رغباتها: صارت تخونه وتطلب مساعدة الرجال الآخرين. وكما هي الحال دوماً في هذه المواقف، فقد بدأ زوجها يغار عليها من تلقيها الضرب من رجال غرباء... ومادام غير قادر على مجاراة رغبات زوجته التي لا تعرف الشبع اضطر إلى تركها لمصيرها والهرب بعيداً. كانت السيدة بتول تزداد بدانة كلما تلقت ضرباً أكثر...

بعد فرار زوجها، انتقلت إلى الطابق الأعلى في بنايتها ذات الستة طوابق. كانت تكمن على الشرفة. وما إن ترى أحد المستأجرين على شرفته حتى تدلق فوقه دلواً من الماء. كانت تفعل ذلك مع الرجال فقط، وخصوصاً إذا كان الرجل شاباً قوياً... بدأ الجيران يتوسلون إليها ألا تفعل. إلا أن توسلاتهم زادتها قحةً وجنوناً. انتقلت من دلق الماء إلى دلق علب القمامة فوق رؤوس الجيران. لم يبق لها من مشاغل سوى الجلوس على الشرفة وبجانبها قذائفها من علب قمامة وأواني مليئة بماء الغسيل أو مياه البالوعة أو غيرها. تنتظر أن يظهر رجلٌ على إحدى الشرفات في الطوابق الأدنى حتى تدلق عليه ماتيسر. وعندما يرفع الرجل المنكوب رأسه ليحتج تأتيه قذيفة ثانية وبتول تقهقه بأعلى صوتها وتصرخ منادية خادمتها في الداخل:

– بسرعة يا بنت، هاتي سطلاً من ماء الجلي...

Twitter: @ketab_n

وإذا سألها أحدهم لماذا تفعل ذلك تجيبه ضاحكة:

- لكنه ليس ماءً قذراً يا عيني. إنه ماء تنظيف الصحون من الصابون..

أرجو ألا أكون ضايقتك بحديثي... مهما يكن الأمر فهي قريبتك.. لكنك تلح عليّ أن أحكي لك. وها أنا أفعل...

ثم يا سيدي، وجدت الست بتول لنفسها زوجاً آخر. من السهل عليها إيجاد زوج مادامت غنية. بعد مرور بضعة أيام في هدوء عادت إلى جنونها وإلى رمي القمامة ودلاء الماء فوق رؤوس جيرانها... هذا يعني أن زوجها الجديد خيَّبَ آمالها فراحت تستفز الجيران كي يضربوها.

إلا أن الجرة لا تسلم كل مرة.. أخيراً انفجر غضب أحد ضحاياها الذي أفرغَتْ الماء القذر فوقه في أول الصباح. فأمسك بعصا مكنسة السقف وهرع، وهو في بيجامته، راكضاً إلى شقة الست بتول في الطابق الأخير، دخل الشقة كإعصار وراح يُشبع زوج بتول ضرباً مبرحاً لئيماً وهو يصرخ بملء فمه:

- أيها القواد، ألا تستطيع أن تربي زوجتك؟..

بينما السيدة الإستثنائية تدور حوله وتصيح به:

- لا ذنب لزوجي يا رجل.. أنا التي دلقتُ فوقك ماء الجلي. إن كنتَ رجلاً اضربني أنا..

أما هو فكان يبعدها برقة وهو يستمر في جلد زوجها، قائلاً لها:

- أرجوكِ ياسيدتي لا تتدخلي في شؤون الرجال. أنا أحترم السيدات ولا أمد يدي عليهن.

وهكذا تكرر ضرب الجيران للزوج المسكين حتى لم يعد يحتمل البقاء معها رغم ملايينها التي من أجلها تزوجها وتحمل شذوذاتها فطلّقها. لكن الست استمرت في عادتها بدلق الماء القذر وعلب القمامة فوق رؤوس رجال البناية.. عندها صعد إليها أحد الشبان وأشبعها ضرباً. على أثر ذلك هدأَتْ يوماً أو يومين، عادت بعد ذلك إلى عادتها... عندئذٍ نظّم المستأجرون دوراً فيما بينهم. صار كل منهم يصعد في يوم دوره ويعطيها علقة ساخنة فتهدأ

Twitter: @ketab_n

أعصابها. بعد مرور فترة صارت تقول: «من العار على إمرأة عزباء أن يضربها رجال غرباء. سأتزوج..».

من السهل إيجاد زوج لمليونيرة مثلها. تزوجت مجدداً. ولكن انظر إلى هذه المصادفة! تبين أن زوجها من النوع الذي يستمتع بتلقي الضرب هو الآخر! الفارق الوحيد بينهما أن الست كانت تنبسط وتتفتح بعد الضرب أما هو فكان يبكي بحرقة بعد كل وجبة ضرب وتعذيب! وعندما يسألونه:

– مادمتَ تتلهف لتلقي الضرب، لماذا تبكي إذن؟

كان يجيب:

– وكيف لي أن أستمتع بالضرب إن لم أبكِ فأتأكد من أنني ضُربت؟ فقط بهذه الطريقة أستطعم بالضرب وأستلذ به.

هؤلاء مرضى نفسيون ياأخي.. يكتبون عنهم في الكتب...

تصرّمت الأيام الأولى لزواجهما بصعوبة بالغة. كانا يلعبان لعبة القط والفأر. الست تنتظر أن يضربها زوجها. وهذا ينتظر منها أن تضربهُ.. كان كلٌ منهما يفتعل المشاكل والإساءات للآخر ليستفزه. وعندما ييْس الزوج من زوجته تسلّط هو هذه المرة على المستأجرين في العمارة. تنطّح لجمع الإيجارات لاحباً بالمال إنما ليحتك بالمستأجرين ويتحين الفرص لاستفزازهم حتى يضربوه. كان يدق الأبواب قبل بضعة أيام من أول الشهر ويطالب بالإيجار. فإذا قالوا له: «لكنه ليس أول الشهر» فإنه يكذب حتى الروزنامات ويقول لهم وهو يتطلع في عيونهم: «لا. اليوم هو أول الشهر!» وما الذي يمكن أن يفعله المرء مع رجل كهذا غير ضربه؟ وكلمة من هنا، شتيمة من هناك، يتلقى الرجل أخيراً حاجته من الضرب ويرتاح! ثم يبكي من النشوة وهو يدعو لهم: «سلمت أياديكم!» ينصرف مبتهجاً دون أن يقبض الإيجار.

وإذا لم يتسنّ له افتعال مشكلة من أجل الإيجارات، كان يجد ذرائع أخرى. «لماذا تشخّطون على الجدران؟» أو «لقد مشيتم في الطابق الثاني بصخب فأقلقتم راحتنا في الطابق السادس». أو «على المستأجر أن يعرف

Twitter: @ketab_n

حدوده فلا يسعل بصوت عال في منتصف الليل فيزعج أصحاب العمارة...».. وكل هذا للوصول إلى غرضه الأصلي: تلقي الضرب...

ذات يوم دخل أحد الشقق بحجة أنه يطلب الإيجار. فلم يجد سوى طفلاً صغيراً وعجوزاً مُقعداً. تنمّر الرجل على العجوز مدعياً أنه «يصدر ضجيجاً أثناء سيره!». فرد عليه العجوز قائلاً: «أنا لا أتحرك أبداً لأنني مقعد، ثم أن شقتنا في الطابق السفلي ولا يصل ضجيجنا إلى الطابق الأعلى...» إلا أن زوج بتول لم ينزل عن أكتاف الرجل، ظل يستفزه حتى لم يعد العجوز يحتمل، نسيَ أنه مقعد، وبطريقةٍ ما هاجم زوج بتول!

أصبح المستأجرون يمتنعون عن الدفع والحق أنهما لا يريدان مالاً، بل ضرباً وتعذيباً.. لكن المستأجرين ملوا حتى من ضربهما. لم يعد الأمر يحتمل حتى لو دفعا للمستأجرين مقابل الضرب.. إن أيديهم وأرجلهم قد أنهكت من ضربهما. بينما بتول وزوجها يحلمان ببناء طابقين إضافيين فوق سطح البناية ليتلقيا وجبتين إضافيتين من المستأجرين الجدد!

ووفقاً لإحدى الشائعات فإن رجلاً محباً للخير قد ضرب زوج بتول حتى مات بين يديه. قيل أنه مات بالسكتة القلبية لكن السكتة القلبية قد جاءته من الضرب.. وبتول خانم عزباء منذ وفاة زوجها الرابع هذا. إن المسكينة تتذلل إلى هذا أو ذاك من عابري السبيل، وأحياناً تدفع لهم النقود كي يضربوها. إنه شيء أشبه بالمساج.. تدليك روحي أو معنوي.. بين الحين والآخر يصاحبها بعض الرجال طامعين في أموالها، وهم لا يعرفون شيئاً من شذوذها، يعيشون معها بعض الوقت، ثم يهربون ناجين بجلودهم عندما ينهكون من ضربها..

كانت السيدة الإستثنائية تقول لمعارفها: «أريد أن يكون لي زوج ككل النساء، حتى أعرف ممن أتلقى الضرب وحتى لا أحتاج الطالع والنازل...».

Twitter: @ketab_n

هذه المعلومات التي نقلتُها إليك جمعتها بدأب على أثر عرض صديقي الذي ذكرته لك في البداية، حتى لا أتورط وأغوص في متاهة لا أعرف عنها شيئاً. قلت لصديقي:

- إني أشكرك جزيل الشكر لأنك تفكر لمصلحتي، لكنني إنسان مريض، مسلول، بالكاد أقف على قَدَمَيّ.. لا أستطيع ضربها.. بصعوبة أرفع يدي.. أما هي فقد تلقت الضرب من رجال أقوياء البنية ولم يستطع أحد إشباعها.. فكيف سأستطيع أنا المريض؟..

- لا تزدري النعمة، قال لي، لا تفوّت هذه الفرصة من يدك. هي إمرأة غنية جداً. سوف تعالجك. ستأكل وتشرب بوفرة فتصبح بقوة حصان. قد تأخذك إلى سويسرا للعلاج. لأن شفاءك في صالحها. كلما تحسنت صحتك، كلما قدرتَ على تلبية حاجاتها أكثر..

كنتُ أقترب من الإقتناع، إلا أنني من جهة أخرى أخاف هذه المرأة وهكذا صرفتُ النظر عن هذا الزواج. والمرض أنهكني. لا مال لدي ولا معين، ولا أجد سريراً في مستشفى.. فكرتُ بالإنتحار أكثر من مرة. وعندما أقنعتُ نفسي بضرورة الإنتحار عادت إلى ذهني تلك المرأة الإستثنائية وقلتُ لنفسي: مادام الموت هو خلاصي الوحيد فلِمَ لا أقدم خدمة لتلك المرأة قبل أن أموت. ذهبتُ إلى صديقي وأخبرته بموافقتي، وبأنه من الأفضل أن أموت وأنا أُرضي إمرأة، على أن أموت من الجوع واليأس. ذهبوا إليها وأخبروها بوضعي بالتفصيل دون أن يخفوا شيئاً. قالت لهم:

- هذا أفضل. عندما أعالجه، فإنه على الأقل سيشعر بالإمتنان لي ولا يهرب مني.

عندما أبلغوني كلامها هذا أرسلتهم ليقولوا لها بما يلي:

- لنؤجل الزواج حتى نتعرف على بعض وحتى تجربني. إذ قد لا أنجح وإذا أعجبت بي نتزوج فوراً.

ثم قابلوني بها، بعد اللقاء قالوا لي أنني أعجبتُها وأنها تطلب زواجاً سريعاً خشية أن أهرب منها، وأنها ستعالجني بسرعة. وحتى لا أطيل

Twitter: @ketab_n

عليك.. فقد تزوجنا فوراً. لن أنسى ماحييت الليلة الأولى.. ليلة الدخلة! سبق وعلموني أنه ما إن أختلي بها حتى أضربها أول صفعة!

تصور ياسيدي! أيصح ذلك؟ صحيح أنني سمعتُ عنها كل تلك القصص التي سردتها على مسامعك، لكنني ـ والله ـ لم أكن أصدّق. كنتُ أقول لنفسي أنهم يبالغون. لكن تبين لي في تلك الليلة أن كل ماسمعته حقيقي! دخلتُ معها غرفة النوم ـ العفو ياسيدي ـ ولكن كيف سأضربها بدون سبب؟ تذكرتُ ما قالوه لي: «اطمئن ولا تشغل بالك بذلك. هي ستفعل المستحيل لتستفزك وتدفعك لضربها».

عندما انفردنا في غرفة النوم ساءلتُ نفسي هل أكيل لها لكمةً بلا مقدمات؟ لكنني كنتُ واهناً إلى درجة لا أقدر فيها على رفع يدي عليها.. ثم فكرتُ أنه علينا أن نخلع ملابسنا، فهذا ما يفعله العروسان.. قلتُ لها:

– يُستحسن أن نطفئ النور.

قلتُ لها ذلك لأنني كنتُ أخجل من التعري وإظهار جسدي الناحل. كان بإمكان المرء آنذاك أن يعد عظامي واحداً واحداً. خشيتُ من إفزاعها بهيكلي العظمي.

– هل سنتقابل كالعميان في العتمة؟ على المرء أن يرى ما يفعله! ، قالت.

– حسناً. كما تشائين، قلتُ لها..

رحتُ أوافقها على كل ما تقول حتى لا نتجادل منذ الليلة الأولى، كان الجو بارداً للغاية. كان شتاءً قاسياً ذاك الشتاء. قالت لي بنبرة مهذبة جداً:

– هلا سمحت وفتحتَ النافذة..

– حسناً، قلتُ لها خشية افتعال خلاف معها، وفتحتُ النافذة. اندلع بردٌ جليدي مهلك إلى داخل الغرفة.. جَلَستْ على مقعد في مواجهة النافذة ودعتني للجلوس بجانبها. لم أعترض أبداً. جلستُ بجانبها في مواجهة النافذة المفتوحة. الهواء البارد ينفذ داخل رئتي.. بات من المشكوك فيه أن أبقى على قيد الحياة حتى الصباح.

Twitter: @ketab_n

– ما أجمل هذا النسيم، أليس كذلك؟، قالت لي.

– جميل جداً..

– أوه.. إني أشعر بالضيق. لنفتح الباب أيضاً حتى يتشكل تيار هوائي.

– حسناً..

مهما قالت أو اقترحَتْ كنتُ أقول لها «حسناً. طيب». كادت هي تجن من وداعتي وطاعتي. فجأةً صرخَتْ بي:

– لا تعرف أن تقول "لا" أبداً يا رجل! أنا أريد رجلاً يقول لي: لا!..

– حسناً، قلتُ لها.

يئست مني فقالت:

– اسمع! إني أقولها لك منذ الآن: أنا لا أتحمل المعاملة القاسية من رجل. إن فكرتَ بضربي ولو بطرف أصبعك فسوف تخسرني..

ياسلام!

– لا أسمح لزوجي حتى بلمسي..

معقول؟ هل كانوا يضحكون عليّ ويلفقون عنها الأكاذيب؟

– أنا لا أتحمل الضرب...

– حاشى ياسيدتي.. هل يعقل أن أفكر بضربك؟..

كانت ليلة زفاف عجيبة! إمرأة غنية جداً وأنا في قاع البؤس. ولا يدل منظرنا أبداً على أننا عروسان في ليلة الدخلة..

– فقط جرّب نفسك واضرب وسأريك..

– العفو يا سيدتي.. غير معقول.. من أين خطر لك هذا؟

– أنت جرب نفسك لترى.. جرب.. المسني لترى..

إنها حقاً مجنونة! لاشك في هذا.

– وما الذي يجعلني أفعل ذلك بلا سبب ياسيدتي؟..

– نعم.. نعم.. إذن إن كان هناك سبب..

– لم أقصد ذلك ياسيدتي.. اسمحي لي أن..

Twitter: @ketab_n

- جرب نفسك! لم يولد من أمه الرجل الذي يجرؤ على لمسي.. هل فهمت؟

- لاشك في ذلك..

- اضرب إن كنتَ رجلاً.. اضرب لأراك!

شيئاً فشيئاً كنتُ أندفع إلى الإستفزاز..

- أأنتَ رجل ولاك؟!

- أرجوكِ لا تغلطي بالكلام!

- وماذا لو غلطتُ بالكلام! أنا أريد أن أرى أمامي رجلاً. نعم رجلاً!

يا إلهي! ماهذه المصيبة!

- إني أمرغ جبينه في الأرض، ذاك الذي يجرؤ على رفع يده عليّ! اضرب لترى!

كنتُ أردد في قلبي «لا حول ولا قوة إلا بالله» وأظل صامتاً..

- ها أنتَ لا تجرؤ على ضربي.. ليست كل النساء كما تظن. وإن شئتَ فجرب.. جرب حتى أريك (كذا) أمك!

على إثر كلمتها الجارحة هذه فقدتُ صوابي تماماً. وبلا إرادة مني ارتفعت يدي اليمنى في الهواء ثم نزلت على وجهها في صفعة قوية جداً. أنا نفسي ترنّحتُ من قوتها ووقعتُ على الأرض وغرقتُ في سعال طويل.. فوجئتُ بزوجتي «الإستثنائية» وهي تجثو قربي. تبكي وتتوسل إليّ:

- أوه ياروحي.. لقد قدّرتُ قيمتك من النظرة الأولى. أرجوك اضربني ثانية.. اضربني بقوة.. اربطني بإحكام ثم اضربني.. سلمت يداك يا سبعي..

أترى ما الذي كان يشغل بالها بينما أنا أصارع الموت؟ لا تؤاخذني ياسيدي على ما أحكيه بشأن عمتك.. لا تنسَ أنك طلبتَ مني ذلك.. ولا أعرف إن كان فيما حكيتُ لك ما يفيدك.. نعم.. هكذا..

Twitter: @ketab_n

لأعترف لك يا سيدي أنني مدينٌ لها بحياتي. فقد وفَتْ بوعودها وعالجتني على حسابها. لِمَ أكذب عليك؟ أنا الذي لم أحتمل الإستمرار معها.. لَكَم اعتنَتْ بي! هذه الصحة الجيدة، هذه البدانة التي تراني فيها اكتسبتها في تلك الأيام.. بفضلها هي..

قد يبدو الأمر سهلاً للناظر عن بعد.. لكنه ليس كذلك. لم أحتمل يا أخي.. لم أحتمل.. رغم مرور سنوات طويلة، أتذكر ليلة الزفاف تلك وأضحك.. لم أحكِ لأحد قبلك. أتعرف أنني شعرتُ بالإرتياح بعد أن أفضيتُ لك! لو أن الأمر جرى مع غيري وحكى لي لما صدقتُ. تبدو لي تلك الأيام مثل حلمٍ عابر انتهى.

حقاً كانت سيدة! لقد استمرّ زواجنا سنتين. ومع أني كنتُ أضربها كثيراً وبقسوة، إلا أنني كنتُ أخاطبها بـ «السيدة». قد يبدو لك الأمر مضحكاً، لكنها الحقيقة. لا يستطيع أي رجل إلا أن يحترمها. كانت سيدة بكل وجودها. كنا نحترم بعضنا دوماً. أتقول: والضرب؟ وماذا في ذلك؟ إن الضرب هو بمثابة دواء لها... هل يقل احترام الرجل لزوجته إذا أعطاها قرصاً من الأسبرين لتتغلّب على نوبة صداع؟ كانت مريضة.. عرفتُ لاحقاً أنها كانت صغيرة السن، إلا أن الضرب والبدانة كانا يظهرانها أكبر من عمرها. كانت تصغرني بعامين. لم تخبرني بأي شيء عن أهلها، لكنني سمعتُ من الآخرين أنها كانت أميرة، وأنها نالت لقب الأميرة بسبب زواجها من أمير عربي أو ما إلى ذلك.. هي لم تخبرني بشيئ في هذا الخصوص. كانت أصيلة ولا تباهي بماضيها أبداً.

بعد هروبي، بحثَتْ عني كثيراً ـ حسبما سمعت ـ وفي كل مكان... بعد سنوات، وكنا خارجين من أحد الملاهي ـ أنا وأصدقائي ـ في شارع بيوغلو، ذات ليلة، حدث أن رأيتها بين رجلين. والحق أنني شبّهتها، ولستُ متأكداً إن كانت هي حقاً أم لا. بدا لي أنها أكثر شباباً، وأقل بدانةً مما كنتُ أعرفها. كانت ثملة تترنح والرجلان يتأبطان ذراعَيْها.. الأرجح أنها

Twitter: @ketab_n

لم تكن هي، فقد كانت زوجتي إمرأة محترمة راكزة، ولا يعيبها غير عيبها الصغير ذاك...

نعم هكذا... لا أعرف شيئاً عنها... كلا لم أسمع... السيدة عملة صعبة؟ لم أسمع بهذا الاسم أيضاً. زوجة من؟ فتاح باشا؟ لم أسمع بهذا الاسم... العفو... إذنك معك.. مع السلامة... سررتُ بلقائك... مع السلامة...

شفتا مدام آبوش في المزاد العلني

أهلاً وسهلاً بك ياسيدي.. تفضل.. هنا مقهى الجمهورية.. نعم. هو أنا. سألتَ عني البارحة، أليس كذلك؟.. تفضل يا سيدي.. السيدة بتول؟.. نعم عرفتها.. كنا نسميها مدام آبوش.. من؟ آبوش هو عمي ذلك القواد.. المعذرة.. صحيح أنه عمي ولكنه يستأهل هذه الكلمة. لو كنتُ أعرف أنه هكذا لما تركتُ قريتي وجئتُ إليه. كان اسمه الأصلي أبو ذر. زوجته الاستانبولية كانت تناديه باسم «آبوش». وهكذا أصبح اسمه الاجتماعي السيد آبوش. واسم زوجته مدام «آبوش». وهذه هي عادة المجتمع الراقي. تسمى النساء بأسماء أزواجهن. وعندما يصبح عمي آبوش، فإن زوجته تصبح مدام آبوش. كان الناس يحتارون بأي اسم ينادونها، لأنها تزوجت عدداً كبيراً من الرجال قبل زواجها من عمي. سمعتُ بأذنيّ في إحدى الحفلات. هل تعرف لغة المجتمع الراقي؟ هي تشبه لغتنا بعض الشيء ولكنها مختلفة، لقد تعلمتها قليلاً من معاشرتهم. في تلك الحفلة خاطبها مدير أحد شركات الطيران الأجنبية قائلاً: «كل بونور مدام مجدي». وحين أخبرته زوجة عمي بأن زوجها السابق مجدي مات، قال لها: «مِلْ باردون مدام كاظم!» فأخبرتْهُ زوجة عمي أنها طلّقتْ من كاظم. ثم نادت عمي: «تعال ياآبوش!» وقدمته للرجل قائلة: «هذا هو زوجي الحالي» في الفترة الأولى لمجيئي إلى بيت عمي لم أفهم معنى آبوش الذي كنتُ أسمعه على الطالعة والنازلة.. سألتُ عمي: «من هو هذا الآبوش؟» فأوضح لي عمي أن المرء عندما ينخرط في المجتمع الراقي

Twitter: @ketab_n

يتغير اسمه. فمثلاً زوجة عمي يسمونها بتوش، مع أن اسمها الحقيقي هو بتول..

لم يعجبني اسم آبوش هذا أبداً لأنه يشبه كلمة (غودوش). تبين لي لاحقاً أن هذا التشابه ليس دون أساس. عمي هذا سوّد سمعة عائلتنا. وماذا يؤمل من رجل يغير اسمه من أبو ذر إلى آبوش بناءً على رغبة زوجته وحتى يتوافق مع الموضة في المجتمع الراقي؟!

في الفترة الأولى لزواجهما حدث أن زوجة عمي أرادت تقديمه لأحدهم، لكنها فجأةً نسيت اسمه:

– هذا زوجي.. أعني.. أوه ياإلهي.. إن اسمه على رأس لساني..

وبعد أن تلعثمت هكذا لبعض الوقت سألَتْ عمي:

– ذكّرني ماذا كان اسمك يا حبيبي؟

ويرد عليها عمي نافخاً وجنتيه، متصابياً:

– آبوش!

بدأتُ أحكي لك من نهاية الحكاية. والأفضل أن أعود إلى البداية. كنتُ أعرف عمي أبا ذر هذا من أيام طفولتي، لكنني نسيته بعد أن مرت سنوات على مغادرته للضيعة. كانت له زوجتان إحداهما زواج حكومة، والأخرى زواج عرفي. وكان له ثلاثة أولاد من الأولى وأربعة من الثانية. ترك زوجتيه وأولاده وغادر الضيعة. بعدها لم يرجع أبداً. كنا نسمع أخباره عن طريق أولاد البلد الذين ذهبوا إلى استانبول وعادوا. سمعنا أن أموره أصبحت فوق الريح، صار من أصحاب الملايين والعمارات وعنده سيارة خصوصية وسائق وخليلة ولِمَ لا؟ فالرجل الغني من حقه أن يمتلك كل شيء. يجب أن أقول الحق رغم كل شيء، كان يرسل النقود إلى أسرتَيْهِ في الضيعة دوماً. جعلهم يعيشون في أحسن حال. لا كلام يقال بحقه من هذه الناحية. عندما أنهيت خدمتي العسكرية بقيتُ بلا مال ولا سند. كان أبي قد مات، ولم أكن أملك لا أرضاً ولا مالاً... كتبتُ رسالةً إلى عمي أبي ذر شرحتُ له فيها وضعي. فأرسل لي نقوداً وكتب إلي يقول: «تعال بسرعة». وصلتُ بيت

Twitter: @ketab_n

عمي في استانبول، فتحـت لي إمـرأة عمـي الجديـدة، تلـك الـتي يسـمونـها بتوش. قلتُ لها:

– أنا ابن أخ السيد أبو ذر.

التفتَتْ إلى الداخل وصرخَتْ:

– آبوش.. آبوش!

وفقاً لبعض الأقاويل، كان عمي قد طلّق زوجته الشرعية سـراً دون علم منها وتزوج هذه المرأة.

قبّلتُ يد عمي. قال لي مشيراً إلى زوجته:

– هذه زوجة عمك بتوش.

آبوش وبتوش!

بدأتُ أشرح وضعي مجدداً:

– رحماك ياعم. أرجوك أن تجد لي عملاً. أيُّ عمل كان. أجير في مقهى أو طباخ في مطعم أو خادم في بيت أحد البيكوات.. أرضَى بأي عمل...

– اسكت ولاك.. أيُّ كلام هذا! أنت ابـن أخ آبـوش بيـك.. لاأريـد أن أسمع منك هذا الكلام ثانية. أتفهم؟

ثم قال لي أنه سيعلمني أصول وقوانـين المجتمـع الراقـي ويزوجـني مـن إحدى السيدات المحترمات الغنيات. «أنت شاب كمدقّ المهباج. والمجتمع الراقي يبحث عن أمثالك بالحيلة والفتيلة!» هكذا كان يقول لي.

أدخلوني إلى الحمام. لا أقصد حمام السوق. بل حمام البيت. ثم فصّلـوا لي ملابس جديدة ألبسوني إياها. جعلوني أضع ربطـة عنـق. وصـرتُ آكـلاً نائماً في البيت، لا أقوم بأي عمل، وعمي يقـول لي: «افتـح أذنيـك جيـداً. وتعلم كل شيء». ذات يوم قال لي:

– الليلة عندنا حفلة* لاُ هلآهُـه.

– لم أكن أعرف أنك من جماعة الأحزاب ياعمي. من أي حزبٍ أنت؟

– لا أقصد حزباً ياغبي. هذه حفلة من حفلات الوسط المخملي.

---

* كلمة Parti تعني حزب وحفلة

Twitter: @ketab_n

حل المساء وبدأ الضيوف يتوافدون. لكـن مـا أثـار استغرابي واستيائي الشديد، أن كل من يدخل البيت ينقضُ على زوجة عمي ويقبّلهـا. ظننـتُ أول من فعل ذلك قريباً من أقربائها وتجاهلتُ الأمر. ولكن مع ذلك بقيت شكوكي لأن هذا التبويس ليس تبويس أقارب. من الخدين ومـن الشـفتين.. ثم تكرر الأمر مع كل الوافدين.. لم أعد أحتمل. ذهبتُ إلى عمي وقلتُ له:

– سأخبرك بشيء ياعمي ولكن لا تغضب. هدِّئ نفسك ولا تنفعل..

– ماذا؟

– وماذا تريد أن يحدث أكثر من ذلك يا عمـي؟ لم أر في حيـاتي رذالـة مثل هذه.. قلتَ لي أنك تقيـم حفلـةً وليـس قـوادة! الجميـع يقبّلونهـا بـلا حياء...

اتّضح لي أن عروق الحياء والعار قد طقّت عند عمي. لـو سمـع أحدهـم عندنا في البلد أن رجلاً قبّل زوجته ـ رجلاً واحداً فقط ـ لقتله من كـل بـد. أما عمي الديّوث هذا فابتسم وقال لي بلا حياء:

– هذه عادة المجتمع الراقي ياابني. سوف تعتاد ذلك..

– لعنة الله على هكذا عادة! ، قلتُ صارخاً.

– أنا أيضاً أبوس زوجاتهم وبناتهم.. وماذا في ذلك؟..

في تلك اللحظة أدركتُ أن هؤلاء يتبادلون زوجاتهم، وليس سـدى أنهـم ينادون أبا ذر ذا الحسب والنسب باسم آبوش. وبالفعل رأيـتُ عمـي أيضـاً يقبّل الرجال والنساء القادمين. أنا أيضاً اشتهيت تبويس عدد مـن النسـاء، نويتُ مرتين، لكنني لم أجرؤ.

كان عمي قد علّمـني مسبقاً أن أخـاطب نسـاء المجتمع الراقـي بلقب "سيدة" وهكذا فعلت. غير أن طريقتي في لفظ الكلمة لم تعجبه. انتحى بـي جانباً وقال:

– لا يصح يابني أن تقول «سَيِّدا» علـى طريقـة الباعـة المتجولـين، وإلا عرفوا أنك غريب علـى هـذا الوسـط وغـرّ. عليـك أن تـدوّر اللفظـة في فمـك وتكوّرها وتبلعها وتلفظها هكذا.. «سيدة».

Twitter: @ketab_n

تعب عمي كثيراً وهو يعلمني أصول الأتيكيت. حتى أنه دفعني لأخذ دروس في الرقص. وذات يوم قال لي:

- هيّئ نفسك. ثمة حفلة راقصة غداً. سنذهب إلى قلب المجتمع الراقي وهناك أنت وشطارتك.. ابحث عن رزقك بنفسك..

- وكيف ذلك؟، سألتهُ.

- ألم تأتِ إلى استانبول بحثاً عن عمل؟ حسناً.. آه لو كنتُ شاباً مثلك..

لم أفهم شيئاً مما قال.

في مساء اليوم التالي ذهبنا إلى تلك الحفلة الراقصة أنا وعمي وزوجته. ومنذ دخولنا بدأ التبويس والمعانقات. عددٌ كبير من الرجال بوّس زوجة عمي. ومن شدة غيرتي عليها انتقمتُ لها بأن قبّلتُ عدداً من النساء والبنات. لكنني لم أستمتع جيداً بالتبويس وسط ذلك الزحام الشديد.

وفي إحدى اللحظات، اقترب منا رجل فقال له عمي:

- أرجوك اهتم بزوجتي قليلاً. لا تتركها وحدها. عندي بعض المشاغل..

- بكل سرور، قال الرجل وتأبط ذراع زوجة عمي وابتعد بها.

ياإلهي ماأوسع دين ومذهب عمي هذا! بقيتُ أنا معه. قال لي:

- لقد أبعدتُ زوجتي خصيصاً كي أتفرغ لك وأعلّمك كل ما يجب أن تتعلمه هنا. قبل كل شيئ يجب أن تعرف الموجودين واحداً واحداً. انظر هذه المرأة التي تدير ظهرها إلينا تدعى «مارلين فاتوش»، والبنت التي معها «سيلفانا نور» وتلك التي قربها «جينا توركان».. وهذه التي قرب ذاك الأصلع هي «صوفيا ليلى».. أما تلك التي في الزاوية القصوى فهي «ليزآتين».. أما الفتاة الواقفة قبالة ذاك المكرش فهي «أودري مليش».. اختر واحدة من هؤلاء وضعها في عقلك..

Twitter: @ketab_n

ثم أوضح لي سر أسمائهن المزدوجات فقال أن كـل واحـدة منهـن تشّبه نفسها بنجمة سينما عالمية فتـأخذ نصـف اسمهـا وتضعـه أمـام اسـم الدلـع خاصتها. ثم تابع يقول:

– افتح أذنيك جيداً لأخبرك بعلاقات هـؤلاء النسـوة والرجـال.. أتـرى هذا الرجل الذي يتكلم محركاً يديه؟ هذا هو زوج سيلفانا نور الـتي أشـرتُ لك إليها.. وهذا الرجل النحيـف هـو آخـر خطيـب لجينـا توركـان. وذاك الرجل الذي يجتاز الباب هو زوج «مارلين فاتوش».. انظر إلى الرجل الـذي نهض الآن ليرقص.. إنه «صديق العائلة» الخاص بصوفيـا ليلـى.. أمـا هـذا الرجل الطويل فهو الـزوج السـابق لليزآيتـان.. هنـا في المجتمـع يجـب أن تعرف صلات النساء والرجال جيداً...

وأوضح لي عمي أن رجال المجتمع يُعرفون بدالّة علاقـاتهم بالنسـاء. ولا يمكن معرفتهـم إلا بهـذه الطريقـة. فيقـال زوج فلانـة أو خطيـب فلانـة أو عشيق فلانة.. إلخ.. وهناك بعـض النسـاء يُعرفـن عـن طريـق مصـاهراتهن. فيقال كنة رجل الأعمال فلان الفلاني.. ولأن كل إمـرأة كـانت بعيـدة عـن رجلها فقد تشوّش ذهني جيداً مما سمعته من عمي.

في تلك الأثناء رأيت زوجة عمي ومعها امرأتان يلاحقهن أكثر من عشرة رجال، يتقدمنَ نحونا. بدأ فصلٌ جديد مـن التبويـس والمعانقـات.. فتحـتُ أذنيّ جيداً لكي أفهم وأستفيد من كل كلمةٍ تقال. قالت واحدة من المرأتين:

– الأسبوع الماضي «عملتُ فرنسا».

اقتربتُ من عمي وهمستُ في أذنه:

– كيف عملتْ فرنسا ياعم؟

– إن لغة المجتمع الراقي تختلف عن لغتنا يا بنيّ..

عرفتُ لاحقاً أنها تقصد: «ذهبتُ في رحلة إلى فرنسـا..» وعرفـتُ أيضاً أن معنى «أخذتُ بانيو» هو «تحممتُ»، ومعنى «أخذتُ سيارة» هـو ركبـتُ سيارة.

قالت إمرأة أخرى موجهةً حديثها إلى تلك التي «عملت فرنسا»:

Twitter: @ketab_n

– وأنا سأعمل أمريكا في الشهر القادمِ...
ثم بدأوا يمتدحون ثياب بعضهم بعضاً. قالت واحدة لأخرى:
– ياله من «إليجانس»!
وقال عمي لإحدى النساء:
– وثوبك آلي ديور*..
ياترى من هو علي، وماذا يقول؟ كنتُ أفكر بهذا عندما همست زوجة عمي في أذنه:
– كم مرة سأعلّمك هذا ياآبوش! لا تقل آلي ديور، بل: آلاديور..
ثم عفسَ عمي مرة أخرى عندما سأل إحداهنّ:
– لمن الكوب الذي عليكِ؟
ضحك الجميع بصوت عال. فقالت له:
– لا تقل Kup ياأبوش، قل Kup .
عندها أجابت المرأة التي كان عمي وجّه سؤاله إليها:
– باريس..
فابتسم عمي وقال:
– إذن ماذه إن باريس؟*
عندئذٍ لكزته زوجته في خاصرته وقالت له:
– ليلدغ الدبور لسانك ياآبوش؟ لا تقل ماده إن. قل: ميد إن..
وهكذا كانت تصحح له كلما أخطأ وعفَس بعد لكزه أو قرصه أو ما إلى ذلك وفجأةً توجهت إحدى النساء إلي وقالت لي:
– ممكن تعطيني واحدة لاكي سترايك..
طبعاً أعطيها. لكنني لا أعرف ما الذي تطلبه. نظرتُ ببلاهة إلى عمي، لكنه لم ينجدني. قالت المرأة مجدداً:
– إن لم يكن لديك لاكي سترايك أعطني بول مول..

---

* آلي ديور = يقول علي
* made in Paris يلفظها الرجل وفقاً لقواعد اللغة التركية

Twitter: @ketab_n

– إني أعطيك روحي.. ولكن..

– طيب أعطِني كامل..

ولكن من هو كامل ياترى؟ لحسن الحظ أنجدني عمي بأن همس في أذني:

– ولاك. أعطها سيكارة.

أخرجت علبة دخاني التي من صنف «البرنجي». لكن عمي عنّفني قائلاً:

– أعده إلى جيبك ياغبي. هذا معيب! في المجتمع لايدخنون سوى السكائر الأمريكية المهرّبة.

أخرج من جيبه علبة دخان أمريكي ومدها إلى المرأة. انتحى بي جانباً وقال:

– هيا تجول هنا وهناك واختلط بالناس. سيأتيك الرزق من عند الله..

– لا أستطيع الإستمرار هنا ياعمي. أريد العودة إلى البيت..

– ولِمَ ذلك؟

– هذا المكان أشبه بمستشفى مجانين. لا يوجد أحدٌ عاقل هنا.

– واي واي واي! إذن فأنت بحاجة لأصحاب العقول! ، قال ساخراً مني.

ابتعدتُ عنهم على مضض.. تجولتُ هنا وهناك. لكن الوقت لم يكن يمضي. كنتُ أرى عمي أو زوجة عمي يرقصون.. ولكن ليس مع بعضهما.. كلٌ يتخذ له رفيقاً آخر.. كان من جملة مالقنني إياه عمي هو أن أفضل وأسهل طريقة للتعارف مع النساء هي إشعال سكائرهن. قال أن عليّ أن أراقب النساء جيداً. وما إن أراها أخرجت سيكارة حتى أركض إليها وأشعل لها من قداحتي التي ينبغي أن تكون جاهزة دوماً في يدي. ونساء المجتمع لا يشعلن سكائرهن أبداً. يضعن السيكارة بين شفاههن وينتظرن من يشعلها لهن. وسبب ذلك أن المرأة تقيس قيمتها في السوق وفق عدد الرجال الذين يركضون ويتسابقون لإشعال سيكاراتهن... وعندما تشعل

Twitter: @ketab_n

لها، فهي تقول لك: «شكراً» ويجب أن ترد عليها: «عفواً. هذا واجبنا. بسيطة» أو ما إلى لك. فإذا أعجبت بك المرأة قالت لك كلمة أخرى. وإن لم تفعل، عليك أنتَ أن تبادرها بجملة ما كأن تقول لها مثلاً: «الطقس جميل هذه الأيام..» أو ما شابه. هكذا علمني عمي. وبناءً على هذه النصيحة كانت قداحتي دوماً بيدي وأنا أراقب النساء متنقلاً في أرجاء الصالون الكبير. نعم صادفتُ عدداً من النساء وهن يخرجن سكائرهن. ركضتُ نحوهن وبيدي قداحتي.. إلا أنني دائماً كنتُ أتأخر وأجد من سبقني إليها.. وحتى أتغلب على سوء حظي صرتُ أراقب إمرأة بعينها. أكمن لها في مكان قريب وأنتظر اللحظة الذهبية، ما إن تمد يدها إلى محفظتها لتخرج سيكارة، حتى أرى عدداً من الرجال، لا أدري من أين نبتوا، قد سبقوني إليها..

أخيراً حانت فرصتي.. رأيت إمرأتين قرب الدرج، أخرجت واحدة منهما سيكارة وضعتها بين شفتيها. ولحسن الحظ لم يكن هناك أي رجل قريب. ركضتُ إليها ومددتُ قداحتي الجاهزة.. ولكن سوء الحظ لمْ يفارقني.. فالقداحة لم تشعل رغم كل محاولاتي. بينما كانت المرأة قد أمسكَتْ يدي التي فيها القداحة بكلتَيْ يديها وراحت تداعبها بلا توقف وقد ثبّتَتْ عينيها في عيني والسيكارة بين شفتيها. إلى الجحيم أيتها القداحة اللعينة! قالت لي المرأة الأخرى:

- قداحتك لا تعطي ناراً!

ساءني كلامها فضغطتُ على دولاب القداحة بكل قوتي فاشتعلت أخيراً.

- إن قداحتنا تعطي ناراً، قلتُ للمرأة الثانية متباهياً.

بينما تابعت الأخرى مداعبة يدي بين راحتيها قليلاً ثم تركتها وهي لا تزال تحدق في عينيّ بعمق وقالت:

- شكراً لك ياروحي..

- هذا واجبنا يا سيدتي.. العفو.. لم نفعل شيئاً يذكر ياسيدتي..

Twitter: @ketab_n

ضحكتا بابتهاج. كانت إحداهما بيضاء والأخرى شقراء. من الصعب تقدير أعمار أولئك النسوة المصبوغات الوجوه. يمكن أن تكون الواحدة في العشرين أو في الستين من عمرها.. قالت لي الشقراء:

- هذه أول مرة أراك فيها..

فهمتُ أنه يتوجب عليّ أن أعرّف بنفسي. ولكن كيف؟

- أنا ابن أخ السيد أبو ذر، قلتُ لها.

- أيُّ أبا ذر؟

- أنا ابن أخ آبوش!

رأيتُ علامات عدم الفهم على وجهيهما فتذكرتُ أن رجال المجتمع الراقي يعرّفون وفق صلاتهم بالنساء. فقلتُ لهما:

- أنا ابن أخ زوج بتوش الذي هو آبوش.

الشقراء عرفت. لكن البيضاء سألتْها:

- أية بتوش؟

-بتوش يا روحي، تلك التي لم تتعرف على زوج سابق لها.. ألا تذكرين؟

- صحيح؟ معقول؟ لم تتعرف على زوجها السابق؟ أرجوك احكي لي..

ووفقاً لرواية تلك الشقراء، كانت زوجة عمي في وقتٍ من الأوقات متزوجة من رجل أمريكي، وأثناء رحلة بحرية تعرّفا على رجل تركي على ظهر السفينة التي تنقلهما. خلال الرحلة الطويلة توطدَتْ أواصر الصداقة بين هذا التركي وبين بتوش. قال لها ذات يوم: «كم تشبهين امرأة كانت زوجتي ذات يوم. كانت كل أمورها معكوسة مثلك. في النهار كانت لا ترتدي ملابس داخلية. فقط في الليل عندما تدخل الفراش كانت ترتدي سروالها». فقالت له بتوش: «أنت أيضاً تشبه زوجاً سابقاً لي. كان مثلك ما إن يضع رأسه فوق الوسادة حتى يبدأ بالشخير».. فرد عليها الرجل: «يبدو لي وكأنني رأيتك من قبل، ولكن أين ومتى؟» وتقول بتول: «هذا

Twitter: @ketab_n

الوجه ليس غريباً عليّ..» وبسؤالٍ من هـذا وسـؤالٍ مـن تلـك أدركـا أخـيراً أنهما كانا متزوجين سابقاً..

قالت المرأة البيضاء معلِّقة على ماسمعَتْ:

– طبعاً يا حبيبتي. يقول المثل الحيوانات تتعارف بالشم والبشر بتبادل الكلام. فقالت الشقراء موضحة:

– مـن الطبيعـي ألا تتذكـر بتـوش زوجهـا السـابق، لأنهـا تزوجـت واستهلكت عدداً كبيراً من الرجال.. فأيهم تتذكر لتتذكر.. أما الرجـل فـلا يستطيع أن يتذكرها لأنها مع بداية كل مغامرة عاطفية جديدة تغير هيأتهـا ولون شعرها وزينتها، فتصبح إمرأة أخرى..

المرأة البيضاء:

– بتوش على حق. لأنك ما إن تطيلي حياتك الزوجية مع رجـل حتـى لا يَبْقَ مـن قيمتـك شـيء. عليـك أن تركـزي علـى رجـل آخـر منـذ بدايـة زواجك، وبذلك تنقذين اعتبـارك. عفـارم عليهـا. حسـنٌ مـا تفعلـه! إن لم تنفصل عنه هي، فسوف يفعل هو على أية حال. ولذلك من الأفضل للمـرأة أن تتصرف أسرع من زوجها وتكون المبادرة دوماً بيدها. انظري إليّ أنا علـى سبيل المثال. أنا متزوجة منذ سنة ونصف. ومالنتيجة؟ زوجـي لا يقدرنـي وليست لي أية قيمة عنده.. على المرأة أن تحيي زوجهـا في قلـق دائـم علـى حياتـه الزوجيـة وخشـية يوميـة مـن تـرك زوجتـه لـه، عليهـا أن تجعـل الصحافة تكتب عنها وتتنبأ يومياً بطلاقها القريب من زوجها.

ساءني جداً كلام هاتين المرأتين عن زوجة عمي. بذريعة المديح الظاهري نهشتا لحمها نيئاً بحضوري. في تلك اللحظة ظهـر رجـلٌ علـى الميكرفـون. نفخ فيه ثم قال:

– سيداتي، سادتي! لدينا مفاجأة كبيرة لكـم هـذا المسـاء. لقـد وافقَـتْ السيدة المبجلة بتول آبوش على رجائنا لها باسم جمعية النهوض بلا أدري ماذا (لم أسمع كلامه جيداً فلم أعرف اسم الجمعية). في تلك اللحظة ضرب

Twitter: @ketab_n

طبال الفرقة على طبلته ثم ضرب بعصاه على آلة الجاز فأطبق الصمت على القاعة. تابع صاحب الميكرفون يقول:

- أيها السادة ندائي لكم! إن أذواقكم ستتبارى في حضور السيدة بتول! لم أفهم شيئاً وخجلت من السؤال. لكن المرأة الشقراء تطوعت بنفسها وقالت لي:

- إنهم يقدمون شفتيْ زوجة عمك في المزاد العلني.

-كيف يعني؟

- من يدفع أكثر سيقبّل زوجة عمك! ، قالت البيضاء.

عندنا في البلد يقتلون رجلاً من أجل كلمة كهذه. وشرف عمي هو شرفي.. ولكن ماذا أفعل؟ ابتسمتُ لها من باب أنني أسمع مزاحاً. فقالت المرأة ذات البشرة البيضاء أن شفتيها هي قد عرضتنا في مزادٍ علني لصالح إحدى الجمعيات الخيرية منذ ثلاث سنوات، وأن المزاد قد رسى على تاجر قطن يدعى حسن بخمسين ألف ليرة.. فعلقت الشقراء:

- يا بلاش يا حلوتي..

- ولكن العملة كانت لها قيمتها وقتذاك. كان الدولار يساوي ليرتين ونصف في السوق السوداء.. خمسين ألفاً بعملة تلك الأيام.

ظهرت زوجة عمي في صدارة القاعة. اندلع تصفيق حار. تجمع كل الناس حولها. استفدت من الازدحام فتخلصتُ من المرأتين. أمسكت زوجة عمي بالميكرفون وقالت:

- أشكر مجاملتكم لي على اختياري لهذا المزاد..

خطف الرجل الميكرفون من يدها وصاح:

- لنبدأ! سيحصل على هذه السعادة من يدفع أكثر. لنبدأ! إمتحانٌ لأذواق الرجال المرهفة!

صاح أحدهم:

- خمسة آلاف!

فرد آخر:

Twitter: @ketab_n

- عشرة آلاف!

- إحدى عشر ألفاً!

- إثنا عشر!

وتتابعت المزايدة...تكهرب الجو. إذن سيقبّل زوجة عمي من يدفع أكثر؟ طيب أين هو أبو ذر أفندي؟ يجب أن أبحث عنه. إذا سمع بهذه الفضيحة يمكن أن يرتكب جريمة! وأنا أتراكض هنا وهناك بحثاً عن عمي سمعتُ امرأةً تقول لرفيقتها:

- لم يحسنوا باختيار بتوش. لا يكفي أن تكون المرأة جميلة من أجل مهمة خيرية كهذه. يجب أن تكون عريقة المحتد أيضاً.

انحشرتُ في الازدحام. سمعتُ أحدهم يقول لآخر هامساً:

- زوجتي ستطق من الغيرة لأنهم سيقبّلون بتوش.

وكان أحد الرجال يعزّي زوجته قائلاً:

- لا تزعلي يا حلوتي. هناك حفلات راقصة كثيرة ستقام لصالح الجمعيات الخيرية.

في تلك اللحظة رأيتُ عمي. كان منزوياً في أحد الأركان بلا مبالاة ينظر إلى زوجته. فقدتُ صوابي وناديته بصوت عالٍ فيه استغاثة:

- يا عمي!

أخذ الناس يتضاحكون. شققتُ طريقي نحوه من أجل إنقاذ زوجة عمي وإنقاذه هو من جريمة سيرتكبها حتماً إذا حصل المحظور. وصلتُ إليه وقلتُ له:

- أتعرف ما سيحدث يا عم!

- ماذا؟

- هؤلاء خططوا لتلطيخ شرفنا. سوف يتحايلون ليقبلوا زوجتك..

صار يضحك بينما كنتُ أنتظر منه أن يستلّ مسدسه. قال:

- يا بني: أتعرف أين نحن؟ نحن في قلب الحضارة. وليست كل إمرأة جديرة بأن يعلنوا عن قبلتها في المزاد. إنهم يختارون أجمل النساء حتى

Twitter: @ketab_n

يزيد عدد المزايدين... عليك أن تشعر بـالفخر لأنهـم اختـاروا زوجـة عمـك لمزاد لصالح إحدى الجمعيات الخيرية...

يا إلهي! لقد تأبّش الرجل بكل معنى الكلمة!

- طيب يا عم. ولكن ماذا لو قبّلها رجل غريب أمام هؤلاء الناس!

- لا أحد يستطيع تقبيلها. لأنني سأدفع الثمن الأعلى. ولن يقبّلها أحد غيري...

أثناء هذه المحادثة وصل المزاد إلى خمسين ألف. صمت الجميع. صـاح المنادي:

- خمسون ألفاً! أما من مزيد؟

- هيا يا عم. ماذا تنتظر؟ قلتُ له وأنا ألكزه.

- خمسون ألف ومئة!

فصاح أحدهم:

- ستون ألف!

أطبق الصمت مجدداً. لكزتُ عمي مرة أخرى. فصاح:

- ستون ألف ليرة وليرة!

رد أحدهم للتو صائحاً:

- سبعون ألف!

- هيا ياعم! قاوم!

لكزته كثيراً. لكنه لم ينبس ببنت شفة. صار وجهه بلون الرماد. اقترب الرجل الذي صاح «سبعون ألف» من زوجة عمي متهيئاً لتقبيلها.

- إن شرفنا في الميزان ياعم!،

ولكن من أين له الشرف. ظل صامتاً بلا حراك.. ثـم تنهـد بعمـق وقـال لي:

- لا.. سبعون ألف مبلغ كبير.. ليقبّلها..

آهٍ! اللعنة على المال وأبو المال! لو أنــي أملـك مـالاً لدفعـتُ أيّ مبلـغ. مليوناً.. عشرة ملايين.. مهما كان المبلغ كبيراً، حتى لا أترك شفتي زوجـة

Twitter: @ketab_n

عمي لرجل غريب. كنتُ قبلتها أنا.. على الأقل أنا قريبها.. ابن أخ زوجها..

تلخبط الجو.. اقترب الرجل منها أكثر.. علا تصفيقٌ صاخب. لم أحتمل المكوث هناك أكثر من ذلك.. خرجتُ فوراً... ولم أعد أبداً إلى بيت ذلك الديوث أبو ذر أو آبوش.. ذلك الزفت الذي هو عمي.. لم أر وجهه بعد تلك السهرة الفضيحة. اشتغلتُ أجيراً في مقهى. بعرق جبيني، بعملي الشريف فتحت هذه المقهى في نهاية المطاف.

أتسأل عن عمي؟ وماذا تأمل من أمثاله؟ وبتوش تلك هل تترك للرجل مالاً؟ أكلت كل أمواله ثم طردَتْهُ. وعمي تقدم به العمر فعاد إلى قريته، إلى زوجتيه القديمتين.. لم أسمع عنه أخباراً منذ مدة طويلة. ومدام آبوش؟ لا أعرف شيئاً عنها.. بعد تلك الفضيحة لا رأيتها ولا سمعتُ باسمها.

هل تقدم تبرعاً يا سيدي؟

من؟ كاظم؟ أنا كاظم! لماذا تريدني؟ بتول؟ أية بتول؟ من هي بتول؟ آآآه.. فهمت.. شغلتي السابقة بتول.. نعم عرفتها.. أتقول أنها عمتك؟ بتول عمتك. غريب والله.. أنا لم أرك قط.. لماذا لم تأتِ إلينا أبداً مادامت بتول عمتك؟ وأين هي الآن؟ آه.. أنت لا تعرف. وجئتَ تسألني عنها؟ أتسألني كيف تزوجنا وكيف انفصلنا؟ لقد مضى وقتٌ طويل.. ولكن لأحكِ لك.. أنا بالأصل من التركمان البدو.. من قديم الزمان جئنا وحططنا الرحال هنا.. ولكن لم نجد عملاً ولا مالاً ولا أي خراء.. لا تؤاخذني.. لقد قدمتُ خدمات كثيرة لهذا الوطن.. أتسألني كيف؟ مثلاً، عندما استقر بنا الرحال ذهبتُ إلى الشرطة وأخبرتهم عن كل أعداء الوطن من جواسيس وما إلى ذلك داخل عشيرتنا.. لقد أخبرتُ عن عدد كبير من الخونة والجواسيس.. ومقابل خدماتي هذه كانوا سيوظفونني في الشرطة. لكني وجدتُ الراتب قليلاً فلم أقبل. بخدمة وطني بهذه الطريقة فتحتُ ورشة نسيج.. كان يوجد وقتها سوق سوداء... الخيوط في السوق السوداء، القماش في السوق السوداء.. كل شيئ في السوق السوداء.. أعطاني الله من ماله.. أغدق عليّ

Twitter: @ketab_n

عطاءه.. وتقدم كاظم وكبر.. ثم صارت لي بدلاً من الورشة ورشتان.. ثم أربع.. ثم ثماني.. إلى الأمام قال الله لعبده كاظم! تقدم كاظم.. بنى كاظم مصنعاً للخيوط.. بنى كاظم مصنعاً للنسيج.. لا تظن أنني أمتدح نفسي. لقد قدّمتُ خدماتٍ جليلة لوطني وشعبي.. وكلما طلبوا مني المساهمة في بناء جامع أو غيره، لم أتأخر عن مد يد العون.. وعندما تقدمتُ وكبرتُ لم تعد زوجتي القديمة تجاريني وتناسبني.. فطلقتها. كانت عندي ابنة اسمها بيريش... يعني بيرايه... عندما تزوجت ثانية لم تقبل زوجتي الجديدة بوجود بيريش معنا... فطلقتها هي الأخرى... تزوجت وطلقت أربع نساء.... ذات يوم وأنا جالس في مكتبي دخلت امرأة ومعها دفتر تبرعات... ولأقل لك أن هذا كان يتكرر كل يوم. في كل يوم تدخل امرأة وتطلب تبرعاً لجمعية خيرية ما... جمعيات العميان واليتامى وما شابه.. وأتبرع لهن جميعاً. كنت أتعجب لأمر هؤلاء النسوة.. أليس لديهن شؤون أخرى يهتممن بها؟.. لقد فهمت يا بني أن هؤلاء النسوة يضجرن في بيوتهن ولا عمل لهن ولا أولاد.. عندهن الخدم والحشم والطباخون وكل شيء... ولذلك يضجرن... يمسكن بدفتر تبرعات وينتقلن من باب لباب.. من فضلك تبرع للجمعية الخيرية الفلانية.. تنظر إلى المرأة فإذا هي جميلة شهية... من المعيب ألا تعطيها مالاً.. فأعطيها... وأنا أعرف السبب الحقيقي لمجيئهن... عن هذا الطريق يتعرفن على رجال جددٌ، يتخذن من بينهم أصدقاء، يتلقطن رزقهن... وإلى جانب ذلك يساعدن الجمعيات الخيرية.

ذات يوم وأنا جالس في مكتبي، دخلت عليّ إحداهن وطلبت مني التبرع لإحدى الجمعيات الخيرية، كانت جميلة جداً. من الثواب أن ألبي طلبها وأتبرع لأعمال الخير. قلت لها:

– تفضلي ياسيدتي تفضلي. لنتبرع.

جلست. تحدثنا، تفاهمنا. من؟ هي عمتك التي تسأل عنها... هكذا تعرفتُ عليها. ثم عمقنا الصحبة. رمينا العدس داخل الفرن. وعندما وجدت أنها تفاهمت مع ابنتي بيريش وأحبتها، تزوجنا.

Twitter: @ketab_n

لا تظن أني أتباهى، لكنني رجل حمش جداً، حتى أنهم كانوا يلقبونني بكاظم الحمش. كنت أحصي عليها أنفاسها. كان ممنوعاً عليها الخروج من البيت دون إذن مني. ذلك أني سمعت إشاعات كثيرة عنها.

قلت لها: «اسمعي يابتوش. ليست أصابع اليد متساوية. يوجد سفلة ينظرون إلى نساء الآخرين بعين غير شريفة. إذا سمعت عنك أي كلام خارج الطريق، اقتلعت عينيك الاثنتين!».

لماذا يعيش الرجل؟ طبعاً من أجل شرفه. أنا لا أسمح بأن يتأذى شرفي بكلمة. على الزوج، إن كان رجلاً حقاً أن يغار على زوجته. وإذا تلطخ شرفه، عليه أن ينظفه بالدم.

قد لا تصدقني الآن ولكنها الحقيقة. لم تكن بتول تجتاز عتبة باب البيت دون إذن مني، لأنها تعرف طباعي. تعرف قسوتي وحماشتي. كانت تحت رقابتي الدائمة. وكل صباح، قبل خروجي من البيت كنت أوقع بالطباشير على قفا جميع أحذيتها، دون خبر منها. مارأيك بدهائي! الشيطان نفسه لا تخطر له هذه الفكرة. وعند عودتي مساء إلى البيت أتفحص، على غفلة من بتول، أحذيتها فأرى علامات الطباشير على حالها. معنى ذلك أنها لم تخرج من البيت. يجب على الزوج أن يكون حذراً ولا يثق بزوجته قط. ولكن مع ذلك يوجد رجال مغفلون لا يهمهم من أمر الشرف شيء. حتى الحيوان يغار على أنثاه. ما إن تفلت زمام المرأة حتى تدوس على شرفك. لماذا؟ لأن المرأة هي المرأة. عقلها صغير، إغواؤها سهل. لنقل أنها لم تنجر للإغواء مرة، مرتين، ثلاثاً، ولكنها أخيراً ستنخدع وتنجر وراء الإغواء. من أين أعرف ذلك؟ لأنني أغويت نساء كثيرات ولافخر!

أثناء حياتنا الزوجية قيلت شائعات كثيرة عن بتول في أوساط المجتمع الراقي. ربما سمعت بعضاً من تلك التقولات. لكنها كلها كاذبة، وأنا لا أكترث لها. ماذا يقول المثل؟: المهرة تصهل وفقاً لخيالها. والمرأة تتدلع وتتغنج كما يحلو لزوجها. تسألني لماذا انفصلنا؟ لقد مر وقت طويل... والله

Twitter: @ketab_n

نسيت السبب مرت سنوات طويلة... آه... تذكرت الآن. عدت إلى البيت ذات مساء. وكالعادة تفحصت قفا أحذيتها فوجدت إحدى العلامات وقد امّحت. أدركت أنها خرجت من البيت دون إذني. طلقتها فوراً... آه يابتول آه... دمرتيني يابتول... دعني أبكي وأنفض عن نفسي همي... آه يابتول آه... كيف فعلت هذا بي؟

كانت تحب عمل الخير. بعد طلاقها مني عادت تمسك دفاتر التبرعات وتدور بيتاً بيتاً ومكتباً مكتباً... «هل تقدم تبرعاً ياسيدي؟».

آه يابتول... لم أستطع نسيانها رغم مرور السنوات الطويلة... آه يابتول... أحرقتني يابتول!

خبر في جريدة

رجلٌ يدّعي أنه زوج السيدة وارثة الملايين ويقول أنها مخطوفة.

السيد «أ.ي» يبحث عن زوجته بتول التي هربت مع عشيقها واختفت عن الأنظار. ويزعم السيد «أ.ي» أن زوجته ورثت مئتي مليون ليرة وأنها خُطفت من قبل أناس يدعون قرابتها وأحقيتهم في ثروتها. وأوضح السيد «أ.ي» أن زوجته بتول قد ورثت ما قيمته مئتي مليون ليرة تركية من أموال منقولة وغير منقولة على أثر وفاة عمها المدعو حسن والذي كان واحداً من أغنى أغنياء مصر. وأضاف يقول:

«إن بعضاً من أقرباء زوجتي، ممن لم يسألوا عنها يوماً، عندما سمعوا بقصة الميراث ظهروا إلى العلن هم وآخرون لا يمتون لها بصلة ولكنهم يدعون أنهم أقرباءها، ظهروا طامعين في ثروتها. لذلك اضطررت لأن أضع يدي على قضية ميراث زوجتي. لكن أقرباءها لجأوا لألاعيب قبيحة جداً. تتبعوا حركات زوجتي التي هي مريضة نفسياً، غرروا بها وخطفوها. وزوجتي الحبيبة المريضة هي الآن بين أياديهم. وأنا أواصل بحثي عنها. عندما أصل إليها سأوضح لها الحقيقة المرة بكل عريها. وبذلك سأحرم أولئك السفلة الذين ضحكوا عليها وغرروا بها من أية حصة في الميراث».

وقد نشر السيد «أ.ي» إعلانات في الصحف يدعو فيها زوجته للعودة إلى بيتها، ويعلن عن أسفه لأي سوء بدر منه تجاهها طالباً غفرانها.

Twitter: @ketab_n

الصحفية المبتلية بالمرض الفتاك

مضى وقت طويل على تركي مهنة الصحافة. مع ذلك كان يحدث أن أكتب مقالات متفرقة من وقت لآخر وذلك حتى ما قبل شهرين من الآن. ولكن بعد إصابتي بهذا المرض صار كل شيء سدى. ما هو مرضي؟ إنه من النوع الذي تكتب عنه الجرائد هكذا «...لم تجدِ كل وسائل العلاج مع مرضه الفتاك... الخ...» إن مرضي هو من هذا النوع الفتاك. أهلي يخبئون عني حقيقة مرضي حتى لا تنخفض معنوياتي.. لكني أعرف. أنا بدوري أخفي عنهم مرضي ومعرفتي به. أنا وأهلي نلعب على بعض. أحياناً أصاب بالذعر، وخصوصاً في الليل... دعك من مرضي.

أنت تسأل عن بتوش الحلوة، أليس كذلك؟ لقد قالوا لك الحقيقة، نعم كانت صديقة حميمة لي، لكننا أضعنا دروب بعضنا بعضاً. هي ليست من النوع الذي يُنسى بسهولة. ولكن لا أعرف ما الذي حدث لها منذ سنوات وانقطعت أخبارها تماماً. أعتقد أنها - على الأرجح - منعزلة في مزرعة نائية في مكان ما بعيد.

في اللقاء الأخير الذي جمعنا رأيتها في وضع متدهور للغاية، وكانت تتوق للحياة بمفردها، كانت تكره كل الناس، وخصوصاً الرجال، ولذلك كانت ترغب بشراء جزيرة صغيرة لتمضي فيها ما تبقى لها من عمر وحيدة. والحق أنها كانت، وقتها، تملك من المال ما يكفيها لشراء جزيرة صغيرة. أقول وقتها، لأن بتوش مرت أيضاً بأوقات كانت لا تملك فيها قرشاً واحداً، وعليها ديون حتى من الطير الطائر. ولكن فجأة تراها بعد

Twitter: @ketab_n

أيام وهي تبعزق نقوداً بلا حساب. لم أعرف في حياتي إنساناً كريماً ولا يعطي اعتباراً للمال مثلها.

ربما لم تعثر على جزيرة مناسبة، أو لسبب آخر لا أعرفه، أقلعت عن فكرة شراء الجزيرة واستبدلتها بفكرة شراء مزرعة، هذا ما قالته لي في آخر لقاء بيننا. في تلك الأثناء كنت لا أزال أعمل في الصحافة. وكتبت في الجريدة التي أعمل فيها عن نيتها هذه.

إذن فأنت تهتم بكل شيءٍ عن بتوش الحلوة؟ حتى المعلومات الصغيرة التفصيلية؟ هذا يسرني جداً لأنني.. ولكن من الأفضل ألا أتحدث عن نفسي.. لا داعي لذلك أرجوك. ألأنها عمتك؟ ربما... أستطيع أن أساعدك بهذا الخصوص. لأنني على كل حال لن أستفيد من المعلومات التي في حوزتي. إن قيمة الشيء تختلف باختلاف مالكه. إن قطعة ورق مكتوبة لا قيمة لها عند ملايين الناس وجديرة بأن ترمى في القمامة يمكن أن تكون ذات قيمة رفيعة جداً بالنسبة لشخص تخصه الورقة. أليس كذلك؟.

جمعت قصاصات الجرائد هذه طوال سنوات لأنها هامة بالنسبة لي. إذا شفيت من المرض؟ .. لا، لست يائسة... لكنني حتى لو شفيت لن أستطيع الكتابة.. لم تعد لدي قدرة على العمل.

جمعت كل كتاباتي المنشورة قصاصات جرائد صنفتها في ملفات، وفقاً للموضوعات. لماذا كنت أفعل هذا؟ إن شرح الأمر يطول... حقيقة الأمر أن رغبتي الأصلية هي أن أصبح روائية. ولهذا السبب اشتغلت في الصحافة. أردت التعرف على الحياة عن قرب، من الداخل... أردت جمع المادة الأولية لرواياتي. لكنني ما إن دخلت عالم الصحافة حتى لم أتمكن من الخروج منه ثانية. وخلال حياتي الصحافية دخلت قلب الأحداث السياسية وكواليس البرلمان، صرت شريكة أسرار زوجات كبار رجال الدولة، كنت أدخل بيوتهم بلا كلفة، تعرفت على كل صغيرة وكبيرة في ما يسمى الوسط الراقي. كانت هذه معلومات غنية ومثيرة جداً بالنسبة لروائي. أستطيع القول أنني جمعت مواد أولية لعدد كبير من الروايات.

Twitter: @ketab_n

لكنني للأسف لم أستطع أن أنفخ الحياة في تلك المعلومات وأكتب رواية واحدة. لا أعرف سبب ذلك. أهو كسلي أم ضعف الموهبة عندي أم لأنني أضعت زمام نفسي في خضم الأحداث التي دخلتها؟ لا بأس، لقد انتهى الأمر الآن.. ولكن ربما... نعم، ربما في المستقبل... ولِمَ لا؟ إذا تحسنت صحتي، ومن يدري؟ من المهم جداً أن نعرف قيمة الأشياء.. كنت أقول لك ذلك منذ قليل. يجب إدراك أهمية الأشياء ومعرفة قيمتها. عندي ملفات مليئة بقصاصات جرائد، لا أحد غيري يعيرها أي اهتمام، لأنها لا تنفع أحداً غيري. أما أنت فتجمع المعلومات عن عمتك بتوش، ولذلك فكل القصاصات التي تخصها تهمك. سأعطيك تلك القصاصات. على الأقل يكون أحدٌ استفاد منها.

إن واحداً من الأعمال العديدة التي رغبت أن أقوم بها ولم أنجز أياً منها، هو كتابة رواية عن المجتمع الراقي. كان ثمة رجل يدعى بسبب طول وجهه «بدري ذو وجه الحصان» ورث ثروة ضخمة وقضى أكثر من نصف عمره في أوروبا. كان بدري هذا يقول لي كلما صادفني: «أرجوك ياآيسلي اكتبي تاريخ هذا المجتمع الراقي! لأن كل هذه القذارات لا تتسع لها رواية!». كان بدري هذا، رغم انتمائه لنفس المجتمع، يعادي مجتمع استانبول لأنه "شديد الابتذال" على حد تعبيره. كان يقول لي: «مياه المجاري هي نفسها أينما كانت. إن رفعناها إلى أعلى برج لن تتحول إلى مسك. ما الذي تغير في جماعة المجتمع هؤلاء بعد أن صعدوا إلى القمة بواسطة مصعد؟ يجب أن تكتبي تاريخ هؤلاء واحداً واحداً، بالاسم والتاريخ والساعة. لابأس، اشمليني معهم، اكتبي عني أيضاً، ولكن المهم أن تكتبي تاريخ هؤلاء السفلة...».

كان سبب عداء بدري ذي وجه الحصان لمجتمع استانبول الراقي هو بتوش الحلوة. كان مغرماً بها إلى درجة الجنون. لكنها لم تكن تعطيه وجهاً، رغم أنها كانت امرأة سخية، معطاءة ولا تكسر بخاطر أحد، كما ستفهم ذلك بعد قراءتك لهذه القصاصات. وقد تصرف بدري تجاه صدها

Twitter: @ketab_n

كالقط الذي يقول عن الكبدة أنها وسخة إذا استحال وصوله إليها. فمن جهة أولى صار عدواً لدوداً لمجتمع استانبول ومن جهة ثانية راح يختلق الأكاذيب عن بتوش. والحال أن الرجال عموماً هم هكذا. يعادون المرأة التي لا تتجاوب معهم أو تتركهم بعد علاقة ويفترون عليها باختلاق الأكاذيب. وقد تحولت بتوش إلى أسطورة بسبب الأكاذيب الكثيرة التي لُفِّقت بحقها. والأمر الغريب أنها لم تكن تغضب أبداً عندما تصل مسامعها تلك الأكاذيب. لم تكن تكترث قط. ولم أكن أفهم أكانت تحصل على لذة شاذة من سماع تلك الأكاذيب القذرة، أم أنها كانت ترى نفسها أعلى من أن تصلها لطخات الوحل حتى إلى أطراف ثوبها...؟

سبب اهتمامي ببتوش؟ قبل كل شيء كانت صديقة عزيزة أحبها. بالإضافة إلى ذلك كنت أريد أن أتخذ من بتوش محوراً أو بؤرة لروايتي عن أهل القمة. حول حياتها تتجمع كل الخيوط، وتكون هي لب الرواية. ولكي أحقق خطتي هذه فقد جمعت كل ماكتِبَ عنها في الجرائد، بما فيها كتاباتي أنا...

من الأفضل أن أريك ملف بتوش حالاً. سوف أجده الآن، لأقرأ لك آخر ما كتبته عنها. سبق وقلت لك أنني كتبت يوماً عن رغبتها في الإنزواء وحيدة في مزرعة نائية... لقد كانت سوداوية جداً في لقائي الأخير معها... حتى العمال الذين سيشتغلون في مزرعتها... هه... وجدتُ الملف. وهذا هو آخر ماكتبته عنها:

«رفضت بتوش الحلوة عروضاً سينمائية مغرية جداً».

«إن بتوش اللذيذة، التي تلفت الانتباه أينما حلت بفضل جمالها وجاذبيتها، رفضت في الفترة الأخيرة عرضين مغريين من شركتي إنتاج أفلام كبيرتين لبطولة مطلقة. ومع أن أحد العرضين جاء من منتج شاب حقق في السنوات الأخيرة أفلاماً ناجحة جداً، ولا يمكن أن ترفضه أية نجمة كبيرة، فقد رفضته بتوش ببساطة».

Twitter: @ketab_n

«هذه المرأة المطلوبة دوماً في الوسط المخملي، ورغم أنها في أكثر فترات شبابها نضجاً وأنوثة، بعد تجارب حياتية لم تنته على خير، ولأسباب مجهولة لم توضحها، وبصورة مفاجئة، قررت الانسحاب إلى عالمها الداخلي، بتوش الحلوة التي تقول: «كلما عرفت البشر، أحببت الحيوانات أكثر» تعيش بمفردها في شقة مليئة بالقطط والكلاب والببغاوات وطيور الكناري والأسماك وغيرها من الحيوانات، وتجد - حسب تعبيرها - بين هؤلاء السعادة التي افتقدت إليها عندما كانت تعاشر البشر. إن صداقتها مع القطط والكلاب وغيرها تعوضها عن الصلات الواهية التي كانت تربطها بالناس. أما الرجال، فهي تقرف من سماع اسمهم. وهي الآن ترغب بالانعزال في مزرعة نائية بعيداً عن الناس، وخصوصاً الرجال الذين يعترفون لها بحبهم».

هذا آخر ما كتبته عنها. وكان اللقاء الذي سبق هذا هو آخر لقاء لي بها. لهذا أقول لك أنها ربما تكون الآن منعزلة في مزرعة نائية. مع أن رغبات كهذه ليست أكثر من خيال. لأن امرأة اعتادت حياة صاخبة كحياتها لا يمكنها أن تعيش في عزلة... لا أعتقد أنها تقدر على ذلك...

آآآ... طبعاً. سأعطيك الملف لتقرأه كله. ولكن لي رجاء. اقرأه هنا. ذاك؟ هو خبر في جريدة. لست أنا من كتبه. احتفظت بالقصاصة لأن الخبر متعلق ببتوش. وهو يحكي كيف راحت بتوش ضحية جريمة. اقرأ. اقرأ!

«وجِدَت جثة الأميرة بتول فيشاوي داخل كيس، مرمياً في البحر».

من؟ الأميرة فيشاوي؟ هي نفسها عمتك بتول... كانت قد تزوجت أميراً عربياً فأصبحت أميرة. وفيشاوي هو كنية زوجها. وبدلاً من فيشاوي كانوا يقولون عنها «فشافيش» بقصد السخرية. أنا لا أعرف لماذا كتب المحرر عنها بهذا الاسم تحديداً، مع أنه كان قد مر وقت طويل على انفصالها من زوجها العربي. قد يكون الصحافي عثر في شقتها على بطاقة قديمة لها تحمل اسم الأميرة فيشاوي. إن لبتوش أسماء كثيرة. اقرأ الخبر من فضلك...

Twitter: @ketab_n

أخيراً تم التعرف على الجثة التي وجدت عارية داخل كيس منذ ثلاثة أيام في البوغاز، على شاطئ ببك، وتبين أنها للأميرة فيشاوي التي سبق لها أن تزوجت على التوالي أميرين عربيين وأحد ملوك النفط الأميركان، والمعروفة في المجتمع الراقي باسم بتوش الحلوة. وقد عُرف أن صاحب «شركة قلقان للإنتاج السينمائي» المدعو «باسم قلقان» هو الذي قتلها خنقاً. ويشتبه في أن القتيلة كانت تدير بعض الأعمال المنافية للقانون كالتهريب وخلافه في شقتها الشبيهة بقصر صغير، في شيشلي، والتي كانت تحيا فيها حياة حرة. وقد اعترف القاتل بجريمته وروى تفاصيل ليلة الجريمة لضباط مديرية الأمن.

إن موت الأميرة فيشاوي التي عاشت في أمريكا ثلاث سنوات، وبرّزت بحفلات العجون التي نظمتها هناك كل نجوم هوليود، قد حدث وفقاً لاعتراف القاتل، كما يلي: كانت الأميرة تعيش في شقتها وحيدة. وكانت المرايا تغطي كل جدران غرفة نومها حيث أقامت حفلات مجون كثيرة جداً. عندما داهمتها رغبة في أن تصبح نجمة سينمائية، راجعت مكتب شركة «قلقان» بعد أن قرأت إعلاناً عنه في جريدة. توسط لها باسم قلقان، وهو شاب أسمر، طويل القامة، في الثانية والعشرين من عمره، لتلعب دوراً في فيلم.

وهكذا بدأت صداقة بين الأميرة والمنتج الشاب استمرت شهوراً. كانت تدعوه إلى بيتها باستمرار ليقضي الليل معها. وكانت تدفع له أموالاً طائلة مقابل صداقته.

وقبل أسبوع، ذهب إليها باسم كعادته مع عدد من أصدقائه. شربوا وتسلوا مع بعض. ثم انصرف الجميع وبقي باسم مع الأميرة، انتقلا إلى غرفة النوم التي تغطي حتى سقفها المرايا. «بدأت أقرف منها!» هكذا قال باسم في مديرية الأمن. وقال أنه لم يستطع مجاراة الأميرة في شبقها الذي لا يعرف الارتواء وراحت تطالبه بإشباع رغباتها وتسخر من قلة فحولته وتستفزه...«وتحت تأثير الكحول» بالإضافة إلى استفزازها وسخريتها فقد

Twitter: @ketab_n

دفعها عنه ثم لف ذراعه اليسرى حول عنقها وخنقها. أسلمت الأميرة الروح بين ذراعي حبيبها باسم قلقان. ثم أخفى جثتها نصف العارية تحت السرير، جمع ماخف حمله في حقيبة، باع ما فيها لنساء الكباريهات. ويقول باسم في اعترافه: «في البداية استمتعت بحفلات الجنس الجنونية التي كانت تنظمها. لكنني في النهاية وصلت إلى حد القرف منها. وتحت تأثير الكحول في تلك الليلة قتلتها في لحظة غياب عن الوعي».

Twitter: @ketab_n

نبذة عن حياة الأميرة المجنونة

«بتول التي لا يعرف أحد شيئاً عن طفولتها، عاشت عند أسرة يعتقد أن لها بها صلة قربى، في الخامسة عشرة من عمرها. ومن استانبول انتقلت إلى القاهرة لتتزوج أحد أقرباء الملك فاروق، الأمير عزت محسن. لكن زواجها هذا لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما انفصلت عن الأمير المذكور لتتزوج قريباً آخر للملك فاروق هو الأمير حسين الفيشاوي. وعندما طلقت من هذا الأخير سافرت إلى أمريكا حيث تزوجت من أحد ملوك النفط وعاشت حياة ماجنة، وأصبحت واحدة من الوجوه المعروفة في المجتمع الأمريكي. وعندما انفض من حولها من تحبهم سافرت إلى باريس وأقامت فترة هناك حيث اشتهرت باسم مدام عملة صعبة وتلطخت سمعتها بعمليات تهريب. ثم عادت إلى استانبول لتحيا ما تبقى من عمرها في وطنها الذي قتلها الشوق إليه».

أمرك غريب... كأني بك فرحت وأنت تسمع أن عمتك ماتت! أم أنني مخطئة؟ لا، أبداً. أنا لا أخطئ في قراءة تعابير الوجه. أنت مسرور لسماع خبر وفاتها. إني أفهمك. إني أفهمك. كلكم هكذا أنتم رجال الأناضول. ثمة شبان يقتلون حتى أمهاتهم وأخواتهم لغسل عارهم. نعم. واضح أنك سررت لأن عمتك ماتت قتلاً وبذلك يكون قد أعيد الاعتبار لشرف عائلتك. إن الشرف الملطخ يغسل وينظف دوماً بدم من وسخ الشرف. أمرٌ غريب أن ينظفوا القذارة بالقذارة... فوق ذلك أنت طالب جامعي... إني أستغرب لأمرك. عمتك التي لم تقابلها في حياتك سلكت طريق السوء ولطخت شرف

Twitter: @ketab_n

العائلة... ثم راحت ضحية جريمة دموية... إذن نظفت شرف العائلة... طبعاً ستفرح...

ألا ترى تناقضاً في رفض بتوش لعروض سينمائية وبأعلى الأجور السائدة آنذاك، ثم في لجوئها إلى شركة إنتاج وهمية لتصبح ممثلة؟

صحيح أن الخبر الذي قرأته يحتوي على بعض الحقائق، لكنه بالمقابل يحتوي على عدد كبير من الأكاذيب المختلقة. وقبل كل شيء لا تفرح سدى، فإن عمتك لم تمت. قد تكون ماتت الآن. لكن المرأة التي راحت ضحية الجريمة التي ورد ذكرها في الخبر، ليست عمتك. إنها أخبار الجرائد.. لا يوثق بها. لا تستغرب إن قرأت يوماً خبر مقتلك في إحدى الجرائد. والأنكى من ذلك أنك ستقرأ أن قاتلك تم القبض عليه واعترف بجريمته. وقد لا يقتصر الأمر على قاتل واحد، بل يظهر ثلاثة أو أربعة أو حتى عشرة قتلة وكلهم يعترفون بقتلك، هذا يحكي كيف خنقك بيديه، وذلك كيف ذبحك وقطعك إرباً ثم وضع أشلاءك في صندوق رماه في البحر. وكل هذا طبيعي. أما إذا وصل الأمر بهم إلى اعتقالك واعترفت أنت بقتل نفسك، عندئذ تتخذ القضية نكهة جديدة وتصبح غير عادية. إن عدد القتلة الذين يعترفون بقتلهم ضحية واحدة هو مقياس لمدى تقدم أعمال الشرطة في بلادنا المتخلفة.

ولم يقتل القتلة المختلفون الضحية معاً، بل كلٌ على حدة، في أمكنة وأزمنة مختلفة. والشرطة تعرف أن هذا مناف للحقيقة والمنطق. ولكن ماذا باستطاعة الشرطة أن تفعل؟ لأنه إذا تبين أن أحد المعترفين بالقتل لم يكن هو القاتل فإنه سيكون قد تقدم ببلاغ كاذب وخدع السلطات. وعندئذ ستضطر الشرطة للبحث عن قاتل جديد. وما الغريب في هذا؟..

هذه أمور طبيعية.. مرت الآن سنوات عديدة على تلك الجريمة. وإذا شاؤوا فهم قادرون الآن أن ينتزعوا منك اعترافاً بأنك خنقت عمتك في قارب في ذلك التاريخ.

Twitter: @ketab_n

كتبت الصحف أخباراً أخرى عن الجريمة نفسها. منها أن الأميرة انتحرت، أو أنها زادت من جرعة المورفين فتسممت وماتت، أو أن مهربي آثار قتلوها.. وما إلى ذلك...

أتكون يا صغيري جئت إلى استانبول لتنظف شرف العائلة؟ أتقول من أجل ميراث؟ هه.. إنها مسألة ميراث إذن.. الآن اتضح كل شيء. إذا تأكد موتها بشكل قطعي سيتقاسم أقرباؤها الإرث... أنا لا أعرف إن كانت ميتة أم ما تزال على قيد الحياة. أما بالنسبة للخبر الذي قرأته في قصاصة الجريدة، فقد اتضح فيما بعد أنها لم تكن بتوش.

ليس لأنها ظهرت، بل لأن صاحبة الجثة عرفت، ولأنه لا يمكن أن تموت امرأتان وهناك جريمة واحدة وجثة واحدة. كان القتلة الذين اعترفوا قد خدعوا رجال الشرطة.

أتسألني عن سبب احتفاظي بهذا الخبر من بين كل الأخبار التي نشرتها الجرائد عن تلك الجريمة؟ لأنه بدا لي مثيراً للغاية. أقصد القسم المتعلق بالنبذة عن حياة بتوش. وخصوصاً ما كتبوه عن زواجها من ملك النفط التكساسي. كنت أعرفه عن قرب. وكل ما هنالك أنه كان يستأجر محطة بنزين خارج نيويورك. وهنا في تركيا لقبوه بملك النفط. وفوق ذلك لم يكن الرجل من تكساس، بل من منطقة «جرشمبه» التابعة «لصمصون». أي أنه تركي مهاجر إلى أمريكا. لا. لا. لم أر بتوش بعد صدور هذا الخبر. ولا أعرف شقتها في شيشلي. قبل تعرفي عليها سمعتُ عنها الكثير من التقولات غير المستحبة، ولذلك لم أكن أحبها. أتسألني عما كنتُ أسمع عنها؟ حسناً. مثلاً كان يقال أنها تزوجت من رجل عجوز من أجل أمواله، وكان الناس يظنونها ابنته! وكان يروق لها ذلك فلا تهتم بأن يعرفوا الحقيقية. ولذلك قيل أن عدداً من الشبان ذهب فعلاً إلى زوجها العجوز وخطبوها منه ظانين أنه أبوها. وللمصادفة أنه كان للرجل ابنة عانس. كان يوافق فوراً عندما يقولون: «جئنا نخطب ابنتك». كان البعض يقول أن بتوش تفعل ذلك بشكل مقصود لتسخر من ابنة زوجها، بينما

Twitter: @ketab_n

يقول آخرون أنها كانت تُظهر نفسها «نموذج عرض» لتحسن لابنة زوجها بأن تجد لها عريساً. أما زواجها الذي سبق هذا الزواج فكان أكثر فضائحية. كان زوجها شاباً مدللاً. رأيتهما معاً في أحد أيام الصيف في مسبح النادي. الأصح أنني رأيتُ بتوش وحدها أولاً وكانت تأخذ حمام شمس على الشاطئ الرملي. بعد ذلك جاء زوجها فصاحت به:

- أوو ماي دارلنغ! أين كنتَ ولاك؟!

هذا ما قالته له حرفياً. وأنا أكره هذه الجلافة والقحة. ولم أكن أعرفها بعد. سألتُ عنها فقالوا لي أنها بتوش الحلوة.

وهذه قصة أخرى تحكى عنها: كان لها في أحد الأوقات صديق ـ أو عشيق أو صاحب أو ما شابه ـ يملك ملهى ليلياً. وكان ملهاه في خسارة دائمة. فنصحَتْهُ بتوش أن يؤجره. من يستأجر ملهى خاسراً؟ لكن بتوش قالت: «لا عليك. أنت أعلن عن تأجيره. ولكنك ستؤجره بكل ما فيه» ففعل الرجل ما طلبته. أو تعرف ماذا يوجد بين محتويات الملهى؟ بتوش نفسها! أي أن من يستأجر الملهى يكون قد استأجر معه بتوش ضمناً. طبعاً المستأجر الجديد يخسر بدوره، فيعيد الملهى إلى صاحبه الأصلي لقاء أقل مما دفعه.. ثم يؤجر الملهى مرةً أخرى وضمناً بتوش.. صحيح أنه معروف عن بتوش أنها أكسبت المال لكل أصدقائها وأزواجها ولكن بطرق شبيهة بهذه.. ولأنني سمعت الكثير من القصص المشابهة، لم أكن أحبها ولا أقترب منها. وهاك قصة أخرى كانت من أسباب نفوري منها: كان ثمة وقتها عدد قليل من المزيّنين الذين تتردد نساء المجتمع الراقي عليهم. وكان أشهرهم حلاق يوناني اسمه «سوتيري». كانت نساء المجتمع الراقي يتسابقن ليصبحن زبائن عنده. وما كان يتعامل إلا مع زبوناته المداومات. وإذا جاءته زبونة ذات مكانة مرموقة جداً من خارجهن كان يوافق بشرط أن تأخذ موعداً مسبقاً قبل أسبوع أو عشرة أيام، وذلك بعد وساطات معتبرة. كان سوتيري هذا حلاقاً موهوباً حقاً، في كل أصبع من أصابعه العشرة مهارة على حدة. خريجو معاهد التجميل الباريسية لم يكونوا

Twitter: @ketab_n

يساوون شيئاً بالمقارنة معه.. كان حلاقاً وخبير تجميل وما أدراك ماذا أيضاً.. وفوق كل ذلك كان وسيماً جداً.. أي أنه كان يملك كل المواهب التي تجذب إليه نساء الوسط المخملي. إلا أن له عيباً واحداً فقط: كان مخنثاً في تصرفاته أكثر من اللازم.. كانت فيه أنوثة تبزّ أنوثة أية امرأة. ويعرف الجميع أنه شاذ جنسياً. وكان يكسب الكثير. وكنتُ واحدة من زبائنهِ. وفي صالونه كنت أسجل الملاحظات سراً مما أسمعه من أحاديث تدور حولي. كانت النساء يعاملن سوتيري ككاتم أسرار وتحكين له أشياء لا يجرؤن على قولها حتى لأزواجهن. ذات يوم سألتهُ:

- ما الذي تشعر به ياسوتيري وأنت تقوم بتدليك زبوناتك؟ إن بي فضولاً شديداً لمعرفة ذلك.

- لستِ وحدك في هذا الفضول. جميع النساء يسألنني عن ذلك. فهمتُ من نبرة صوته ما يريد أن يقول، فاحمرّ وجهي خجلاً. ما معنى أن تفكر امرأة بالشعور الذي ينتاب رجلاً يدلك لها جسدها؟ معنى ذلك أنها تفكر في دخيلتها وترغب بأن يشعر ذاك الرجل شعوراً معيناً. وسوتيري، بذكائه الفائق، أدرك خجلي فراح يتضاحك ويتخنث ويتغنج كالنساء الخليعات وقال:

- لا أشعر بأي شيء.. أنا لا أعرف ذاك الشعور.. أنا لا أختلف عنكن بشيء.

فيما بعد عرفتُ من إحدى النساء أن سوتيري لم يكن شاذاً، بل أنه كان يتعمد التظاهر بذلك لاجتذاب الزبائن. لأن الأزواج كانوا يتساهلون في تسليم نسائهم ليدي سوتيري معتقدين أن لا ضرر من رجل مخنث شاذ. وقالت لي أن إزدهار عمله الناجح ناتج عن هذه اللعبة. ذهلتُ لمعرفة هذا، وكيف أنه ضحك علينا جميعاً.. وأوضحت لي أن الأمر لا يتوقف عند حلاق مخنث فقط، بل إن النساء يعلقن صور المطربين المخنثين في غرف نومهن. وهذا لا يزعج أزواجهن في شيء.. لقد سجلت كل هذه الأمور في دفتر ملاحظاتي.

Twitter: @ketab_n

كنتُ جالسة في صالون سوتيري هذا ذات يوم، فجاءت بتوش. وكنتُ آنذاك أعرفها، لكنني لم أكلّمها بعد. رمت بنفسها على مقعد وعلامات اليأس والفاجعة تبدو عليها. كان ثمة نحو عشر نساء. قبل سوتيري بتوش من خدّيها وشفتيها بحركات وغنج امرأة. ثم سألها:

- ما بكِ ياحلوتي؟

زفرت بتوش بعمق وقالت:

- لا تسألني..

حاول سوتيري أن يعزّيها بأن بدأ يفترض أسباباً لحزنها. هل افترقت عن صديقها الفلاني؟ هذا ماكان ينقصنا.. وهل هذا يستأهل منك هذا الزعل؟.. أم أن صديقها الآخر قد تركها وعاد إلى زوجته؟.. لا، طبعاً، وهل هذا معقول؟.. إذن من المؤكد أن امرأة أخرى دخلت بينها وبين عشيقها علتان.. لا.. لا.. ولا هذا أيضاً..

كان سوتيري يذكر الرجال بأسمائهم. صارت مشكلة بتوش لغزاً محيّراً، وراحت النساء الموجودات تحاولن تخمين سبب حزن بتوش. أخيراً همست بتوش في أذن سوتيري، فقال هذا بمرارة:

- لا.. أواه يابتوش أواه!

- جئتُ لأخبرك أنني لن أتمكن من الالتزام بموعد التدليك اليوم. أنا ذاهبة.

ذهبت بتوش والفضول يكاد يقتلنا. بدأنا نسأل سوتيري، فقال:

- مسكينة بتوش. معها حق في أن تحزن. مرت ستة أيام على موعد دورتها ولم يحصل شيء..

يا للفظاعة!.. شعرتُ بالخجل من كوني امرأة. تصور يا سيدي: امرأة تذهب لتشكو لحلاقها من تأخر دورتها الشهرية! وتعبّر له عن حزنها لأنها حامل وستضطر لعملية إجهاض! من غير الممكن أن أحب امرأة مثلها. بل كنتُ أشمئزّ منها.

Twitter: @ketab_n

في وقتٍ لاحق، وبعدما أصبحنا صديقتين، عرفتُ منها أن ما قاله سوتيري كان كاذباً. كنا، ذات يوم نتحدث عن الحمل والأمومة وما إلى ذلك.. فجأةً بدا الانفعال عليها وأجهشت بالبكاء. قالت أنها ترغب بقوة أن يكون لها أولاد، وأنها تحب الأطفال كثيراً. وعندما سألتها لماذا لم تنجب، أوضحت أنها لن تنجب أبداً لأنها تفتقر تلك القدرة. لقد تكلمت بطريقة مؤثرة للغاية، إلى درجة لم أستطع معها ضبط دموعي التي سالت بغزارة. إن الدورة التي ادّعى سوتيري أنها تأخرت لدى بتوش ستة أيام، لم تأتِ أبداً بعد بلوغها الثامنة عشر. وكم كان مدهشاً أن تفتقر امرأة مثلها قادرة على زعزعة عقول الرجال بأنوثتها الطاغية التي تنبثق من كل ما فيها، إلى أبسط خصائص المرأة! وأنا أرجح أنها كذبت على سوتيري بشأن تأخر دورتها، لأنها تعرف أنه سيعلن ذلك على الملأ. بهذه الطريقة كانت تغطي على نقيصتها كامرأة. أو أنها كانت تحاول تحقير شيء ما في شخصيتها. وكأنها بذلك تنظر إلى نفسها كرمز للمجتمع الراقي، فترفس ذاك المجتمع من خلال احتقارها لنفسها. وكأنها كانت تنتقم من شيء ما أو أحد ما.

وذات يوم اضطررت للتواجد معها في مكان واحد وتعرفتُ عليها عن قرب. إذاك أحببتُها وعرفتُ جمال روحها. كانت قبل كل شيء ذكية جداً. إذا كانت المرأة جميلة وذكية في الوقت نفسه ـ وهذا أمر نادر ـ فإني أموت فيها وماذا يفعل الرجال إزاءها؟

في اللقاء الذي جمعني بها كان ثمة آخرون. وكانت هناك امرأة من ذاك النوع الذي يتباهى بالشرف والأخلاق متهماً الآخرين بالافتقار إلى الشرف والأخلاق. وكنا جميعاً نعرف سبب تبجحها بالأخلاق: كانت قد بَنَتْ في بيتها الثالوث المقدّس: الزوج والزوجة و.. صديق العائلة.. ثلاثتهم يعيشون في بيت واحد حياة رغيده. كانت المرأة أماً لطفل في الثانية من عمره. وأظهرتْ استياءها العميق من التواجد مع امرأة سيِّئة السمعة كبتوش في مكان واحد. لاحظت بتوش ذلك ولم تكترث. ثم راحت تداعب الطفل وتناغيه:

Twitter: @ketab_n

- ياله من طفل لذيذ.. لقد أخذ عينيه الجميلتين من أمه، وأذنيه من أبيه.. أما أنفه؟ وأنفه من «يالجن»..

ويالجن هو اسم «صديق العائلة» المكمّل للثالوث. عندما تفوهت بتوش بذلك انفجر الحاضرون بالضحك. واحمرّت أم الطفل كثمرة بندورة ناضجة. ولتبديد الجو المتوتر راحت إحدى السيدات تمتدح صحة وجمال وحيوية الطفل. فقالت بتوش:

- طبعاً صحته جيدة. فهو بضاعة شركة. وهل يستوي ما ينتج عن جهود رجل واحد مع ما ينتج عن تعاون أكثر من شخص!

ربما تعتبر كلامها هذا فظاً للغاية. لكنها كانت أقل فظاظة مما كان يقال بحقها. أعجبتني بتوش كثيراً.

في اللقاء نفسه كانت ثمة امرأة تغار على زوجها من بتوش، وكان الحضور يمتدحون أمومة تلك المرأة. قالت بتوش:

- هي أم رائعة حقاً وتربي ابنها أحسن تربية. لا تأخذه إلى أي مكان تذهب إليه، بل تتركه في البيت. منذ فترة حملت إحداهن طفلها لتداعبه. فبدأت تصدر عن الطفل أصوات غريبة كلما حرّكَتْهُ، أشبه بالصوت الصادر عن حصّالة نقود عندما نهزها. فأخذوه إلى طبيب وأخذوا له صوراً شعاعية.. فتبين أن معدته ملأى بالحصى.. كان الطفل يبتلع الحصى الموضوع في المزهريات، كلما تركته أمه وحيداً في البيت وخرجت. فكان ذاك الحصى يطرقع كلما انحنى الطفل واستقام أو تحرك أية حركة. إن أمهاتٍ كهذه ينبغي أن يشار إليهن بالبنان. لأن معظم أمهات هذه الأيام يأخذن أطفالهن أينما ذهبن، فيسئن بذلك تربيتهم.

كانت بتوش ظالمة للغاية.. لقد أضافت أن ذاك الطفل لن يتسمم أبداً بواسطة غاز البوتان، لأنه اعتاد على اللعب بجرة الغاز في المطبخ كلما تركته أمه وخرجت، فأدمن على شم رائحة الغاز تدريجياً..

في تلك الفترة لم تكن متزوجة، لكنها كانت تمتدح الزواج كثيراً. سألتها:

Twitter: @ketab_n

- لماذا إذن لا تتزوجين؟

- كي لا أطلّق!

هكذا بدأت صداقتي مع بتوش. وبعد فترة قصيرة تزوجَتْ من رجل يدعى كاظم. وكانوا يلقبونه بكاظم الفحل أو كاظم الحمش. حتى أن البعض كانوا يلقبونه بالسيد شوارب، لأنه كان يفتل شاربيه الضخمين باستمرار. كان شارباه يغطيان نصف وجهه. وبسبب صلعته كان كاظم مولعاً جداً بالشَعر. كان حريصاً على كل شعرة في جسمه، يداريها ويرعاها خشية التساقط، ويستخدم مراهم وكريمات وعقاقير متنوعة لتغذية شعراته أينما وجدت. وكان حريصاً بشكل خاص على شاربيه المفتولين اللذين يصل طرفاهما المدببان حتى أسفل حلمتَيْ أذنيه تقريباً. كان حريصاُ جداً على مظهره ويتمظهر بشاربيه اللذين يعوضان صلعه الخيف. مسكيناً كان كاظم فهو يغطي على نواقصه بمظاهر مزيفة. وكما غطى على صلع رأسه بكبر شاربيه فقد كان يغطي على النقص في رجولته بالتظاهر بالخشونة والقسوة و«الحموشة». لكن لاشيء يظل مخفياً في المجتمع الراقي. لأن كل شخص يحاول التغطية على عيوبه ونقائصه بالكشف عن عيوب الآخرين ونواقصهم. ولذلك فهم يتشممون أدق أخبار الحياة الخاصة للآخرين حتى ما يتصل منها بأسرار غرف النوم. كان الجميع يعرف بنقص رجولة كاظم وعدم قدرته على القيام بوظائفه كزوج، وبأنه لهذا السبب يغار على بتوش غيرة شديدة. وكانوا يلقبونه بالفحل والحمش على سبيل التهكم، أما هو فكان يتباهى بلقبه هذا ويتحدث باستمرار عن الشرف.

رغم الإختلافات بين بتوش وزوجها كان بينهما عنصر تشابه جوهري من الناحية السيكولوجية: كلاهما يحاول إظهار نقيصته بالمقلوب، أي وكأنها موجودة لديه وبطريقة متطرفة. كاظم يفتقر إلى الرجولة فيغطي على ذلك بالتظاهر بالرجولة الفائقة، وبتوش تفتقر إلى وظيفة نسائية فتغطي على ذلك بإظهار أنوثة فائقة.. وتنجح في ذلك بامتياز. لم يكن أحد يصدق مظاهر كاظم الرجولية بينما كانت بتوش ناجحة ولذلك كان الرجال

Twitter: @ketab_n

يلاحقونها ويتسابقون في التقرب إليها. كانت تدير رؤوسهم وتتنقّل بين أحضان الرجال وتخطف المتزوجين من زوجاتهم وبذلك تغطي على عدم قدرتها على أن تصير أماً.

سألتَني عن سبب اختياري لبتوش كمحور لروايتي التي أردت كتابتها عن المجتمع الراقي. ولم تسنح لي الظروف. هل استطعتُ الآن أن أجيب عن سؤالك؟ كل أحداث وشخصيات روايتي كانت ستكون وتحيا وتتطور حول بتوش الحلوة. كانت امرأة مثيرة للاهتمام، تتراكض من رجل لرجل دون أن تشعر بأية متعة أنثوية ولا بمشاعر المرأة الحقة.. ثمة أسباب أخرى عديدة لاختياري إياها كبؤرة لروايتي التي لم أكتبها.

تقول إنك التقيتَ بكاظم الفحل؟ إذن فهو ما يزال على قيد الحياة؟ حتى في أيام زواجه من بتوش كان متقدماً في العمر. ماذا تقول؟ إذن فقد حكى لك عن تعليمه لأحذية بتوش بالطباشير؟ أحمق.. وما أغرب أن يكون رجلٌ مثله غيوراً إلى ذاك الحد! لم يكن رجلاً، كان شاذاً.. أتسألني عن «عشه»؟ نعم كان لديهم خادم اسمه رشيد. وفي آخر النيل كانت تناديه وتطلب منه أخذ سيده إلى «العش». كان الرجل بصاصاً، ومن عشه الملاصق لغرفة نوم زوجته، من خلال فتحة صغيرة كان يتفرج عليها. وكانت بتوش لا تطفئ الضوء، تتعرى وتفعل ذلك أمام أنظار زوجها.

طبعاً لا أحد يحكي لك هذه الأمور. الجميع يرمي بسفالاته على بتوش ليظهر نفسه ناصعاً. وعلى كل حال فلم تكن بتوش تكترث لإساءاتهم. هل سمعتَ أيضاً عن فضيحة عرض التعري في الملهى؟ اسمع إذن: كنا وقتها صديقتين حميمتين نلتقي كل ليلة تقريباً. وفي تلك الفترة كان ثمة شابان يترددان على بيتها كثيراً.. دعني أتذكر اسميهما.. هه! تذكرت.. أحدهما اسمه أشرف، والثاني خالد.. ذات ليلة، ثارت ثائرة غيرة عنيفة عند كاظم، وكنتُ حاضرة.. كان على حد زعمه يغار من ذينك الطالبين الجامعيين. قال لبتوش: «لا أريد أن يدخل هذان الولدان بيتي بعد الآن!» فسكتت بتوش ولم ترد. أتعرف ما كان سبب غيرته؟ لقد أوضحت لي بتوش

Twitter: @ketab_n

أن الانحراف بلغ بالرجل مبلغاً لا يطاق حين طلب منها أن يضاجعها الشابان في وقت واحد ليتفرج هو عليهم! وعندما رفضت بتوش تنفيذ رغبته تلك صار يفتعل معها المشاجرات أمام الناس بتلك الطريقة، بدعوى الغيرة على زوجته. وقد قال لها من بين ماقال:

- أنت تخونينني. إذن سأريك... سأخونك أنا أيضاً!

فلم تتمالك نفسها من الضحك.

تسألني لماذا تتحمل بتوش رجلاً كهذا؟ اسأل قبل ذلك لِمَ تزوجته أصلاً؟ كانت بتوش ذات قلب طيب جداً. وكانت لكاظم هذا ابنة جميلة جداً اسمها «بيراية» كنا ندلعها بـ «بيريش» وقد أحبتها بتوش كثيراً. وكان غرضها الوحيد من البقاء مع هذا الكاظم وتحمل قذارته هو إيجاد زوج مناسب، شريف لبيريش. لا أدري لماذا تعلقت بها بتوش، لأنها بقدر ما كانت جميلة، كانت أيضاً غبية. وكانت هي الأخرى متعلقة ببتوش. من أجل بيريش هذه وطدت علاقتها بذينك الشابين. كانت تأمل بتزويج بيريش من أحدهما. كانت تريد تزويجها من خارج المجتمع الراقي. بعد ذلك؟ لم تحقق بتوش أياً من رغباتها. الفتاة غبية والشابان عفريتان... أصيبت بتوش المسكينة بخيبة أمل مريرة منهما. ومنذ بدأا يدخلان البيت صارت تلاحظ اختفاء أشياء ونقود... في البداية شكّت في الخادم رشيد. كادت تطرده. لكنها ذات يوم ضبطت أشرف متلبساً بسرقة مجوهرات من البيت! أما خالد فقد حاول ابتزازها. بتوش تفكر بتزويج أحدهما من فتاة غنية، وهما يلجأن إلى السرقة والابتزاز... كانت تأمل بإنقاذ بيريش من وحول المجتمع الراقي، لكنها لم تفلح.

كنتُ أريد أن أحدثك عن انتقام كاظم الفحل من بتوش وخيانته لها! طبعاً لم تأخذ تهديده على محمل الجد ونسينا الأمر كله. بعد فترة قصيرة دعانا كاظم للسهر في نادٍ ليلي يقدم عرض تعرّ رائع. حجزنا طاولة وشربنا. بعد فترة من السهر تركنا كاظم، وما إن ابتعد حتى بدأ عرض التعري. أعجبني العرض بينما لم تعجب بتوش به. في ساعة متأخرة عاد كاظم

Twitter: @ketab_n

إلينا. لم تسأله بتوش أين كان. سألته أنا. فأجابني بأنه يشكو من قصر نظر، ولذلك جلس قريباً من المسرح ليتفرج على العرض عن قرب.

ثم أخذنا إلى هناك المرة تلو المرة. وإذا رفضنا الذهاب كان يلح علينا إلى درجة التذلل. وفي كل مرة كان يكرر الشيء نفسه: يغادر طاولتنا قبل عرض التعري بدقائق ويعود إلينا بعد إنتهائه. حفظنا عروض ذاك النادي الليلي عن ظهر قلب. ذات ليلة ونحن هناك، بدأت الفتاة بالتعري، وحين رمت بالقطعة الأخيرة: المثلث المزين بالخرز الذي خلعته من بين ساقيها ورمته، سمعنا ضجة عظيمة. ظننتُ أنه زلزال. ثم رأينا كل محتويات البار من زجاجات كحول وأكواب وغيرها وقد تحطمت على الأرض. كان الرف الذي صفت عليه زجاجات الكحول قد انقلب بكامله. امتلأت الأرض بخليط من الشمبانيا والنبيذ والبيرة برغوتها البيضاء والعرق والفودكا والجن والليكور.. ظهر من تحت طرف الرف الممد على الأرض رأسٌ أصلع وشاربان ضخمان.. رفعوا كاظم الفحل من الأرض وقد تضرج بدماء جراحه. كان يصرخ بفرح: "انتقمت.. انتقمت!" جاء مالك النادي بدأ الساقي يتضرع إليه ويستسمحه: "والله ليس ذنبي.. والله ليس ذنبي.." وحقيقة الأمر أن كاظم بيك الفحل كان يدفع رشوة للساقي كي يسمح له بالتلصص على فتاة التعري من خلال زجاجات الكحول، واقفاً وراء الرف. كان يفعل هذا كل مساء نذهب فيه للسهر هناك. يبدو أنه في تلك الليلة قد شرب أكثر من المعتاد أو أنه انفعل كثيراً بالعرض بحيث فقد توازنه وسقط هو والرف. عدنا فوراً إلى البيت وبتوش صامتة طوال الطريق، وقد أرعب صمتها كاظم بيك. وكأنه يشعر بالذنب من «خيانته» لها.

– أرجوك اغفري لي ياحبيبتي. إن خنتك مرة أخرى افعلي بي ما تشائين!

– لا تتذلل إليّ. فهذا لن ينفعك. لن تراني بعد اليوم حتى في أحلامك. لقد تحملتك كل هذه المدة كرمى لخاطر بيريش.. وهي..

وراحت تشتمه بكلمات أخجل من تردادها لك.

Twitter: @ketab_n

وبالمناسبة كانت لها مهارة خاصة في الشتم وكانوا يستسيغون شتائمها في الوسط المخملي. حتى من توجه إليهم شتمائها كانوا يغتبطون. ما أغرب ذلك! يبدو أن ما يسرّهم في ذلك هو المفارقة. فمن المدهش أن تسمع شتائم مقذعة وسوقية جداً في وسط راق ومن امرأة محترمة أو تقدم نفسها على أنها كذلك. تخيّل شاطئاً رملياً مزدحماً بالأجساد العارية، وفجأة يمر ببطء بين غابة اللحم العاري تلك رجل دين بلباسه الرسمي! إنها مفارقة مضحكة أليس كذلك؟ والمضحك هنا هو رجل الدين. إنه وحيدٌ بين عدد كبير من العراة. أو بالعكس تخيل امرأة أو رجلاً يدخل كنيسة بالمايوه! الانطباع نفسه كانت تتركه شتائم بتوش السوقية وسط أولئك الناس «الأكابر»، وسط تصرفاتهم الأنيقة وكلماتهم المحسوبة وابتساماتهم المكوية. هذا ما كان يسرهم في شتائم بتوش. تماماً مثل سرور الأهل بالتصرفات الحمقاء لأطفالهم الصغار.

لنعد إلى كاظم بيك الحمش. وسّط كثيراً من الناس بينه وبين بتوش بهدف مصالحتها. وعدها بكتابة البناية باسمها وبإغداق الأموال عليها، لكن بتوش طارت من بين يديه.

أعتقد أن أكبر خطأ اقترفته بتوش هو أنها لم تتزوج من «بهيج». وحده بهيج أحبها كما هي، أي وهو يعرفها حق المعرفة، بدون رتوش وأقنعة. كان مهندس ميكانيك. ولم يكن يطمع في شيء ولا كان يريد مجرد الاستمتاع بوقته معها. كان يحبها بحق، وبذل كل مساعيه من أجل الزواج منها، ونصحتها أنا بأن تستجيب. لكن بتوش لم تعره أذناً صاغية، بل بدأت مساعيها في اليوم التالي لعرضه الزواج عليها، من أجل إنشاء نقابة لبنات الهوى! تصوّر! امرأة يلاحقها ألمع رجال المجتمع الراقي، تعمل من أجل إنشاء نقابة للمومسات! تسألني لماذا فعلت ذلك؟.. لا، بالطبع لم تفعل ذلك من أجل تيئيس بهيج، لأنها كانت قد أعطته جوابها القاطع: لن تتزوجه!

سألتني إذن لِمَ أردتُ اعتبار عمتك محوراً لروايتي. وقد أوردتُ لك أسباباً عديدة. لكنك لم تقتنع بأي واحد منها، ومعك حق. كل الأسباب

Twitter: @ketab_n

التي ذكرتها لك لها تأثير بشكل من الأشكال على قراري باعتبارها محوراً للرواية، لكن السبب الحقيقي كان هذا: حقدها الشديد، نار الانتقام التي تضطرم في أعماقها ولا تنطفئ أبداً.. ولكن ما علاقة بتوش ببنات الهوى حتى تفكر بإنشاء نقابة لهن؟ إن نساء المجتمع الراقي لا يتحملن حتى التفوه باسم بيت الدعارة أو المومس، يَقْرَفْنَ من ذلك. لكن بتوش لم تكن تكترث بأية تقولات بحقها في هذا الشأن. كانت رغبتها الحقيقية أن تُحَقِّر وتسفِّل كل المجتمع الراقي من خلال شخصها هي. أو هذا ما بدا لي.

كأنها كانت تعتبر نفسها رمزاً وممثلاً أوحد للمجتمع الراقي، وبقدر ما تُسَفِّل نفسها، فهي تسفل معها تلك الطبقة بأسرها. كانت واثقة من أنها مهما هبطت إلى الدرجات الدنيا وامتهنت نفسها ولوثتها مع المومسات أو ما شابه، فهي قادرة على استعادة مكانتها بين "الصفوة" مجدداً، مادامت محافظة على جمالها.. إن تصرفاتها لم تكن ناجمة عن خلاعة نفس بقدر ما كانت ناجمة عن رغبتها في نزع القداسة عن القيم التي تعتبرها هي مبتذلة.. أو ربما كانت تحاول إثبات سهولة الصعود إلى تلك السوية: سوية الأكابر.. ومهما يكن من أمر، فبتوش لم تكن امرأة عادية، كانت امرأة مختلفة لا مثيل لها.

كتبت صحف تلك الأيام بالتفصيل عن محاولة إنشاء نقابة لنساء بيوت الدعارة. تقدمنَ بطلب رسمي إلى المحافظ. توجد في ملفاتي قصاصات تحكي عن هذا الخبر.. وقد تزعمت بتوش تلك المحاولة. كانت تحرّض أصحاب بيوت الدعارة وتسدي إليهم النصائح المناسبة، وتوكل المحامين من أجلهم. هكذا صرّحت إحداهن لإحدى الصحف على لسان بتوش: «نحن مواطنات شريفات ندفع الضرائب إلى الدولة من دخلنا. حتى رواتب رجال الدين والأئمة تُدفع من ميزانية الدولة التي نساهم نحن فيها من خلال الضرائب. لسنا تاجرات ولا موظفات. نحن عاملات لذة وعملنا من أصعب الأعمال. نريد أن ننشئ نقابة تحمي حقوقنا». كانت بتوش عبارة عن حقد متجسد بلا حدود. تجاه شيء ما، تجاه أحد ما. لم تكن تعرف موضوع حقدها

Twitter: @ketab_n

بالتحديد. قالت لي ذات يوم: «آهٍ، لـو أعـرف منبـع هـذه القـذارة...». مـا الذي كان عليها أن تحرقه وتدمـره حتـى يهمـد حقدهـا الدفـين؟ لـو أنهـا تستطيع.. لا يعرف هذا إلا من يعرف بتـوش عـن قـرب. لأنهـا، ظاهريـاً. مبتسمة، مشرقة، ساخرة على الدوام ليس سدى أنهم سموها بتوش الحلوة.

كـل هـذه تحليلاتـي الخاصـة لشـخصيتها. هكـذا رأيتُهـا أنـا. ولذلـك أحببتها، وأشفقتُ عليها.. ولذلك أردتُها محوراً ومركزاً لروايتي..

لو أنها اقتنعت أن بهيج بحاجة إليها فعلاً لتزوجَتْ منه. لكنها كـانت قد صدمت كثيراً إلى درجة القـرف، بـالحب الكـاذب. سـوف تفهـم الأمـر جيداً عندما تقرأ دفتر مذكرات بهيج. أنا لم أقرأ كل الدفـتر. قلـتُ لنفسـي سأقرأه ذات يوم.. ربما حدثتك عن بتوش كما أردتُ لهـا أن تكـون كبطلـة لروايتي، لا عن بتوش الحقيقية كما هي..

الآن؟ بهيج؟ للأسف مات في حادث سير. أكان حادثاً حقاً؟ لا أعتقد.. برأيي ـ ولم أقل هذا لأحد حتى الآن ـ أنه انتحر. ليس انتحاراً عاديـاً.. لا أدري كيف أقول لك.. لقد اغتـال نفسـه عـامداً متعمـداً. لأنـه اسـتقال مـن الحياة. ربما لم يكن السبب الوحيد لذلك هو بتوش.. ولكـن المؤكـد أنـه مـا كان مات في حادث السير ذاك لو أن بتوش وافقت على الزواج منه. لا، لم يكن الحادث اصطداماً. لقـد سـقط هـو وسـيارته في هـوة عميقـة وهـو يلـف منعطفاً حاداً. لأنه كان يقود سيارته بسرعة جنونيـة.. ليـس جنونـاً.. بـل افتقاداً لمعنى حياته.. لشيء يحيا من أجله. ولذلـك أسميـه انتحـاراً. ومـع ذلك لم يكن انتحاراً من أجل حب ميئوس منه.. حتـى وهـو يقـود سـيارته بسرعة إلى حتفه، لم يكن بهيج يفكر بالموت. لكنه أيضاً كان قطـع صلاتـه بالحياة.. أعرف أنني لا أجيد شرح الأمر لـك، لأنـني لا أعـرف بدقـة مـا أريد قوله. لو أنني كتبتُ روايـتي لاسـتطعتُ أن أشـرح لـك الأمـر بصـورة أفضل.

بعد الحادث ظل بهيج أربعة أيام على قيد الحياة. في أول زيارة لي إليه سألني عن بتوش. كانت هـذه مختفيـة عـن الأنظـار منـذ فـترة. في الزيـارة

Twitter: @ketab_n

الثانية كان يبدو في وضع أفضل. لكن الدكتور سمح لي بعشرة دقائق فقط. حكى لي بهيج عن دفتر يومياته، وأنه أراد أن يحرقه، لكن وضعه الصحي منعه من ذلك. ثم طلب مني أن أسلم الدفتر لبتوش. جلبَتْ له الممرضة حقيبة يده التي كانت في السيارة أثناء الحادث. أخرجتُ الدفتر من المحفظة. كان دفتر ملاحظات كبيراً بعض الشيء، ذا غلاف جلدي أزرق.

عندما ذهبتُ إليه في اليوم التالي، كان في غيبوبة وأقرباؤه ينتظرون أمام الباب. في الليلة نفسها مات. لو أنه نجا لعاش ما تبقّى من حياته معطوباً. نصف رجل. كم هي الأفكار غير المتوقعة التي تراودنا نحن البشر! لو أنه لم يمت بعد ذلك الحادث لكانت بتوش تزوجت منه بالتأكيد. لأنه سيكون بحاجة إليها في تلك الحالة. وأنا أعرفها جيداً. طوال حياتها ظلت تبحث عن رجل يحتاجها حقاً، لتعطيه نفسها بلا حساب. كانت تزوجته وبكل حب. لو كتبتُ روايتي لغيرتُ بعض التفاصيل. مثلاً لما مات بهيج في حادث سير، بل انتحر بسبب حبه اليائس لبتوش ورفضها الزواج منه. لكنه كان سينجو من محاولة الانتحار معطوباً. وستأتي بتوش إليه وتوافق على الزواج منه. هكذا أتخيل الأمر وإن كان مخالفاً للحقائق.

أعتقد أنها كانت تحبه بدورها. أكاد أجزم بأنها كانت تحبه، لكني لا أعرف سبب رفضها الزواج منه. إن ذكرتُ لك سبباً، سيكون ذلك تفسيري الخاص. لو أنها لم تحبه لما زارت قبره مراراً. وضعت زهوراً عليه. فهو رجل ميت.. وهي غير مضطرة إلى مجاملة ميت. مؤكد أنها كانت تحبه.

بعد وفاته بفترة، التقيت ببتوش ذات يوم عند الحلاق. لم نتحدث عنه. كنا نتجنب ذلك بشكل متعمد مع أننا كنا نفكر به كلتانا. مع ذلك تحدثنا عن أمور صغيرة بعيدة عما يخصه. لم أخبرها بشيء عن دفتر مذكراته. لم يكن هدفي إخفاؤه عنها. كنتُ سأعطيها الدفتر، ولكن بعد أن أقرأه أنا. على أمل أن أجد فيه ما يفيدني في كتابة روايتي. ولم أجد وقتاً لقراءته بعد. بعدها ذهبتُ ذات يوم إلى بيتها. فأخبرتني عن رغبتها في شراء مزرعة نائية لتعيش فيها وحيدة. وكان ذاك آخر لقاء بيني وبينها.

Twitter: @ketab_n

ولا صادفتُ أحداً يعرف عنها أو عن مكان إقامتها شيئاً. أما الدفتر فبقي معي. فيما بعد قرأتُ صفحات منه.. يا لها من مشاعر نظيفة.. ياله من أسلوب جميل.. إنه بهيج الذي عرفته. ما يزال الدفتر في السقيفة بين الكتب القديمة والأشياء غير النافعة. العام الماضي تسربت الأمطار بغزارة من السقف.. تبلل كل شيء في السقيفة، ألم أقل لك أن قيمة شيء تختلف من شخص لآخر؟ إني أفهم. هذا الدفتر يهمك كثيراً. ولا أعتقد أنني سأكون بحاجة إليه بعد الآن. خذه واحتفظ به. فإذا حدث ووصلت إلى عمتك أعطها إياه. طبعاً بإمكانك أن تقرأه، أو ما بقي منه بعد المطر والغبار الذي أتلف معظم صفحاته.

خذ الملف أولاً واقرأه هنا. قد لا تجد في كل قصاصة اسم بتوش. لأنها كانت تُذكرَ بأسماء كثيرة في المجتمع والصحافة: بتوش الحلوة ـ بتول الراحة ـ الراحة التركية ـ جبّارة الخواطر ـ السيدة عملة صعبة ـ الدمية ـ الشهية السخيه ـ سفيرة الظُرْف ـ القنبلة الشقراء ـ السيدة المرافقة ـ ... الخ.. إن أي اسم من هذه الأسماء تقرأه في قصاصات الجرائد هنا، هو اسمها، والخبر عنها، أتسألني عن معنى لقب السيدة المرافقة؟ ثمة رجال أعمال أثرياء، عزّاب ـ وأحياناً حتى متزوجون ـ عندما يسافرون إلى أوروبا يصطحبون معهم امرأة جميلة تساعدهم في أعمالهم، مرشدة، سكرتيرة، تجيد اللغات الأجنبية وذات خبرة. أو شيئاً من هذا القبيل.. هؤلاء النسوة يسمونهن السيدة المرافقة. طبعاً تعملن بالأجرة. وهن ينفعنَ في كل شيء، ويقبضن تعويضات عالية جداً. إليك الملف.

Twitter: @ketab_n

أخبار بتوش الحلوة في صفحات المجتمع
السيدة «صندوق الاقتراع»

الحادث الذي كان يجري البارحة داخل سيارة في شارع الترامواي ببشكطاش، قد تسبب في هجوم الأهالي اللذين شاهدوا ما جرى، على تلك السيارة.

ففي الساعات الأولى من مساء أمس كانت سيارة تاكسي تقل امرأتين شابتين وصديقاً لهما بالإضافة إلى بحارين أمريكيين في نزهة باتجاه البوغاز. وبينما كانت السيارة تعبر منطقة بشكطاش رأى المارة المرأتين تتبادلان القبلات مع الرجال الذين يرافقونهما، فأوقفوا السيارة وأخبروا الشرطة والتفوا حول السيارة مانعين إياها من الحركة. ثم جاء فريق من رجال الشرطة واقتاد الخمسة إلى القسم وسط شتائم وإهانات مئات الناس الذين شيّعوهم حتى القسم، وهناك تجمعوا. حاولت الشرطة تفريق الناس بالقوة، كما أن أحد العناصر منع مندوب جريدتنا من التصوير ـ عرفت جريدتنا لاحقاً أن المرأتين اتصلتا هاتفياً بزوجيهما وتبين أنهما من الشخصيات الهامة. فتغيرت معاملة الشرطة لهما. ووفقاً لروايات البعض كانت واحدة من المرأتين قد حققت نجاحات انتخابية باهرة لأحد الأحزاب فلقبوها «بالسيدة صندوق الاقتراع». وبمساعدة الشرطة تم إعادة الخمسة إلى سيارة التكسي وسط هتافات الاستهجان من الجمهور المحتشد أمام القسم.

Twitter: @ketab_n

أخبار المجتمع: امرأتان

ثمة امرأتان لم تنقطعا عن أية من وجبات الشاي التي يقدمها فندق (هـ) وفندق (ب) وذلك للأسبوع الثالث على التوالي. كلتاهما شديدتا الأناقة، تلبسان على آخر موضة وتتزينان بأثمن الخواتم والأقراط. تُلَقب إحداهما في المجتمع الراقي بأنثى النمر والأخرى بالدمية. وفي كل مساء تأتي الدمية من شيشلي بسيارتها البويك الحمراء من أحدث طراز في حين تأتي أنثى النمر من جهة «تقسيم» بسيارتها المرسيدس البيج.

ومثلما أن عيونهما زرقاء فإن ثمة تشابهاً أيضاً في قصتي حياتيهما. فزوجا الإثنتين يشتغلان بالتجارة. ولا يمكن القول أنهما سعيدتان في حياتهما الزوجية. كلتاهما أصيبتا بمرض عضال في سن مبكرة. أنثى النمر واجهت خطر أن تصبح مقعدة. أما الدمية فكان يتم ضبطها كثيراً مع رجال آخرين في أوضاع لا تسر زوجها أبداً، فكانت تتعرض لأزمات نفسية عصبية حادة من جراء ذلك ولا تسيطر على تصرفاتها، ولا تعرف كيف وصلت إلى ذلك المكان وذلك الوضع مع ذلك الرجل. وكان البرفسور دكتور «إ.أ» يشرف على علاج كلتيهما. باقتراح منه سافرتا إلى سويسرا لتتعالجا في مصح بزوريخ. وقد شخّصَ مرضهما بسهولة طبيبٌ وسيم في ذاك المصح معروف على نطاق واسع في المجتمع الأوروبي: ثمة انعدام في التفاهم الروحي بيم المرأتين وزوجيهما. وزعم البعض أنه لم تكن بهما حاجة للذهاب إلى زوريخ حتى تعرفا علّة مرضهما. لأن المريضة نفسها كانت أول من شخصت حالتها: كل سكان الحي الذي تقطنه الدمية الشقراء سمعوها

Twitter: @ketab_n

مراراً وهي تصرخ في زوجها قائلة: «أنت لا تفهم روحي أيها الرجل الفظ». وقد أكد الطبيب السويسري الوسيم كم كانت الدمية الشقراء على حق. أجري للسيدتين تحليل نفسي. طوال أيام أفضتا للطبيب بهمومهما ودخيلتهما. أعطى العلاج النفسي نتائج إيجابية للغاية: ارتفع عبءٌ ثقيل عن روحيهما وأحستا نفسيهما كعصفورين جميلين حرين. شعرتا وكأنهما ولدتا من جديد. عادتا فوراً إلى الوطن وانفصلتا سريعاً عن زوجيهما بسبب «انعدام التفاهم الروحي» فارتاحتا تماماً وأصبحتا جاهزتين لقصة غرامية جديدة مثل عنب بلا عيدان كما يقال. والآن فإن كلتَيْ السيدتين تسعيان بكل جهودهما لتطبيق توصيات الطبيب السويسري. ترتادان أمكنة «تنعش روحيهما» تصاحبان رجالاً ينعشون الروح، تهربان من كل ما يحزن أو يكدّر. وعندما يسألهما أحدٌ فيما إذا كانتا تفكران بالزواج تجيبان إجابة واحدة: «فقط عندما أصادف رجلاً يفهم روحي».

إنها قصة تهم كل سيدة تعاني من عدم التفاهم الروحي مع زوجها.

Twitter: @ketab_n

العمود اليومي لكاتب مشهور في جريدة

هذه المرة الـ كم؟ من جديد نُبعدْ راقصةً أجنبية في أنقرة خارج الحدود. لماذا؟ يزعمون أن فتاة التعري هذه تغوي الرجال المحترمين والشخصيات الهامة. اقرؤوا معي كيف ورد الخبر في الجريدة: «منذ بضعة أشهر جاءت فتاة تعرٍ أجنبية إلى أنقرة وبدأت تقيم علاقات غرامية مع شخصيات هامة ومشهورة للغاية. وعندما لم يعد الأمر محتملاً قدمت زوجات تلك الشخصيات شكاوى ملحة إلى الجهات العليا. وبناءً على ذلك دُرِسَ الموضوع وتقرر إبعاد فتاة التعري خارج الحدود».

إن كثيراً من الرجال في بلادنا يتم إغواؤهم فلا تهتز شعرة لأحد. ولكن ما إن يتعلق الأمر بالشخصيات الهامة حتى نقيم الدنيا ولا نقعدها. من الواضح أن هؤلاء الرجال الهامين السذج، الذين يمكن أن تشم رائحة حليب أمهاتهم من أفواههم قد اصطفوا في طابور وهم يتمنون أن تأتي فتاة تعرٍّ أجنبية لتغرر بهم وتغويهم.

أما زوجاتهم فلسان حالهن يقول: «إن فتيات تعرٍّ لا أحد يعرف لهن أصلاً أو فصلاً يضحكن على أزواجنا المساكين! يا سلام.. هذا ما كان ينقصنا!»

ماذا علينا أن نفعل لنحول دون التغرير بشخصياتنا الهامة.. زبدة مجتمعنا وزهرته؟ ليتهم كانوا أطفالاً رضّع في أفواههم الرضّاعات وعلى صدورهم الصديريات وبين سيقانهم الفوَط. لكنا كتبنا على صدورهم: «لا تقبّلوني!»

مساكين همْ شخصياتنا الهامة.. بسهولة يتم التغرير بهم!

Twitter: @ketab_n

أخبار المجتمع: إثارة الغرائز الجنسية

إن سيدةً جميلة من سيدات مجتمعنا، اشتهرت في السنوات الأخيرة بتعريف بلادنا إلى الأجانب بوصفها سفيرة اللطف والظُرف، تعقد اجتماعاتٍ مساء كل أربعاء في بيتها لتلقّن صبايا المجتمع الراقي دروس النجاح. وكان درسها الأخير الذي ألقته على ضيفاتها مساء الأربعاء الماضي يتعلق بخصائص العطور المثيرة للرغبات الجنسية، قالت للمستمعات بكل اهتمام: «إن للعطور تأثيراً كبيراً على الغرائز الجنسية، ولكن للأسف الشديد فإن غالبية نسائنا يجهلن طريقة استخدامها ـ فبعض النساء يستخدمن العطور للتغلب على الروائح الكريهة المنبعثة من أجسادهن. وفي هذه الحالة فإن أفضل العطور تختلط بتلك الروائح وتشكل معها خليطاً كريه الرائحة. والحال أن العطور ينبغي أن توضع على أجساد نظيفة. وفقط بهذه الطريقة يمكنها إثارة الرغبات الجنسية».

من الأخطاء الفادحة تعطير الشعر. إن المكان المناسب للعطور هو تحت الإبطين ووراء الأذنين. ومن الأخطاء الشائعة أيضاً زيادة الجرعة. على كل امرأة أن تختار عطرًا يناسبها. وهذا هام جداً. فالرجل يجب أن يعرف المرأة من عطرها، حتى لو صادفها في العتمة. وعلى السيدات اللواتي يرغبن بتغيير وضعهن المدني، أو زوجهن أو شريكهن الجنسي أن يغيّرنَ أيضاً عطورهن.

إن التعطير لا يعني أن تخنقي الرجل الذي أمامك من رائحة العطر.. يجب أن تضعي قليلا، وبمهارة فتدغدغي بذلك مشاعره. على كل امرأة

Twitter: @ketab_n

رفيعة الذوق أن تكتب فوق مرآة زينتها جملة «أندريه كرف» الشهيرة: «ليست مهمة العطر التغطية على الروائح الكريهة، بل زيادة الجاذبية الموجودة أصلاً».

إن عدد رواد درس الأربعاء في صالون سفيرة اللطف والظرف في ازدياد مطرد.

Twitter: @ketab_n

أخبار المجتمع: أسبوع «كروب»

أصبحت استانبول في الآونة الأخيرة محجاً للملوك والأمراء ونجوم السينما وأصحاب الملايين. وقد انشغل المجتمع الراقي كل أسبوع باستقبال شخصية جديدة من الشخصيات الهامة. آخر هذه الشخصيات كان ملك الفولاذ «كروب». طوال الأسبوعين الماضيين لم نسمع إلا اسم كروب. نحن لا نشاطر الرأي الصحف الأخرى التي أجمعت على أن ألفرد كروب رجل وسيم جداً. ونتفق ورأي ملاك السياحة التركية الدمية الشقراء التي أصيبت بخيبة كبيرة عندما رأته وقالت أن وجهه أشبه بوجه ثعلب ماكر. لم يخفِ ملك الفولاذ ضيقه بالولائم التي أولمت على شرفه والتي لا يبدو أن لها نهاية. بعد وليمة المحافظ، أولم له أيضاً رجل أعمال معروف في قصره الكائن في «جملي جه» حيث أبدى ألفرد كروب اهتماماً استثنائياً بزوجة رجل الأعمال ـ صاحب الوليمة والتي هي سيدة المجتمع المعروفة بلقب «الراحة التركية». أما هذه الأخيرة والتي ذكرنا لكم ما قالته بحق ضيفها فلم تبادله الإهتمام، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما قالت أنها ما تزال تتذكر الأمير الذي زار استانبول مؤخراً وغادرها الأسبوع الماضي. ورغم أن المدعوين كانوا يرتدون بدلات السموكنغ الرسمية، إلا أن الحفلة مضت في جو حميمي للغاية بفضل جهود «الراحة التركية».

Twitter: @ketab_n

أخبار المجتمع: قبلة بالمزاد

في حفلة رقص أقيمت في فندق (ج) مساء الجمعة لصالح جمعية رعاية الأطفال اليتامى، أقيم مزاد على فتاة اسكندينافية جميلة جداً كانت صورتها نشرت قبل ثلاثة أشهر على غلاف مجلة «لايف». لم يكن المزاد على الفتاة ككل، بل على خدها فقط. الرجل الذي يدفع أعلى سعر سينال قبلة واحدة من خد الفتاة. المزاد الذي بدأ بخمس مئة ليرة، مع الأسف لم يتجاوز العشرة آلاف. لقد قبل السيد «ف.أو.» الفتاة من خديها الإثنين. ولأن المبلغ كان زهيداً فقد قرر منظمو الحفلة الخيرية مزاداً ثانياً على تقبيل بتوش الحلوة. جرى المزاد في جو يخيم عليه التنافس بين جمالنا التركي والجمال السكنديناڤي. في البدء شارك زوج بتوش في المزاد بحماسة، لكنه بعد فترة فضل الإنسحاب. وقد زعم البعض أن رجل أعمالنا المعروف السيد آبوش قال وهو ينسحب من المزاد: «أنا على كل حال أقبلها دوماً وبالمجان!». تجاوز المبلغ المدفوع في قبلتها الأربعين ألفاً، وهكذا حققت الجمعية الخيرية دخلاً محترماً في هذه الحفلة. إلا أن الرجل الذي رسا عليه المزاد أصرّ على تقبيل الفتاة من شفتيها لا من خديها كما هو الإتفاق. وبذلك أضفى مرحاً إضافياً على جو الحفلة.

Twitter: @ketab_n

قيل وقال

سمعت سيدة المجتمع المعروفة بلقب «جبارة الخواطر» طبيبها يقول لها أن المياه الجوفية في «يالوفا» تزيد الجمال، فتركت زوجها في بيتها باستانبول وسافرت لتقيم في فندق «يالوفا». وقد أصبحت مسألة مثيرة للجدل في الآونة الأخيرة فيما إذا كان سبب ازدياد جمالها هو المياه الجوفية أم عازف الكمان في فرقة الفندق الموسيقية. ليس جمالها وحده يزداد، بل مرحها وشهوتها للحياة أيضاً. أما زوجها الذي عرف كيف يستمتع بوحدته في البيت، فهو يتصل يومياً بزوجته في فندق يالوفا وينصحها قائلاً: «تابعي علاجك يا زوجتي العزيزة».

Twitter: @ketab_n

أخبار المجتمع: لون الشعر

بتول - الراحة المعروف عنها أنها تصبغ شعرها بلون جديد مع بداية كل مغامرة عاطفية جديدة، صبغت شعرها مؤخراً باللون الأسود، فأصبحت تشبه الشوكولاته أكثر مما تشبه الراحة. وأكثر ما فاجأ هذا اللون الجديد، صديقها بكير الفحل. فقد بصّرَتْ له فنجانه بصارة المجتمع الراقي وقالت له: «قد وقعتَ في غرامٍ إمرأة سوداء الشعر» ولم يكن بكير الفحل قد رأى لون شعرها الجديد. في نفس اليوم رآها وكم كانت دهشة بكير عندما صحّ تبصير البصّارة!

Twitter: @ketab_n

إحصائية مفيدة

نيويورك ـ آ.آـ وفقاً لإحصائية أجراها قسم الأبحاث التابع لشركة إنتاج أصبغة الشعر فإن أغلب النساء يغيّرن لون شعورهن قبل البدء بعلاقة غرامية جديدة.

ملاحظة: سألتُ بثوش الراحة عن سبب تغييرها لون شعرها، فأجابتني قائلة: «سوف أغير وضعي المدني!». إنها امرأة مدهشة. وبالفعل غيرت، بعد بضعة أيام، كنيتها!

أخبار المجتمع: الحب المتجدد

الأزواج السابقون للصبيّة السخية، صاحبة الرقم القياسي في الزيجات، يزعمون أنهم يزدادون حباً لها بعد الانفصال عنها. وقد أوضحت السخية بهذا الصدد فقالت أن زواج المرأة من رجل جديد، أو انتشار الأقاويل بهذا الخصوص يحيي الحب القديم ويضرمه أكثر وأكثر.

وهكذا يصبح مفهوماً لماذا يلاحقها مجدداً زوجها السابق المحامي المعروف الذي طلّقتْ منه قبل خمسة عشر يوماً.

وقد نصحت الصبية السخية ضيوفها في حفلة قبل أيام أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد. وأنّ على المرأة أن تهيّئ المرشح الجديد للزواج قبل أن يبدأ الفتور بينها وبين زوجها ـ وقالت أن من يتصرف أسرع يمتلك المبادرة ويفوز بالحب.

Twitter: @ketab_n

فضيحة في المجتمع الراقي!

أنقرة -2 (من مراسلنا الخاص) - حدثت ليلة البارحة أكبر وأغرب فضيحة في مدينتنا، إذ تم ضبط السيدة المعروفة في الوسط الراقي بـ (السيدة المرافقة) مع زنجي أميركي في حالة زنا. هذه السيدة التي جمالها وظرفها على كل لسان متزوجة من أحد الشخصيات الهامة في العاصمة وهي تقضي هنا أشهر الشتاء.

عرف زوجها أنها تتردد منذ فترة على بيت زنجي أمريكي في «قوجه تبه» فتقدم ببلاغ إلى مديرية الأمن ـ الشعبة الثانية متهماً زوجته بفعل الزنا في العنوان الذي أعطاهم إياه. شرطة الآداب التي داهمت البيت بناء على بلاغ الزوج، وجدوا الزنجي وحده وعارياً. إلا أن التفتيش الذي قاموا به، رغم محاولات الزنجي لمنعهم، أسفر عن العثور على «السيدة المرافقة» عارية في دولاب غرفة النوم.

في سيارة الشرطة التي أقلتهم إلى القسم تلاسنت السيدة بحدة مع زوجها، بينما أعرب لها هذا الأخير عن إحساسه بالمرارة لأنها خانته مع زنجي، لا لأنه عنصري ـ فهو ليس كذلك قط ـ بل لأن خيانتها مع زنجي قد أساء، مع ذلك، لكرامته كرجل. وأمام أنظار رجال الشرطة المذهولين انتهى هذا الأخذ والرد بين الزوجين إلى تفاهم ومصالحة. فقد طلب الرجل من زوجته إنهاء هذه المشكلة بلا ضجيج احتراماً «لموقعه الاجتماعي» لكن الزوج مع ذلك رفع قضية ضد الزنجي الأمريكي يطالبه فيها بتعويضات قدرها مائة ألف ليرة تركية.

Twitter: @ketab_n

الحب والرياضة

مساء الأربعاء الماضي احتدم نقاش حار في صالون القنبلة الشقراء حول ما إذا كان الحب رياضة مثله مثل ركوب الخيل والتزلج على الجليد وقيادة السيارات وغيرها... لكنّ النقاش لم يرس على نتيجة محددة. لو أن المتناقشين أقروا بأن ممارسة الحب نوع من أنواع الرياضة لما بقي شيء اسمه خيانة زوجية، ذلك أن الزواج رياضة محترفين، والخيانة الزوجية هي رياضة هواة!

من دفتر مذكرات بهيج باش بينار

17 آذار - 19

القدر ينسج شباكه .... بهذه الجملة ذات الكلمات الثلاث كنت، في زمن مضى، أسخر من أصدقائي. عندما كنت في الثانوية الداخلية، كان زملائي الذين يقعون في غرام أول فتاة يتحدثون إليها، يكتبون في دفاتر مذكراتهم: القدر ينسج شباكه...

مثل العناكب التي تنسج شبكاتها كلما تمزقت القديمة، كانت أقدارهم منحوسة، وكم من مرة نسجت فيها شباكها لهم طوال سنوات. وعندما كانوا يعودون إلى المدرسة مساء يوم العطلة كنت أعرف من ذهولهم وارتباكهم أنهم وقعوا في الغرام، فكنت أسخر منهم قائلاً: «القدر ينسج شباكه من جديد..» مرت سنوات على ذلك ولم ينسج القدر شباكه لي مرة واحدة. لا أعرف إذا كان ذلك بسبب بلادتي أم فشلي. غير أن اليوم هو يوم مختلف. لأن القدر راح ينسج شباكه لي أنا هذه المرة.. منذ حوالي

Twitter: @ketab_n

الأسبوعين مررت على مكتب صديقي زكي. كان الازدحام مذهلاً وكل الموجودين نساء... ومادام المكتب هو وكالة تجارية لشركة مفروشات أجنبية فمن الصعب أن تكون هذه النساء زبائن. سألت أحد الموظفين عن سبب ازدحام النساء هنا، فاكتفى بزمّ شفتيه وفتح ذراعيه واسعاً. وأجاب موظف آخر على سؤالي بقوله: «اسأل السكرتيرة» كان باب غرفة السكرتيرة مفتوحاً. رأيتها تكتب على الآلة الكاتبة. وقبل أن أدخل رأيت زكي يخرج من غرفته برفقة امرأتين. صرخ في السكرتيرة قائلاً: «قولي لهن جميعاً أنني لا أريدهن. لقد تم الأمر». عندما رآني اقترب مني بهيئة رجل يعاني من معضلة ويرجو مساعدة من صديق، أمسكني من ذراعي وأدخلني إلى غرفته. «ما الذي يحدث هنا؟» سألتهُ مد لي جريدة كانت على الطاولة وأشار إلى إعلان فيها. قرأت الإعلان. كان تقريباً يحوي ما يلي:

«مطلوب سيدة بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرها لمرافقة رجل أعمال في سفر إلى أوروبا بسيارته الخاصة لمدة شهرين. كل تكاليف الرحلة مؤمنة. يرجى المراجعة مع صورة. العنوان...».

قال لي زكي بعصبية: «هؤلاء الناس لا يفهمون ما يقرؤون. قلنا في الإعلان أرسلوا صورة، لكنهن جئن شخصياً فور قراءتهن الإعلان. ثم أنني شخص واحد. فكم امرأة سأصطحب معي إلى أوروبا؟ لنقل أنني مسلم، فآخذ معي أربعة ولكن ليس أربعين امرأة! هل أنا تاجر نساء يا؟!» وعندما لم يشفِ غليله بهذا الكلام التفت إلى النافذة وصرخ وكأن أولئك النسوة يقفن أمامه: «ابعثي أولاً صورتك. صورتك. أنت بعمر أمي يا! ألا تخجلين من عمرك لتصبحي سيدة مرافقة؟ تفو! ثم أنك لا تجيدين الإنكليزية. بم ستنفعين؟ هل سآخذك معي مسطرة؟».

كان واضحاً أن زكي يعاني أزمة عصبية حادة. أخبرني أن بين النساء اللواتي جئن يتوسلن لمرافقته من تركت طفلها الرضيع ومن جلبت معها بضعة مئات من الليرات ادخرتها بصعوبة، حتى أن ثمة نساء عندهن أحفاد! أردت تهدئته فقلت: «إن الحياة صعبة وتكاليف المعيشة مرتفعة،

Twitter: @ketab_n

ولا توجد فرص عمل، إنهن معذورات..» «طبعاً، أنتم اليساريون تستفيدون من كل فرصة لتزرعوا بذور الكراهية والعداء» قال زكي ذلك، وكان يمكن أن يتفوه بما هو أسخف في ثورته العصبية تلك. سألته: «ألم ترسل إحداهن بصورة؟» أشار بيده إلى الملفات المكومة وراء الباب وقال لي:

«أرجو أن تسدي إليّ خدمة». اكتب لي إعلاناً بالإنكليزية للبحث عن سيدة مرافقة. لن يأتي إلا عدد قليل من النساء لأن عدد اللواتي يجدن الإنكليزية قليل." كتبتُ له نص الإعلان كما يلي:

"Fluent speaking English attractive Female traveling partner required for bilmem ne... p.k. filan"*

أعطى الورقة للسكرتيرة وطلب منها إرسالها إلى الصحف. ولم أفطن إلى تنبيهه إلى ضرورة كتابة العنوان مكان for bilmem ne (من أجل اللا أدري ماذا) اعتقدت أن الأمر سيكون واضحاً بالنسبة لهم. ولحسن الحظ كنت قد كتبت رقم صندوق البريد. وقد نشر الإعلان كما هو باللغتين الإنكليزية والتركية مع عبارة (for bilmem ne) كيف كان لي أن أعرف أن هذا الإعلان الذي كتبتُ نصه بيدي سوف يكون سبباً لينسج القدر لي شباكه؟

وصلت رسائل من أربعة أو خمسة نساء إلى زكي؛ رداً على الإعلان. وعندما مررتُ عليه كان يتحدث إلى إحدى المرشحات. تواعد معها، ثم قال لي أنها ستأتي بعد قليل. وعندما نهضتُ لأنصرف طلب مني البقاء لأرى المرأة التي ستأتي. بعد قليل أخبرته السكرتيرة بوصول تلك المرأة.

دخلت من باب الغرفة هالةُ نور.. «أنا بتول» قالت. كان صوتها عاصفةً اجتاحت الغرفة. قلبَتْ كل شيء عاليه سافله، تطايرت الكتب والأوراق والملفات.. كل شيء تطاير من الإعصار..

---

* bilmem ne ما لا أدريه

p.k صندوق البريد

filan كذا

Twitter: @ketab_n

«أنا بتول» قالت بصوتها الدافئ الرقيق، دار رأسي تحت قوة العاصفة.. يا لحظ زكي هذا! لكنه ليس الحظ، بل قوة المال.. حسدته من قلبي. «إعلانكم ظريف جداً... كم ضحكتُ وأنا أقرؤه.. قرأته على مسامع كل أصدقائي.. ريكوايرد فور ما لا أدريه.. إنها نكتة رائعة.. يالها من لقية! فتنتني.. لولا هذا الإعلان ما جئت.. فكرتُ بأن مرافقة رجل خفيف الدم إلى أوروبا ستكون ممتعة...».

خفة دم؟ أية خفة دم؟ إن صاحبي زكي لا يعرف حتى كيف يضحك. انبسط زكي لإطراء المرأة وراح يضحك. فلم أجرؤ أن أوضح لها أن الأمر لا يتعدى خطأً غير مقصود.

إما أنها كانت بلا زينة، أو أنها تزينت بمهارة تترك انطباعاً بأنها كذلك، وكانت أناقتها الشديدة تضفي عليها جاذبية لا تقاوم. والعطر الخفيف الذي تعطرت به، شممته لأول مرة عليها. وهي فوق كل ذلك من ذلك النوع من النساء الذي يزداد جمالاً وجاذبيةً، عندما يتكلم. أذهلتني تماماً عندما قالت أنها تتقن الفرنسية والإنكليزية..

غادرتُ المكتب بعد أن شربت كأساً من الويسكي، حتى أتيح لهما الكلام عن العمل الذي جاءت من أجله. كنتُ كمن ضُربَ على رأسه بمطرقة وغاب عن الوعي، ثم أفاق وهو لا يدري كم من الوقت ظل نائماً.. كنتُ أرى العالم بعينين جديدتين. يغمرني شعور بالدفء والجمال.. كنتُ كالثمِلْ..

بعد بضعة أيام صادفْتها على ظهر العَبارة وأنا ذاهب إلى جزيرة "بيوك آضه" إلى عند عمي. كان يرافقها رجل مسن أنيق الملبس. قلتُ لنفسي أنه أبوها. رأتني بدورها. وكم سررتُ عندما حيتْني من بعيد بابتسامة. لقد عرفتني إذن.. شعرتُ بدفء يتدفق (هنا تشوهت الكتابة بفعل البلل).

في تلك الليلة اتصلتُ ببيت زكي، فقالوا لي أنه رحل إلى أوروبا صباح ذلك اليوم. إذن فقد وجد امرأة أخرى ترافقه. (غير مقروء) ليلة السبت ذهبتُ لحضور زفاف ابنة عمي. آه وآه.. وأيضاً آه.. مهما تأوّهتُ، يبقى

Twitter: @ketab_n

قليلاً.. كم كنتُ أعمى حتى لم أرها سوى حوالي منتصف الليل. (الخط غير مقروء لأن الأوراق مصفرة جداً في هذا الموضع).

«أتعمل لي معروفاً؟» قالت، فأجبتها: «مري» فقالت: «هل يمكن أن تقبل رجائي وتوصلني إلى بيتي؟ الجو هنا يشعرني بالضيق». «بالطبع» قلتُ لها. فودَّعَتْ المجموعة التي جاءت معها إلى العرس. أخذنا سيارتي الصغيرة. على الطريق قالت أكثر من مرة: «قد أتعبتكم معي» وما شابه. وصلنا إلى نيشان طاش، حيث شقتها. صعدنا بالمصعد، رنَّتْ جرس الباب، تهيّأتُ للانصراف لكنها دعتني بلطف لشرب فنجان من الشاي. فتحَتْ الباب امرأة متوسطة العمر، عرفتُ فيما بعد أنها خادمتها. (بقع الماء شوّهَتْ الأسطر).

في وقتٍ قريب من الفجر رقصتُ وحدي في غرفتي. كانت بي رغبة شديدة لأغني بأعلى صوتي. قفزتُ ورقصتُ كراقصة محترفة.. القدر ينسج خيوط شباكه...

28 نيسان

مساء البارحة ذهبنا إلى المسرح حيث تابعنا عرضاً بعنوان «أن تحيا الموت». كل الممثلين أجادوا. لكن البطلة قدمت نجاحاً إستثنائياً. كنا نحتل مقعدين متجاورين، غير أننا كنا كشخص واحد يتوزع على مقعدين. هكذا نحن دوماً في السينما أو المسرح. وكأن دمي ودمها يجريان في دورة واحدة عبر يدينا وأصابعنا وذراعينا ومرفقينا وهي تتلامس. كنتُ أشعر بحرارة دمها داخل جسدي أنا.

إنها أول امرأة أحبها. أما من سبقها فكان حبي لهن حباً زائفاً، إذ لم أكن قد عرفتُ الحب الحقيقي فظننتُ متوهماً أنني أحببتهن.

مع بداية الفصل الثاني من المسرحية بدأتْ تبكي. كان مرفقها فوق ذراعي. ومن إرتجافاته فوق ذراعي أدركت عنف بكائها. بكيتُ أنا أيضاً،

Twitter: @ketab_n

محاولاً إخفاء ذلك عنها. أكنتُ أبكي لو أنني شاهدتُ المسرحية وحدي؟ أم أن حساسيتها عَدَتْني؟ صحيح أنني كنتُ أبكي أحياناً وحدي متأثرا بمسرحية أو فيلم سينمائي، ولكن ليس بكل هذا الانفعال.

ظلت تبكي حتى نهاية العرض. وبدموعها بدت لي أكثر سمواً ونصاعةً. مهما يكن ماضيها الذي يثير غيرتي بكل جوارحي، ولا أجرؤ على سؤالها عنه، فقد غسلته في نظري بدموعها السخية. كنتُ أعتبرها لي ولم يمسسها أحدٌ قبلي.. لقد غسلَتْ نفسها بدموعها كما نفعل جميعاً.

خرجنا من المسرح والدموع لا تزال تنساب من عيوننا، انحرفنا في جادة جانبية أقل ازدحاماً. ساءني صمتها، لأن من بين أكثر الأشياء التي أحبها فيها هي أنها دوماً تجد ما تقوله، دوماً تجد كلاماً ممتعاً تقوله. كانت صامتة ولا تزال تبكي. ليست ثمة أية لطخة مثيرة للندم في ماضينا تعجز الدموع عن غسلها وإزالتها.

يمكن لمسرحية أن تؤثر فينا بمقدار ما نجد أنفسنا وأمانينا فيها، وإن لم تجد بتول نفسها في مسرحية «أن تحيا الموت» فهي حتماً وجدت فيها أمانيها وأشواقها المحبطة.

شربنا في بار الفندق. الشيء الوحيد الذي لا يعجبني فيها هو شربها بإفراط.

19 آذار

في ذلك المطعم المطل على البوغاز من الأعلى كنا نتناول طعامنا على طاولة محاذية للنافذة الزجاجية، عندما سألتني فجأةً كم أقدّر عمرها. كانت تبدو لي في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين من عمرها. فكرتُ بأنه عليّ أن أقول لها رقماً أصغر من ذلك، مثلاً الخامسة والعشرين لإرضائها. «إن أعمار النساء...» بدأتُ ألوك كلاماً هكذا، لكنها قاطعتني بإلحاح: «هيا قل، قل!» فقلتُ لها: «إن المرأة تكون في العمر الذي تبدو عليه» فسألتني «إذن كم يبدو عليّ من العمر؟» فقلتُ لها أنها تبدو في

Twitter: @ketab_n

الخامسة والعشرين، فضحكت كثيراً وقالت: «إن صديقتك أربعينيـة.. لقد دخلتُ سن الأربعين». لم أفهم لِمَ فتحت هذا الموضوع بإلحاح. هـي بـالفعل لا تبدو أبداً في الأربعين والظاهر أنها كانت تحاول إفهامي أنها أكبر مـني. أكانت تريد تغيير اتجاه علاقتنا؟ ربما لم تكن في الأربعين، بل تكذب عليّ عن عمد. لا يمكن أن تبـدو إمـرأة أربعينيـة بهـذه النضـارة. أو أن حياتهـا المرفهة لم تسمح للسنين أن تفعل فعلها في مظهرها.

3 نيسان

عاد زكي من رحلته الأوروبية. ذهبت إليه هـذا الصبـاح. لم أحدثـه عـن علاقتي ببتول. سألته عن المرأة التي رافقتـه. فقـال أنهـا امـرأة مـن الطـراز الإسباني وقد افترق عنها على الطريـق. سـألته عـن سـبب عـدم اصطحابـه لتلك الشقراء الجميلة. في الأول لم يتذكرها.. وعندما ذكّرته بها قال بـنزق: «دعك منها يا... لم أر قحبة مثلها في حياتي. طلبت عشرين ألف لـيرة في الشهر.. والدفع سـلفاً». وعندمـا احتـج عليهـا زكـي وقـال لهـا أن أعضـاء البرلمان أنفسهم لا يقبضون راتباً كهـذا، ردت عليـه مقترحـةً أن يصطحـب أحد النواب بدلاً عنها. فثـار زكـي في وجههـا وقـال أن هنـاك الكثـير مـن النساء الجاهزات للسفر معه مقـابل المصـاريف فحسـب. فـردت عليـه بمـا يلي: «كما تشاء.. لقد طلبتُ منك مبلغاً زهيداً. فسوف تفعل مـا يحلـو لـك مع امرأة جميلة طوال شهر مقابل عشرين ألف ليرة فقط. سأكون سكرتيرتك ومترجمتك وزميلتك في السفر، وفوق كل ذلك خليلتك...».

عندما سمعتُ هذه الكلمات شعرتُ بشيء يتقطع داخلي.

صرخ زكي يقول: «تبين لي أنها مومس بكل معنى الكلمة...».

فقلتُ له: «وهل كنتَ تبحث عن ابنة عائلـة محترمـة وشـريفة لتكـون مرافقتك؟ ما كنتَ حكيت عنها بهذه الطريقة لو أنها لم تطلب نقوداً...».

فراح يحكي لي عما سمعه عنها فيما بعد. قال أنها تدمر كل من ترافقـه في رحلة إلى أوروبا من رجال أعمال أثرياء وتدفعهم إلى الإفلاس. عدّد لي البيـوت

Twitter: @ketab_n

التي خربتها، والأسر التي شرذمتها.. حكى عن مرافقتها لرجل يدعى معمّر الكلاركجي وعن قيامهما بتهريب البضائع إلى تركيا لفترة طويلة.

7 نيسان

منذ أربعة أيام لم ألتق بها. أحاول نسيانها. ما أجمل وأسمى الأحلام التي نسجتها حولها! ويالها من طريق مسدودة تلك التي (الكتابة غير مقروءة بسبب قرض الفئران أو الحشرات لصفحات الدفتر).

29 نيسان

يثير فضولي ماضيها. ترى من هي وأين أسرتها؟ عندما أسألها تتهرب من الجواب ببراعة ومكر وتدير الحديث في اتجاهات أخرى. وأحياناً ألجأ إلى رواية قصة حياتي لها حتى أشجعها لتفعل مثلي. عندها تبدي استياءها الظاهر. فإذا كنا في البيت تقاطعني بأن تبدأ بالغناء. وإذا كنا في مكان عام، تغيّر مجرى الحديث.

19 أيار

من المستحيل أن يكون صحيحاً ما يروى ويقال عنها.. الحسد يدفعهم إلى تشويه سمعتها.. وهذا قدر كل امرأة جميلة.. قضينا نهاراً وليلةً ما أجملهما.. إنها في منتهى الذكاء.. تفهم حتى ما يدور في خلدي. كذب! كذب! كذب كل ما يقال عنها!

20 أيار

ليلة البارحة، ونحن نتعشّى في مطعم سألتها عن دراستها، فضحكت وكأنها تصغي إلى نكتة ثم قالت لي ساخرة: «أية دراسة؟».

شربت كأس العرق الذي أمامها حتى أفرغته وتابعت: «أنا لم أذهب إلى المدرسة قط. حتى المدرسة الابتدائية لم أذهب إليها». فلمتها على سخريتها وذكرتها بإتقانها الإنكليزية والفرنسية: «أو تسمي تلك إنكليزية

Twitter: @ketab_n

أو فرنسية؟ إن كل من سافر إلى أوروبا على طريقتي يتقن لغات التسوق التي أتقنها أنـا». فذكرتُها بطريقتها المشوقة والمتعة في الحديث في أي موضوع كان، بمعلوماتها الواسعة المتنوعة. وسألتها إن كان ذلك نتاج ثقافة خاصة خارج المدرسة. «نعم. هذا هو التعبير المناسب: ثقافة خاصة» هكذا قالت بلهجة ساخرة أيضاً.

ثم أوضحت لي أنها تعلمت من كل رجل صاحبته وعاشرته عدداً من المعلومات، بحيث تحصل لها في النتيجة ما يعادل معلومات عدة كليات جامعية. لقد حصّلَتْ ثقافتها الخاصة عن طريق الرجال الذين عاشت معهم.

خيِّلَ لي أن المطعم انهار فوق رأسي. وفي تلك اللحظة جاء عازف الكمان في فرقة المطعم ووقف لصق طاولتنا وراح يعزف كأنما داخل أذني. دسست نقوداً في جيبه لأتخلص منه وأنا أجمّد وجهي وكأنني أعاني ألماً في ضرسي، محاولاً، على حد زعمي، التظاهر بالابتسام. لم أكن أرغب بإظهار خيبتي... ووددتُ الظهور بمظهر الرجل اللامبالي... لكنني لم أوّفق في ذلك. عجزتُ حتى عن الكلام. إن وجهي يفضحني دوما. كانت تحكي، بينما أكتفي بالرد بنعم أو لا عندما يقتضي الموقف ذلك. إذن فإن مسموعاتي عنها صحيحة. ليكن. وماشأني؟

احتوَتْ يدي في راحتها: «لماذا زعلت؟» قالت لي «أكنتَ تريد أن أكذب عليك؟ أردتُ صديقاً أستطيع أن أكلمه دون كذب، صديقاً أقول له الحقيقة دون تردد أو خجل...».

شربت ما تبقّى في كأسها. فعلتُ مثلها. بكَتْ. لم أحتمل. حذوتُ حذوها.. (غير مقروء).

2 حزيران

أحبها. أحبها. أحبها.. أنا اخترعتُ هذه المفردة. لم يسبقني أحد في معرفتها واستخدامها. ليس المفردة فحسب، بل الحب نفسه، معناه وجوهره.. أنا من اكتشفه. وحدي أنا في هذا العالم... لم يسبق لأحد أن أحب قبلي..

Twitter: @ketab_n

18 حزيران

بعد سنوات طويلة من الانقطاع أرغب مجدداً وبقوة في كتابة الشعر. هذا هو الحب: الرغبة الجامحة في كتابة الشعر. لكنني لا أنجح في ذلك. لا أجد كلماتٍ لائقة ببتول..

لا.. لا.. أن تعيش الشعر أجمل بكثير من كتابته. وأنا أحيا الشعر بامتلاء في بتول وبها..

30 حزيران

نحن في أجمل أيام أوائل الصيف. ذهبنا البارحة إلى كازينو على شاطئ البحر في منطقة بَبَك. كنا نشرب عندما لاحظت وجومي الذي لم أتمكن من إخفائه. قالت لي: «ماذا بك ياصغيري؟ منذ بضعة أيام يبدو عليك وكأنك زعلان مني...» قلتُ أنه ليس ثمة شيء. لكنني أنا نفسي لم أصدق ما قلت، فقد كانت نبرة صوتي تقول عكس ما يقوله لساني. قالت لي أنني أشبه ما أكون بطفل خطفوا من يده لعبته. أعجبني التشبيه فابتسمتُ بحرارة وكأنني أقول لها: «وما أصح ما تقولين!»...

حتى صوتي كان متقصّفاً. كنتُ أتكلم بأصواتٍ شبيهة بطقطقة الأصابع، منذ أيام كانت قد زارتني خالتي وعرضَتْ عليّ تزويجي. وعندما أخبرتها بأنني لا أفكر الآن بالزواج صفعتني بقولها أن لي علاقة مع امرأة سيئة السمعة تدعى بتوش الحلوة، قالت ذلك وكأنها تتكلم عن أمر معيب، وقالت أن استانبول بأسرها تعرف تلك المرأة. ونقلت على لسانٍ مفتش جمارك متقاعد، صديق لزوجها، أن بتول قد تزوجت من عجوز غني يدعى مجديِ السرسق لترث أمواله، وأنها قتلته بالإتفاق مع عشيق لها يدعى بكير الفحل واستولت على قصر العجوز.

خمّنت بتول أنني سمعت شيئاً عنها، فراحت تلح عليّ لأحكي لها ما سمعت. ولكن كيف لي بذلك؟ لقد سبق وقالت لي أنه ليس في ماضيها أي تفصيل جميل يستحق أن تحكيه لي. قالت لي: «إن كنت سمعت شيئاً عني

Twitter: @ketab_n

قل لي حتى أحكي لك القصة الحقيقية. لأن ما يحكى عني بالسوء كثير. فكيف لي أن أعرف ما سمعته؟».

منذ اليوم الأول لتعرفي إليها لاحظتُ أنها تتفوق عليّ بوضوح. ولكن فيمَ يقوم هذا التفوق وما مصدره؟ لم أكن أعرف. أهو بسبب قلبها المفتوح وصراحتها أم بسبب لا مبالاتها أم بسبب تقديرها لجمالها أم ثقتها بنفسها أم عدم اكتراثها بي؟

عندما ألحّت عليّ كثيراً أخبرتها بما سمعته عن اشتغالها بالتهريب مع المدعو معمر الكلاركجي، ثم عن زواجها بمجدي السرسق.. وكل ما سمعته عنها. أصغَتْ وهي تبتسم بصمت. ثم أوضحت لي بأن ما سمعته عنها ليس كذباً خالصاً، إنما فيه نواقص هنا ومبالغات هنالك. وطلبت مني إخبارها باسم الشخص الذي حكى لي كشرط لأن تحكي لي التفاصيل كما حدثت بالفعل. فأخبرتها باسم مفتش الجمارك المتقاعد.

أخبرتني بأن قصر مجدي بيك السرسق كان نادي ميسر للمجتمع الراقي، أثناء حياة صاحبه. وبعد مماته صار نادي ميسر رسمي بحماية الشرطة وصار اسمه «نادي القمة» حيث كان الأثرياء العريقون والأثرياء الجدد ومحدثو النعمة يرتادونه. فكيف لمفتش جمارك أن يرتاد مكاناً كهذا؟ إنه مجرد موظف صغير من أصحاب الدخل المحدود... كيف له أن يلعب الميسر في نادي القمة؟ نبهتني بتول كيف أنني لم أفكر بهذا عندما سمعت ما قاله عنها مفتش الجمارك هذا. إذن فالرجل يكذب. «لا، إنه لا يكذب» قالت لي: رغم دخله المحدود كان يأتي إلى نادي القمة، ويقامر. ومن أين له المال؟ من الرشاوى التي كان يتلقاها من المهربين. وأكثر وأكبر الرشاوى كانت تدفعها بتول، إلى درجة أن رجال الجمارك كانوا يحددون لها كميات البضائع التي يجب أن تهربها وفقاً لمقدار المال الذي ترشوهم به. وما دامت تدفع أكثر من الجميع، كانت تهرب بضائع أكثر من الجميع. هذا هو منطق المرتشين. لذلك كانت التقولات تنتشر عنها من مثل: «بتول تهرب كميات من المجوهرات تكفي لملء دكان صائغ» أو «فتحت بتول

Twitter: @ketab_n

محلاً لبيع الفراء لأحد أصدقائها بواسطة كميات الفراء التي أدخلتها عن طريق التهريب» قالت لي أنها اشتغلت في التهريب، وهي لا تنكر ذلك، ولكن ليس أكثر من أية سيدة من سيدات المجتمع الراقي. قالت لي أنها لم تتجاوز أبداً حدود لا أخلاقية المجتمع الراقي. والحق أن تلك الحدود واسعة جداً لدرجة لا تكفي فيها قدراتها على تجاوزها.

وأوضحت لي أن رجال الجمارك لم يكونوا يتقوّلون عليها بهدف الإساءة إليها، على العكس كان هدفهم الرفع من شأنها كمهربة لا يشق لها غبار حتى يبرروا رشاواهم. فكانوا يكذبون أولاً ليقنعوا أنفسهم بحقهم في الارتشاء، ثم يصدقون أكاذيبهم فيقنعون غيرهم بها. وقالت أنه ليس كل الأقاويل ضدها، بل ثمة أقاويل لصالحها. مثلاً كانوا يشيعون عنها أنها مثقفة جداً وتتقن الإنكليزية والفرنسية إتقانها للغتها الأم. ربما كانوا يحسون بالذل نتيجة الرشاوى الضخمة التي يقبضونها، فكانوا يشعرون بواجب رد الجميل إليها. وحقيقة الأمر لا تتجاوز أن رجال الجمارك سمعوها تكلم بعض الأجانب كلمات قليلة بلغة أجنبية بهذه الطريقة حولوها إلى أسطورة.

«الأسطورة عبارة عن عدم يكبر مثل كرة الثلج، ولا ترجع عدماً إلا إذا سحقت نفسها بنفسها». بتول هي التي قالت هذا. التماعات ذكائها الأشبه بوميض البروق في الظلام تدهشني. كرة الثلج تلك، التي تشكلت من العدم، انقضت عليها، إلا إنها لم تسحقها بعد .ذات يوم، على كل حال... (غير مقروء).

أوضحَتْ لي نقطة أخرى وهي أنها لم تكن زوجة شرعية لمجدي سرسق حتى تطمع في قصره. حتى لو أنها زوجته شرعاً فما كان لها أن ترث القصر لأن ثمنه لم يكفِ للإيفاء بديونه الضخمة المتراكمة. كانت في ذلك الوقت في التاسعة عشر من عمرها وتعمل في بيت دعارة (عندما سمعتها تخبرني بهذا تحول قلبي إلى مخلب وراح يمزق نفسه. أما هي فقد أخبرتني بهذا الأمر كما لو أنها تتحدث عن أمرٍ معتاد وطبيعي من أمور

Twitter: @ketab_n

الحياة اليومية). وكان مجدي السرسق زبوناً دائماً على أماكن اللهو وبيوت الدعارة. وفي إحدى زياراته التقى ببتول واشتراها من صاحبة البيت مقابل مبلغ ضخم وأخذها إلى قصره.

كان السرسق رجلاً قذراً ومنحرفاً «إلى درجة، حتى أنا أخجل من التحدث عنه» قالت ذلك وهي تشدد على كلمة «حتى». كان انحرافه ناتجاً عن تقدمه في السن، عن مرضه، عن سرسقته، وعن عجزه وفقدانه لقواه. أما السرسري المدعو بكير الفحل فهو «حامي» بيت الدعارة الذي كانت تعمل فيه، لكنه في حقيقة الأمر كان «بلطه جياً» يفرض الخوة على البنات وعلى صاحبة البيت (تقطع قلبي وهي تقول «باعتني صاحبة البيت لمجدي السرسق»)

قالت أنه من الممكن أن تكون وفاة العجوز المنحرف بسببها «هي ابنة التاسعة عشر النضرة مثل الخوخ الأخضر». ولكنها لم تبذل أي مجهود خاص متعمد للوصول إلى ذلك. ثم عبرت عن إشمئزازها العميق من مجدي السرسق ومن «بكير الفحل» ومن الجميع.. ثم قصت عليّ حكاية خرطوم النارجيلة المزعوم الذي ورثته عن السرسق وهي تضحك بمرح..

إن حديثها عن نفسها وعن الإشاعات والأقاويل الجارحة والمهينة التي تدور حولها، بكل ذلك الصدق والتجرد والبساطة، قد زاد إعجابي ببتول أضعافاً. بدا لي كما لو أنها ترتاح وهي تحكي لي. ربما كانت تتلذذ حتى أما أنا فكنتُ أختنق في بحرٍ لا محدود من الحزن.

11 تموز

سنذهب اليوم إلى البحر. الليلة الماضية زارتني لأول مرة في بيتي. عندما عدتُ مساءً إلى البيت كان المقعد الذي جلسَتْ عليه، والديوان الذي تمددَتْ فوقه، والأشياء التي لمسَتْها (غير مقروء) الأثر المتبقي منها فوق الديوان، والغطاء المدعوك (غير مقروء) هذه شعرة، وهذه أخرى، وأخرى وأخرى.. لمتُ كل الشعرات التي تساقطت من شعر بتول على الديوان وفي أماكن

Twitter: @ketab_n

أخرى متفرقة من البيت. وجدتُ الكثير منه أمام المرآة. أخيراً استطعتُ جمع باقة معقولة من شعراتها، رتبتها في نظام جيد، مشطتها. هذه الشعرات التي انفصلَتْ عنها ماتت، لن تطول ولن تحيا بعد الآن. فردتُ الباقة على اتساع كفّي ثم نظرتُ إليها على ضوء المصباح. اقتربتُ منها جيداً، كانت الأشعة التي تخترق الشعرات تزداد اصفراراً. لففتُ الرزمة في منديل (غير مقروء).

27 تموز

أشعر بشيء ما ناقص في علاقتنا، لكنني لا أعرف ما هو بالتحديد. كنا على الشاطئ، تحت مظلة، وكانت تسند رأسها على ركبتي وعيناها مغمضتان. كنتُ أداعب شعرها وأنظر إلى وجهها. ما الذي ينقص علاقتنا؟

على العشاء قلتُ لها أنها لا تحبني، فأجابتني رغبة منها في إثبات حبها لي أنها تفضلني على أربعين من صديقاتها. أهذا هو الحب؟ أهكذا تحب المرأة رجلاً؟ كانت تعطي أجوبةً متهربة حتى لا تجرحني. ويبدو أنني ألححتُ عليها كثيراً وضايقتها. فقالت لي: «على كل حال أنا لم أعشق أبداً».

«أبداً؟» سألتُها باندهاش. فأجابت بأنها أحبت مرة واحدة منذ سنواتٍ بعيدة. كان عمرها خمسة عشر عاماً أو أقل. أحبت ابن شيخ زاوية قريبة من بيتهم، وكان اسم الشاب "مظفر". كان يعجبها فيه زعرنته وفتوته وتفوقه على أقرانه في الحي، ثم قميصه ذي المربعات، القرنفلة الحمراء التي كان يثبّتها وراء أذنه، طريقته في التدخين، مشيته المتأرجحة المتخايلة.. وحتى طريقته في البصاق من بين أسنانه بسرعة انطلاق رصاصة..

فجأةً أمسكَتْ بيديّ وقرّبتْ خدها من وجهي وقالت: «ليتك هو...».

كانت خادمة متبناة في أحد البيوت (لقد خُلقَتْ هذه المرأة لتدهشني على الدوام!). كانت تلتقي بمظفر تحت شجرة القرّاص المنتصبة في وسط الساحة. وكم كان قلبها يدق بعنف عندما يمسك مظفر بيدها.. كان يكاد

Twitter: @ketab_n

يتوقف من شدة الانفعال، وكانت هي تكاد تذوب في أرضها. كانت تثق به كثيراً. طلبَتْ منه أن يخطفها، لكنه لم يفعل. وعدها حتى يتخلص منها ثم تهرب.

ذاك هو الرجل الوحيد، الأول والأخير الذي أحبَّتْه. وكما أن المرء عندما تدخل في عينيه سيخين من نار، يصبح أعمى، فإن نبع الحب ينضب إذا خدع المرء من قبل أول حبيب أحبه قلبه. لم يبق لدى بتول ما تمنحه من مشاعر حب. كنتُ أستثمر شجاعتها في قول الحقائق، لكنها ما كانت قالت لي ما قالت لوأنها تعرف كم تقتلني بتلك الحقائق.

ثم حكت لي أنها صادفته بعد سنوات، وكانت وقتها تعيش مع أحد أصحاب الملايين، أما مظفر فكان يعمل سائقاً. ذات ليلة تصادف أن أستقلّت سيارته هي وعشيقها، عرفته ودعته إلى بيتها في اليوم التالي. وعندما جاءَها صدمها بطلبه: «اشتري لي سيارة يا أبلة بتول حتى أخلص من العمل على سيارة يملكها غيري. أرجوك!» شعرَتْ بالغثيان. وحتى تمعن في احتقاره عيَّنَتْهُ سائقها الخاص عندما كانت تقيم في شاليه البوغاز.

يبدو أنني لن أرغمها على حبي.. سأحاول قطع هذه العلاقة.

3 آب

هذا الصباح جاءت إلى بيتي وأنا غائب، دست ورقة من تحت الباب تسألني فيها عن سبب عدم ذهابي إليها، وتقول أنها تنتظرني، وتطلب مني أن أتصل بها. قرأتُ جملها الثلاث عدة مرات، ثم تفرجتُ على خطها دون قراءة. كان أشبه بالرسم وكأنها تريد الإفصاح عن شخصيتها عن طريق خطها.

في الأيام الأخيرة سمعتُ عنها الكثير من الأقاويل البشعة. واأسفاه! ألا أستطيع إنقاذها مما هي فيه؟

وضعتُ الورقة مع خصلات شعرها داخل المنديل الذي استقر في جيبي الداخلي.

Twitter: @ketab_n

4 آب

جاءت في الصباح الباكر (الخط غير مقروء هنا).

قالت لي: «ألا تستطيع قبولي كما أنا ألا يمكن أن نبقى صديقين؟" وما أدراها بما يعتمل في داخلي تجاهها؟ صرختُ بها: "أنتِ لا تحبينني.." كانت المرة الأولى التي فيها أصرخ في وجهها. "إني أحبك.. أحبك.." كرّرتْ عدة مرات ثم أردفتْ: "ولكنك لا تفهمني..».

«أفْهميني إذن!» قلتُ لها صارخاً مرة أخرى. «سأحاول أن أُفهمكْ» قالت «اسمع. إن الأمر هو هكذا.. إذا عدتُ ووجدتُ بيتي وقد احترق تماماً واستحال إلى رماد، لن أشعر بأي أسف. فذلك لا يهمني في شيء.. ليس لاعتقادي أنني سأعيد بناءَ هُ. الحق أنني هدمتُ بيتي وأعدت بناءه عدة مرات، ولكن ليس هذا هو السبب. السبب هو أنني لا أرغب بالتمسك بشيء. لا أرغب أن أتمسك بالأقمشة والخرق والذهب والمعادن والأخشاب. ما أشد يأس المرء وهو يتدحرج في الفراغ فيحاول التمسك بأوراق تتطاير وتتساقط حوله. ما أرعب ذلك! أنا على الأقل أعي وحدتي المرعبة في الفراغ السديمي الذي يحتويني وأتدحرج ساقطة في أغواره. لا قيمة لأي شيء في نظري...».

كم كان يحسن بي لو أنني سجلتُ كل ما قالت على شريط.

«أنا أيضاً لا قيمة لي بنظرك طبعاً». قلتُ لها.

قبّلتني. لكنها قبلة ينقصها شيء ما كما كنتُ أحس في كل مرة. ربما كان الحب هو ما ينقص قبلاتها. لكنها امرأة صريحة بحيث لو كان الأمر كذلك لما أخفته عني. ولكن لِمَ تقول لي أنها تحبني، إذن؟

ذهبنا إلى بيتها. كانت خادمتها في إجازة. ذهبَتْ إلى المطبخ لإعداد الشاي. صرتُ أقلّب في الكتب التي في مكتبتها. كنتُ أرغب في معرفة قراءاتها. ولكن من يدري، ربما ليست هذه الكتب لها، بل للرجل الذي تعيش معه (كم هذا مؤلم بالنسبة لي!). صرتُ أفتح الكتب وكأنني أبحث

Twitter: @ketab_n

عن شيء يخصها، فلربما أعثر على ملاحظة، رسالة، ورقة مكتوبة بخط يدها وما إلى ذلك.. وداخل روايةٍ بعنوان «سنوات بلا حياة» وجدتُ ورقة مكتوبة بخط يدها، دسستها في جيبي.

شربنا الشاي ثم (غير مقروء).

في آخر الليل قرأتُ الورقة المكتوبة بخط يدها:

«لِمَ دوماً يكيلون لي الاتهامات؟ كثيراً ما فكرتُ بسبب لهذا.. إنهم في الغالب يتهمونني بذنوبٍ ارتكبوها هم، أو أيضاً بذنوب لم يجرؤوا على ارتكابها، وبذلك يغسلون ضمائرهم. والآثام غير المقترفة هي أكثر سفالةً ونذالةً من تلك التي اقتُرفَتْ. إنها تلك الآثام السرية المكبوتة عن خوفٍ وجبن. هذا ما يحمّلونني إياه».

ومن الطبيعي أن أكون الهدف الأمثل بالنسبة لهم. إن المخازن الكبرى تجتذب زبائن أكثر وتقوّض الدكاكين الصغيرة القريبة منها. طوال سنوات كنتُ مشجباً يعلق عليه المجتمع الراقي قذاراته. ولذلك يحمّلونني أنا كل آثامهم الدنيئة، اقترفوها، أم فقط جالت بخواطرهم ولم يجرؤوا على اقترافها.

لم أتحمل الاشمئزاز الذي يثيره في نفسي الدفاع عن نفسي في مواجهة حملاتهم القذرة فتظاهرتُ دوماً بأن ما يقال صحيح وتظاهرت بعدم الاكتراث بكل ما يقال عني. حتى في السفالة يمكن للمرء أن يكون أصيلاً وذا قلبٍ شهم. أليس بطولة أن أتحمل كل تلك الأقذار لأوسخ بها من يحيط بي أيضاً؟

«إن شهوة الانتقام تحرقني. لكنني لا أعرف إلى من أوجّه حقدي...».

10 آب

أقمنا ثلاثة أيام في فندق في الجزيرة. لا.. لا.. لن أستطيع التخلي عنها. ما الذي يمكنني فعله؟

Twitter: @ketab_n

2 أيلول

أعتقد أنني فهمت ما ينقصها: إنها لا تشعر معي بمتعة الأنثى بالرجل. إما لأنها لا تحبني، أو بسبب خللٍ ما عندي.

6 تشرين أول*

رأتْ مجموعة من الأطفال يلعبون في الشارع. داعبَتْهم بحنان فائق وبشوق لا يوصف. كنا نتمشى وذراعانا متشابكان. وكانت غارقة في صمتٍ لم أعهد له مثيلاً لديها. فكرتُ أنّ ذلك بسبب أولئك الأطفال، قلتُ لها: «ليكن لنا أطفال عديدون». فردت علي بصوتٍ متهدِّج: «أنا غير قادرة على الإنجاب..».

تذكرتُ شيئاً تعلمته أيام كنتُ طالباً. تقول النكتة أن الأستاذ يشرح كيفية تكوّن الجنين في الرحم، فيسأله أحد الطلاب: «لِمَ لا تنجب نساء بيوت الدعارة أطفالاً؟» فيجيبه الأستاذ قائلاً: «لأن ما يصنعه أحدهم يخرِّبهُ الآخر».

قضينا يوماً بلا طعم. مع أن الصباح كان جميلاً.

11 أيلول

أخبرتني بالقصور في وظائفها كأنثى، وبأنها لم تعرف متعة المضاجعة مع رجل طوال حياتها. وباعترافها هذا أدركتُ أخيراً ما ينقصها، ذاك الشيء الذي كنتُ أحسّ به بغموض ولا أفهمه، وكم خجلتُ من تذكري لتلك النكتة السافلة.. ولكن الغريب أن المرأة لا تعرف اللذة ومع ذلك تتدفق الأنوثة من كل ما فيها، وتثير الرغبات الجامحة أينما حلت وتضرم نيران الشهوة في كل شيء تلمسه (غير مقروء).

---

* الخطأ في الترتيب الزمني وارد في النص التركي.

Twitter: @ketab_n

17 أيلول

ذهبتُ إليها بعد الظهر، فوجدتُ موظفي حجز ومحامياً في بيتها. قاموا بإجراءات الحجز لإيفاء ديونها التي لم تتمكن من دفعها. رغبتُ بالمغادرة حتى أتظاهر بأنني لم أفهم شيئاً مما يجري، لكنها لم تتركني.

قضينا معاً سهرةً مرحةً جداً. لم يسبق لي أن رأيتها بكل هذا المرح. حكت لي عن بيريهان الشريفة. جعلت دموعي تطفر من عينيّ من شدة الضحك. كانت بيريهان واحدة من سيدات المجتمع الراقي، جميلة، متوسطة العمر. ولأنها لم تخن زوجها أبداً، ولم تضاجع غيره كانوا يسمونها بيريهان الشريفة من باب السخرية. كانوا ينظرون إليها باستخفاف لأنها ضعيفة حيلة..

وكم حكت لي هذه القصة برشاقة وجمال.. ثم أتبعَتْ ذلك بسيل من الشتائم المقذعة بحقهم. هي أيضاً طفرَتْ الدموع من عينيها. أكان ذلكَ من شدة الضحك، أم أنها كانت تبكي؟ لا أستطيع الجزم.

أول تشرين الأول

ما طبيعية العلاقة بيني وبينها؟ خصوصاً وأنها ليست حباً.. هي تسميها صداقة، وأنا لا أفهم.

لِمَ تستمر هي في هذه العلاقة؟ كلما سمعتُ ما يقال عنها يزيد استغرابي. ليست لها أية مصلحة معي. لأنني لستُ من الأغنياء، ولا من المشاهير، ولا ينتظرني مستقبل لامع..

منذ عدة أيام وأنا أبحث عن أجوبةٍ لهذا السؤال الذي يؤرقني. إن امرأة مثلها تقول أنها لا تعرف لذة الأنثى، ومع ذلك تنبثق منها الأنوثة انبثاقاً، وتعرف ذلك ويسرها ذلك.. لابد أن يكون ثمة معنى لهذه العلاقة بالنسبة لها.

ربما، لا بل بالتأكيد، أعتقد جازماً أنها تخطط للزواج مني.. حتى تتخلص من ماضيها الذي لا تحبه.

Twitter: @ketab_n

أرغب بقلب نفسي كما يقلب الجورب داخله خارجه، لأتفرج على نفسي. أهي التي ترغب في الزواج بي، أم أنا في حقيقة الأمر من يرغب بالزواج منها؟ هي رغبتي في ستر خجلي العاري، ما يدفعني إلى إسقاط رغبتي عليها هي.

أدركت أنني لن أستطيع الاستغناء عنها. جربت كثيراً ولم أفلح. أكون سعيداً برفقتها، أما بدونها فأشعر أنني ناقص.

نعم أرغب بالزواج منها، لكن جبني من ضغوط المحيط يجعلني أخفي هذه الرغبة حتى عن نفسي.

ما أسوأ ما أسمعه عنها! والأنكى من ذلك أنها لا تكذّب شيئاً مما يقال.

10 تشرين أول

اتخذت قراري. سأنقذها من الوسط الكريه الذي تذبل فيه وتتنشق عطنه، مثلما تقتلع نبتة جميلة من تراب رديء لتزرعها في تربة جيدة.

سأتزوجها وآخذها إلى مكان بعيد بعيد، أو نذهب إلى مكان بعيد ثم نتزوج هناك، ونعيش بين أناس لا يعرفونها ولا يعرفون شيئاً عن ماضيها.

هناك نكوّن لنا وسطاً جديداً كل الجدة، ونتجدد نحن بدورنا ونبدأ حياتنا من الصفر. سآخذها إلى أوستراليا أو كندا أو ربما إلى مكان أبعد. خرجت من البيت باندفاع كبير وبي رغبة للصراخ بأعلى صوتي في الشوارع...

14 تشرين أول

منذ ثلاثة أيام وهي غير موجودة في بيتها، ولم تخبرني أنها ستغيب.

28 تشرين الأول

على شرفة النادي، كنا نتفرج على المضيق الممتد باتجاه البحر الأسود. والسفن التي تمر. كنت منفعلاً جداً ولا أجرؤ على إبلاغها بقراري.

Twitter: @ketab_n

أدركَتْ ارتباكي فسألتني عنه. كانت على الشرفة بضعة طاولات مشغولة، وكنت أخشى أن يسمع أحد كلامي. كنتُ أشرب أكثر منها، وبلا أية مقدمات سألتها: «أتتزوجينني؟».

كان يمكن أن تسألني «وما نفع الزواج لنا؟» أو «ماضرورته؟» إن لم نتزوج لا أستطيع أن آخذها بعيداً عن هنا. كنت أعرف أنها ستفرح. ما الذي يمكن أن تتوقعه مني أكثر من ذلك؟ أو الأصح ما الذي يمكنني منحها أكثر من الزواج؟

لم تنبس ببنت شفة. راحت تنظر في وجهي وهي تبتسم. كان يسوؤني في ابتسامتها، تفوقها الذي يسحقني. ربما تتظاهر بالتفكير حتى لا تعطي موافقتها بشكل فوري، على عرض هام كهذا. وإذ بقيت صامتة مع ابتسامتها اضطررت أن أشرح لها مشروعي بكل تفاصيله. سوف نرحل إلى كندا أو استراليا حيث لا يعرفنا أحد حيث نخلق لنا عالماً جديداً يخصنا. وهي ستتعالج هناك عند أخصائي أمراض نسائية، وربما صار لنا أولاد، ولم لا؟.. حتى لو لم تنجب أولاداً فلا أهمية لذلك، يمكن أن نتبنى طفلاً. انتهى ما عندي من كلام. سكتُّ. بابتسامة ساخرة سألتني: «وماذا بعد؟».

«هذا هو الأمر» قلتُ لها.

«وبعد؟»

«هذا كل شيء!».

«أشكرك. أنت تريد إنقاذي من الوحل الذي يغمرني حتى عنقي». كانت تنقل لي ما كان يجول في ذهني ولا أجرؤ على التفوه به.

«هذا العرض ليس جديداً عليّ.. سبقك رجال آخرون وأرادوا إنقاذي من الوحل الذي أنا فيه. لا... لا... لا تجعّد فمك كالعادة مثل الطفل الذي تعرض لتوبيخ ولا تعبس.. أنا لا أساويك بهم. أنت مختلف بالنسبة لي...».

قالت لي أن الرجال الذين دخلوا حياتها أساؤوا إليها كثيراً، هذا صحيح؛ لكنهم نفعوها أيضاً... إذ جعلوها أكثر تسامحاً وتفهماً. وإلا لما

Twitter: @ketab_n

كانت تفهمتني الآن. ثم أضافت أنه لا معنى من هروبنا من المحيط الذي نحن فيه، لأننا على كل حال لن نتمكن من الهروب من أنفسنا. مادمنا نأخذ أنفسنا وذكرياتنا إلى كل مكان نذهب إليه...

«مع ذلك علينا أن نحاول» قلت مدافعاً عن فكرتي. لكنها قاومت.

حاولتُ أن أوضح لها أنها أساءت فهمي. وقلت لها أنه ليس من الضروري أن نهرب من المحيط. ولم نهرب؟! ما علاقتنا بالآخرين وما شأنهم بنا؟ فليقولوا ما يحلو لهم. لا أهتم بذلك قط! سنتزوج هنا. وسأكون سعيداً معها. وأحاول إسعادها معي.

عندما نطقت كلماتي الأخيرة كنتُ على وشك البكاء. انتظرت منها أن تمسك يدي بفرح، كما كانت تفعل دائماً عندما تفرح.

بدلاً من ذلك راحت تتحدث.. وكم كان حديثها مختلطاً ومشوشاً.

«أتعرف المفرقعات التي يفجرها الأولاد في الأعياد؟ يضعونها على اسفلت الشارع، تمر من فوقها عجلات السيارات فتتقافز هنا وهناك وهي تفرقع... إني أشبه تلك المفرقعات، أو أرغب بأن أكون مثلها. أن أتنقل من مكان إلى آخر بلا توقف وبلا استراحة. أن أجوب العالم بطوله وعرضه، أن أحرق وأدمر كل مكان أصل إليه، ثم أقفز إلى مكان جديد.. لا كمفرقع أطفال للهو، بل كقنبلة حقيقية مدمرة، قاتلة، فتاكة...» هذا على وجه التقريب ما قالته. (غير مقروء).

والزواج؟ لنتزوج.

«إني أحبك إلى درجة تمنعني من الزواج منك» قالت، وأضافت أنها غير قادرة حتى على إسعاد نفسها. إن شعورها بالكراهية (غير مقروء) لو أن الجمال ينبثق مجدداً في هذا العالم...

وددت لو أصرخ بها: «لماذا؟ لماذا؟»

«أتسألني لماذا؟» قالت وكأنها سمعت سؤالي الذي جال بخاطري. قالت أن ثمة حقائق فظة وقبيحة جداً، نتجنب الكلام عنها، ولكننا

Twitter: @ketab_n

لا نتخلص من حضورها بتجاهلها، لأنها هي الحياة نفسها. الفن أيضاً يتهرب من تلك الحقائق القبيحة التي لا مفر منها. مثلاً هل تجد أي تعبير فني عن دخول الناس إلى المرحاض في الرواية أو المسرح أو السينما؟

كلا، لم تقل بتول هذا بالضبط، أو ليس بهذه الطريقة على كل حال... مع أن المرء إذا كان يشكو من إسهال أو إمساك.. إن ما يبدو لنا جميلاً اليوم، لن يكون كذلك بعد الزواج، ليس هذا فحسب (غير مقروء) وفارق السن... الآن تقول أنك لا تكترث بالمحيط... ذكرياتنا... أنفسنا التي لا نستطيع الهروب منها.

شعرتُ بانسحاق ومرارة لا يمكن وصفهما. قلتُ لها: «إني أرجوك رجاء حاراً أن نتقابل في هذا المكان ثانية بعد عشرة أعوام».

وهكذا أوضحتُ لها أنني لن أراها بعد اليوم.

«حتى الآن لم يجرحني أي كلام منك. حتى إهانتك المتضمنة في عرضك أن تنقذني من الوحل الذي أختنق فيه. ولكن كلامك الأخير...».

ثم أضافت: «أنت تريد الانتقام مني بأن تسمعني أعبر عن ندمي على رفضي الزواج منك...» كنتُ قد أفرطت في الشرب. لا أتذكر ماذا قلنا أيضاً. وربما توقفنا عن الكلام أو تبادلنا كلاماً متقطعاً غير مترابط.

أوصلتها إلى بيتها، فتحت الباب بالمفتاح، مما يعني أن الخادمة غائبة. استأذنت بالانصراف بحجة أنني سأذهب إلى العمل باكراً. أول مرة أغادرها دون تقبيل.

في الصباح أدركت أنني نمت بكامل ثيابي على الكنبة. بي صداعٌ رهيب، حالي في غاية السوء.

سأستحم وأحلق ثم أذهب لأعتذر منها.

Twitter: @ketab_n

31 تشرين الأول

لليوم الثالث على التوالي لا أجدها في البيت. إني قلق جداً عليها.

4 تشرين الثاني

قيل لي أنها انتقلت من شقتها ولا أحد يعرف عنوانها الجديد. (باقي الصفحات تلفت بقضم الفئران وبفعل الماء. لا شيء مقروء).

Twitter: @ketab_n

المرأة التي تبعث الميت حياً

كنت قد عدتُ حديثاً من باريس بعد غيابٍ عن استانبول دام ستة أعوام، فوجدت نفسي غريباً في المجتمع الراقي. كان أناس جدد قد صعدوا وبرزوا في هذا الوسط. هكذا هو وسطنا المخملي. يغير شخصياته ووجوهه كل ثلاث أو أربع سنوات. لا يبقى إلا عدد محدود من الرجال الثابتين. حتى هؤلاء ليسوا من الصفوة. في أوروبا يا صديقي، يختلف الأمر. لتدخل مثلاً الهاي سوسايتي في إنكلترا أو الهوت سوسيتي في فرنسا أو الوسط الراقي الألماني.. ثم عد إلى نفس المجتمع بعد مرور ثلاثين أو أربعين عاماً، وستلتقي الوجوه نفسها إن لم يمت أصحابها. حتى أثاث النوادي الراقية يغيرونه عندما يعتق، أما الناس فثابتون. وإن أراد شخص جديد دخول المجتمع فهو يمر عبر مصفاة دقيقة جداً. من الصعب جداً دخول المجتمع الراقي هناك. كيف أشرح لك الأمر؟ في لندن مثلاً من الصعوبة بمكان اكتساب عضوية نادي من النوادي الاجتماعية، إن عضوية المجتمع عندهم يتم توارثها أباً عن جد. أما عندنا فمهزلة... كل من امتلك شيئاً من مال أو شهرة كل من هب ودب يتسلل إلى زبدة المجتمع وكأنه يدخل مقهى... ثم يمر بعض الوقت، تسوء أحوال محدث النعمة ذلك، فيطردونه كالكلاب. خلاصة القول يا سيدي إن مجتمعنا الراقي مثله مثل كل شيء عندنا...

لا. لا أقصد ذلك. أبداً! إن قصدي هو المقارنة بين مجتمعنا الراقي ومجتمعات أوروبا الراقية. ما سبب تغير الناس أعضاء صفوة المجتمع عندنا كثيراً؟ لأننا لا نمتلك أية مؤسسة ذات ماض عريق وتقاليد راسخة. في

Twitter: @ketab_n

الجرائد الفرنسية تظهر إعلانات لمؤسسات ومكاتب للزواج أو الصداقة... أي وسيطاً يعرّف الرجل على المرأة... لا تؤاخذني لما سأقول، أي مثل تلك المهنة التي لدينا... أتعرف كيف تظهر صيغة الإعلان في الجريدة؟ إنها هكذا: «إن عمر مؤسستنا ثمانين عاماً». أو «يمتد تاريخ مؤسستنا إلى ستين عاماً». أو «إن خبرتنا التي تتجاوز النصف قرن في هذا المجال ستمنحكم مزيداً من الثقة». تصور يا سيدي! هم مأسسوا حتى الوساطة الغرامية وتجارة النساء. حتى هؤلاء يفتخرون بماضيهم العريق.. كل شيء عندهم بهذه الصورة.

ما هو المجتمع الراقي ومن ينتمي إليه؟ علينا أن نعرَف هذا أولاً. إن تاريخاً للمجتمع الراقي عندنا سيكون مثيراً جداً لو تتم كتابته. ولكن من سيقوم بذلك. كانت ثمة صحفية مؤهلة للقيام بهذا العمل، هي «آيسلي كول» لكنها اختفت. لا أعلم أين هي الآن... فقط هي كان بمقدورها أن تدون تاريخ مجتمعنا الراقي. وقد كانت لديها النية بالفعل. كانت تجمع المواد الأولية لذلك.

حتى تعرف أية بهدلة هو المجتمع الراقي عندنا سأحكي لك حادثة كنت شاهداً عليها. قلت لك أن كل من هب ودب من محدثي النعمة يصبحون من المجتمع الراقي. ذات يوم كنت في النادي، انضم إلى مجلسنا تاجر خردة ورجل آخر مسن لا أحد يعرف ماذا يشتغل. كان يكرر عبارة: «عندما كنت في أوروبا... عندما كنت في أوروبا...» فسأله تاجر الخردة أخيراً: «هل كنت في أوروبا يا سيدي؟» فرد الرجل المسن: «خلال الحرب العالمية الأولى مكثت شهراً في كرواتيا». ولأن تاجر الخردة أكثر جهلاً من العجوز فقد سأله قائلاً: «وأين تقع كرتيا هذه؟» فقال له العجوز: «ليس كرتيا بل كرواتيا». فكرر الخرده جي: «سواء كان كرتيا أو كراتيا... مهما يكن اسمها... أين تقع؟» هذا هو مستوى مجتمعنا الراقي يا سيدي.

Twitter: @ketab_n

إن سبب حديثي بهذه الطريقة التفصيلية هو أنني أرغب بأن أضعك في صورة الوسط الذي كانت تعيش فيه بتوش. هه! تذكرت، كنت سأحدثك عن «تايلور ناجي» ذي الربع حصة، وها هو قد جاء الآن. ألا يقول المثل: اذكر الديب وهيئ القضيب؟ أترى ذاك الرجل الذي يدير ظهره إلينا؟ ذاك الذي يرتّب شعره بأصابعه باستمرار، انظر إليه.. إنه ينظر إلى صورته في تلك المرآة ويمشط شعره بأصابعه. دائماً يفعل هذا. إن لم يجد مرآة فهو يقف أمام لوح زجاجي أو واجهة أحد المحلات ليرتب شعره ويثبت ربطة عنقه ويجلّس المنديل في جيب سترته. هذا هو ديدنه وشغله الشاغل طوال النهار. انظر إلى حذائه كم هو لامع. ما إن يجد مكاناً بعيداً عن أنظار الآخرين حتى يخرج قطعة من المخمل من الجيب الخلفي لبنطاله ويلمع بها حذاءه. هو دائماً مشغول بمظهره، ولا هم آخر له. لم أصادف في حياتي رجلاً مثله. وإذا جلس وألقى بساق فوق ساق فإن أصابعه لا تفارق خط الكوي في بنطاله. وحتى لا يتجعد هذا الخط فإنه يغير وضعية ساقيه باستمرار، أترى كيف يلقي بشعره إلى الوراء؟ هكذا هو دوماً. أنا أتعب من مراقبة يديه. هذا الرجل مريض... واسمه ناجي. سمع أن بتوش تقدم منافع جيدة للرجال الذين تقيم علاقة معهم، فراح يتقرّب إليها عسى أن تساعده على فتح باب رزق له، وفي تلك الأيام كانت شهرة النجم روبرت تايلور كبيرة جداً في الوسط الراقي وخصوصاً بين النساء كان يتمتع بشعبية كبيرة.

ففي كل عهد يصبح أحد نجوم السينما موضة في هذا المجتمع، فيحاول الرجال التشبه به وتقليده، كما تدرج موضة إحدى النجمات فتحذو النساء حذوها في المظهر والتصرف... وناجي هذا بذل جهوداً خارقة للتشبّه بروبرت تايلور حتى يكسب قلب بتوش، لكنه لم ينجح في هذا لأن ناجي لايشبه روبرت تايلور في شيء. وذات يوم جاء يستشيرني، قال: «سمعتُ أنهم في باريس يغيرون وجه المرء حسب الطلب ويصنعون له الوجه الذي يرغب به. أي أنك تدخل إلى غرفة العمليات بوجهك، ثم تخرج منها

Twitter: @ketab_n

وأنت - مثلاً - روبرت تايلور. أهذا صحيح يا أخي؟» فقلتُ له أن الأمر صحيح، فإلى جانب معاهد التجميل يوجد جراحون أخصائيون قادرون على تغيير ملامح الوجه، سواء بالنسبة للرجال أو النساء. بعد هذا اختفى ناجي لفترة من الوقت عن الأنظار، كان قد سافر إلى باريس ليغير وجهه. ولا أعرف بالضبط إن كان يأمل بتحقيق مكسب مادي من بتوش، أم أنه كان يتحمل كل تلك التضحية لأنه يحبها فعلاً. لكن المثير في الأمر أن الكثيرين غير ناجي كانوا يسعون للتشبه بروبرت تايلور بسبب شعبيته الهائلة بين النساء في تلك الفترة. ولهذا السبب، أي بسبب وفرة الطلب كان جراحو باريس يطلبون أجوراً عالية جداً لإجراء عملية التجميل وفق نموذج روبرت تايلور. ومع ذلك لم يكن أمام ناجي من خيارات. فمن غير المعقول أن يعود من باريس بوجهه القديم نفسه... وهكذا طلب من الأطباء أن يشبهوا وجهه بروبرت تايلور بمقدار ما يسمح به المال الذي معه... كان الجراح المتخصص في تلك العملية طبيباً شهيراً يدعى «ألبير كورتان». مددوا ناجي على طاولة العمليات، بقطعة جليد كيميائي فركوا وجهه لمدة نصف ساعة حتى تجمد جيداً، سدوا فتحتي أنفه بالقطن. ودسوا في فمه أنبوبة للتنفس ثم طلوا وجهه بنوع من المعجون. بخوا فوق طبقة المعجون مادة مخدرة. وهكذا خدروا كل الحواس في وجه ناجي. ثم فتحوا فمه وعينيه وأنفه وبواسطة حفارة شبيهة بتلك التي يستخدمها أطباء الأسنان، بدؤوا يحفرون وجهه ويعدلون قسماته. أعرف هذه التفاصيل لأن ناجي أخبرني بها. وكان هو يرى كل ما يفعلونه به. كانوا مثل نحات يعطي شكلاً لقطعة صلصال. وبسبب التخدير لم يكن يشعر بأي ألم، كما أن وجهه لم ينزف نقطة دم واحدة بفعل الحفر. بعد انتهاء العملية لفوا وجهه بالشاش الأبيض. بعد ساعتين صار الدم يتسرب ويلطخ الشاش الأبيض. وبعد عشرة أيام أزالوا الضمادات عن وجهه. وعندما نظر إلى وجهه في المرآة ارتعب لما رآه وصرخ كالملسوع: «أيها السفلة أيها المجرمون ألم تعدوني بأن تشبهوني بروبرت تايلور أي روبرت تايلور هذا أيها الزنادقة أي وجه هذا إني أرتعب لمرآه

Twitter: @ketab_n

أهذا أنا أيها الأوغاد؟ لقد صرت أشبه بفرانكشتاين» قال ذلك وهجم على الطبيب الذي كان يبتسم والممرضات وكل الموجودين في الغرفة. قال له الجراح بكل برودة أعصاب: «لقد حذرناك منذ البداية. بمقدار المال الذي دفعته لنا لا نستطيع أن نفعل لك أكثر من هذا. لقد أصبحت تشبه روبرت تايلور بمقدار الربع. وربع روبرت تايلور يعادل فرانكشتاين. احمد ربك أن وجهك ظل وجهاً بشرياً...».

إن ناجي ساذج جداً. صار يبكي أياماً وليال وهو يندب حظه العاثر الذي جعل تضحيته الكبيرة تصبح بلا جدوى، تعرف على أرمني من تركيا يعيش في مرسيليا. كان هذا الأرمني بالأصل من "صَمَتيا" انتقل إلى مرسيليا ثم إلى باريس حيث افتتح مقهى تركياً وأعلن عن إقامة حفلات في الطرب التركي الأصيل. كان هو يعزف على الرق بينما تعزف زوجته على العود. شغّل ناجي عنده كمغن. ولم يكن يحفظ سوى أغنيتين، تقول كلمات الأولى:

أيها الصبي الجميل، ما أجملك
توسّد ذراعي والتحف بشعري
ما أجملك يا صبي وما أحلاك

وتقول الثانية:

الفتى قادمٌ من هناك
لامن هناك، بل من السوق
إني أعرفُ فتايَ
من عمرته التي على رأسه.

كان المقهى يمتلئ عن آخره بالزبائن. لكن أجرة ناجي كانت ضئيلة جداً، ولكن ما باليد حيلة. راح يبحث عن عمل إضافي ليستطيع أن يدّخر ما يحتاجه من مال. تعرّفَ على «مدير أعمالٍ» يرتاد المقهى. كان هذا «يدير» كافة أنواع الأعمال. وكان في تلك الأيام يعمل في مجال المصارعة الحرة. عرض على ناجي أن يشغّله مصارعاً. ولم يكن ناجي قد صارع في

Twitter: @ketab_n

حياته. سأله عن سبب اختياره له لهذا العمل، فشرح له الرجل أن المصارعة التي يسمونها «بانكراس» تتطلب مصارعين ذوي مظاهر تخيف الجمهور. وقد رأى مدير الأعمال وجه ناجي مناسباً جداً لهذه المهنة، وقال له أنها مهنة كسّيبة للغاية. وافق ناجي المسكين على ممارسة هذه اللعبة العنيفة جداً حتى يكسب مالاً يمكّنه من إجراء عملية ثانية تجعله شبيهاً بروبرت تايلور، عمل له المانيجر دعاية ضخمة كما يلي: «المصارع التركي الشهير عثمان».

انظر، انظر!.. مازال واقفاً أمام المرآة يصفف شعره بيديه. المسكين سيفعل هذا طوال عمره بلا توقف، لكنه، على ما يبدو، لن ينجح في ذلك قط وسيموت دون أن يكون راضياً عن مظهره. إنه أشبه بقطة تلعق شعر جسمها.. هل تتصور هذا القزم مصارعاً؟ طبعاً لم تكن مصارعة حقيقية. كان المدير الفني يرتّب كل تفاصيل المباراة مسبقاً، بما فيها النتيجة.

وهكذا صار المسكين يعمل نهاراً كمصارع وليلاً كمغني «آلا تركا»، وفي ما تبقى من وقته كان يتردد على استوديو حيث يصورون له صورا بورنوغرافيه بأجر خمس فرنكات عن كل ساعة. وراح يجمع المال ليجري عملية ثانية لوجهه. ورغم تحذيرات الدكتور له بأنه لا يملك وجهاً يمكن تشبيهه بوجه روبرت تايلور، فإن ناجي لم يفقد الأمل وظل يتوسل إلى الدكتور حتى وافق على إجراء عملية تجميل ثانية لوجهه. بعد خمسة عشر يوماً فكوا الضمادات عن وجهه نظر ناجي في مرآة.. يعني.. إذا نظرتَ إليه نظرة جانبية ومن بعيد فإن به بعض الشبه من روبرت تايلور.. كان المسكين يعتقد أنه ما إن يعود إلى استانبول حتى تعانقه بتوش صارخة بفرح: «آه يا تايلوري العزيز، ياحياتي!». لكنه عندما عاد إلى استانبول فعلاً واقترب من بتوش، فإنها حتى لم تلاحظه.. عندها اضطر إلى سؤالها: «أجريتُ عمليتين من أجلك. انظري إليّ. هل أشبه روبرت تايلور؟» ردت عليه بتوش ببرود، «وماذا يهمني إن كنتَ تشبهه أم لا؟». واقع الحال أنه بينما كان ناجي المسكين يكدح ويشقى لتأمين أجور العملية كانت موضة

Twitter: @ketab_n

تايلور قد تجاوزها الزمن. بذلك انهار عالم ناجي، ومن يومها فإن يديه لا تتوقفان لحظة واحدة عن الاعتناء بشعره ووجهه وهندامه متوهماً من كل عقله أنه يشبه روبرت تايلور بالفعل. ولأنه يشبه النجم بمقدار الربع، كما قال الجراح الفرنسي، فقد لقّبوه بناجي تايلور ذو الربع حصة. وكل هذا حدث لناجي بسبب بتوش. إنها ذكرى قديمة.. أما عن بتوش فلا أعرف شيئاً.. وناجي الأحمق مايزال يعتقد أنه يشبه روبرت تايلور، مع أن روبرت تايلور الحقيقي قد اختفى عن الأنظار ونسيه الناس.

أتسألني هل سمعتُ شيئاً عن بتوش بعد ذلك؟ نعم. في الواقع اختفت لفترة من الوقت عن الأنظار، ثم سمعنا أنها رحلَتْ إلى أمريكا وتزوجت أمريكياً. وكان ثمة في ذلك الوقت رجلٌ يدعى شكيب الكولكسيونجي، وكانت هوايته هي جمع الملابس الداخلية المستعملة لسيدات المجتمع الراقي المعروفات.. ماذا تقول؟.. آه، نعم. كان هذا مرضاً نفسياً بالطبع، لكنه كان ماهراً إلى درجة لا تصدق، ففي مجموعته كان بإمكانك أن تجد الملابس الداخلية لنساء فوق الشبهات، غير متوقعات بالمرة. كانت بعض النساء تهدينه ملابسهن الداخلية على سبيل التذكار، أما باقي النساء فكان يسرق ملابسهن الداخلية بطريقة ما. فمن أجل الحصول على سروال أو حمالة صدر أو مشد كان يضطر إلى السرقة أحياناً. كان يرابط دوماً في الفنادق الكبرى. فإذا جاءت نجمة من نجمات السينما للإقامة في أحد تلك الفنادق، كان يسرق ملابسها الداخلية ليضيفها إلى مجموعته. ولم يكن يعترف بالسرقة، بل كان يدّعي أنهن أهدينه إياها، ويلفق حكايات عاطفية جرت بينه وبينهن. وقد رأيتُ مجموعته الفنية هذه ذات يوم. ولأنها سر من الأسرار فلم يكن يسمح برؤيتها لأي كان. لأن في المجموعة ملابس داخلية لزوجات بعض الشخصيات الهامة. كانت لديه غرفة خاصة مليئة بتلك الملابس أما أكثرها أهميةً فقد وضعها وراء واجهات زجاجية صنعت خصيصاً لهذا الغرض. وهناك رأيتُ سراويل عليها تواقيع صاحباتهن أو أسمائهن. قال لي أن أثمن ما عنده يخص بتوش، ورغم وجود

Twitter: @ketab_n

عدد كبير من ملابسها الداخلية إلا أنه لم يكن هناك ولا سروال داخلي واحد يخصها. كان يأسف كثيراً لأنه، رغم جهوده المتواصلة لم يستطع الحصول على سروال واحد يخص بتوش.

كان شكيب هذا رجلاً لا عمل له يتعيش من ميراث كبير آل إليه، ولما جاء الوقت الذي بدأت ثروته فيها تنضب علّقَ آمالاً كبيرة على مجموعته. كان يأمل ببيعها لأحد الأمريكان المهووسين بالمجموعات. ولذلك كان يعرض مجموعته أمام كل أمريكي يأتي إلى استانبول، كاد يبيعها فعلاً لامرأة أمريكية مسنة من أصحاب الملايين. بالثروة الضخمة التي ورثتها من أزواجها المتلاحقين كانت هذه العجوز الطويلة القامة تلف العالم وتشتري أية مجموعة تصادفها، ومن أي نوعٍ كانت. كان هدفها امتلاك مجموعة مجموعات. وقد اشترت في استانبول مجموعة ملاعق خشبية ومجموعة أكياس حمام ومجموعة سبحات. ذهب إليها شكيب وأخبرها بأنه يملك مجموعة الملابس الداخلية النسائية المستعملة الوحيدة من نوعها في العالم وأذهلها بالملابس الداخلية لنجمات سينما مشهورات على نطاق العالم. وبعد المساومة اتفقا على السعر، وتقرر أن تتم الصفقة في مؤتمر صحفي في الفندق، وغرضها من ذلك تأمين الدعاية المناسبة لترفع من سعر تلك المجموعة منذ شرائها لها.. إنه الدماغ الأمريكي! دعاني شكيب لحضور ذاك المؤتمر الصحفي، لكنني لم أتمكن من الذهاب بسبب انشغالي ببعض الشؤون. امتلأت القاعة الكبرى للفندق بالصحفيين. جاء شكيب بعدد من الحقائب الكبيرة المليئة عن آخرها بالملابس الداخلية. وحتى تتم الدعاية المناسبة للمجموعة سألَتْهُ الأمريكية عن حمالة صدر النجمة الفلانية. فألقى شكيب نظرةً على سجلاته (إذ كان يمسك سجلات يدون فيها كل قطعة وصاحبتها) ثم مد يده إلى إحدى الحقائب وأخرج الحمالة المطلوبة.. بدا السرور على وجه العجوز الأمريكية.. ثم سألَتْ عن مشد يخصّ نجمة أخرى.. وخلال لحظات كان المشد يلوح في يد شكيب أمام كاميرات الصحافة.. ولسببٍ غير معلوم لعب الفأر بعبّ المرأة وساورتها الشكوك

Twitter: @ketab_n

بشكل مفاجئ.. فما الذي يضمن أن هذه الملابس فعلاً للشخصيات الشهيرة التي يدعي شكيب أنها لهن؟ ما الضامن أنه لم يشتريها ببساطة من السوق؟ ولذلك أرادت أن تختبره فسألته:

- هل عندك الملابس الداخلية لكل الشهيرات؟

- من المستحيل أن أملك ملابسهن جميعاً. ولكن ملابس أكثرهن موجودة عندي. وخصوصاً من مر منهن باستانبول..

- هل يوجد لديك سروالٌ لي؟

أطبق صمتٌ متوتر على القاعة. قال شكيب:

- طبعاً موجود. هل يصحّ أن تفلت مني مليونيرة شهيرةَ مثلك إذا مرت باستانبول؟ اعذريني يا سيدتي. فقد اضطررتُ إلى دخول غرفتك في الفندق لسرقته.

كان قد آن الآوان لتوقّع المرأة على شيك وتسلمه لشكيب. إلا أن هذا نبش أحد الحقائب وأخرج منها سروالاً قذراً نشره أمام أنظار الصحفيين! وراح هؤلاء يلتقطون صورا لذاك السروال الأزرق الذي يمسك به شكيب بين يديه، وهذا ما قضى على الصفقة في مهدها. قالت الأمريكية:

- لن أشتري مجموعتك، لأنك رجل نصّاب. إن ما أظهرته على أنه سروالي لا علاقة لي به. لأنني غير معتادة على ارتداء السراويل. انظروا لتتأكدوا..

وبقولها ذاك شمرت فستانها حتى الخصر. لسوء حظ المصورين أنهم فوجئوا بالحركة ولم يتمكنوا من التقاط أية صورة لها «من تحت الزنار»، تصور للحدث الصحافي الذي كان سينفجر لو أن أحدهم تمكن من التقاط صورة واحدة لها! صحيح أن الصحفيين ادّعوا أنهم لم يروا شيئاً وطلبوا منها أن تؤكد لهم ثانيةً أنها لا ترتدي سروالاً، إلا أنها لم تنزل عند رغبتهم.

بعد مرور وقت طويل على هذه الحادثة أخبرني شكيب أن أحد ملوك البترول الأمريكي قد جاء برفقة زوجته إلى استانبول، وأنه سيشتري

Twitter: @ketab_n

مجموعته منه. وأضاف أنهما قد اتفقا أيضاً على السعر، وأنه عائدٌ إلى أمريكا غداً، وقبل سفره سننجز الصفقة في الصباح، وقال أنه سيكرمّ الرجل ويبدي تجاهه حسن ضيافة الأتراك التقليدية، فأثنيتُ على قراره. شرح لي أن الزوجين الأمريكيين يرغبان بالتعرف على خصائص تركيا والأتراك. طلب مني شكيب أن أكون معه، بسبب خبرتي في الأمور التي تهم السياح، فوافقتُ.

التقينا في الفندق، أذهلتني زوجة الأمريكي بجمالها الصارخ، عسل.. كان شكيب قد دعا الصحافة أيضاً حتى تهتم بضيفيه. سأل الصحفيون المليونير الأمريكي:

- كيف وجدت بلدنا تركيا؟

- رائعة! وخصوصاً نساءكم. إنهن فاتنات.

ويسأل الصحفيون زوجته:

- وأنتِ كيف وجدتِ تركيا؟

- لقد تقدمتم إلى حد جيد، ولأنكم تحاولون التشبّه بأمريكا فلم أشعر هنا بالغربة قط، شعرتُ كما لو كنت في بلدي، ولذلك لم أجد بلدكم أوريجينال..

وتلاحقت أسئلة وأجوبة أخرى مثل هذه...

اصطحبناهما إلى كازينو يقدم فيها الغناء الـ آلا توركا، لنريهم الخصائص الفنية لبلادنا، طلبنا عرقاً، وكانت المازوات تركية خالصة: بيض بالبسطرمه، الخيار باللبن، سلطة الرشاد، سلطة الرعاة... وما إلى ذلك. أعجبا بكل شيئ، وازداد انفعالهما وابتهاجهما كلما شربا عرقاً أكثر. صار الأمريكي يطلق صرخات مجنونة، ولم يكن صراخه من النوع الذي يمكن أن يقوم به أمريكي.

بعد ساعتين من منتصف الليل خرجنا من الكازينو، صعدنا في السيارات، وأخذتهم إلى «سولو قوله» حيث كان الغجر بانتظارنا. فقد سبق وأخبرناهم بأننا قادمون. قفزوا خارجين من أكواخهم ما إن سمعوا أصوات

Twitter: @ketab_n

أبواق السيارات. إن غجر سولو قوله دائماً على استعداد لأجواء اللهو، لأن المجتمع الراقي يتردد بكثرة إلى هناك. اشتعل المكان بالموسيقى والضجيج، عَزَفَت الآلات ورَقَصَتِ الغجريات.. الله الله! بدأت أشهر راقصة غجرية في استانبول ترقص، وهي الفتاة المسماة «جالي قوشو». وعندما أقول أشهر راقصة غجرية في استانبول، معنى ذلك أنها أشهر واحدة في العالم! عندئذٍ حدث ما جعل أفواهنا تنفغر دهشةً: فعندما اقتربت الغجرية من المليونير الأمريكي وراحت تهز وتخلع أمامه، أخرج من جيبه ورقة من فئة العشرة دولارات، ألصقها على جبهتها وقال يصرخ:

– من تحت يا صغيرتي من تحت! من تحت يا روحي من تحت.. اخلع! كيف لأمريكي أن يتفوه بهذه الكلمات التي لا يعرفها سوى الأتراك!!

ثم تعمقت الفرفشة، وضجّت الآلات وحمى وطيس الرقصات. وقد بلغ بنا السكر كل مبلغ. فجأة نزلت الأمريكية إلى ساحة الرقص وصرخت بالغجريات:

– ابتعدن أيتها القحاب! أهكذا يُهَزّ البطن؟ تفوو عليكن. لقد بهدلتم سمعة «سولو قوله»..

ثم التفتت إلى العازفين وصرخت بهم:

– اعزفوا رقصة البحرية المزدوجة!

بدأ العازفون بعزف تلك الرقصة وبدأت الأمريكية بخلع ملابسها. وظلت تتعرّى حتى لم يبق عليها سوى حمالة الصدر والسروال الداخلي. أما القميص الداخلي فقد ربطته حول خصرها ربطاً محكماً بطريقة جعلت طرفية يتدليان بين فخديها، ثم راحت ترقص تلك الرقصة التركية، بإتقان بدا معه رقص الغجرية رقص هاوية... عندما رأت الغجريات ذلك، جاءت إحداهن وقالت للأمريكية:

– نحن يا جميلتي لا نستطيع أن نرقص وأنت موجودة. أنت معلّمة المعلمات. تفضلي.. الساحة لك. الله يقوّي ساقيك وبطنك!

Twitter: @ketab_n

مع حلول الفجر أوصلناهما إلى الفندق. كنتُ ثملاً جداً، ومع ذلك كنتُ مشدوهاً بكل ما رأيت.

حوالي العصر من اليوم التالي جاء شكيب إلى بيتي. كان في منتهى التعاسة يكاد يبكي. فقد استقل المليونير الأمريكي طائرته وعاد إلى بلاده دون أن يتما صفقة مجموعة الملابس الداخلية.. أما زوجته التي قدمت لنا على أنها أمريكية، فقد تبيّن أنها تركية. أو تعرف من كانت تلك المرأة؟ إنها بتوش الحلوة... وقد تفننت في زينتها بحيث لم يتعرف إليها أحد منا. إلا أن الكثيرين ادّعو بعد أن عرفوا حقيقتها، بأنهم «شكّوا منذ البداية في أمرها...». والحق أن هزة بطنها لا يمكن أن تكون إلا تركية. والحال أن بتوش لم ترتوِ من الرقص، فبعد أن تركناهما في الفندق، شربت مزيداً من العرق ونزلت إلى الشارع، وصلت إلى التمثال القائم في ساحة «تقسيم». أمام التمثال خلعت كل ملابسها كما فعلت في سولو قوله وراحت ترقص، وهي تصرخ بابتهاج:

«الحمد لله عدتُ إلى بلدي! الحمد لله رأيتُ بلدي مجدداً». ثم حلت القميص الداخلي عن خصرها وألقت به عند أسفل التمثال وكأنها تضع زهوراً. حينما جاءت الشرطة وألقت القبض عليها راحت تتكلم الإنكليزية وتدّعي أنها أمريكية، لكنها لم تستطع إقناعهم. ثم تبين أن الأمريكي الذي تركها وسافر، لم يكن زوجها، والأنكى من كل ذلك أن الرجل لم يدفع حساب الفندق أيضاً. بتوش المسكينة اضطرت للدفع من جيبها.

فهمنا أن بتوش تركية... ولكن ما لم نفهمه هو الطريقة التركية الخالصة التي كان بها يطلق المليونير نعراته ويصرخ مشجعاً الراقصات بعبارات تركية أصيلة وكيف أنه ألصق الورقة النقدية بجبهة الراقصة...

منذ ذلك اليوم كتبت الصحف كثيراً ـ وربما قرأتَ ذلك ـ عن «امرأة من سيدات المجتمع الراقي تعرت في الشارع ورقصت بصورة فضائحية». كل تلك الأخبار كانت المقصودة بها بتوش الحلوة. ما إن تفرط في تناول العرق حتى كانت تنزل إلى الشارع وتتعرى. كنا ننظر إليها نظرتنا إلى مخلوق

Twitter: @ketab_n

منهار منته. لكنها كانت ذات شكيمة قوية، لم أر امرأة بقوة إرادتها. بعد هذه الأحداث بفترة تزوجت من رجل يدعى «إبراهيم مرتَلَكْ» واستعادت اتزانها وأصبحت سيدة المجتمع الراقي من جديد. بعد زواجها هذا صاروا يقولون عنها أنها «المرأة التي تبعث الميت حياً» ويقصدون أنها ذات أنوثة وجاذبية قادرين على إحياء الموتى، والسبب أن إبراهيم مرتلك هذا كان يكبرها بخمسة وثلاثين عاماً، أو الأرجح بخمسة وخمسين عاماً. أي أنها كانت بعمر حفيداته. ومع ذلك بعثت فيه الحيوية والنشاط، أعادت إليه شبابه. أتسألني كيف فعلت ذلك؟ هذا مالا يمكنني معرفته. إنه شأنها هي. وقيل أنها كانت تعد له شراباً خاصاً ذا فعالية قوية يعيد الرجل عشرة أعوام إلى الوراء. ثم أنها كانت تعطّر غرفتها وتعطّر نفسها بعطر شديد الإثارة يعيد الرجل عشر سنوات أخرى إلى الوراء. وليس هذا كل شيء.. بل كانت تضيء غرفتها بنظام إضاءة خاص، بألوان وظلال تعيد الرجل أيضاً عشرة سنين إلى الوراء... يضاف إلى كل ذلك لون وشكل الأثاث، الألوان الخاصة بملابسها الداخلية، والموسيقا الخفية من نوعٍ خاص جداً التي تصغّر الرجل عشرة أعوامٍ أخرى.. نعم كانت امرأة قديرة.. كانت تصغّر الرجل أربعين عاماً بكل تلك الطرق.

فإذا دخل رجل في الثمانين من عمره غرفة نومها، سيشعر نفسه بحيوية شاب في الثلاثين. لحسن حظ إبراهيم مرتلك أنه كان يغشى سريرها وهو عجوز. ماذا لو أنه كان في الأربعين من عمره؟ لكانت بتوش ظلت تصغره وتعيده إلى الوراء حتى يتلاشى وينعدم.

لأحكِ لك الآن عن إبراهيم مرتلك.

ألم أقل لك يا سيدي أن المجتمع الراقي عندنا، راق فقط بالاسم؟ وعندي عدد كبير من الأصدقاء في مجتمعات باريس، ولذلك شددت الرحال إلى هناك عندما مللت أجواء المجتمع الاستانبولي. عندما عدتُ لم تكن حدثت أية تغييرات في حياة بتوش. أما إبراهيم مرتلك فقد وجدته أكثر شباباً من ذي قبل وأكثر أناقة.

Twitter: @ketab_n

كنا ذات مساء في نادي القمة حيث تقام حفلة راقصة أو ما إلى ذلك. كنت في قاعة الألعاب المزدحمة وكان حظي مواتياً فربحت أموالاً طائلة. في وقت متأخر جداً من الليل حدثت جلبة كبيرة، فغادرنا طاولة القمار وهرعنا إلى مصدر الصوت. كان الجميع يتراكضون إلى الطابق العلوي حيث مصدر الجلبة. صعدنا الدرجات واسم بتوش يتردد على ألسنة الجميع. كان الطابق العلوي مخصصاً لغرف نوم المصطافين. باب أحد تلك الغرف كان مفتوحاً على آخره. صدم الناس لما رأوه داخل الغرفة. كان ثمة رجل يدعى «بكير الفحل» كان هو وبتوش داخل الغرفة عاريين كما ولدتهما أمهما... بدا على بكير الحياء الشديد وهو يتراكض داخل الغرفة باحثاً عما يستر به عريه. أما بتوش فكانت واقفة أمامنا بلا اكتراث كتمثال من تماثيل اليونان القديمة. فجأة سمعنا صرخة كبيرة، وقع على الأرض رجل تبينا أنه إبراهيم مرتلك. زوج بتوش. كان يتمتم بكلام غير مفهوم، استطعنا سماعه وهو يقول: «بيتي... شرفي... سعادتي.. سعادتي الزوجية...» وكلمات مفككة أخرى مثل هذه. أما بكير الفحل فقد استطاع أخيراً أن يلتقط قميص نوم بتوش من الأرض، لكنه من شدة ارتباكه راح يلبسه بالمقلوب ظاناً أنه بنطلون. أدخل ساقيه من حيث تدخل الذراعان. كان قميص النوم الحرير الوردي اللون يظهر عري بكير أكثر مما لو كان عارياً. ترك الرجل حياءه جانباً والتفت إلى المجتمعين عند باب الغرفة وصرخ بهم:

- ما الذي تنظرون إليه؟ هل يرقصون لكم السعادين؟

انفجر المجتمعون يضحكون بصخب، فنظر بكير إلى نفسه وأدرك سبب ضحكهم. عندئذٍ لف القميص على وسطه مثل منشفة الحمام. أما بتوش التي كانت لا تزال جامدة بكل عريها أمامنا فقد بدأت فجأة ترقص! تماماً مثلما كانت تفعل أيام زمان في الشوارع! عندئذ حدث مشهد دراماتيكي للغاية: إذ رأى إبراهيم مرتلك زوجته ترقص حيث يجب أن تبكي حياءً، التفت إلى الموجودين وقال لهم بصوت متهدج: لم تنظرون هكذا؟ بدلاً من

Twitter: @ketab_n

أن تمدوا يد المساعدة.. كما ترون، فإن زوجتي المسكينة تمر بأزمة عصبية حادة، ولا تعي ماذا تفعل. أرجوكم اطلبوا لها طبيباً!

ثم التفت إلى زوجته وراح يتوسل إليها:

- أواه يا صغيرتي.. أواه ياحياتي يا بتوش. في الأول لم أدرك أنك تمرين بأزمة عصبية فأوشكت أظن بحقك سيئات الظنون... اغفري لي يا حبيبتي...

جاء الطبيب فانسحبنا من هناك. ظننت فعلاً أنها تمر بأزمة عصبية جعلتها تتعرى في تلك الغرفة مع بكير الفحل وهي غير مدركة لما تفعل. عندما قلت ذلك لأصدقائي وأبديت أسفي، قالوا لي:

- أية أزمة يا؟... لقد حدث هذا مرات عديدة...

ثم تبين لي أنهم سبق ورؤوها عارية كما هي الآن، مع رجال آخرين في غرف نوم. وكلما ضبطوها في مثل تلك المواقف كانت تتظاهر بالجنون وفي إحدى المرات تظاهرت بالإغماء.

والحق أن حوادث مشابهة لهذه قد جرت أيضاً. أتسألني عن إبراهيم مرتلك؟ لا أعرف عنه شيئاً. بعد تلك الحادثة لم يترددا على النادي. مضى زمن طويل لم أرهما فيه. أظن أن بتوش ظلت تصغر سنه عشر سنوات ـ عشر سنوات.. حتى أنهته عن آخره...

كانت امرأة غريبة... لم أعد أسمع عنها أي شيء...

Twitter: @ketab_n

البحث عن فتاة لتمثل دور البطولة أمام نجم سينمائي أمريكي

يشهد الله أنني شعرت بالارتياح تجاهك يا صاحبي، لكنك لا تشرب، وهذا لا يصح اشرب. بصحتك!... نعم، ماذا كنت أقول؟ ابنة روزا رضيّة.. وسبب تسميتها هكذا هو أن اسمها الأصلي كان روزا، وعندما دخلت دين الحق أصبح اسمها رضية. ومع ذلك ففي المجتمع الراقي يسمونها بالاسمين معاً. وكانت لها ابنة اسمها «دنيز» عشت معها مغامرة عاطفية، ثم قررنا الزواج، لكن أباها رفضني قائلاً لها: «إذا تزوجت ذاك الصعلوك فلن أعترف بك ابنة لي!».

فردت عليه بلا حياء: «لن تستطيع حرماني من أبوتك، لأنه من غير المؤكد أنك أبي فعلاً!» كاد هذا الرد يردي الرجل بالسكتة القلبية. أترى كم هي غبية؟ لأنه لو حرمها فعلاً من حقوق البنوّة فبإمكاننا فقط الذهاب إلى البلاج عاريين... هيا اشرب معي يا بطل.. لا تعتقد أنني سكران. أنا لا أفكر بصفاء إلا عندما أشرب.. على كيفك.. كما تشاء... ما الذي ينفعني في دنيز لولا أموال أبيها؟ ولكن من غير المعقول أن أقول لها ذلك. أضجعتها في حضني وبدأت أوضح لها الأمور بهدوء ورقة. قلت لها أن أباها قد بذل جهوداً مضنية، وبمساعدة أمها روزا أيضاً، حتى تمكنا من إنجابها بعد سبعة عشر عاماً من زواجهما. ولأنه شقى كثيراً من أجلها فهو يحبها جداً.

– ولذلك، قلت لها، عليك أن تحصلي على رضى أبيكِ.

Twitter: @ketab_n

- أبي لن يعطيني «رضاه»، مهما فعلت! حتى لو فعل أبي فإن أمي لن تتخلى عنه أبداً، لأنها لن تجد سائقاً أفضل من رضا.

كانت دنيز تتقن الإنكليزية جيداً، لكن تركيتّها ضعيفة، لذلك لم تستطع التمييز بين رضى ورضا السائق، فشرحتُ لها:

- خذي بخاطر أبيك حتى يوافق على زواجنا.

لكن كل جهودنا ذهبت أدراج الرياح. كان أبوها عنيداً في رفضه. ذهبتُ إلى بتوش الحلوة التي رَبت كل صبايا المجتمع الراقي وثقّفتهم

- أرجوكِ يا أبلة بتوش، اسدي لي نصحاً.

- إن الطريقة المجدية في حالتك هي الانتحار. هدده بذلك وعندها سيوافق على تزويجها منك.

نفذتُ نصيحتها. أرسلتُ له رسالة أقول فيها: «إن لم تزوّجني ابنتك، فسوف أنتحر!». عندما وصلته رسالتي قال لابنته:

- أرجوك يا ابنتي لا تتزوجيه. فلينتحر، ليتخلّص البلد من صعلوك مثله. بدلاً من الزواج به تزوّجي من فزاعة طيور، أحسن لك.

كنت أريد أن أتزوج وأحصّل رزقي، فعاكسني أبوها. كان عمري قد تجاوز الأربعين، وإذا لم أستطعِ انتهاز هذه الفرصة، فسيقضى على مستقبلي. ذهبتُ إلى بتوش مجدداً وأخبرتها بأن اللعبة التي نصحتني بها لم تنفع، فقالت:

- أنت دائماً هكذا. تفهم الكلام بالمقلوب، لم أقل لك هدده بأنك ستنتحر أنت. قلت لك هدده بأن دنيزهي التي ستنتحر.

كانت بتوش تعرف كل ماضيهم. إن والد روزا، لم يرض هو الآخر بتزويجها من أبي دنيز، فحاول الرجل الإنتحار، فقال والد روزا: «تكاليف الدفن عليّ»، إذ ذاك هددَتْ روزا بالانتحار، فرفع أبوها رايات الاستسلام. والحال أن روزا لم تكتف بالتهديد، بل طبعت بطاقات دعوة أرسلتها لكل أقارب ومعارف الأسرة، كتبت فيها العبارة التالية:

Twitter: @ketab_n

«لأن أبي وأمي يقفان في وجه سعادتي، فلم يبق أي معنى للحياة في نظري. قررتُ الرحيل من هذا العالم الذي لا طعم له يوم (كذا) الساعة الرابعة بعد الظهر. أرجوكم أن تشرفوا مراسم إنتحاري، مع جزيل الشكر» وحتى يمنعوها من الانتحار اضطر أهلها إلى عقد خطوبتها ممن تحب في نفس اليوم والساعة الذين حددتهما في بطاقة الدعوة. قالت لي بتوش بعد أن فرغت من حكاية قصة روزا مع أهلها:

– سوف يوافق والدها على تزويج دينيز منك، إذا هّددَتْ بالانتحار.

– إنها امرأة مدهشة حقاً. لقد حدث بالضبط ما توقعَتْهُ. قالت دنيز:

– إن لم تسمحوا لي بالزواج من الرجل الذي أحب، سوف أنتحر.

وللتو قال أبوها:

– قولي هكذا من الأول.. الحمد لله أن تقليدنا العائلي مستمر. أنا متمسك جداً بالتقاليد العائلية...

بدأنا استعداداتنا للعرس. حتى بطاقات الدعوة طبعناها. لكن دنيز عاندت:

– لِمَ العجلة؟ لننتظر أسبوعين ـ ثلاثة..

ذهبتُ إلى بتوش وأخبرتها بواقع الحال متشكياً. ضحكت وقالت لي:

– يالك من ساذج. ألم تفهم لماذا تطلب خطيبتك تأجيل العرس؟ الملك قادم إلى استانبول خلال أسبوعين.. ولذلك تريد التأجيل..

– وما شأننا بملوك العالم؟

أليس كذلك يا صاحبي؟

أوضحت لي بتوش أن كل بنات المجتمع الراقي يتهيّأن لاستقبال الملك العربي منذ شهر أو أكثر. وبما أن الملك أعزب، فقد كن يأملن أن يختار إحداهن للزواج. لم أكن وحدي في مصيبتي. فكل زيجات تلك الفترة تأجلت بسبب الزيارة المرتقبة للملك.. وياله من ملك عديم الحياء والضمير.. فهل هو بحاجة للمال والجاه حتى يحرمنا من فتياتنا؟.. إنه لا يخجل من حرماننا من مصادر رزقنا، ذاك الخربو!

Twitter: @ketab_n

عندما سمعتني بتوش أمطر الملوك بشتائمي، شرحت لي حقيقة الأمر. فالرغبة بتزويجه إحدى فتياتنا لم تكن للأسباب التي جالت بذهني، بل لأسباب سياسية. فالحكومة كانت تحض بهذا الاتجاه سراً، وكانت ـ لذلك ـ تدعو الملك إلى تركيا كثيراً، تقيم الحفلات الراقصة وتريه أجمل بنات الصفوة.. الشقراوات والسمراوات والبيضاوات والناحلات والمتلئات. كانوا يعرضون أمامه من كل صنف وماركة ويقولون: اختر ما يختاره قلبك!

عندما سمعت كل هذا ازداد حنقي، شربتُ حتى الثمالة، وكنتُ مستعداً لارتكاب جريمة. لحسن الحظ أن بتوش نجحت في تهدئتي قائلةً أن الأمر «واجب وطني» وأننا عندما نعطي إحدى بناتنا فليس من أجل الملك العربي، بل «إننا نعطيها للحكومة». لأن «الملك معناه الحكومة..» وشرحت لي الوضع الاقتصادي المتهافت لبلادنا، وقالت «أننا في وضع كهذا أحوج من أي وقتٍ مضى لأمتن وحدة وطنية وقومية» وأنه عليّ «أن أفكر بالبلد ومصلحة البلد وأن أضحي بالغالي والرخيص من أجله..».

كان من الواضح أنها تسخر مني، إلا أنني، على كل حال فهمتُ الموقف. فمثلما أرغب أنا بالزواج من الفتاة طامعاً بمالها، كذلك كان أهالي الفتيات يرغبون بتزويجهن من الملك طمعاً بالمال والجاه. هدفنا إذن واحد.

في صحتك! أتقول أنني أشرب بإفراط؟.. لا، أنت مخطئ.. فقد بدأتُ للتو.. نعم، ماذا كنتُ أقول؟ أخيراً جاء جلالة الملك. أقاموا له حفل استقبال من الصعب عليّ وصفه لك. كان الازدحام على أشده، امتلأت قاعة الفندق الفسيحة بالبنات من كل الأشكال والألوان، صار حقلاً من العرائس. كل أمهات البنات في المجتمع الراقي، زيّنَّ بناتهن وهندمنهن على أجمل صورة واصطحبنهن إلى حضرة الملك. الأمهات تأكلن الملك بنظراتهن، إحدى الفتيات صافحت الملك وكلّمتْهُ كلمتين، فاعتبروها خطيبة الملك وكتبت عنها الجرائد طوال أيام. فتاة أخرى راقصت الملك، فبدأ أهلها يهيّؤونها ويجهزونها للزواج منه.. الحمد لله، أخيراً رحل الملك إلى بلاده وترك بناتنا لنا.

Twitter: @ketab_n

من جديد بدأنا نستعد للعرس. وعندما أصبح كل شيء على ما يرام عادت دنيز إلى المماطلة مجدداً وراحت تطالب بالتأجيل شهراً آخر!

- لماذا؟، سألتُها.

- هكذا،

لا تقول غير «هكذا» وتضحك..

كدتُ أجن من غيظي، ذهبتُ إلى مستشارتي بتوش لأسألها إن كان ثمة ملك آخر قادم إلى استانبول، فقالت لي ضاحكة:

- أنت منقطع عن العالم يا عيني! هذه المرة القادم هو الابن الأوسط لملك الفنادق في أمريكا. ألا تقرأ الصحف؟

هكذا تعقّدت أموري. يأتي ملك فيتم تأجيل الزواج، ثم يأتي مليونير فيتم تأجيل الزواج ثانيةً وهكذا.. صحيح أنهم يرحلون عزّاباً كما جاؤوا، وأن البنات يبتلعْن ريقهنّ بحسرة، إلا أن الزواج يتأجل ويتأجل... لو أن أوضاعي جيدة لما اكترثت للأمر قط، لكنني لا أحتمل الانتظار أكثر. وضعي لا يسمح بذلك. ألم أقل لك أن عمري كان قد تجاوز الأربعين؟.. بعد رحيل ابن ملك الفنادق الأمريكي قلت لدنيز..

- إما أن نتزوج بسرعة أو لننه هذا الأمر، والزواج قسمة ونصيب.

وافقَتْ دينيز وأتممنا كل استعدادنا. كنا على وشك إقامة العرس عندما عادت تتهرب مجدداً وتطالب بالتروي والصبر! إما أنه ملك آخر أو مليونير آخر. وعرسنا يتأجل ويتأخر.. لم نجد أية فسحةٍ نستغلها بين زيارتين من زيارات الملوك والأثرياء.. بقيتُ منتصباً لا حول لي ولا قوة كأعمدة القصر الغريق.. في تلك الفترة أدمنتُ الشرب.. أتفهمني؟ بصحتك!.. لا تؤاخذني..

بهذه التأجيلات المتلاحقة مر عام كامل. ذهبتُ إلى روزا رضية وقلتُ لها:

- هلكتُ وأنا أنتظر الزفاف. أرجوكِ زوّجيني وإلا متُّ.

- إن ابنتي ما تزال صغيرة السن، يمكن لها أن تنتظر بعد!

Twitter: @ketab_n

أترى إلى هذا المنطق! هي ليست صغيرة على الزواج من الملوك والمليونيرية، بل صغيرة عندما يتعلق الأمر بالزواج مني.. يا سلام!.. منذ أسبوعين لم تكن صغيرة. من القادم يا ترى حتى صغر سنها فجأة؟

قالت لي بتوش أن القادم هذه المرة لا هو بملك ولا بمليونير، أو الأحرى أنه ملك ومليونير في الوقت نفسه. قالت أنه من ملوك السينما وأنه نجم سينمائي شهرته على مدار العالم، واسمه.. أوه، إنه على رأس لساني.. نعم.. نعم. اسمه شون كونري.

هذا القادم أخطر ممن سبقه بكثير، لأنهم كانوا يجهزون للملوك والأثرياء، البنات اللواتي في عمر الزواج، أما لهذا النجم السينمائي فقد تهيأت لا البنات فحسب، بل أمهاتهن أيضاً.. باختصار كل نساء المجتمع الراقي ترقبن حضوره. وليس من أجل الزواج، بل.. من أجل ذاك الأمر.. وخصوصاً روزا رضية.. لو أنك رأيتها وهي تهيّئ نفسها لاستقباله! واي واي واي! سبب كل ذلك الاهتمام والترقب أن شون كونري، ملك السينما كان قد صرح أنه سيصور فيلماً في تركيا وأنه يبحث عن ثلاث نساء من مختلف الأعمار ليمثلن معه في الفيلم. وكان يريد وجوهاً جديدةً من خارج الوسط السينمائي. كان يريد اختيار ثلاث نساء من غير ذوات الخبرة الفنية، ليلائمن الشخصيات التي يريد تجسيدها. كانت صحفنا قد كتبت عن كل ذلك طوال شهر. وهذا ما أثار اهتمام كل البنات والنساء. حتى من مجتمعات أنقرة وإزمير كانت النساء الجميلات يتقاطرن نحو استانبول من أجل تلك المناسبة. لحسن الحظ أنه لدينا فقط ثلاث مدن كبيرة. باقي مدننا لم تتطور بعد. وليس فيها مجتمعات راقية بعد...

وما معنى أن تمثل امرأة أمام شون كونري؟ معناه أنها ستحظى بشهرة عالمية فوراً!..

كانت روزا رضية تملك مجوهرات ثمينة جداً، على كل شفة ولسان. حتى في أوروبا كانت لمجوهراتها شهرة لا تضاهى.. عندما كانت تذهب إلى حفلة أو سهرة كانت تعلق مجوهراتٍ بكميات مذهلة إلى درجة يخيل

Twitter: @ketab_n

إليك معها أن دكان صائغ قد تحركت ومشت على قدمين. أطواق من أغلى الأحجار، أساور، أقراط، خواتم، بروشات، دبابيس، ولا أدري ماذا أيضاً..وكلما تحركت تحت الضوء كانت تلتمع وتومض. تبهر أنظار الناظرين. كل بدنها مغطى بالمجوهرات.. برلنطه، بلاتين، لؤلؤ، ذهب، ياقوت، زبرجد، زمرّد، وأشياء لا أعرف لها اسماً.. ليس هذا كل ما في الأمر.. إن روزا لا يمكن أن تعلّق نفس المجوهرات في حفلتين.. في كل حفلة ثمة مجوهرات جديدة تزيّنها.. أتسألني من أين لها كل هذا الثراء؟ من أبيها، وحتى من جدها. فقد كان جدها بائع السلطان أو شيئاً من هذا القبيل. إلا أن روزا هذه كلما تقدم بها العمر إزداد شغفها بالشبان. وفي كل حفلة كانت تجمع كل الشباب حولها. وبدأت مجوهراتها تختفي واحدةً إثر أخرى، وكل شاب يفلح في اقتلاع حجرة بحجم حبة الرز من البروش الذي على صدرها يصبح من الأغنياء. وروزا لا هي قادرة على الاستغناء عن صحبة الشبان، ولا هي قادرة على حماية مجوهراتها منهم. أخيراً اضطرت للسفر إلى جنوب إفريقيا حيث يتقن الصاغة صناعة المجوهرات المزيفة. أمّنت على مجوهراتها برسوم ضخمة جداً وأخذتها معها إلى هناك. صنع لها الصناع المهرة هناك قطعة مزيفة مقابل كل قطعة تملكها. وكانت القطع المزيفة متقنة جداً بحيث لا يمكنك تمييزها عن الأصليات أبداً.. وثمة علامات على تلك القطع المزيفة لا تفهمها سوى روزا. صارت تتزين بالقطع الأصلية عند ذهابها إلى حفلة أوسهرة، وسائقها رضا يحمل حقيبةً فيها المجوهرات الزائفة. وبعد أن تتجول في الصالون لبعض الوقت ويراها الجميع بالقطع الحقيقية، تنزوي في ركن منعزل وتستبدل بالقطع الحقيقية تلك الزائفة من نظيراتها. ويعود السائق حاملاً الحقيبة الملائ بالقطع الحقيقية. ولم يكن أحد يعرف لعبة رضية هذه. عرفتُ بالأمر عن طريق بتوش التي أخبرتني أن النساء في أوروبا يفعلن الشيء نفسه.

لنعد إلى استعدادات النساء لاستقبال شون كونري. كانت أكثرهن هياجاً روزا. أما بتوش فكانت كما لو أن الأمر لا يهمها من قريب أو بعيد..

Twitter: @ketab_n

أليس غريباً ألا تهتم امرأة بجمال بتوش بهذا الأمر؟

ذات يوم كنتُ جالساً معها في شرفة الفندق، على وجبة الشاي. سألتُها عن سبب عدم اهتمامها بقدوم شون كونري. كنتُ قد لمستُ لها مَوْجعاً بَدَتْ كمن ينتظر أن يتحرش بها أحدهم لتفضي ما بنفسها، قالت:

– إن ما ينقصنا هو الرجل الذي يأخذ بيد المرأة..

– ما هذا الكلام يا حلوتي؟ ولأي يومٍ تدخرينني إن لم يكن ليوم كهذا.. قلتُ ذلك وأمسكتُ يديها الاثنتين. سحبتهما من يديّ وهي تقول:

– اتركني أرجوك.. لم أقصد أن تمسك بيدي فعلاً.. إني أقصد الرجل المنظِّم، أي ما يسمى بمدير الأعمال. وكما أننا متخلّفون في كل شيئ، فنحن متخلفون أيضاً في هذا المجال. اسمع لأوضح لك الأمر: مثلاً، أنت ترى في السيركات وما شابه فتيات في منتهى الجمال، يذهلنك ويبهرنك. أكثر من ذلك. كم ترى من الفتيات الجميلات وراء طاولات البيع، أو سكرتيرات، أو في المكاتب وما شابه... حتى نجمات السينما لا يساوين شيئاً إذا قارنتهن بتلك الفتيات. ثمة فتيات ملاهي، ساقيات، راقصات من الدرجة الثالثة أجمل بكثير من أشهر نجمات السينما.. لماذا الأمر هكذا؟ لماذا من بين آلاف الجميلات لا تظهر إلا واحدة أو اثنتان؟ حقاً. كان صحيحاً ما تقوله، لكنني لم أفكر بهذا قبل ذلك، قلتُ لها:

– ربما تكون مسألة موهبة، فالموهوبة منهن تنجح وتصعد، أما عديمات الموهبة والحذاقة فلا ينجحنَ في البروز والصعود. الجمال لا ينفع بلا حذاقة.

كانت بتوش ذات لسان سليط قالت لي:

– روح بقى يا! قال موهبة وحذاقة قال! أية موهبة وأية حذاقة! بمَ تتميز أولئك النسوة اللواتي يسمونهن نجوماً عنا؟ أم أن بعض أماكنهن مفضض؟ أم أنهم يحطون العصافير على تلك الأمكنة؟ عندهم يا بنيّ رجال منظِّمون.. رجال! أين لنا من رجال مثلهم. إن رجلاً منظماً تعجبه فتاة بائسه بها بعض الملاحة، يمسك بيدها.. وهوووب! يجعلها نجمة! إن

Twitter: @ketab_n

سوء حظنا نحن يكمن بالضبط في افتقادنا لرجال من أمثال هؤلاء. لقد قرأتُ كتاباً عن منظّم أمريكي أذهلني ببراعته، لم يمسك بيد امرأة إلا وصنع منها نجمة فوق العادة، وكذلك ثمة منظم فرنسي كان بنفس البراعة. نجوم، نجوم.. نقول الكلمة ولا نعرف: من يصنع النجوم؟ بدون مساعدة من أحد لا تستطيع أولئك النسوة حتى أن يصبحن بائعات. قال موهبة قال! إن بناتنا جميلات وموهوبات ولكن أين الرجل الذي يستطيع إظهار جمالهن ومواهبهن؟ لقد فهمتُ كل شيء عندما قرأتُ عن ذاك المنظم الأمريكي الذي حوّل بنات شوارع إلى ملكات جمال ونجمات سينما ومليونيرات..

– طيب، كيف كان يفعل ذلك يا صغيرتي بتوش؟، سألتُها.

– إن الأمر الأساسي هو لفت أنظار العالم إلى المرأة التي يريد أن يصنع منها شيئاً. وهذا الرجل عنده ألاعيب وأفانين بهدف لفت الإنتباه، لا تخطر على بال! آآآه آه.. أين أمثال هذا الرجل عندنا؟

شعرتُ بالإهانة، لم أعد أحتمل، قلتُ لها:

– ألسنا رجالاً نحن؟

– آه.. لو أجد رجلاً مثله يستطيع مساعدتي.. قالت وتنهدت.

– مريني. أنا موجود..

احتوت يديّ بين يديها ونظرت مطولاً داخل عينيّ، وقالت:

– أحقاً تفعل معروفاً لأجلي؟

إن في بتوش هذه قوة خفية لا أستطيع وصفها، شعرتُ كما لو أن تياراً كهربائياً سرى عبر أصابعها إلى جسدي، ملأني دفءٌ غريب..

– على رأسي وعلى عيني.. بكل سرور، أنا تحت أمرك.

– ليس الأمر صعباً، قالت لي، إنها لعبة صغيرة، قرأتها في ذلك الكتاب الذي حدثتك عنه.

– كرمى لعينيك أنا مستعد أن أقوم بكل ما تريدين. قولي ما هي تلك اللعبة؟

– لن أقول لك الآن. عند وصول شون كونري ستكون موجوداً في الفندق الذي سينزل فيهْ، فقط هناك سأقول لك ما ستفعله.

Twitter: @ketab_n

- أليس من الأفضل أن تخبريني الآن؟ ماذا لو أن الأمر فوق طاقتي؟

- الأمر في منتهى السهولة وأنت قادر على إنجازه.

ما رأيك بكأس أخرى؟ عشت! في صحتك! والله ارتحتُ إليك كثيراً.. أين وصلنا بالحديث؟ نعم، نعم..

يوم وصول شون كونري طلبت مني بتوش أن أنتظر في الفندق. كنتُ أنفّذ كل ما تطلبه مني. انتظرتُ في الفندق. سمعت لاحقاً ما حدث في المطار. فقد كاد معجبو شون كونري يمزقونه إرباً بعد نزوله من الطائرة، في قاعة المطار. كان كل منهم يرغب بانتزاع شيء منه للذكرى، خلّصه رجال الشرطة منهم بصعوبة. لقد نجا الرجل في المطار، فأنّى له النجاة هنا في الفندق من المعجبات العدوانيات هواة التذكارات.

كنتُ جالساً في صالة الفندق المزدحمة عندما بدأ الناس يتراكضون باهتياج. ومن شرودي ظننتُ أنه الزلزال فقفزتُ راكضاً نحو الباب، إلا أنني لم أتمكن من اختراق الجدار البشري الذي انتصب هناك. كان الناس يسحقون بعضهم بعضاً، يتدافعون، يتساقطون، ينهضون، كأنه يوم الحشر. كانوا جميعاً يلاحقون رجلاً يهرب أمامهم، إلى أن وصل جداراً فاستند إليه بظهره غير قادر على الفرار. أما أنا فقد ظننته لص فنادق. كان كل من يصل إليه يمد يده وينتزع منه شيئاً، فظننتُ أنهم يضربونه، وقررتُ أن أساهم بقسطي مادام يستحق الضرب. وعندما تدحرج الرجل وصار قربي أسديتُ إلى فكه لكمةً من إياها.. فصاحت النساء بصوت واحد:

- الله يكسر يديك!

- لعنة الله عليك!

عندها فهمتُ أن الرجل الذي لكمتُهُ على فكه هو شون كونري الذي كنا ننتظره، أما هجوم النساء عليه فكان بهدف انتزاع تذكار من سترته أو قميصه أو ربطة عنقه وما إلى ذلك.

أووه! كان مشهداً يستحق الرؤية. لقد قامت القيامة فعلاً. ركض المسكين نحو المصعد ولكنهم سدوا عليه الطريق، فانحرف باتجاه الدرج.

Twitter: @ketab_n

ولكن سدى.. فقد قطعوا عليه الطريق إلى الدرج أيضاً. لا أدري إن كان أحدهم جعله يتعثر بقدمه، أم أن قدمه زلت وحدها، المهم أنه سقط بوجهه على سجادة الدرج، فانقض الحشد عليه وتكوّم فوقه، اختفى الرجل تحتهم، وكان الناس ينبثقون لا أدري من أين فيزداد عددهم مع كل ثانية تمر. وبين اللحظة والأخرى كنا نسمع صوت تمزّق قماش. فهمتُ أنهم يمزقون ثيابه.. كان المشهد أشبه بأفلام الكرتون. كانت كومة بشرية غير متمايزة فوق الرجل، وأحياناً ترتفع في الهواء ساق نسائية عارية أو حذاءٌ نسائيٌ وما إلى ذلك. بعد فترة خرج مخلوقٌ حي أو شبه حي من تحت كومة الأجساد تلك، لا هو إنسان ولا هو حيوان.. كان أشبه بديك رومي منتوف الريش. هكذا خرج شون كونري من تلك المعمعة عارياً بعد أن مزقوا له ثيابه خلال دقيقتين فقط. لو لم أر بعينيّ لما صدّقت. صحيح أنه كان عارياً تماماً، لكن مزقاً من القماش كانت تتدلى من هنا وهناك.. ترنّح قليلاً وهو واقف على قدميه ثم سقط ثانية. ثم انتصب واقفاً مرة أخرى، حاول ستر عورته بيديه ثم استدار وصعد الدرجات، علا تصفيق حاد لا يمكن أن تسمعه حتى في المجلس النيابي.

صعد شون كونري المسكين الدرجات وهو يئن ويتوجع. فهمتُ أنه لو حاول المقاومة لما اكتفى المهاجمون بتمزيق ملابسه، لمزقوا جلده ولحمه أيضاً وحوّلوه إلى هيكل عظمي كرجل سقط بين فكّيْ سمكة قرش.

كانت هاويات التذكارات واقفات هناك وفي أيديهن قطعة من جرابه أو منديله أو رباط حذائه أو قطعةٌ من ربطة عنقه أو ياقة قميصه.. وبعض النساء لم يستطعن الحصول على أكثر من زر من سترته أو قميصه.

أخيراً هدأ حشد النساء ثم تفرّق. نظرتُ إلى ساعتي: كانت تشير إلى الخامسة. كانت بتوش قد أخبرتني أن شون كونري سيقدم مؤتمراً صحافياً في تمام الساعة الخامسة، وطلبت مني حضوره. لكنني فكرتُ بأن حالة المسكين لن تسمح له بحضور المؤتمر الصحفي. مع ذلك ذهبتُ إلى القاعة

Twitter: @ketab_n

التي سيقام فيها. كان المكان مزدحماً بالصحفيين والمصورين ومراسلي الإذاعة والتليفزيون. ظهرت بتوش وبادرتني بالقول:

- لمَ تأخرت؟ المؤتمر الصحفي يوشك أن يبدأ.

- لا أعتقد أنه سيحضر، لأن المسكين يمكن أن يموت في أية لحظة. وإن كان في قلبك ذرّة من الرحمة أنصحك بأن تطلبي له عربة إسعاف.

- ماذا حدث؟

حكيتُ لها كل ما رأيت. فصارت بتوش تضحك. سألتُها باستياء!

- وما المضحك في الأمر؟

- يالك من ساذج يا عزيزي! لو أنك قرأت ذاك الكتاب عن المنظّم الأمريكي لفهمتَ حقيقة الأمر.

أي كتاب يا أخي؟ حتى الجرائد لا أقرؤها.. وإن فعلت أشعر بالضجر الشديد. مع ذلك كنتُ أقرأ صفحات الرياضة وصفحات الشائعات الاجتماعية. أما الآن فعيناي لا يساعدانني على قراءة شيء. فعلاً ارتحتُ إليك يا سيدي. في صحتك! فيها العافية إنشاء الله. أين وصلنا بالكلام؟ نعم، أوضحَتْ لي بتوش أن الرجل الذي تم استقباله في المطار ثم في الفندق، والذي رأيته أنا وهو يمزّق إرباً إرباً، لم يكن شون كونري بل شبيهه، دوبليره. وكانت هذه خدعة المنظّم الأمريكي. كان الدوبلير شديد الشبه بالنجم يرتدي الملابس نفسها.

كانوا يضطرون لهذه الخدعة من أجل الحفاظ عل حياة النجم ومن أجل تلبية رغبة معجباته وإرضائهن. ليس هذا كل شيئ، بل أحياناً يلجأ المنظّم إلى دس عملائه بين المعجبين والمعجبات لتحريضهم على الهجوم على النجم (الدوبلير) من أجل خلق دعاية له. وقالت لي بتوش أن دوبليرات النجمات في وضع أصعب بكثير. إن عملاء المنظّم يبدؤون الهجوم على المسكينة، يمزقون ثيابها ثم يحرّضون المعجبين على الهجوم عليها. وعندها لا أحد يستطيع إيقاف المجزرة. ففي هذه الحالة لا يكتفي المعجبون

Twitter: @ketab_n

بتمزيق كل ثيابها وتركها عارية، بل يمد البعض أياديهم ويقتطع من لحمها. والمسكينة تصرخ ولا من أحد يرحمها.

وقتها فهمتُ أن بتوش كانت على حق في كلامها عن أهمية المنظّم. إحداهنّ نجمة والأخرى لم تتعدَّ أن تكون دوبليره مسكينة! وعندما يقتضي الأمر تخاطر حتى بحياتها حتى تحصل على لقمة خبزها.

وبينما كان دوبلير شون كونري المسكين يتنتّف على أيدي معجبي النجم كان كونري الحقيقي ينتقل من المطار سراً إلى الفندق ويدخل من الباب الخلفي ليستقر في جناحه دون أن يتعرض لأية مضايقات كان على وشك الحضور إلى المؤتمر الصحفي، أما بديله المسكين فكان بلا ريب يئن ويتعالج في غرفته...

بالفعل وصل كونري إلى القاعة التي ننتظره فيها. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت الحقيقي والزائف يتشابهان بالفعل إلى حد التطابق. لم ننتظر حتى نهاية المؤتمر الصحفي، خرجتُ مع بتوش بناءً على طلبها، قالت لي:

– ستقوم بتنفيذ مهمتك أثناء السهرة.

– وما هي مهمتي؟

لم تطلعني على حقيقية مهمتي. قالت أنها ستخبرني أثناء السهرة. لم يكن من السهل حضور الوليمة التي ستقام مساءً على شرف كونري. فقط نخبة الطبقة الراقية كانت مدعوة، وقد تدبرت بتوش أمر تأمين دعوة لي معها. آه.. يالها من أيام!.. حسناً فعلتَ إذ جئتَ وسألتني. ولأنني ارتحت إليك. أحكي لك بالتفصيل. في صحتك!

لنعد إلى قصتنا: عند المساء ذهبت إلى حفلة الإستقبال التي نظموها على شرف شون كونري. كانت الصالة تعج بالنساء الجميلات، ولكن الأكثر لفتاً للإنتباه كانت روزا رضية. كانت مجوهراتها تبهر الأبصار، ويستحيل عليك ألا تنظر إليها فالمجوهرات تومض بألوانها الحمراء والصفراء

Twitter: @ketab_n

والخضراء، وكلما تحركت كانت الألوان تتغير وتتبدل. كل النساء الأخريات يظهرن منطفئات بالمقارنة معها. قالت لي بتوش:

– الآن اسمعني جيداً لأخبرك بما ستفعل. أترى دينيز؟

– لا. أين هي؟

بالفعل كان بريق روزا يطغى على كل من حولها، فلم أكن أرى سواها. دلتني على دنيز: كانت ترتدي ثوب سهرة أزرق سماوي رقيق. كان ظهرها مكشوفاً حتى العجز، حتى بداية الخط الفاصل بين الرفدين كان ظاهراً، ومن الأمام كان الصدر مكشوفاً حتى منبت الثديين. ألم تسمع بالأغنية التي تقول: «يفصل بين النهدين طريقٌ إلى الجنة»؟ كان طريق الجنة عند دينز واضحاً مكشوفاً، أما باقي جسمها فكان محشوراً بصعوبة داخل الثوب الضّيق، فبدت مثيرة أكثر مما لو كانت عارية تماماً، والطريف أنها كانت ترتدي قفازين بينما أكثر من نصف جسمها عارٍ. وكان القفازان يصلان إلى قرب كوعيها! قالت بتوش:

– أريدك أن تلاحق دنيز كظلها. وستكون عينك عليّ، ما إن أعطيك إشارة بيدي حتى تدوس على ذيل ثوبها. هذا هو كل المطلوب منك.

أفهمت يا صاحبي شيئاً من هذا؟ أنا أيضاً لم أفهم شيئاً وقتها.

– وماذا سيحدث بعد ذلك؟

– دع الباقي عليّ أنا. فقط دس على طرف ثوبها.

انشغل بالي بما سيحدث. لكنني بدأتُ بالتنفيذ. لاحقتُ دينيز كظلها.

استاءت هي من ذلك، فقالت لي تسترضيني:

– إني أعدك، ما إن يرحل شون كونري حتى نتزوج فوراً، لكن كفّ عن ملاحقتي أرجوك..

أوشكت تخدعني... لكن ما أكثر ما بذلت لي من وعود سابقاً. سيرحل هذا مثل من سبقوه ولكن سيأتي غيره. هؤلاء لا ينتهون..

فتح الباب الكبير ذو المصراعين وسط الجدار الكبير للصالون، دخل منه شون كونري. لو ترى منظر أولئك النساء وهن ينظرن إليه بوله والصمت

Twitter: @ketab_n

والذهول يطبقان عليهن وتكلم الممثل بضع كلمات، ثم شربوا الأنخاب وجميع العيون على النجم الأمريكي، وعينا هذا الأخير على روزا رضية. المسكين لا يتمكن من رؤية غيرها بسبب وميض مجوهراتها الذي بهر عينيه.. إلى درجة أن الموجودين بدؤوا يتهامسون أن كونري قد اختار روزا لتمثّل في فيلمه. استمر الطعام والشراب والرقص، وأنا وراء دينيز خطوة بخطوة، وعيني على بتوش أنتظر إشارتها وأنا جاهز للتنفيذ.

حانت لحظة رأيتُ فيها شون كونري برفقة رجل آخر يقتربان من دينيز، وبدا لي أن دينيز ظنّت أن النجم الأمريكي سيدعوها للرقص، وربما كان الأمر كذلك حقاً. اتجهت دنيز بدورها نحوه. وإذا كان كونري سيراقص إحدى الفتيات معنى ذلك أنه سيشركها في فيلمه. بدا الانتشاء على دينيز. في تلك اللحظة أعطتني بتوش الإشارة المتفق عليها، ودون أدنى تردد أو تأخير دستُ على ذيل ثوبها الفاخر، فحدث ما لم يتوقعه أحد! لو أن أحداً حكى لي ماحدث في تلك اللحظة لما صدقتُ. كان الأمر أشبه بدخولك غرفة مظلمة وإدارتك زر النور. كيف تضاء الغرفة المظلمة بشكل مفاجئ؟ هكذا كان الأمر. فمع دوسي على طرف ثوبها هبط ذاك الثوب عنها دفعة واحدة وكأنني ضغطت على زر كهربائي! والأنكى من ذلك أن دينيز لم تكن ترتدي أي شيء تحت ذاك الثوب السماوي. فبقيت منتصبة بعريها الكامل وفي قدميها حذاؤها الصغير الذي تكوم فوقه الثوب.

لو ترك الأمر لنا نحن الرجال الأتراك لما عرفنا كيف نتصرف، لكن الرجل الأميركي مختلف. فشون كونري. عندما رأى دينيز في إحدى قيافات أمنا حواء أيام عذريتها، خلع سترته بسرعة، وضعها فوق كتفي دينيز، أمسك بها وأدخلها من الباب الذي دخل منه في أول السهرة. اختفيا وراء ذاك الباب، وظللنا مبهوتين مشدوهين لفترة. كانت بتوش أول من كسر الصمت. قالت بصوت مرتفع:

– لقد اختار شون كونري فتاته.

Twitter: @ketab_n

على إثر هذا الكلام سمعنا صرخة نسائية. كانت هذه روزا رضية التي أغمي عليها وتهالكت على الأرض.

أية ألاعيب تدار في هذا المجتمع الراقي!... لقد نكأت جراحي القديمة أيها الشاب.. اشرب أرجوك... اشرب! إنني أحكي لك كل هذا لأنني أحببتك لو أنك جئتني في وقت آخر ومزاج آخر لما تفوهت بكلمة حتى لو أعطيتني الملايين.

نعم، لنعد إلى ما كنا بصدده: أغمي على روزا رضية وتمددت على الأرض. عرفت لاحقاً حقيقة الأمر. فبتوش هي التي ألبست دينيز ذاك الثوب الفاضح، وهي التي صممته بطريقة تجعله يسقط دفعة واحدة عندما يطأ أحدهم على ذيله. وقد قرأت بتوش على دينيز فصولاً من كتاب المنظم الأمريكي حيث يشرح طرق لفت الانتباه التي يجب أن تتبعها الفتاة إذا أرادت أن تصبح نجمة. وكانت إحدى تلك الطرق هي الظهور بالعري الكامل.. وقد وافقت دينيز على ذلك.

ولكن أي غبي أنا؟ أيصح للرجل أن يعري الفتاة التي سيتزوج منها كما يُعرى لب الخس أمام الغرباء؟ هذا هو الكم الذي أطعمتني إياه بتوش! ومشت علي.

أما إغماء روزا رضية فكان سببه الغيرة. فهي تغار من ابنتها على النجم الأمريكي! أسمعت بشيء كهذا؟ لقد شعرت بالغيرة والحسد، لأن ابنتها تفوقت عليها بتلك اللعبة الرخيصة، في حين أنها ظلت تستعد بكل إمكانياتها طوال أكثر من شهر. إذن فقد ضاعت عليها فرصة التمثيل في الفيلم ثم عرفت أن ثمة حقائق أخرى خبيثة بعد. إن روزا رضية هذه كانت قد لعبت لعبة على بتوش في وقت مضى، فنامت عليها بتوش فترة طويلة وهي تخطط للإنتقام منها، وفعلت. كان انتقامها مؤلماً، لقد بذرت العداء بين الأم وابنتها. وليس هذا كل شيء: فالخبر الذي قال أن شون كونري قادم لاستانبول لاختيار ثلاثة نسوة ليمثلن أمامه، كان من اختلاقها المحض!

Twitter: @ketab_n

سألتها متألماً:

– ولكن لم فعلت هذا بي يابتوش؟ ألك معي ثأراً؟

– بالعكس. أنا عملت لك معروفاً. ففي كل الأحوال لن تتزوج دينيز منك، وما فعلته سيجعلك تيأس منها، وتبحث عن باب رزق آخر. كان كلامها صحيحاً.. لقد مضت تلك الأيام...

نعم كانت بتوش قد حذرتني من زمان: «إن المجتمع الراقي يلفظ أمثالك كما تلفظ نواة ثمرة» وقد حدث بالضبط ما قالته. بعد تلك الأحداث لم أر بتوش، فقط سمعت أنها تزوجت من ثري عجوز.

أنا؟... لقد جعلتني أعيش تلك الأيام والأحداث مجدداً.. لنشرب أيها الشاب.. كما تشاء.. يالها من أيام! يالها من أيام! طيب.. إذنك معك.. على رأسي.. سانتظر منك زيارة أخرى لنشرب معاً.. مع السلامة... مع السلامة.

Twitter: @ketab_n

أم القطط

لا تؤاخذني يا أخ.. فقد ظننتك من الشرطة. هل تفهمني؟ لأنك كل مساء تأتي إلى هنا، هل فهمت؟ قلت لنفسي أنه من المباحث حتماً. هل فهمت؟ يعني لا تؤاخذني.. لو أنك من شرطة الآداب، هل فهمت، لما جئت إلى هنا كل مساء. لأن شرطة الآداب تقوم بمداهمات مفاجئة، هل فهمت؟ إنها تبحث عن الفتيات تحت السن القانوني أو الفنانات بلا رخصة وما إلى ذلك...

إذا وجدوا فتيات صغيرات فإنهم يغلقون المحل، وإذا وجدوا فنانات بلا رخصة يأخذونهن إلى مستشفى الأمراض الزهرية لإجراء الفحوصات. أنا لا أشغّل عندي بنات أصغر من 18 سنة، ولِمَ أوّجع رأسي؟ إن اضطررتُ إلى تشغيل واحدة فعندي المحكمة مع شاهدَيْ زور لتغيير عمرها.. طبعاً لايتم هذا مجاناً، بل ندفع مقابل ذلك.

ثم إنك ياأخي لا تلتفت إلى البنات أيضاً.. لم أرك مرة واحدة تلاحق إحدى البنات، ولا أنت تصطحب بنات من خارج المحل.. لذلك قلتُ لنفسي أنك لابد أن تكون من المباحث. أنا لا أخالف القانون أبداً ياأخي، هل فهمت؟.. ومالي ولمخالفة القانون ووجع الرأس.. أليس كذلك؟ إن كل البنات عندي لديهن رخصة ودفتر الكشف الطبي الشهري.. هناك ملاهٍ وخمارات يلملمون فيها البنات من الشوارع.. أما أنا فلا.. لا تنخدع بمنظر محلي.. صحيح أنه صغير ولا يملأ العين، وأنه في زقاق جانبي.. ولكن الحمد لله، فشغلي عال العال.

Twitter: @ketab_n

أعتقد أنني أعرف المرأة التي تبحث عنها يا أخـي، أنـت تبحـث عـن العرجاء أم القطط. إنها هي. يسمونها هنا العجوز العرجاء. وأنا أشفق عليها كثيراً. غريبةٌ ومسكينة، أفهمت؟ لكنني لا أسمح لها بـالدخول إلى محلـي. لا أتركها تجتاز عتبته. لماذا؟ لأنها قذرة، قذرة جداً يا أخي. لا تؤاخذنـي ولكن النظر في وجهها مقرف.. ومهما يكـن فـإن محلنـا هـذا محـل محـترم وراق. لا تنخـدع بأنـه قبـو في زقـاق جـانبي.. بناتنـا نظيفـات وزبائننـا محترمون، ومرموقون. لذلك لا أسمح لأم القطط بـالدخول. يلقبونهـا كذلـك لأنها تحب القطط كثيراً. ومع ذلك فأنا أتعاطف معها. تأتي إلى هذا الزقـاق كل مساء وهي تحجل في مشيتها، تقـع وتنهـض، تتدحـرج.. وهـي دائمـاً ثملة.. إنها غير محتملة إطلاقاً.. تشرب الكحول الأزرق، هـل فهمـت؟ لـو تشعل عود ثقاب قرب فمها فإنها ستشتعل. إنهـا منتهيـة، أفهمـت؟ كـل رجال الشرطة في المنطقة يعرفونها، ولا أحد منهم يضايقها.. هي غريبـة لا أحد لها.. لكنها تشتم كثـيراً.. وليسـت شـتائمها مـن النـوع المعتـاد الـذي تعرفه. إن لها لسـاناً سليطاً جـداً وقـذراً جـداً لا توفـر أحـداً بلسـانها، لا تؤاخذني.. لكنها لا تشـتم مجانـاً، بـل مقـابل نقـود. لكـل مصـدر رزقـه، ومصدر رزقها الشتم. يعطونها بضعة ليرات ويطلبون منها أنً تشتم فلانـاً أو علاناً، فتفعل وبمهارة لا نظير لها. شتائم لم يسمع بمثيل لها أحد.. شتائم يحمرّ لها الوجه خجلاً..

اللعينة تخترع وتبتكر من تحت أظافرها. وحقيقة الأمـر أن كـل النـاس يستاؤون من أحدهم أو من شيء ما أو من أحد المناصب والمقامـات الرفيعـة. لكنهم لا يجرؤون على الشتم علناً خوفاً من عواقب ذلـك. فيـأتي هـؤلاء إلى العجوز العرجاء ويدفعون لها كي تشتم بالوكالة عنهم ويدفعـون لهـا مقـابل ذلك. كل جهد وله مقابل مادي يا أخي. مـا إن يحـل المسـاء حتـى يـأتي هؤلاء للبحث عن أم القطط. يدفعون لها ويطلبون منها شتم هذا أو ذاك مـن أصحاب المناصب أو ما إلى ذلك.. ورجـال الشـرطة يغضـون الطـرف عنهـا. ومـاذا بإمكـانهم أن يفعلـوا معهـا؟ فهـي مجنونـة.. وهـل يمكـن مجـاراة

Twitter: @ketab_n

المجانين؟ فلا يبقى أمامهم من مفر سوى التظاهر بعدم سماع شيء. وهكذا يفعل صاحبنا الشرطي كاظم. ما إن يسمعها تشتم حتى يبتعد وكأنه لم يسمع شيئاً. إنه طيب القلب. وكل رجال الشرطة يبتعدون عندما يسمعونها تشتم. لكنهم يختبؤون في مكان قريب ويضحكون سراً. فهي لا تشتم فقط الناس الأفراد، بل تشتم أيضاً المقامات والمستويات الرفيعة.. شتائم سياسية يعني.. أتفهم؟ وقد قبضوا عليها عدداً من المرات ألقوا بها في السجن، ثم نقلوها إلى مشفى المجانين. لكنها مجنونة غير خطرة.. ولذلك كانوا يفرجون عنها في كل مرة.. ثم يئسوا منها. لأنهم لو ألقوا بجميع المجانين غير الخطرين في البلد إلى مشفى المجانين، لكان يلزمنا أن نكتب على مدخل تركيا: «مشفى مجانين!». ولذلك يئس رجال الشرطة منها. فهي تدخل اليوم ويفرج عنها بعد يومين.. اعتاد الجميع عليها وطنّشوا. ربما كان رجال الشرطة أنفسهم يسرّهم سماع شتائمها.. ومن لا يسره؟ من الممتع جداً يا أخي أن تصغي إليها وهي تشتم وتبدع في الشتم. أتكون أنت الآخر تبحث عنها لنفس الغرض؟ على كل حال اقترب موعد مجيئها. الأصح أنها تأخرت هذا المساء. أعطها نقوداً لتشتم عنك ما تشاء ومن تشاء بأعلى صوتها.. صحيح أنها مجنونة، ولكن عندما يتعلق الأمر بحساب النقود فهي أذكى منك ومني. ولها تسعيرة خاصة بها. ووفقاً لمقام من تريد شتمه فإنها تأخذ أجرها. شتم هذا مقابل هذا المبلغ، وشتم ذاك يكلفك المبلغ الفلاني. لنقل أن أحدهم جاء إليها وطلب منها شتم شخص رفيع المقام وأعطاها مبلغاً صغيراً. فهي ستقول له: «هذا لا يكفي. إن لهذا الرجل اعتباراً وشأناً..» أو «هاتِ عشر ليرات أخرى!» وهي تطالب بحقها.. أفهمت؟ ليس هذا كل شيء يا أخي. فالشتائم المبتكرة لها ثمن مرتفع. كلما ابتكرت شتيمة جديدة، رفعت التسعيرة. وهي تطيل وتسترسل وفق الطلب.

عندما تبدأ الشتم يجتمع الناس لسماعها، يشتد الزحام تدريجياً... أما ما تكسبه فتصرفه على المشروب. النبيذ والكحول الأزرق. لكنها حتى لو

Twitter: @ketab_n

استحمت في الكحول الأزرق فإن نقودها لن تنتهي. لكنها تبعزق نقودها هنا وهناك. تعطي هذا وذاك وخصوصاً الأولاد المتشردين... وهي تحب القطط والكلاب جداً، وتطعمهم على حسابها: كل القطط والكلاب في المنطقة يعرفونها جيداً، لا تؤاخذني على هذا القول يا أخي.. كل كلاب وقطط استانبول يعرفونها ويلاحقونها أينما ذهبت. يلاحقونها بالقطعان. وهي تتجول في أزقة استانبول طوال النهار لتطعمهم، ثم تأتي إلى هذه الأزقة الجانبية عند المساء، تتجول أمام الخمارات والملاهي لتكسب رزقها.

وسبب عرجها أن أحد طرفيها مشلول بالكامل.. المسكينة.. إنها تمشي وهي تجرجر نصفها... هل فهمت؟ لم تكن قديماً بكل هذا السوء... إنها تزداد تردياً مع الزمن، يقولون أن بها مرضاً نادراً جداً لا يصيب إلا حالة من بين مليون... إن شللها ينتشر تدريجياً. سوف يصيبها الشلل الكامل ذات يوم. قديماً كانت تعرج عرجاً خفيفاً، أما الآن فإن نصفها الأول الحي يجرجر نصفها الآخر المشلول. أصبحت حمالة نفسها، إن النصف المشلول عندها أكبر من النصف الحي. أحد ذراعيها وعنقها وإحدى ساقيها... ورغم الشتاء القاسي والمطر والبرد فهي تنام في الشارع وسط الوحل والقذارة... فماذا يفعل رجال الشرطة مع مسكينة مثلها.

إذن فأنت تبحث عنها؟ حكمتك يارب. وكيف لم تصادفها وأنت تتردد على هذه المنطقة منذ فترة طويلة؟.. أمر محير والله.. انتظر قليلاً وسوف تأتي... سوف تسمع صوتها قبل أن تراها... ستسمعها وهي تسب أمهاتهم وزوجاتهم.. أجدادهم وسلالاتهم... لا تؤاخذني...

يقولون أنها كانت امرأة جميلة أيام زمان.. هناك من يعرفها جيداً. حتى أنهم يقولون أنها كانت تعمل في بيت دعارة، فكان الرجال يشكلون طابوراً أمام البيت من أجلها، أنا أخبرك بما سمعت على ذمتهم. هذه هي نهاية هكذا نساء... أفهمت؟

إذن فأنت مضطر للقائها من كل بد؟ وماذا ستفعل بها؟ لا تؤاخذني يا أخي.. هل ستطلب منها أن تشتم لك أحداً؟ أم أنها سرقت شيئاً يخصك؟

Twitter: @ketab_n

لكنها لا تسرق... لو فعلت كنا سمعنا سوابق عنها..هنا لا يمكن إخفاء شيء... هكذا إذن؟ قريبتك؟ غريب أن أسمع هذا ولكنه أمر يسرني أيضاً. هذا حسن. أنت شاب ذو ضمير حي. وفقك الله وسدد خطاك ما دامت قريبتك، خذها وأنقذها من هذه الشوارع. هل فهمت؟ وربما تستطيع وضعها في مستشفى لمعالجتها.. أو ربما في دار العجزة سيكون لك ثواب كبير عند الله...

نعم. لم يكذب عليك من دلك إلى هنا. فهي تأتي كل مساء كما قلت لك، وكل الراقصات والساقيات وفتيات الليل تحببنها وتعطينها النقود وتطلبن منها أن تشتم وكثيراً ما تشتم من أجلهن بلا مقابل، لوجه الله.

لقد انشغل بالي عليها، لأنها تأخرت كثيراً الليلة، أيكون حدث للمسكينة مكروه؟ يا إلهي على كل حال سيكون حسناً بالنسبة لها، ستنجو مما هي فيه، أفهمت؟ ولكن هل جاءت مساء البارحة؟ إني لا أتذكر ذلك... لا مأوى لها المسكينة.. هيه يابنات.. هل جاءت العجوز العرجاء مساء البارحة؟ ماذا تقولين؟ مضى عليها أكثر من عشرة أيام وهي لا تظهر هنا؟ ياالله.. أسمعت ياأخي... لها أكثر من عشرة أيام وهي مختفية عن الأنظار... وأنا لم ألاحظ ذلك وجعلتك تنتظرها. وما أدراني يا أخي... كانت تأتي كل مساء.. وكنت كثيراً ما أعطيها ثمن الكحول لتبتعد عن المحل. ولِمَ يا أخي... فقد يأتيني وجع الرأس من ورائها.. كلنا نشتم ولكن في قلوبنا... ماذا قال الأجداد: العبادة سراً والإثم سراً... أنا لا أحب الاستعراض، أفهمت؟ أشتم ولكن في قلبي فقط.

إذن أنت تريد أن تراها من كل بد. دعني أسأل عنها البنات. لربما عرفت إحداهن الطريق إليها. لأسأل آيتن فهي أكثر من تتعامل معها وتدفع لها من أجل الشتائم، يا آيتن.. أنت يا آيتن هنا... أين أنت ؟ هل دخلت إلى المكان الذي خرجت منه؟ ها قد جاءت.. اسمعي يا آيتن. سأسألك سؤالاً، اجلسي هنا يا ابنتي، أنت تعرفين العجوز العرجاء أم القطط، تلك

Twitter: @ketab_n

التي تدفعين لها كل ليلة كي تشتم عنك. نعم هي نفسها. هذا السيد يسأل عنها من أجل أمر هام جداً. أتعرفين مكانها؟

اسمع القحبة ماذا تقول... إذن فأنت تظنين أن هذا الشاب يأتي كل ليلة إلى هنا من أجلك أنت، هل وضعتِ عينك عليه؟ يجب أن ندله على مكان العجوز العرجاء، وبعد ذلك سوف يأتي إلينا كل ليلة، أليس كذلك يأخي؟ هو ليس مخبراً ولا من المباحث، هو يريد الخير للعجوز العرجاء.

هه! إني أفهم الآن. إن ما تقوله آيتن صحيح. هي توزع الكبدة على القطط والكلاب كل مساء عند الطريق الصاعد باتجاه القنصلية الإنكليزية. أنا أيضاً رأيتها مرةً هناك. حتماً ستجدها هناك. قلبها طيب جداً، لم يلقبوها سدى بأم القطط. آه لو تأتي الليلة سأعطيها زجاجة كحول على حسابي، وسأعطيها كل يوم بشرط ألا تصرخ وتشتم أمام باب المحل. لتفعل ذلك في مكان آخر.

نعم يا أخي، سوف تجدها عند طلعة القنصلية الإنكليزية بالتأكيد. اذهب إلى هناك غداً وانتظرها مع القطط والكلاب. وإذا جاءت إلى هنا فسوف أجعلها تنتظرك. لا تشغل بالك من هذه الناحية. الآن سأخبر جميع البنات . مادمتَ تسعى لخيرها وتريد تخليصها من التشرد ولمّها من الشوارع. هل فهمت؟ إني أقول لك كل شيء تمام.

مع السلامة يا صاحبي، تعال دائماً، أهلاً بك في أي وقت.. اعتبر المحل محلك. أنا أيضاً أحب القطط كثيراً، عندي في البيت ثلاث قطط عفارم عليها. واي يا عرجاء واي شعرتُ بارتياح نحوها منذ زمان طويل.. لم يكن ذلك سدى..

مع السلامة يا صاحبي، مع السلامة.

Twitter: @ketab_n

خبر في جريدة

«مطلوب شهادة شاهد وستدفع له مكافأة بملايين».

وفقاً لإعلان يصدر منذ مدة في الجرائد فسوف تدفع مكافأة ضخمة جداً لا يمكن تصورها حتى في الأحلام لمن يدل على مكان إمرأة يبحثون عنها منذ أكثر من عام. هذا إذا كانت حية. أو لمن يثبت أنها ميتة إذا كانت متوفاة. وهذه تفاصيل الحادثة: - على إثر وفاة ثري يسمى حسن وهو من أصل تركي، في مصر العام الماضي، تبينّ أنه قد أوصى بكل ثروته من أموال منقولة وغير منقولة - ويقدرونها بمجموعها بحوالي عشرين مليون دولار - لابنة أخيه واسمها (وردة) من قرية (بالقاج) التابعة لولاية إزمير. ووردة هذه تبنتها عائلة طبيب حكومي وهي في عمر الست سنوات. عندما غادر الطبيب تلك البلدة التابعة لإزمير انقطعت أخبارها نهائياً - بعد أربعين عاماً من ذلك ظهرت قصة الميراث الضخم فبدأ من تبقّى من أقربائها وعددهم حوالي الخمسة عشر، يبحثون عنها في كل أنحاء تركيا. ورغم البحث المتواصل والإعلانات التي نشرت في الجرائد لم يعثر لها على أثر. وبذلك بدأ الأمل بكونها على قيد الحياة يضعف ويخبو تدريجياً. فإذا ثبتت وفاتها سوف ينتقل الميراث إلى أقربائها ويقسمونه بين الخمسة عشر شخصاً. ولكن للوصول إلى حكم قضائي بهذا الخصوص يجب وضع وثيقة وفاة رسمية أمام المحكمة. والإعلان الجديد الذي نشره الورثة يَعِدْ من يشهد بوفاتها بالحصول على حصة كاملة من الميراث مثله مثل باقي المستفيدين ويعد بأنهم سيسجلون هذا الإتفاق بعقد رسمي عند الكاتب بالعدل.

Twitter: @ketab_n

«إن شئتُ أبكي، وإن شئتُ أبكي أيضاً».

تعال يا بسبس.. تعال يا روحي تعال.. من أين طلعتَ لي أنت يا؟ وهذا زبون جديد طلع لي هذا المساء.. انظروا إليه.. خذ يا روحي خذ.. هيا كُلْ.. ولاك لا تتخاطف من زملائك يا عديم الحياء.. ما أقل ذوقك يا تكير.. كل خراء . ألم أعطك حصتك ولاك؟.. لكن عينك دوماً على حصة زملائك.. يا أبو عين جوعانة.. يا ابن سلالة الخراء.. لا تقفزوا عليّ ولاك ـ أتريدون تمزيقي؟.. انتظروا سأعطيكم ما يشبعكم جميعاً.. يا «قطنة» انتظري قليلاً. لا تأكلي كثيراً حتى لا تتقيئي مثل كل مرة... غداً سآتيكِ بكبد مسلوق يا روحي. لا تخافي يا أمي لا تخافي وأنتَ أيها المسكين أيها الأجرب.. سيقتلك الجرب... سآتيك غداً بعرهم يا مسكين.. وأنت يا صرمان، لا تتعدّى على حصة غيرك.

﴿نعم.. ماذا تريد مني يا؟ ما الذي تتمتم به فوق رأسي؟ محمود؟ أيُّ محمود؟ اسحب من هنا.. أنا لا أعرف أحداً باسم محمود، لا أريد، اتركني بحالي هيا اسحب من هنا ولاك أنا لا أقارب لي. أقول لك حل عني.. أأنت مصيبة لي؟ أمك؟ وما علاقتي بأمك؟ لا تدفعني لأن أسب أمك وامرأتك... هيا حل عن سمائي...﴾.

تعالي يا بنت تعالي يا «صرمان» ياروحي... لا تأخذي لحمة «قطنة» خذي هذا لك... مازال في الكيس الكثير... هاهي لحمتك أمامك كليها يا صغيرتي. أأنت عمياء؟... أيتها الشرهة الماكرة...

﴿حل عني ولاك! من أين جئتني أنت؟ قرية «بالقاج»؟ أية قرية هي؟ وما علاقتي؟ ما شأني بك يا؟ هيا انقلع من وجهي.. هيا امش! هيا إلى الجحيم!﴾

بس بس بس... ماذا حدث لقدمك ياروحي وياسكرتي؟

﴿أيُّ فندق تتحدث عنه؟ أأنت مجنون؟ أنا لن آتي معك إلى الفندق أو إلى مكان آخر... خذ أختك إلى الفندق يا ابن القحبة! حلّ! ليس لديّ ما

Twitter: @ketab_n

أحكيه لأحد. لقد قلتُ كل شيء في وقته. هل فهمت؟ إذا كان لديك ما تقوله قله هنا. لا. لا تقل شيئاً. فأنا لا أريد سماع شيء. انقلع! انقلع! لن أسمعك.. ألم أقل أنني لا أريد يا حماراً ابن حمير!﴾

يا بونجوق.. أنتِ يا بنت. هل أنت حبلى ثانيةً؟ ألن تريحي بطنك أبداً يا قحبة! أخطفوا منك لحمتك مرة أخرى ياروحي؟ تعالي.. خذي.. أوِ منكم أيها الشرهون! سوف أجعلكم تأكلون حتى تطقوا تخمة. ياتكير أيها السافل. ياوحش. اترك المسكينة الحبلى.. اتركها ولاك!

﴿ألا تفهم حكي؟ أنا لا أريد التحدث إلى أحد... هذا كل شيء. هيا اسحب من هنا ! أية عمة؟ عمة من؟... أنا لستُ عمة أحد... ولا أخوة لي.. لا أم لي ولا أب.. لقد خرجتُ من فتحةٍ في صخرة.. عندك مانع؟ (...) أمك! أمك ولاااك ! أية قرية بالقاج يا؟ ومن هي وردة؟ حلّ عني حل ! لا أريد أن أسمع شيئاً. وما شأني إذا كانوا أعطوها للتبني؟ ما علاقتك باسمي الحقيقي؟.. لستُ أنا.. ما شأنك أنت؟ حل عني ياابن لا أدري من... ولِمَ لا أبكي؟... سوف أبكي... ما شأنك بذلك؟ لا أحد يستطيع منعي من البكاء.. أأنتَ أخو كيفي؟ إن شئتُ أبكي، وإن شئتُ أبكي أيضاً. أبكي أيضاً وأيضاً... دعك بشؤونك، ولا تتدخل ياكافر. لاشأن لك ببكائي... أنا لا أعرف أحداً باسم بتول. نعم؟ الحلوة؟ أية خراء هي؟ بتوش الحلوة؟ إنها خراء حلو! لا أعرف! قلتُ لك لا أعرف. أية أميرة؟ وماذا تفعل الأميرات هنا؟.. طبعاً أبكي. وما شأنك؟ هل أنت مسؤول عن بكائي؟ هل سآخذ منك إذناً لأبكي؟... أنا لا أريد أية أموال. عندي مايكفيني. عندي كل شيئ... ومادخلك أنت؟ سواء كان عندي أم لا.. أنت لاتتدخل.. لاأريد أية ملايين ولاأنتظر ميراثاً من أحد. لاأريد أي شيئ أقول لك.. أأنتَ مصيبة؟! ولِمَ لا أبكي؟ سوف أبكي.. سأبكي على كيفي... سأبكي نكايةً بك...﴾

تعالي يا فضة. تعالي يا روحي. يا فضتي أنا. هل شبعتِ يا روحي؟ هل شبعت يا سكرتي؟ انظر كيف تقترب مني وتلحس يدي...

Twitter: @ketab_n

﴿أتقول أنك تبحث عن عمتك؟ لستُ أنا عمتك... أنا لستُ عمةً لأحد... لا تجعلني أسب عماتك وخالاتك وأمك وأختك... طيب إذا لم تنقلع من هنا وتحل عني فسوف أذهب أنا. نعم؟ الدمية؟ الدمية الشقراء؟ أنا لا أفهم... ول الأريد شيئاً. بالقوة؟ لا تتبعني.حل عني.. سوف أصرخ بكل قوتي. أنا لا أريد مالاً من أحد. لا حاجة بي أقول لك. إن العالم كله ملكي أيها الغبّي... كل كل العالم يا غبي! لا أريد إحساناً من أحد. دع إحسانك لنفسك... أية سيدة عملة صعبة؟ كف عن ملاحقتي ولاك ! طبعاً أبكي. لِمَ لا؟ وما شأنك؟... أنا لستُ مريضة. ولا أريد من أحد أن يعتني بي... انقلع !... انتظر.. انتظر يا.. ماذا كان اسمك؟ محمود؟ كرر لي اسم القرية مرة أخرى.. هيا أذهب من هنا بسرعة ! ... اسمع ! سأقول لك شيئاً.. هش... سأسألك شيئاً.. إذن أنت... هيا، هيا اذهب من هنا ! لا تنظر في وجهي هكذا. أترى سعادينا ترقص أمامك؟ أنت لا تتدخل. نعم أبكي أو لا أبكي. ما شأنك أنت؟ اذهب. اذهب. لا أرغب برؤيتك... اذهب يا محمود اذهب... مع السلامة...﴾

تكير، أيها الوحش ! يا مكّار يا قذر... يا سلالة الخراء... يا خراءً ابن خراء !! يا عديم الشرف... يا شره يا قذر.

﴿وما شأنك بي؟ إن شئتُ أبكي... وإن شئتُ أبكي أيضاً وأيضاً.﴾

Twitter: @ketab_n

إعلان في جريدة

بناء على الدعوى القضائية التي أقامها السيد محمود يارلي للتثبت من وفاة عمته وردة المعروفة باسم بتوش الحلوة، كون ذلك شرطاً لحصوله على حصته من ميراث قريبه المتوفى في مصر، وبناء على الدلائل التي قدمها للمحكمة والتي تؤكد أن عمته المذكورة في وضع بحكم الميت، ووفقاً للمعلومات التفصيلية المقدمة من دار العجزة ووفقاً لروايات الشهود فقد تم التأكد من صحة دعواه. وقد وافقت المحكمة على طلب المدّعي محمود يارلي باعتبار المدعوة وردة بنت حسين المعروفة بلقب بتوش الحلوة، تولد بالقاج ج/8/ص17/خانة/4/ بحكم المتوفاة وفقاً للمادة (3) من قانون الأحوال الشخصية التركي وتدوين ذلك في السجل المدني الخاص به.

توقيع كاتب المحكمة   توقيع القاضي

انتهت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نشرت هذه الرواية للمرة الأولى ١٩٥٨ على حلقات في جريدة ((الصحيفة الجديدة)) تحت عنوان ((مدام عملة صعبة)) ثم نشرت مرتين أخريين في مجلتي ((Tef)) و((Akbaba)) تحت عنوان ((للبحث عن وريثة)) أخيراً نشرت عام ١٩٧٣ في صيغتها النهائية بعد إجراء تعديلات عليها وذلك إثر الإنتهاء من نشرها في مجلة ((Baris)) تحت عنوانها الجديد ((بتوش الحلوة)).

إنها الرواية الأهم في أعمال نيسن وتعتبر إلى الآن الأكثر مبيعاً بين أعماله الأخرى لأنها تتناول جوهر الحياة والصراع في فترة كان العالم كله يبني بعد دمار هائل ونحن إذ نقوم بنشر هذه الرواية، فإننا نحاول أن نمد المتابع لأعمال نيسن بأهم أعماله، نقوم في الوقت نفسه بإغناء المكتبة العربية

نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع